نائب رئيس الجمهورية
الدكتورة نجاح العطّار

سورية على مشارف الفجر

أيُّها الإخوة والأخوات

أحييكم باسم السيد الرئيس بشار الأسد رئيس الجمهورية العربية السورية، القابض على جوهر البطولة في شعبه، والمتصدّي بوعيه الكبير، وشجاعته المبدئية، لكل ما يُدبَّر من مؤامرات عاصفة، تستهدف وطنه، وسيستمر في التصدي لها مهما تخفّى فيها الباطل بمسوح الحق.

❁ أُلقيت هذه الكلمة في حفل افتتاح المعرض الوثائقي «سورية على مشارف الفجر» الذي أُقيم في دار الأسد للثقافة والفنون بتاريخ ١٥ آذار ٢٠١٥م. برعاية كريمة من السيد الرئيس بشار حافظ الأسد رئيس الجمهورية العربية السورية.

وإذا كان المعتــدون الإرهابيــون قــد فتحوا الجبهــات كلها علينا، وبالأسلحــة المتوفرة لديهم كلّها، والتي يمدّهم بها غلاة المتآمرين، ناراً وإعلاماً، محلّياً ودولياً، بالقتل والحرق والتدمير والنهب والسلب والاغتصــاب والخطف، والاعتداء المتواصل على المدارس والجوامع والكنائس والمستشفيــات والجامعــات ومنــازل الأبريــاء والأطفال، مستندين فيما يفعلون إلى تجمّع غاشم من ركائز المؤامرة الكبرى- أمريكا وتركيا والسعودية وقطر والبلد العربي الجار الأردن وبلدان أخــرى عربيــة وأوروبية، فــإنَّ سورية، وبكل عنفوانهــا، تقف صخرة منيعة في وجه إمرار هذه المؤامرة، مهما كبر عتوّها.. وسيظلُّ صوت الشعب يدوّي فيها، وراء جيشه وقائده، بحقيقة صار العالم يعرفها: لا تراجــع أمام العــدوان، ولا أمام الخطر والإرهاب، وثقتنا بالنصر الآتــي كبيرة، والأكيد الأكيد أننا نقف صفــاً واحداً ضد الإرهابيين التكفيريــين، وإرهابهــم الهمجي المدمّر، وضــد طائفيتهم العمياء، وادّعاءاتهــا الباطلــة، وضــد التفريــط بسلامــة شعبنــا وأمنه، ولن نخون الأمانة التي في أعناقنا أبداً، ومهما كان الثمن..

وإنَّها لمرحلة حاسمة.. وإنَّها لمرحلة شاقة..

ولم نقــم هــذا المعرض التوثيقــي، في وطن عزيــز، وحدته درعه، وإخــاؤه حصنه، لنقول للناس- ما قالــه بابلو نيرودا يوماً عن الدم في شوارع تشيلي، حين دعاهم لرؤيته، بل كان هدفنا أن نكون جميعاً شهــوداً على حجم الإجــرام الراهن، ننحني أمام فجيعة ما يجري،

وعظمة المنافحين في جبه هذا الذي يجري، حين مشوا - قولة أبي ريشة - على هرج اللهيب بواسماً.. وتقهقر الناعي ولم يتقهقروا.

يذودون عن الحمى ويموتون من دون العرين.

وبصدق وأسى نقول: إنَّها المحنة المروّعة، والمذابح الأشد رهبة، والأدعى ألماً وخشوعاً، بما سالت فيها من دماء، وما انطوت عليه من همجية، لكنها، في المقابل، التضحيات التي نقرأ فيها سيرة بطولات مذهلة، لجيش عقائدي، يُعلِّم الدنيا معنى المفاداة، يمضي، ويقاوم ولايساوم، وفي سمعنا صوته الذي يدوِّي وهو يحمل جراحه:

إنني مندوب جرح لا يساوم

علمتني ضربة الجلّاد أن أمشي على جرحي وأمشي ثم أمشي وأقاوم..

أيُّها الإخوة

إننا لا نعلّق جراحنا أوسمة على صدورنا للتباهي.. الجرح يباهي نفسه، قولة الجواهري، يتكلم، فلنصغِ إذن بإجلال، إلى كلمات الذين لم يكن لديهم وقت ساعة الذبح ليقولوها، فاكتفوا بنظرة التحدي، تتجمد مأساة مروعة بين الأهداب، فيما البرابرة يمضون، والمُدى الغادرة على الأعناق، والرصاص يحصد الأبرياء، وعيون الأطفال، من هلع، رواية للرعب، ستبقى فينا وفي عالمنا فصولها.

❀ ❀ ❀

في معرضنا هذا، يحار المرء في الحال التي يكون عليها: يحزن، يبكي، يشمخ، ينشد، أم يتوقف بعد ذلك أمام الدعوة الكريمة التي يتجاوز بها القائد والقيادة، هذا الوضع الأليم، غفراناً، ويدعو إلى مصالحة تغسل بعض الدنس عن مرتكبيه، وتستعيد المغرّر بهم من أبناء هذه الأمة، كي يثوبوا إلى رشدهم، وتهتز ضمائرهم ومشاعرهم، ويعودوا إلى جادة الصواب، إلى الصراط السوي، أن يستقيموا على الطريقة، كما جاء في محكم التنزيل.

وتلك لعمري أنبل دعوة يوجهها قائد وقيادة، ونظل نأمل أن يهتدي الضالون.

❀ ❀ ❀

ولكن ماذا نقول لأولئك الذين يمدون أيديهم ضارعة لإسرائيل وأمريكا، فعلة حكام عرب في السعودية والخليج والأردن؟

لقد توجّه الرئيس الراحل الكبير حافظ الأسد، منذ مؤتمر الطائف منادياً أولئك الضالين والمضلّلين، ولم تكن الأمور في فلسطين والقدس قد بلغت هذا الحد من الانهيار والتردّي، بقوله: «إنَّ أولى القبلتين تستصرخنا، والمسجد الأقصى يستحث إسلامنا، وأهل فلسطين ينادوننا، كل يوم، ألّا ننسى جريمة اغتصاب فلسطين.. وإن الولايات المتحدة ماضية في معاداة الأمة العربية، وهي مستمرة في تكثيف مساعداتها لإسرائيل».

ماذا نقول للحكام العرب الذين يتناسون كل معاني التضامن والأخوة والصِّلات التاريخية والثقافية وعلاقات الجوار؟

يتناسون ما بيننا وبينهم من صلات إخاء وقربى، ونضال وثقافة، وتاريخ مودّات تكفي كي تجعل من التلاحم بيننا قضية حياة لا غنى عنها؟

ماذا نقول لجامعة كان اسمها الجامعة العربية، ثم تحولت إلى شيء آخر، بعيد كل البعد عن تقاليدنا الراسخة، في النضال والتضحية من أجل تحقيق أهدافنا القومية، ومعالجة الهموم الوطنية، والانتصار لقضايانا الراهنة، وكان ينبغي أن تأتي سورية، ومعاناتها الأليمة، في طليعة اهتماماتها انتصاراً لها. سورية التي كانت، وما تزال، الوهج المشع للقومية العربية، وللقضية الفلسطينية. ولا أقول ماذا عن بعض المثقفين السوريين والعرب الذين انجرفوا وراء إغراءات الحياة، ولم يعبؤوا بما أصاب وطنهم من دمار، وما عاث فيه من إرهابيين تكفيريين على اسم الدين؟..

❀ ❀ ❀

ختاماً أقول:

يا أهل الشهداء صبراً

وصبراً أيَّها المشردون والمعذبون..

وأنتم أيَّها الأحبة، يا شهداءنا الميامين الذين اغتالتهم يد البربرية الهمجية، لتزدهر دماؤكم في دمائنا، فنحن وإخوتكم في

السلاح وفي الكفاح، للجلّى عصب، وللنار وقد، وللحزن دمعة، وللثأر ساعد، ونحن والزمن، ونحن وهذه الحرب التي عمرها بدأ يجاوز الأربعة من الأعوام، وما زالت متضرّية، ونحن لسورية وقائدها، حينما سورية وقائدها البشار يحملان الجراح هماً وقضية، ونضالاً وصبراً، وقراعاً بدأ يضعنا على مشارف فجر قريب، لنصر مؤزَّر..

الرحمة لشهدائنا، والنصر لجيشنا الباسل، وللمقاتلين معه، والمساندين له، والمجد كلّ المجد لقائدنا والسؤدد.

كلمة العدد

د. علي القيم
رئيس التحرير

المثقف والتحدي الكبير

مواضيع جدلية كثيرة، خاضها المفكر والمثقف والمبدع منذ أن كان.. ومسألة النأي بالنفس، والاستقلالية والتبعيّة، مع السلطة أو خارجها، وهل المثقف محصن أكثر من غيره في مواجهة الجوع والخوف والإرهاب والاستلاب والاستقطاب.. لقد حاول عدد من المثقفين العرب الإدلاء بآرائهم من خلال ندوات ومؤتمرات ودراسات كثيرة، واستمر السجال سنوات عدّة، ما زلنا نتابع صداه في بعض المجلات والصحف العربية، ومنها «المعرفة».. ومن خلال متابعة طويلة، لأكثر

ما كتب منذ عشر سنوات، أستطيع أن أصل إلى ما أجمعت عليه الآراء، وتوصلت إليه الأبحاث والدراسات، بشكل عام..

- لا يوجد مثقف مستقل بنفسه، ولا يوجد المثقف الذي هو كذرة مغلقة على ثقافتها.. المثقف ينتمي إلى المجال الثقافي، والمجال الثقافي قد يكون له استقلاليته عن المجال السياسي، أو مجال السلطة، لكنه لا يمكن أبداً أن يكون منفصلاً عنه.. هناك مثقفو السلطة، والسلطة تعتمد في تشريعاتها في مؤسساتها التعليمية والتربوية والإعلامية والثقافية عليهم، ولا يمكن أن نقول لهؤلاء استقلوا عن السلطة لأنهم صوتها، ولأنها شريان حياتهم.. وهناك مثقفون ينتمون إلى قطاعات مختلفة عن الواقع الاجتماعي، ويعيشون في برج عاجي، وهم حالة لا علاقة لها بالواقع المعاش ولا بالناس..

- هناك مثقفو الإبداع الذين يكتبون الرواية والشعر والقصة والنقد الأدبي، الذين يعيشون من كتاباتهم ويعملون في الصحافة والمؤسسات الثقافية والإعلامية والتعليمية، ولا يمكننا أن نقول إن هذه المجالات يمكن أن تجعلهم مستقلين عن السلطة، والسلطة هنا ليست الحكومة فقط، فهناك السلطة الدينية، وسلطة الرأي العام، وسلطة المهنة، وسلطة الاستقلال الذاتي، والمثقف لا يكتب لنفسه، وحدود حريّة التعبير يحددها المثقفون أنفسهم، وهي مسألة تتعلق بحركة المجتمع، وهي تزدهر وتتآكل حسب فاعلية المشاركين فيها..

- في كثير من الأحيان يذعن المثقف للسلطة، بسبب لقمة العيش، وهذه اللقمة، تتفاوت من شخص إلى آخر، قد تكون كعكة، وقد تكون

منصباً كبيراً.. والإذعان للسلطة ظاهرة عالمية وتاريخية، ولكن في الوقت نفسه لا يمكن للمؤسسات أن تصدر تعليمات لكل الكتّاب حول كيف تكون الكتابة، أو البحث في الفن، ولو اعتمد المثقفون على هذا لما كانت الثقافة.. لذلك، كما يقول الناقد المصري إبراهيم فتحي: «يوجد دائماً ميل للاستقلالية، لكي تكون هناك ثقافة، أولا تكون، وبعض المثقفين أُحرقوا في أوروبا، كبرتراند راسل، الذي سجن لأنه وقف ضد السلطة».

- بإمكان المثقف أن يلعب دوراً ريادياً في تطوير المؤسسة التي يعمل فيها، بل وفي تفكير الصفوة الحاكمة ذاتها، وفي إحداث تغيير اجتماعي إلى الأمام، وهناك أدوار مهمة قام بها داخل النظام السياسي، أمثال: طه حسين، وعباس محمود العقاد، وزكي الأرسوزي، وسليمان العيسى، ولويس عوض، ونجيب محفوظ، وعبد الله العروي، وبدوي الجبل وغيرهم..

- المثقف لابد أن يكون متميزاً، من خلال استقلال ذهنه، عن مواقف السلطات الوضعية السائدة، والعلاقة التي ربطت بين بعض المثقفين، وبعض مراكز الثقل النفطي، فرضت أشكالاً من القيود على حرية التفكير، وهذا ما أدى إلى ضعف استقلالية المثقف، ووهن دوره الاجتماعي، على الرغم من أنه لا يزال هناك تصوّر لدور المثقف باعتباره دوراً طليعيّاً وسياسيّاً، وكلها نماذج قديمة فقدت توهجها.. والواقع أن التغييرات في المشاهد الثقافية تقول: إنَّ دور المثقف الأساسي هو إنتاج الإبداع والمعرفة، مستقلاً عن الآخر السلطوي

المحيط به، وليس من أدواره، ولا من وظائفه لعب الأدوار القياديّة، وهذا ما يدعونا إلى إعادة تعريف المثقف والحقل الثقافي..

- يعتقد، أكثر من باحث ومفكر، أن المثقف العربي، غالباً، هو من أبناء الطبقة الوسطى والشعبية، ومن اعتمد تاريخياً على الدولة في الحصول على دخله، وشهاداته العليا، لذلك هناك صعوبة بالغة في استقلالية المثقف، وهناك من يؤكد أن إستراتيجيات توظيف الدين، على سبيل المثال، في الشرعية السياسية، أدت إلى انفجار في المنظمات السياسية الإسلامية، وإلى تعدد مراكز الثقل الناطقة باسم التقليدي والأصالة مما أدى إلى حصار واسع النطاق لأفكار المبدع في العصر الحديث والمعاصر..

❁ ❁ ❁

كتابات وآراء كثيرة، أكدت أن رسالة المثقف تتطلع إلى بناء المستقبل، والبحث عن ما هو أفضل، والسلطة بطبيعتها وبتعريفها تحرص على بقاء الحال على ما هو عليه، ويرى الناقد والروائي المصري «إدوار الخراط» الذي كان ضيف مهرجان المحبة، أكثر من مرة، أن المثقف قد يتحالف مع السلطة مؤقتاً في سبيل تحقيق أهداف يسعى إليها، وترضى بها السلطة في الوقت ذاته، ولكن هذا التحالف لا يمكن أن يكون دائماً، ويشدد الخراط على أن المثقف يجب أن يحتفظ باستقلاليته بعيداً عن السلطة، ويجب على المثقفين رعاية اتحاداتهم المستقلة، والقيام بحمايتها من عسف السلطة أياً كان نوعها..

لا أحد يقلل من دور المثقف الحيوي في حركة التاريخ، وفي صياغة أسئلة الواقع والتعبير عن أشكال الخلل في مختلف مظاهر الحياة العامة والسياسية، وهذا ما يجعله مستهدفاً من قبل المؤسسة والسلطة، إما من أجل تحويله إلى بوق، أو من أجل استغلال شرعيته في امتلاك القدرة على التأثير.. لقد كان الاحتماء بالأيديولوجيا والتفكير بإستراتيجيتها ضماناً للمثقف لكي يحصّن شرعيته، ويجعل تفكيره خطاً إيضاحياً، ومع تراجع دور «الأيديولوجيات» واختلال التوازن، واختلاط الأوراق وضياع البوصلة في كثير من الدول العربية، وامتلاء الساحة بالفوضى، وهيمنة فكرة السوق.. بتنا في عالم اليوم -بكل أسف- نشهد ظاهرة تخلّي بعض المثقفين عن الدور الحقيقي والحضاري للمثقف..

مراكز الإعلام الأميركي والغربي، بشكل عام، عرَّفت دور المثقف، لذلك قامت باستقطابه عبر صياغات عدّة.. منح، تذاكر سفر، دعوات، مكافآت.. وبكل أسف نجحت هذه السياسة مع بعض المثقفين والمفكرين والأدباء العرب، وفشلت مع بعضهم الآخر.. لقد تلاحقت الأحداث، واختلطت الأوراق، ودمّرت ذاكرة، وفرضت ذواكر بفعل سياسة الترغيب والاستلاب، و«الفوضى الخلاّقة» التي دمّرت وخربت العقول والأفكار والتراث والحضارة.. وبذلك فقد المثقف دوره ورسالته.. هناك من المثقفين من باع خبرته ومعرفته، وجرّد نفسه من الرسالة التي عليه أن يخدمها، ففقد احترام الناس له، وخسر صفة المثقف..

إنَّ المثقف العربي، قد تعرّض منذ عقود زمنية، لعملية هرس منظمة لكتم صوته، أو استتباعه أو تهميشه، لإفقاده دوره التنويري المعرفي الإصلاحي، في زمن اشتدت فيه الأزمات والخيبات والمآسي والمؤامرات.. لقد افترض في المثقف أن يكون طليعة أمة مغلوبة، وكان عليه أن يعيش قدره المأساوي، بين غرب وآخر يتجاوزه، وشرق ينتهي إليه، وعليه أن يقاوم استبداده وتخلّفه..

لقد وجد المثقف في أوروبا على امتداد القرن العشرين، في المؤسسات، وفي الصحافة ودور النشر، من يحتضن أعماله وأفكاره، وكان المثقف داعية للتطور والتغيير، وناقداً للتقليد والجمود، وقد لعب أساتذة الجامعات دوراً بارزاً في بناء الدولة والتقدم والتطور.. كلمة مثقف في الوطن العربي، أصبحت بلا دلالة، فهي تشير إلى أشخاص يمارسون نشاطات وألواناً مختلفة من الإبداع الأدبي، إلى النقد، إلى التدريس، إلى التأليف الأكاديمي، إلى الكتابة الصحفية، إلى الرسم والنحت والتمثيل والإخراج.. إنَّها مقولة متباينة تتطلب تخصصاً وتدريباً على العمل..

ولكن المفكر الكبير محمود أمين العالم يرى غير ذلك، فالثقافة كانت بالنسبة له سلطه لأنها رؤية شخصية للعالم، مرتبطة بقناعة الفرد، وإدراكه لواقعه، الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والديني، ودائماً ما يعرّف الثقافة بأنها الحاضر مشغولاً بالمستقبل، ويخلق الرأي، ونقله من وعي إلى آخر.. ولكنها للأسف سلاح ذو حدين، لأن هناك ثقافة المثقف، وثقافة السلطة، والفارق ضخم وواسع

بين الاثنين.. من مصلحة المثقّف الحقيقي المزيد من العلم، ومن الثقافة، ومن التقدُّم، ومن السعي إلى المستقبل الأفضل والأجمل، وهنا تبرز وظيفته النقدية، حتى يساهم في تقدم مجتمعه..

المثقف يذعن للسلطة في حالات، منها أنه قد يكون مقتنعاً بفكرها، وحدود فكره وثقافته لا تسمح بأكثر من هذا، إما عن جهل منه، أو عن شيء آخر ناجم عن هذه السلطة التعليميّة، والرأي للعالم، لأن التعليم من أجل السوق، والدولة تفتخر بهذا مع أنه يقتل روح البحث والابتكار..

في الوضع الراهن المتأزم للثقافة العربية.. استقلالية المثقف، ليست ممكنة دائماً، لأن هذا يتوقف على موقف السلطة من المثقف، ومدى اهتمامها به، أو تجاهلها له، ومدى إدراكها قيمة صوته، وتأثيرها من عدمه، وليس كل سلطة تأخذ الموقف نفسه، فهناك سلطات لا تهتم بالثقافة أصلاً، وتراها عملاً هامشياً، وهناك سلطات ترى أن الثقافة تؤثر في الناس لذا تضعها في أولى اهتماماتها وبالتالي تحاول استقطاب المثقف دون السماح له بممارسة استقلاليته.

ويمكن القول: إن كلمة الاستقلالية، كلمة غامضة، تعتمد على أشياء خارجية كثيرة تمنع استقلالية المثقف.. الإنسان بطبيعته، ينتمي لأشياء معينة، تمنع استقلاليته.. الاستقلالية بالمعنى المطلق مستحيلة، أما بالمعنى النسبي، فهي ممكنة، إذا عرف المثقّف كيف يلتفّ حول القيود، والأديب الذي يكتب رواية، من الممكن أن يكون مستقلاً في حدود، لأنه لو كتب وخرج عن الحدود التي أتاحها له

المجتمع، فلن يكون ذلك مسموحاً له وسيصادر.. لا يوجد استقلالية مطلقة، بل تتسع وتضيق حسب الديمقراطية الموجودة في البلد، والمثقف يستطيع أن يستغل المسافة المتاحة ويكتب أو يبدع فيها، ولا يوجد ما يحمي المثقف سوى شهرته، فإذا كان مشهوراً، وأخطأ، فسوف تخاف السلطة من الاقتراب منه، وعلى سبيل المثال، عندما أرادوا في فرنسا القبض على المفكر «جان بول سارتر» رفض الجنرال «ديغول» وقال مقولته الشهيرة: «إن فرنسا هي سارتر فلو كان الكاتب مشهوراً، فستحميه هذه الشهرة، لأن القبض عليه سيكون مسألة معيبة في حق السلطة، وليس في صالحها أن تضيّق عليه».

❀ ❀ ❀

لقد تعرّض العمل الثقافي، في كثير من الدول العربية، ومنذ ستينيات القرن الماضي إلى مضايقات عدّة، لأن الثقافة، بشكل عام اعتبرت عبئاً على المجتمعات العربية، وسبباً من أسباب تشويه الوعي الاجتماعي، ولأنها استُغلت من قبل السلطة، ولعبت دوراً ساهم في تخريب الحس الوطني، والقدرة على التحليل الصائب، في زمن اختلطت فيه الأوراق، وتراجعت فيه المؤسسات الثقافية عن منابرها الحرّة التي كانت عليها في أواخر القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين، على الرغم من التقدم العلمي، وانتشار الثقافة والمعرفة والتعليم..

المثقف العربي نسيج نفسه ومجتمعه، والمفروض أن يكون ملتزماً برأيه لصالح وطنه وأمته، ولكن بعض الحكومات، حاولت أن تخلق

من عناصرها، كتّاباً، ليسوا أدباء أو مفكرين، يكتبون ما يملى عليهم.. ويرددون دائماً في وسائل الإعلام.. أن الأحوال بخير، والاقتصاد بخير، والسياسة بخير، على الرغم من التخلّف، والانحدار في المستويات المعيشيّة.. هناك من وقف في وجه هذه الثقافة البعيدة عن الواقع، ولكن الصدور ضاقت بهم، فتعرضوا لحملات الشتيمة والتنديد والاستنكار..

في البحث عن تقييم لسلوك العديد من المثقفين العرب حيال ما جرى في دولهم منذ أكثر من نصف قرن، نرى أن هناك مستويات مختلفة بين جوانب من العلاقة بين المثقف والسلطة، وأن هناك مفارقات بين الواقع والادعاء «الأيديولوجي» الذي أضحى خطاباً تبريرياً واستباحيّاً في الثقافة العربية التي كانت سائدة، ولعل هذا القول يوضح كيف رفعت شعارات كبيرة مثل، الوحدة العربية، والنضال ضد الاستعمار والاحتلال، وتحرير الأرض، والجهاد والوحدة الإسلامية، والحرب ضد الإمبريالية.. بمعزل عن أي دراسة أو تحليل للقوى الاجتماعية وبرامجها، وموازين القوى ومصائرها، وقضايا الناس وحرياتهم وأرواحهم ومستقبلهم..

في التقييم لهذه المواقف والقضايا الكبيرة، التي رسمت مرحلة مهمة من التاريخ العربي، يرى المفكر الكبير وجيه كوثراني، أنها تعبّر عن موقف «أيديولوجي» متخلّف، صادر عن جهل بحركة التاريخ المعاصر وتحولاته.. وعن تأخر الوعي العربي، تختصره حال ثقافتنا العربية والإسلامية السائدة.. والسؤال الملح، هل يلام المثقف

العربي على ما وصلنا إليه من أحوال متردّية؟! يرى «كوثراني» أنه يلام، كجزء من حالة عامة، ومن ظاهرة هي ظاهرة «الاستبداد» في تاريخنا العربي والإسلامي قديماً، وظاهرة الدولة «التسلطيّة» في تاريخنا المعاصر، وهذا المعنى يندرج على عدد من المثقفين العرب، الذين ساهموا بشكل أو بآخر بتأخر الوعي التاريخي العربي، ورسموا ثقافة، كان قد وضعها بشكل دقيق ورائع عبد الرحمن الكواكبي، في أول القرن الماضي في كتابه العظيم «طبائع الاستبداد» والذي لا يزال صالحاً في تحليله وتشخيصه لتلك العلاقة حتى يومنا هذا..

لقد أساء أدعياء الثقافة، كثيراً إلى الثقافة والمثقف.. لقد مارسوا عمليات غسيل الأدمغة.. لقد مارسوا ثقافة التضليل والتخدير والجهل.. لم يتركوا للمفكرين أصحاب العمق والرؤية والثقافة أي مجال، فوسائل الإعلام الحديثة تقتضي الإثارة والكذب والتلفيق والشتم والنباح.. والمثقف المثقل بأفكاره وقيمه ورؤاه، يأنف عادة من الدخول في مرابد العنجهيات، وأسواق الشعارات والاتهامات الجاهزة.. لقد ركب أدعياء الثقافة الموجات كلها، وأصبحوا يحللون كل شيء، ويعرفون مصائر الناس والشعوب، ويطلقون الأحكام الجاهزة، ويتقافزون بين المنابر و«الإستوديوهات» و«الميكروفونات» من دون أن يكون عندهم شيء جوهري جدير بالقول، أو الكتابة، ونسمع جعجعة، ولا نرى طحيناً، ونسوا أن ما يمكث في الأرض، هو الذي ينفع الناس، أما الزبد، فيذهب..

أيُّها المحلل والخبير والمفكر.. لقد انقلب التاريخ على نفسه، وبات عليك في عالم اليوم، أمام ما حدث ويحدث، أن تهدأ وتخفف من شدّ الأعصاب، وتقتنع أن دورك ومهمتك وظهورك الإعلامي يبدأ من الواقع.. من القدرات المتاحة، والإمكانيات المتوافرة، ومن الحدث اليومي الذي نعيشه، ونتابع ويلاته وآلامه ونتائجه البائسة المريرة..

إنَّ التحدي الكبير الذي يواجه المثقف العربي، في هذه المرحلة الراهنة، أن نخرج من الحالة والأزمة التي خطط لها منذ سنوات، وتُنفَّذ بعقل أميركي أوروبي، صهيوني، وجهل عربي تحركه قوة خلق تدميرية تحرق كل شيء.. البشر والنبات والشجر والأثر.. عملي الطويل في مجالات الآثار والتاريخ والثقافة والتراث، جعلني أرى أمراض العرب داخل تاريخهم وليس خارجه.. مع أننا نعيش في ثقافة لا تترك مجالاً للأسئلة.. وجعلني أؤكد مقولة المفكر والشاعر الكبير «أدونيس»: (إن ما ينقص العرب الآن، هو ثورة الذات التي يمكن أن تحرر الناس من التقاليد البالية).. لقد انتصر «أدونيس» للمتحول الإبداعي، ومن يمثّله في مواجهة الثابت الاتباعي ومن يمثّله..

في كتاب «أهل القلم وما يسطرون» للراحل بوعلي ياسين، طرائف عدّة، عن الثقافة والمثقفين نتوقف عند بعضها:

- يقول فاروق حسني، وزير الثقافة عام ١٩٩٤: عندما عينت وزيراً للثقافة وجدت الحرام يطاردني.. الرقص حرام- الموسيقى حرام

- المغنى حرام.. كل ما أنا مسؤول عنه حرام، لدرجة أنني أطلقت على نفسي (وزير الحرام) ليدلل على حجم المحرمات التي تضعها السلطة الدينية أمام المثقف..

- يقول الكبير محمد الماغوط: «لكي تكتب، يجب أن تحتك بالناس، والمواطن العربي صار، من الحيطة والحذر، لا يحتك حتى بثيابه».

- نتيجة لتباين علاقة المثقف مع السلطة، فقد أطلقت عليه تسميات عدة، فمنهم من يسميه إدوارد سعيد «مثقفاً مؤسساتياً» وهو الذي ينأى عن المواقف الصعبة والمبدئية كي لا تقف في طريق صعوده.. ومنهم من يسمّيه، فيصل دراج، «المثقف السمسار» الذي يخضع أفكاره لمرجعية السوق والعرض والطلب، ومنهم من يسمّيه سعدي يوسف «المثقف الوسيط» القابل للاستخدام في أمكنة ومجالات عدة، ومنهم من يغيّر مواقفه الفكرية والسياسية، حفاظاً على السلامة الشخصية ومصدر العيش..

❁ ❁ ❁

العربية بين الإطلاق والنسبية

❁
د. صلاح الدين يونس



للعربية منزلة خاصة عند أبنائها، هذه المنزلة تجـاوزت حدود المد القومي التي عاشهـا العرب منذ الحيويـة التي أسست للانفصال عن الدولة العثمانية، والانفصال لـم يكن سياسيا وحسـب، وإنما هو خطوة تاريخية فارقـة، وضعت حداً للتماهي بين الشعوب الإسلامية على أساس من التفاصل القومي.

فمنـذ بـروز الشخصيـات التنويرية على مستويات عـدّة، أخذت الأيديولوجيا العثمانيـة تفصح عن نفسهـا عبر النزعة الطورانيـة، وهـي حالة سوسيـو ثقافية،

❁ ناقد أدبي وأستاذ جامعي.

أدركت ضرورة الفصل - من موقع الأعلى والأدنى- بين الوجود القومي والانتماء الديني، وبالمقابل كانت النخب السياسية العربية قد تشبعت بالفكر القومي الأوروبي، على أنه ثقافة جديدة قادرة على الاختراق والتوضع خارج حدودها بعد نجاحها ضمن الحدود، وقد أفادت النخب العربية تلك من واقع المشرق العربي المتردي من مبدأ فساد الواقع ومن مبدأ طرح البدائل.

لم تكن «العربية» لغةً وحسب، وإنما استحالت إلى «هوية» داخلية كالعقيدة، لا تقبل المساس أو النظر من خارج العقيدة، ومع تقدم الحياة العملية في الأقطار العربية تنبثق مشكلة اللغة من موقع آخر وهو الإحساس بالفقر العلمي على مستويات عدَّة: أهمها المستوى التقاني ولاسيما في العلوم الدقيقة، ولم تكن العلوم الإنسانية هي الأخرى بالعربية في عافية، وإنما لم تظهر الحاجة إليها كما هي في العلوم الوضعية التي تمس -بشكل مباشر- مشكلة التقدم.

من هنا ومن هناك انبثقت فكرة الاحتياج إلى الآخر المتقدم، وانبثقت معها مشكلة جديدة، وهي كيف نفيد من الآخر صاحب الإنجاز المفتوح؟ نتعلم لغته؟ أم نعلمه لغتنا! أم ننقل علومه إلى لغتنا؟!

ثمة فريق من النخب العربية طرح «القطيعة» مع العربية وإعادة بناء الأجيال المتعلمة بلغات الأمم المتقدمة «ولست أحمل على اللغة العربية الفصحى إلا لسببين: صعوبة تعلمها وعجزها عن تأدية أغراضنا الأدبية والعلمية، ولذلك فإن من مصلحة أبناء الأمة المصرية أن يكتب أبناؤها باللهجة المحلية وبالحروف اللاتينية، وفي ذلك حفاظٌ على وطنيتهم المصرية»[1] وكان مسوغ هذا الطرح هو الإسراع في الإنجاز، ويعني حينها «النهضة» والنهضة عندهم مؤسسة على جدلية الالتحاق على أنقاض الانفصال عن التراث والمرحلة العثمانية، الالتحاق تقليداً واقتباساً، وكلاهما يفترض الانفصال عن النمط العثماني، كخطوة أولى لتبدأ من بعد ذلك الخطوة الثانية، وهي الأهم وكانت تعني الانقطاع عن التراث بوصفه مخزنا روحيا مدونا بالعربية والمدون به حاملاً ومحمولاً اكتسب كلٌ منهما «القداسة».

على الطرف الآخر يتموضع دعاة «الاكتمال» وهم فريقان من طبيعة واحدة: السلفية الدينية والقوميون الغلاة، ويتخذ هؤلاء من الرموز التراثية شاهداً على «معجز العربية» فقد أبدع الكندي ٨٧٣م بالعربية فلسفةً وطباً وفلكاً، وترك تراثاً إنسانياً أفادت منه شعوبٌ عدّة، ولم يكن

يعــرف غير العربية، وكذلــك كان الفارابي ٩٥٠م قــدم تراثــاً فــي الفلسفــة والعلوم السائدة فــي العصور الوسطــى أغنى فيه المكتبة الإنسانية بالعربية طبعاً، وحاز لقب «المعلم الثاني» والأول هو أرسطو، وما كان لأرسطو ولأفلاطون ولسقراط ولفيثاغورث وأبوقراط وغيرهم من علمــاء اليونان وما أبدعــوه في فــروع المعرفــة أن يصل إلى الأجيــال اليونانية وغيــر اليونانية من بعد العصر الوسيط لولا أن المأمون العباسي أسس «الترجمة» لتحتفظ العربية بالعلوم اليونانية احتفاظــا تجاوز الفعــل الوظيفي لأية لغة، وحين استفاق النهضويون الأوروبيون وجدوا جذورهم المعرفية فواصلوا ما انقطع منها عبر النسخة العربية..

ويضيــف أصحــاب الــرأي المعجز إنَّ علماء العصر الوسيــط الإسلامي كالرازي ١٢١٠م وابــن الهيثــم ١٠٣٩م وابــن سينا ١٠٣٧م وابــن النفيــس ١٢٨٨م استعربــوا باللغــة وبالإسلام، ولم تعد العربية لغة لأمة محصورة محدودة، وإنما استحالت إلى لغة أممية، لغــة لإمبراطورية عديــدة الأعراق وعديدة اللغات، لكن المشروع الإمبراطوري اختزل نفســه بـ «العربــي الإسلامي» على أنهما متواصفان متلازمان كالشيء الواحد، بل يكادان يكونان كالكلمة الواحدة.

من الافتراق إلى التوفيق:

لقد عاش المنبهرون بـ «معجز العربية» حــالاً من الامتثال لم يسبق لأمة أن عاشته، وحتــى «الكاثوليك» لم تعشــ ذلك الامتثال مع اللاتينية، رغم ارتباط الكثلكة باللاتينية كنصوص مقدسة وككنيسة مركزية تتبع لها المؤسســات الأخــرى، إلا أن البروتستانتية أفضت إلــى أهمية اللغات القومية مرتبطة بتأسيــس الكيانــات القوميــة نفسها، كما حــدث لبريطانيا بعد أن انقطعت عن اللغة النورمانية وعن الكنيسة الكاثوليكية بتأسيس الأدب الإنجليزي على يــد جيفري تشوسر ١٣٤٣ - ١٤٠٠م صاحب حكايا كانتربيري، التي كانت نقطة البدء.

فالمنبهرون العرب بالإرث اللغوي العربي الإسلامي تعاملوا مع ذلك الموروث على أنه «تاريخ» مستمر قابــل للانبعاث، وهو ناجز قادر على الإمداد، متجاوز اختلاف الأزمنة عابِر الجغرافيــات ببشرها ولغاتها وطبائع الشعوب في الانتقال والتحضر..

ولم يتنبه المنبهرون أولئك إلى «الواقع» بمــا لديه وبمــا هو قــادر علــى التجاوز المضطــرد، فالأسماء البــارزة في التراث العربي الإسلامي -علــى أهميتها التاريخية- يستحيــل أن تكون المقيــس عليه المطلق المتجــاوز للغــات والأزمنــة، ففــي سياق تاريخــي قدمــت الرموز تلك مــا هو فارقُ

تاريخياً، ولكن السياقات التي أبدعت تحت شروطها لم تعد قائمة، ولا يمكن -حسب منطق التاريخ- أن تكون قائمة، ومن هنا نرى أن من حق الأمة أن تعتز بإنجازاتها وتاريخها وتاريخيتها ولغتها، وإنما لا ينبغي لذلك الاعتزاز، أن يقطع الصلة مع العالم الجديد، العالم الذي أبدع على طريقته وأبدع بلغاته، ولأنه أنجز تاريخاً جديداً لابد من الاعتراف بإنجازه، ولابد من إدراك طريقة للتواصل معه من دون مصاحبة «الاستعلاء» سواء منه أو من المتواصل.

التعليم باللغة القومية ممكن وضروري:

تحاول الأمم، الأمم كلها أن تجعل من لغتها هويتها المائزة حتى لو كانت اللغة المعنية متخلفة عن تمرحلات التاريخ وبعيدة عن متغيرات العصر، ولكنها تحاول عبر مشروع يبدأ من إصلاح اللغة نفسها، ونذكر بما فعله ميخائيل لامانوسوف ١٧٦١م باللغة الروسية حتى أدخلها طبيعة القرن الثامن عشر، فحذف من أبنيتها واصطفى، وأدخل المفردات التقنية من الإنجليزية والألمانية، ومن الفرنسية أدخل مفردات علم الجمال والفلسفة والتربية، أدخل تلك وهذه ضمن حيوية الروسية وتحت شرط المهارة الفردية لرجل العلم التجريبي، والذي جمع علم اللغة إلى جانب تخصصه التجريبي «الكيمياء الفيزيائية».

ونذكّر بتجربة «هُو شي منه» الفيتنامي عندما جعل من الفيتنامية لغة الهندسة والطب على مراحل تحت عنوان «فتنمة العلوم - الطب أولاً»، ففي كل عام دراسي كانت فئة النخبة الفيتناميون ينقلون إلى لغتهم المفردات العلمية بالترجمة، وبالاشتقاق المشترك بين اللغتين المنقول منها والمنقول إليها، وخلال عقد من الزمن اكتسبت الفيتنامية ذخراً من المفردات والأنماط الجديدين، في سعي من أصحابها إلى إتمام الانتصار العسكري السياسي بانتصار علمي باللغة الوطنية، وفي الأردن أجرى المجمع اللغوي دراسة عام ١٩٨١ تحت عنوان «تقويم المرحلة الأولى في تعريب التعليم الجامعي» شملت الدراسة طلبة السنة الأولى في جامعتي: اليرموك والأردنية الذين درسوا بالعربية بدلاً من الإنجليزية مقررات: الرياضيات والأحياء والجيولوجيا، وكانت النتائج أن نسبة الرسوب هبطت من ٣٥٪ إلى ٣٪.(٢)

ومنذ النزاع - على أساس قومي - بين العرب والأتراك أخذ النهضويون العرب يطرحون العربية على أنها هوية مستمرة نامية، بعد مرحلة المد الشعبي والوطني في إثر الاستقلال السياسي عن الدول

الاستعمارية، وهنا تطرح قضية اللغة من حيث صلاحيتها لعبور الأزمنة وتخطي الأمكنة، أو من حيث قدرتها على التعامل مع العلوم المستجدة وعلى الأخص العلوم الدقيقة، ولم يكن «المغالون» بالعربية على دراية تامة بهذه المشكلة، فلم يكونوا على معرفة بالانتصارات العلمية المتلاحقة للعالم الذي يتقدم عليهم، فالعلوم الغربية أخذت تفصح عن فتوحات لا قبل للغات المشرق بها، وأخذت في الوقت نفسه لغات الغرب تختزن ثروة من المفردات التي أفضى بها «التجريب»، ولم تكن اللغات المركزية الأوروبية تعرف تلك المفردات، وإنما ولدها الواقع العلمي، ومن الضروري التنويه به «**التقارض**» بين اللغات الأوروبية، وقد أشار إلى هذا «**ستيفن أولمن**» في أطروحته «تقارض اللغات». ضمن كتابه «الكلمة في اللغة».

ومما زاد اللغات الأوروبية -وعلى الأخص الإنجليزية- قدرة على النماء مع تزايد الكشوف العلمية انعتاقها من السلطة الكنسية التي احتفظت بملكية «اللاتينية»، على أنها الفضاء الروحي للمسيحية، في الوقت نفسه كانت اللغات «الإنجليزية - الفرنسية - الألمانية» تتقدم على مستويات أخرى في الآداب والفنون، ونذكّر -هنا- بأطروحة لوسيان غولدمان «تمرد الآداب والفنون في الحضارات المتقدمة» إذ رأى غولدمان أن التقدم العلمي في الغرب لم يتساوق مع الأعمال الأدبية، إذ كان الكشف العلمي مذهلا مغنياً عن جماليات الإبداع في العلوم الإنسانية، ولكنه استثنى عملا واحدا من تعميمه هو مسرحية «عدو» لكورني.

وإذا كانت القوانين الكبرى قد اكتشفت بعقل غربي، فإن اللغات التي ينطق بها ذاك العقل هي أولى بأن تكتشف نفسها أولاً، وتكتشف لنفسها طرائق التقدم والتطور والوصول، وبالناتج أضحت لغة العلم أينما عبر العلم التجريبي، طبعاً وأين توضّع، ومن هنا رأى الجيل اللاحق على «النخب» النهضوية ضرورة التعلم باللغات المتقدمة والتعليم، فما مسوغات رؤية أولئك؟ لقد دخل دعاة التعليم والتعلم باللغات الأوروبية «إنجليزية وفرنسية» مدخل الكشوف المتزايدة والمتلاحقة، فالترجمة غير قادرة على الملاحقة، في الوقت نفسه كانت الكشوف تمنح اللغات الغربية مرونة وحيوية، وتمنح أصحابها وجوداً حراً، يقوى المكتشف من خلالها على التعامل مع العالم تعاملاً إيجابياً، وكلما ازداد العقل التجريبي نجاحا ازداد العقل الاجتماعي السياسي حرية، فمن المحال أن يتقبل العقل بشطريه: التجريبي والسوسيوثقافي

الاستقلال السياسي المتخلف عنه، لأنه سيعمل ضمن شروط الفضاء الحر، والفضاء الحر نتج عنه المنطق الجديد الذي أسس له فرنسيس بيكون في مؤلفيه العظيمين: القانون الجديد Norum organum وتقدم الثقافة Ncement learning وعن المنطق الجديد المتجدد من بيكون إلى نيوتن إلى داروين إلى ماركس إلى فرويد وإلى مستمرة...، وعي ديالكتيكي في التعامل مع العاملين الداخلي والخارجي ويعزز ستيورات هامبشر أهمية اللغات القومية في العالم الحديث «إن اللغات القومية لم تكن قد أرست القواعد من كيانها في أي شكل مألوف منها كأدوات طبيعية للتفكير المجرد، ويستطيع المرء أن يلاحظ الانتقال التدريجي من اللاتينية إلى الفرنسية والإنكليزية كأداتين للتفكير الفلسفي طوال القرن السابع عشر».(٣)

لغتنا والعالم المستقبلي:

عندما أحالت أوروبة انتصاراتها في العالم التجريبي إلى قوة عسكرية غادرت «علومها وعلمانيتها» ،فتوجهت إلى عوالم الأطراف، وكانت ممتلكات الدولة العثمانية الآخذة بالتهالك منذ نهايات القرن الثامن عشر ساحة للأطماع الأوروبية، فداهم نابليون مصر ١٧٩٨-١٨٠١، ثم استحوذت فرنسا على الجزائر ١٨٣٠، كما بدأت بريطانيا بالتوجه نحو الشرق-الهند - ١٨٥٧-١٩٤٩، ثم حاولت ضمانة الوصول إليها بالاستحواذ على الدول الواصلة بين الغرب والهند، ثم خضعت الولايات العربية كلها للاستعمار الأوروبي، ولم يكن الاستعمار حدثاً عسكرياً أو سياسياً أو اقتصادياً فحسب، وإنما كان تحوّلاً فرض ثقافته وسوسيولوجيته على الأقطار العربية، ثم فرض لغته على أنها لغة المنتصر في النظم العلمية والتربوية والإدارية والسياسية، وبفرض اللغة على المستعمرات حقق غايتين خطيرتين:

الأولى هي إقصاء المستعمرات عن ذاتها وتغييب الحس التاريخي من خلال تغييب الشعر والفن والأدب باللغة، الثاني حرمان المستعمرات من علوم المستعمر حتى لا تكون علومه علوماً مستملكة من الشعوب المستعمرة «بفتح الميم».

ونسوق رواية السوداني الطيب صالح ١٩٦٦ «موسم الهجرة إلى الشمال» شاهداً على العلاقة - عبر اللغة - بين أبناء المستعمرات وعلوم المستعمر، فقد تعلم الفتى السوداني في المدارس البريطانية أن يقول «لا» لأول مرة في حياته، لكنه قالها بالإنجليزية، و«لا» هنا إشارة إلى الحرية التي يكتسبها المتعلم بالإنجليزية، لأنه لايكتسبها بلغته الأم، فالمسافة بين اللغتين

- كما يراها «الراوي» المستعمر عبر الرواية - هي المسافة بين الحرية كضرورة للحياة وبين الاستبداد كإرث تاريخي في ثقافة المستعمرات.

يقول المفكر جورج طرابيشي خلال تناوله بالنقد للرواية المذكورة: «يجب أن نذكر أن المثقف الذي نعنيه هنا هو المثقف الشرقي، المغترب الذي يدخل طرفاً في عملية المثاقفة وهو في بلاد الغربة، وبالتحديد في حاضرة الدولة الميتروبولية الراهنة أو السابقة، إذ إن المثاقفة لا تتم من دون وسيط «اللغة» ويكاد لا يكون من خيار للمثقف المنحدر من المجتمع الكولونيالي أن يتقن من لغة ثانية غير اللغة الميتروبولية»[٤]. من جانب آخر فإن الظرف التاريخي الذي جعل العربية - في العصور الوسطى - لغة مركزية لم يعد قائماً، وهو ظرف غير مطلق وغير قابل للتكرار ولا للاستمرار، وعلى الرغم من أهمية العربية حتى القرن الثاني عشر الميلادي عام ١١٩٨ وفاة ابن رشد، فإن العربية لم تعد لغة للفكر الفلسفي، ولا لغة لمشروع في العلم التجريبي، ويتساءل الباحث التنويري هاشم صالح: «من يستطيع أن يتفلسف الآن في اللغة العربية؟ كيف حصل أن هذه اللغة التاريخية العظيمة التي استوعبت في الماضي كل أنواع المعارف والعلوم قد أصبحت الآن عاجزة عن التفلسف؟ ما السبب الذي دعاها إلى نسيان بعدها الفلسفي الحر والانكماش داخل الأشكال التعبيرية السكولائية أو الشعرية النظمية فقط»[٥].

الشرط التاريخي:

يتوهم «الغلاة» بالعربية أن العلماء من غير العرب «المسلمين» إنما أتقنوا العربية ونجحوا فيها نظراً لطبيعة استثنائية خاصة بالعربية، وهذا التوهم أساسه ارتباط العربية نفسها بـ«الوحي» وليس «الغلاة» من الاتجاه القومي ببعيدين عن هذا الرأي، وهنا تحدث القطيعة بين التفكير اللغوي والبحث التاريخي، ومن خلال معاينة دقيقة لطبيعة عصرنا الحاضر، ونعني القرنين الثامن عشر والتاسع عشر على التحديد نجد - لا محالة - شاهداً على رأي مخالف للغلاة القومويين والإسلامويين، فالولايات المتحدة الأميركية استقلت عن بريطانيا في ١٧٧٦/٧/٤، ولأسباب عدّة: أهمها وجود الثروة على أرض المشروع الإمبراطوري تزايد عدد الوافدين إلى أميركا من جنسيات العالم المتعددة، وكلٌّ حمل لغته في الطور الأول، لكن «الإنجليزية» هيمنت على اللغات كلها بما في ذلك الإنجليزية البريطانية، ولم تعد اللغة الأم لأي وافد

ولاسيما الفئة النخبوية هي الأولى، وإنما تعلمت النخبة من الجنسيات كلها الإنجليزية الأميركية، فكتبت بها بعد أن تخصصت في مراكز الأبحاث الأميركية، ثم غدت اللغة المركزية الأكثر تداولاً لأي واحد في أميركا بل وفي أطراف العالم كله وذلك عائد إلى أمور أهمها: المرونة ونعني سهولة البنية النحوية، وثانيا القوة الاقتصادية التي تقف وراء اللغة، والأمر الثالث يعود إلى الميديا الإعلامية المهيمنة على وسائل الإعلام العالمية وعلى اللغات الأخرى، ولا ينفصل جانبا الاقتصاد والسياسة عن بعضهما كعاملين يؤازران الإنجليزية على الدوام.

أما الجانب الآخر في اعتزاز الغلاة بالعربية، فيعود إلى نجاحها في إقصاء لغات الشعوب الإسلامية التي دخلت في تركيب دولة الخلافة، والإقصاء ذاك ساهم فيه عاملان: الأول تقدم البنية النحوية للعربية وغزارة المفردات بعد أن غدت لغة المشروع الإسلامي، والثاني يعود إلى العامل الروحي والآخر السياسي، وأما الروحي فلا شيء غير «الإسلام» بدءاً من تدوين القرآن والحديث إلى تدوين الشعر والأخبار والسير والتراجم، فالعامل في الشأن اللغوي والمتفلسف والمتصوف والزاهد والناقد كلٌ انطلق من النصوص الإسلامية، سواء بعد عنها أم ظل في فلكها، فهو مرتهن لها، وأما الجانب السياسي فالدولة لم تعترف على لغات أخرى، فالشعوب الآسيوية التي انتظمت في البنية الإسلامية كانت لغاتها متأخرة عن العربية، رغم خضوع شعوب الشرق من الصين إلى اليونان لنظام اقتصادي، هو النظام الخراجي «الإقطاع غير المكتمل» ورغم أن الجامع بين العرب وشعوب آسيا هو «الأيديولوجية الخراجية» فإن للعربية بنية مائزة وفي هذا يقول المفكر الاقتصادي سمير أمين «ما أسميته الأيديولوجية الخراجية أقصد به المنطقة التي تشمل العالم العربي والإسلامي من جانب أوروبة من الجانب الآخر» مفادها أن نقطة الانطلاق في هذا التكوين ترجع إلى عصر الهيلينية في أعقاب توحيد الثقافات للشرق القديم (مصر وبلاد مابين النهرين) ودمج أهم عناصرها كمساهمات جوهرية في تبلور الميتافيزيقيا الخراجية، وقد مهدت الفلسفة الهيلينية لنشر المسيحية ثم الإسلام وذلك من خلال تهيئة مفاهيم ذات مغزى عالمي تخاطب البشر بكليته.(٦)

أين المشكلة؟ باللغة العربية أم بأصحابها؟:

ثنائية تقوم على الجدل إذا ما تم الفصل بين طبيعة العربية وبين وظائفها، فابن جني صاحب أكبر ذهن فيليلوجي في العصر الوسيط العربي الإسلامي ت١٠٠٢م

يعــرف اللغة «بأنها أصوات يعبر كل قوم بها عن حاجاتهم» ومن القــرن الهجري الرابع إلى اليوم تتالى التعاريف وكل تعريف يأخذ بالآخر، إلى أن جاءت التعريفات المؤسساتية وخاصة بعد نجاح الدول الكبرى في الإفادة مــن التقدم التقنــي وتوظيفه فــي البحث اللغوي.

ومن التعريفات المعاصــرة التي نراها مناسبة تعريف يسرى خميس «اللغة احتياج ملح للتعبير عن معرفة ما» وتبدو أهمية هذا التعريــف في انعتاقه مــن الحاجة المادية وانتمائه إلى الحاجــة المعرفية أو محاولة الجمع بينهمــا، ويرى د.محمــود السعران «أنه من أسباب تخلف دراستنا اللغوية عدم القدرة على النهوض بدراسات لغوية على أساس مــن التفهم الحديث للغــة ولمنهاج دراستها ووسائلها، فلا شك أننا لا نستطيع أن نكتب نحواً للعربية على الأصول الحديثة دون أن ندرس علم اللغة العام ومن مباحثه علم الأصول اللغوية»(٧). وإذ يربط بين التقدم اللغــوي وبيــن معرفة علم اللغــة الحديث، فإنما يقــر السعران بتخلف الدرس اللغوي، وبالاستتبــاع يقر بتخلف اللغــة نفسها، بل بتخلف الأمة ككل عن العلوم الحديثة، ومن هنا كان دعاة الاعتماد على اللغة الأوروبية المركزيــة في التحصيــل العلمي لديهم ما يســوغ ادعاءهــم، فالعربية - فــي وضعها الراهن - لا تستجيب لنداء العالم الحديث، وإن الغنــى بالمفردات التــي يعتز بها أبناء العربيــة غير مقنع اليــوم، فالمفردات تلك لم تعد مــن احتياجات العصر، فلكل عصر علومه ومــع تقدم العلوم تنــزاح المفردات وتطفو المفــردات ذات الحاجــة المتولدة من طبيعــة الحياة نفسها، وقد شبه المفكر ميخائيــل نعيمة في «الغربال» اللغة بشجرة الزيتــون تحتها أوراق يابسة وفوق أغصانها أوراق خضــراء، وفــي هــذا التشبيه وعي بجــدل الطبيعة علــى أن اللغة في وجه من وجوهها من مفردات الوجود الطبيعي.

وقد أشــار عمر فروخ بشــكل آخر إلى الإزاحــة والإحلال على أنهمــا من طبيعة العربيــة، وإن خــروج كلمة مــن الاستعمال وحلول غيرها مكانها يدلان على أن الكلمة التي خرجــت أقدم عهداً، إذ تدلان على أن المدرك الذهني المتعلــق بهما قديم، وأنه خرج من لفظ كثير العموم والإبهام إلى لفظ أكثر خصوصية ووضوحاً(٨).

يــرى اللغوي فروخ أن فــي العربية أكثر من ١٢٠٠ مفردة دالة على الأمور الجنسية، ويرد هذا إلى أن الكلمة تحل محل الأخرى بسبب ارتباطها بالحياء، مما يضطر الذهنية اللغوية إلى البحث عن البديل غير المكتشف بفعل التــداول، وهكذا حتى تختزن العربية كلمات عديدة في موضوع واحد، ومن وجهة

نظرنا نرى مع المفكر جورج طرابيشي وهو يدلي برأيه في هذا الموضوع:

إن المفردات الدالة على الفعل الجنسي ارتبطت بظاهرة الاستبداد الشرقي، ومعظمها دال على الاستعلاء الذكوري ففي رواية نجيب محفوظ «بداية ونهاية» فتاة من الطبقة الأرستقراطية فيقول البطل حسنين: هذه امرأة إذا ركبتها فقد ركبت طبقة بأسرها، ومن المؤكد أن جدل القهر الكولونيالي قد جعل الكثيرين من أبناء المستعمرات المقهورين يهتفون في أنفسهم عند رؤيتهم لامرأة بيضاء: هذه امرأة إذا ركبتها فقد ركبت أمة بأكملها. وعند العرب عشرات المفردات الدالة على السيطرة الجنسية كمعادل للفعل الجنسي «غشيها، وطئها، دعكها، وسمها، دعسها»[٩].

من جانب آخر مهما كانت العربية غنية بالمفردات، إلا أنها معوزة لمفردات العالم الصناعي التقني، ومن مشكلات تأجيل المفردات الناتجة عن الثورة الصناعية والأخرى الإليكترونية أن اللغوي العربي -منشئا أو مترجما - لا يعرف تلك المفردات في لغاتها الأم فيحتاج الأمر إلى عمل مؤسساتي يجمع الفيزيائيين والأطباء وعلماء الاجتماع والتربية والنقاد لإنجاز المفردات من طبيعة العربية بحيث لا تبتعد عن الحقول الدلالية للمنشأ الأول، وفي الوقت نفسه لابد أن ينجز الفريق المذكور المعجم العربي الجديد القائم على التوليف والتوليد والحذف والاصطفاء، ليكون مورداً للأجيال الجديدة.

ويرى الثعالبي أبو منصور ١٠٣٨م «أن أسماء النكاح تبلغ مئة كلمة عن ثقات الأئمة بعضها أصلي وبعضها مكني»[١٠].

وثمة نخبة من اللغويين العرب تأخذ على الكوادر العربية التي تخرجت في الغرب احترامهم الضمني للغة التي تعلموا بها، في حين يتجرؤون على العربية وعلى خصوصياتها نحواً وصرفاً، يقول د.إبراهيم السامرائي «ومن الغريب أن يكون أهل العلم من هذا النفر الذي لم يحذق بالعربية على معرفة حسنة بالإنجليزية أو غيرها من اللغات الأعجمية غربية كانت أم شرقية، أنهم يباشرون هذه اللغات حديثاً وكتابةً، وهي وسائل عمل لهم لا يبيحون لأنفسهم أن يخرجوا على قواعدها وأسسها، ولكنهم يتساهلون مع أنفسهم حين يرتكبون الخطأ في العربية، وحجتهم أن العربية صعبة لاتناسب العصر».[١١]

وكأي منبهر بالعربية - على الرغم من أهمية مؤلفاته - يتغافل المفكر اللغوي د.السامرائي عن الفارق بين مستويي العربية: الفصيح الرسمي والعامي المتداول،

فـالأول ليس فطرياً، بل إنه مكتسب بالتعلم المدرسـي والأكاديمـي، وامتلاكـه يحتاج إلـى دربـه كاللغـة الإنجليزيـة، وبمـا أن البنية النحويـة للفصيح معقدة قامت على الاستقـراء الناقص وعلـى أقيسه الفقهاء والمناطقة، فمـن العسير إحالتها إلى حالة فطريـة، أما اللغـات الأوروبية فهي حديثة العهـد كالإنجليزية كما سبـق وذكرنا . وقد ارتبطت تطوراتها فـي النماء والحذف من ذاتهـا والاصطفاء من غيرهـا عبر مشروع القـرن السابع عشر، يعني عصر الفتوحات الفيزيائيـة لفرنسيس بيكون وغاليلو وهوبز وديكارت وباسكال، وهو أيضا عصر الفتوح في الفلسفة العقلانية، وكذلك عصر الفتوح عند الألمانـي لايبنتـر ١٧١٦ الجامع بين القانـون والرياضة العقلية، وقـد أُثر عنه رسالة في الميتافيزيقيا ومحاولات جديدة فـي العقل، وهما حـدّا فلسفته في التخيّل والعقل، ولم تقـف الإنجليزية ولا الفرنسية عند حـدود القـرن المذكـور، فقد غدت الفرنسية لغـة الفلسفة فـي القرن الثامن عشر، وعادت الإنجليزية لغة نيوتن وداروين وهيوم، ويعد التقـدم في القرون الميلادية الأخرى تقدما تاريخيا فارقاً تجاوزت لغات أوروبـة المركزية فيه وتائـر النمو للعصور الوسطى العربية الإسلامية تجاوزاً ضوئياً.

أحجية الاشتقاق:

يُخيَّل إلى كثير مـن ورثة العلوم اللغوية العربيـة المعاصريـن أن الاشتقاق ظاهرة خاصـة بالعربية، ويخيـل لبعضهم أنها من عبقريات اللغة، كما الإعراب على أنه ظاهرة استثنائية خاصة بالعربيـة دون سواها من اللغات، يقول د.محمد خير حلواني: والحق أن اللغة العربيـة ذات إعراب وهذا أهم ما تتميز به والذي يدل على ذلك أشياء ثلاثة: «الوثائق المنقولـة، الأخبار المدونة، وكون الإعراب وسيلة تعبيرية لا يمكن أن تستغني عنها العربية»(١٢).

وأما عمر فـروخ فيرى فـي «القياس» آلية جعلت من اللغة حيّة مستجيبة لدواعي الحيـاة علـى الـدوام، «ووقفـت العبقرية العربيـة في الزمن الأبعـد أيضاً من الفعل المضعـف موقفـاً أعطانـا ثـلاث قواعد فـك المضاعفين-إدغـام المضاعفيـن - ترك الحريـة في الإدغام والفـك.... أما المقيسـات التي نشأت في العصر العباسي فيجـب ألا تقيدنـا إلا بمقدار مـا لها من نفع فـي الاستعمال وليس من الضروري أن نحاول فرضـ كل المقيسات المتخيلة على القواميس»(١٣).

ويمكـن لنا تفهـم انبهـار المعاصرين بإنجـازات القـرون الهجريـة الأولـى من منطقين: الأول يعود إلـى الحالة القدسية

التي اكتسبتها العربية في زمن الوحي الممتد إلى أزمنة الدرس النحوي والفقهي والبلاغي والتفسيري والسيري، والثاني يعود إلى المرحلة الحديثة ونعني الحقبة العثمانية، وفيها ارتد العنصر العربي إلى «تاريخيته» فوجد نفسه مؤسساً منتجاً والآخر مستهلكا، فتضخمت نظرته إلى ذاته وصار المنجز التاريخي عنده يتجاوز حدود الأزمنة والفكر والأمكنة كما تصوّر زكي الأرسوزي، وفي المرحلة الكولونيالية تتقدم ثقافة الغرب وينبهر بها فريق من التنويريين العرب، ويدعون لها كفكر وكشكل سياسي وكنظام تعليمي «فرح أنطون» شبلي شميل، سلامة موسىٍ ثم يتخذ الانبهار شكله النقدي والمنهجي من خلال مشروع طه حسين.

والاشتقاق لم يبدأ في أية لغة حالة منهجية إنما يبدأ حالة من الاستجابة الذاتية لمستلزمات مفردات العيش وعندما تدخل الأمة في مشروع متكامل الأبعاد سياسيا وعلميا وحضاريا تغدو آلية الاشتقاق منهجية يجتهد اللغويون في قواعدها استقراءً وقياساً.

وعلى الرغم من تضخم الإرث اللغوي في الاشتقاق وفي غيره، إلا أن الحياة العلمية ولاسيما بعد عصر المثاقفة مع اليونان وسعت المستويات الدلالية للمفردات العربية، فالفلسفة والطب اليونانيان كانا أوسع من أقيسة اللغويين والفقهاء واشتقاقاتهم، وفي العصر الحديث فاجأت العلوم الغربية لغة العرب، وبدأت تتسلل إلى الناشئة عبر الترجمة ونظم التعليم وعبر الإعلام والمنتج الصناعي، المفردات الوافدة والمستحدثة، ولم تستطع المفردات التي وضعها العرب المعاصرون إزاحة المفردات الصناعية بلغتها، فكلمة كاربيراتور لا تنافسها كلمة «المبردة» وكلمة سيلندر لا تنافسها كلمة «علبة السرعةٍ، وحتى في مفردات كرة القدم فقد ظلت المفردات الإنجليزية هي السائدة، وقد تم الاشتقاق من الكلمات الأجنبية على الصيغ العربية، فكلمة تلفون اشتق منها تلفن، تلفنة، متلفن، وكذلك تلفزيون اشتق منها تلفزة، متلفز وكلمة «كورنر» الإنجليزية استخدمها الإعلام الرياضي على طريقته فيقول: «كورن» أي نفذ الرمية الركنية.

ويشير المفكر اللغوي إبراهيم السامرائي إلى عدم كفاية الدرس اللغوي القديم في اكتشاف الغامض من اللغةٍ، «ولقد دل الاستقراء على أن في العربيـة أبنية لم يلتفت إليها الصرفيون ولم يقيدوها في مصنفاتهم، وهي تصلح أن تؤدي أغراضا علمية، وكل الميزات أسس لتوفير ثروة لغوية اصطلاحية كبيرةٍ» وعلى الرغم من أهمية الرأي السابق إلا أنه يقع في حيز

الانبهار بأن العربية نبع حيوي لا يحتاج إلى غيره، رغم أن السامرائي لم يضع هذا الرأي في الموضع الذي رأيناه، ولكن الاعتقاد بإعادة الاستقراء للمتون القديمة قد يفضي إلى جديد، وقد يكون لهذا ما يسوغه من أبنية العربية التي أشار إليها أحمد بن فارس ١٠٠٤م في معجمه «مقاييس اللغة» في ثنائية المستعمل والمهمل، ولكن المشكلة اليوم تتجاوز العالم الداخلي للعربية، تتجاوزه إلى استقلالية العلوم الحديثة وهيمنة اللغات المركزية عبر كشوفات علمائها في الفن والنقد والأدب والطب والثقافة والفلسفة والسياسة.

العصر الحديث لغات مركزية ولغات طرفية:

في القرون الهجرية الأولى أنتجت المرويات العربية الإسلامية مجموعة من التصورات عن العالم الآخر وتلك التصورات تقوم على مركزية «الأنا» وطرفية «الآخر» ومن خلال التباين الحاصل بين الذات الكاملة والآخر القاصر، تظهر صورة الشعوب غير المسلمة ناقصة هشة، تنتظر من يصلح وضعيتها ويدخلها «جنات الكمال»، ولا يكاد ينجو رحّالة أو فقيه أو مؤرخ أو شاعر من حكم يُبخّس الآخرين حقوقهم اللغوية والعقيدية والثقافية، وأوضح ما يكون هذا في رحلة ابن فضلان إلى بلاد الروس «الصقالبة» التي أسفره إليها الخليفة العباسي المقتدر، ومن المعروف أنها كانت تسمى في الروايات الإسلامية «دار العهد» وهي الجغرافية الفاصلة بين دار السلام ودار الحرب، ولأن ابن فضلان لم يتملك لغة أقوام الجغرافيا الشمالية فقد تأخر استيعابه لثقافة تلك الأقوام، فكانت آراؤه تعزز «الأنا» المضخمة وذات الآخر المبخّسة، فيروي على لسان المترجم قوله: أنتم العرب ترغبون معرفة أسباب كل شيء إن قلوبكم عبارة عن كيس كبير يطفح بالأسباب.. ومازلت أجتهد أن تستتر النساء من الرجال في السباحة فما استوى لي ذلك[١٤].

وفي مراحل النهضة الأوروبية من القرن الثاني عشر الميلادي إلى القرن الثامن عشر ترتج صور العالم الإسلامي في المدونات الاستشراقية الأوروبية، وتظهر الثقافة الأوروبية - بعد القرن التاسع عشر - على أنها الثقافة الكونية الشاملة، ومنذ العهد الشكسبيري ١٥٦٤-١٦١٦م تنبثق فكرة استعارة المكان الآخر، والمكان الآخر عالم منقوص المعرفة غني بالثروات، وتلك الثروات تنتظر الرجل الأبيض لاستثمارها والانتقال بها إلى العوالم الجديدة، والاختلاف بين مركزيتين تاريخيتين: المركزية الإسلامية في العصور

الوسطى والمركزية الغربية في العصور الحديثة تقوم كل منهما على الإقصاء والتركز حول الذات، إذ تنطلق كل مركزية من تصوراتها للعالم، لكن الفارق الجوهري بين الطرفين أن المركزية الإسلامية تعتقد بالناجز و«الكامل» و«النهائي» في حين تقر المركزية الغربية بالتطور وبتغيير الأشكال، وبأن الجديد منبثق من القائم، ولكنه متقدم عليه، لكنها تبقى على تصورها حول الشرق بأنه خيالي ومهلهل وغبي، ويرى د.عبد لله إبراهيم أنه أصبح القول بـ حيوية أوروبة وخمول العالم شيئاً شائعاً، فأكاديمية علوم باريس تقرر في القرن الثامن عشر أن أوروبة هي ما تغير، وما يتغير إنما يتغير بتقدم معارفنا وكل أجزاء العالم الأخرى هي في الجمود وينقل رأياً لرحالة أوروبي في القرن التاسع عشر قولا «آسيا هي الجمود أوروبة بالعكس تغير العالم والرأي لـ «دوفيز» الذي يعدد أهم العوامل التي أظهرت أوروبة بوصفها مكوناً متجانساً متعالياً مؤثراً، اللغة اللاتينية، الأدب القديم، البعثات الاستشراقية...»[١٥].

هذه الوضعية التاريخية والمعاصرة فرضت نفسها على الباحث العربي ليتجاوز «مركزية» اللغة العربية إلى حيوية اللغات الأوروبية الحديثة، في سعي منه للالتحاق بالنخب العالمية التي تبدع باللغات المركزية، وهذا السعي يقتضي الانفتاح من العربية بوصفها لغة العالم الخامل، ويكاد العربي المبدع أن يعلن عداءه للعربية من خلال وضعيتها المعيقة للتقدم، أو يكاد يشفق على عربيته من سكونيتها وحيوية اللغات الغربية.

الجماهير ومشكلة العلم الحديث:

في إثر الكشوف العلمية الكبرى في القرن التاسع عشر وبدايات العشرين تتزايد الإنجازات التطبيقية في الصناعة على مستوياتها كلها، ويتحول الكشف العلمي إلى قوتين قاهرتين هما: القوة العسكرية والقوة الاقتصادية، والأولى لحماية الثانية وحماية التنافس على الموارد وعلى الأسواق، ومع انشطار العالم على أساس اقتصادي سياسي منذ ١٩١٧ إلى ١٩٩١ إلى عالمين مختلفين في البنية السياسية والاقتصادية متفقين في البنية العلمية، تزداد عملية الاستقطاب بين أطراف العالم الآخر، وتغدو فكرة التبعية أولا وتغدو فكرة اللحاق ثانياً.

وأمام النزاع الأيديولوجي الذي شمل الجوانب كلها فتغدو اللغة العربية والثقافة المكتوبة فيها أمام محنة جديدة هي محنة «البقاء» ولم تعد - هنا - الترجمة غرضاً ترفياً، بل صارت لازمة وجودية، وقد حاولت القوى السياسية نقل المعارف

السياسيـــة والتقنية إلـــى العربية لتعميمها على الأوســـاط الشعبية، لعل هذه الأوساط تندمـــج فـــي المثاقفة مع الآخـــر المتقدم، فتبين أن هناك فروعا في المعرفة (فلسفة، اقتصاد، فيزياء، أحياء) لا تستجيب للوظيفة الشعبيـــة، فثمة علوم هـــي محض نخبوية، وهنا ترتد فئات شعبية عريضة إلى الثقافة الدينيـــة، كمحاولـــة مـــن المهـــزوم للدفاع عـــن ذاتـــه بالتمترس خلف مقـــولات أعيد استنساخها من جديد كـ «العربية أم اللغات» و«العربيـــة تأبى أن تتنصّـــر» و«العربية لغة أهل الجنة» وهذه الاستنساخات فعلت فعل المسكن الدوائي، - أزالت- شكلياً - بعض الأعراض لكنّ الداءات موجودة، ومما عزز السلبيـــة المجتمعية العربية إشاعة مقولات أكثر خطراً من المقـــولات السابقة كمقولة «الغرب خصه الله أن يتقدم بالعلم التجريبي أمـــا العرب فقـــد خصهـــم -سبحانه- أن يتقدموا بالإسلام» كانت هذه مقولة للمفكر الإسلامـــي د. محمد سعيـــد البوطي، وأما الفقيـــه السعودي عائض القرني فقد أوغل بعيدا في الفصل بين العقل والدين، إذ سوغ الفوارق المذهلة بين العرب والمسلمين من جهة وبين العالم الغربي من الجهة المقابلة النقيض بقوله: «خصـــ الله الغرب بالعلوم الدنيويـــة لينعم بهـــا المسلمـــون ويتفرغوا للعبادة، فيفوزوا بالجنة الخالدة» وفي كتابه «لاتحزن» مؤشـــر لافت للواقعة الاجتماعية وهي تتداخل مع الحالـــة الثقافية لظاهرة الكتب الأكثـــر مبيعاً، حيث بيـــع منه ثلاثة ملاييـــن نسخة عـــام ٢٠٠٦، ورواج الكتاب كان دافعـــه الاستشفـــاء وليســـ التثقيـــف، وعزوف الشباب عن الجاد إلى الممتع والى «السواليفـــي» بـــدلاً من العلـــوم الجادة»(١٦) ومممـــا تجدر الإشـــارة إليه شيـــوع كثير من الكتب التي تشجع على الانبهار بالذات إلى درجة الانقطاع عن الآخر، ومن طلائع تلك الكتب «ما يعد به الإسلام» لروجيه غارودي، وغارودي معروف عنه أنه من رجالات العلم والفلسفـــة والسياســـة في أوروبـــة، ولكنه في هذا الكتاب قـــدم للعقلية العربية على التخصيص وللعقلية الإسلامية على التعميم مسوغات جديدة للانقطاع عن الأطروحات العالمية المتجـــددة في العلـــم والسياسة، ولم يكتب غارودي كتابـــه المذكور اندفاعا منه أو قناعـــة بمعطيات الإسلام، إنما كتبه تحت شرطيـــن: الأول هو الإغـــراء المادي النفطـــي.. وهنا تقـــدم المؤسسات المالية الداعمة صـــورة عن طبيعتهـــا الزائفة في إرضاء «العامة» بآراء «الخاصة» من مفكري الغـــرب، والثاني هو النظـــرة الاستشراقية المستقبليـــة لمفكـــري الغـــرب التي تشجع روح الإعجاب عند العرب بأنفسهم وتشجع الوســـط المتعلم على التمســـك بـ«الثوابت»

كما تساعد الدوائر الاستشراقية المؤسسات العربيــة علــى أمرين همــا: الاستزادة من البحث فــي الأمور الدينيــة واللغوية تحت شرط «الاكتفــاء» طبعاً، والثاني الانصراف الكلــي عن البحوث التجريبيــة وخاصة إن فكر بها أن تُجرى بالعربية.

لغـة العلم؟ لغـة الأدب؟ لغـة أم لغتان؟!:

منذ أن وسعــت الكشوف الجغرافية في القرن السادس عشر رؤيــة الإنسان للعالم، والعالــم يعدِّل في آرائه ويبــدل في أشكاله ويطور آلياتــه، وبالاستتباع تنمو لغاته تحت شــروط اكتشافاته، فتغــدو كل لغة غير ما كانت عليه في إثر الثورة التقنية التي تتخذ – على مراحل – أشكالها المختلفة.

أما العربية فما تزال الوحيدة من اللغات المعاصرة الحية تخضع للسكون المذهل، وما تزال الذهنية العربية وعلى الأخص «اللغوية» ترى في طبيعة العربيــة طبيعة مثالية غير خاضعة لقوانين التقــدم التاريخي، فتعتمد تفسيــراً مثالياً يقطع الظاهــرة اللغوية عن غيرها من ظواهر التاريخ والمجتمع فتفرض تلــك الذهنية قانــون ظاهــرة مثالية على ظاهرة واقعية، فيأتي التفسير خارجيا غير مطابق أو مقــارب، وينتج عن التفسير ذاك فكــرة مؤداها: إن العربيــة مسيَّرة بقوانين محض ذاتية.

بينما يخلص البحث العلمي إلى علاقة موضوعية بين العقل البشري وبين عوالمه، ومنهــا اللغة نفسها مــن دون أن يقف عند حد وقوفاً نهائيــاً، فيرى الجانبين: المادي والمثالــي في علاقــة الإنسان مــع العالم وتلك العلاقة تقــوم على الترابط والانعتاق والتأثــر والتأثيــر، وهنا تعلــن كل ظاهرة عــن خصوصيتها في الانتمــاء إلى التاريخ والمجتمــع وفــي الانفصال عنهمــا، وفي الوقت الذي تنتمي فيه اللغة وتنفصل تكون أداة من أدوات التغيير، تفعل ذلك على أنها ذات طبيعــة اجتماعيــة انبثقــت من فكرة العمل الواعي الهادف.

ويــرى بعضــ الباحثيــن الأكاديميين: أن اللغــة لم يتضح بعدهــا الفني إلا بمرور ملايين مــن السنين مــن التجربة الروحية والاجتماعية والمعاناة الذهنية والجمالية، ومــن النضج النفسي والعضــوي للإنسان، وكان تطــور اللغــة يمثل واحــدة من أمجد الحقائــق في تاريــخ البشريــة، وفي هذا يلاحظ أمران:

الأول هــو أن أداة الأدب «اللغة» تختزن سياقا تاريخيــا واجتماعيا أكثر من أي أداة أخرى، ... والأمــر الثاني هو ارتقاء أدوات العمــل وعاداتــه وعلاقاته، فقــد أدى إلى انتقال اللغة من مجــرد تسمية الأشياء إلى تكوين المفاهيم المجردة والرموز.»[١٧].

ويبدو -جلياً- من تتبع التقدم التاريخي للإنسان أن تشكل المفاهيم وصناعة الرموز مؤشران إيجابيان على قدرات العقل الإنساني في امتلاك أداتين هما: التجريد والتعميم، وبهما فصل بين الحاجة الضرورية والأخرى الفنية من جهة، وبين الفكرة المطلقة في سعي من الإنسان «الفاصل» إلى التوصيل بين الفكر والواقع من جهة أخرى... في حين بقيت الفكرة المطلقة قائمة في رؤية «العربي» للعالم ومنها لغته، وظل الموقف المثالي يحكم العقلية العربية على المستويات كلها، والأمر عائد -كما نرى- إلى الارتباط التاريخي بين التفكير اللغوي بجانبيه النحوي والبلاغي وبين المعطيات الإسلامية، في حين تنحو اللغات البشرية إلى تطور البنية الداخلية بعيداً عما يخالطها من علوم تستعلي عليها، وهنا تؤسس اللغة خصوصيتها ضمن عمومية الأفكار الإنسانية.

أما لغة الفن، لغة الأدب، فهي شكل لنزوع الإنسان إلى التخلص من «الكثافة» المادية لتنشئ الكثافة الخاصة بها، وهي الكثافة السيكولوجية وبالإلحاق يحقق «الفن- الأدب، صياغة للعالم على هدي من حريته في إدراك العالم، ولكن لا يحقق ذلك بلغة خاصة إنما بلغة بلغت عتبةً عُليا من نضج الأدوات، فلم يكن ابن القرن الميلادي السابع بقادر على أن يكتب رسالة الغفران التي كتبها المعري في القرن الحادي عشر، فالقرون الهجرية الأولى رسخت ثقافة التعدد، إذ جعلت من العربية لغة لعصر ثقافي غني متعدد، وما كان الشاعر الجاهلي بقادر هو الآخر على النظم كما المتنبي والشريف الرضي، فالأدب وإن ظهر فردياً، إلا أنه أدب لأمة ذات ذوق جمعي، وعلى الرغم من خصوصية الأفراد في امتلاك اللغة كأداة وفي الرؤية للعالم من خلال وعيه وثقافته، إلا أن الفن عموما والأدب خصوصاً يعكس علاقة نوعية بين الإنسان وعالميه: اللغوي والاجتماعي».

وفي عصر العلم - من القرن السابع عشر إلى اليوم- تفاضلت اللغات تفاضلاً ينمُ عن ارتباط كل منها بمشروع التقدم التاريخي المختزل بمصطلح «الحداثة» مخلفة وراءها مصطلحي: النهضة والثورة، وحتى لا تقف عند «المطلق» ابتدعت مصطلحها الدال على نموها المطرد وقلقها المستمر في البحث عن الأشكال المفصحة عن مبتدعاته.

وعلى الرغم من هيمنة النزعة العلموية على العقل الغربي منذ اكتشافاته الكبرى فإن لغة الآداب القومية حافظت على خصوصية الأدب، وبدت الأعمال الأدبية الكبرى ترى العالم بعقلية فرضها التجريب،

وفي المقابل تزايدت نزعة «الأنسنة» وخاصة في الأعمال الروائية، ويتجلى هذا في روايات وليم فوكنر عن ولايات الجنوب والمشكلة الزراعية في أميركا.

ومما شجعت عليه النزعة العلموية هو «الحوار» بين العلماء بعيداً عن الحدود السياسية والجغرافية والإيديولوجية الذي أشاع بدوره روح العلم وأسس لفكرة «الاحتياج» إلى الآخر، مهما كانت الذات مبدعة، مقصياً فكرة «الاكتفاء» فالانتصارات المذهلة في العلوم الوضعية عززت فكرة التواصل بين الأمم واللغات والعلوم، وصارت البشرية بفعل ما تحقق على دين علمائها، وليس على دين ملوكها.

الهوامش

1 - سلامة موسى- البلاغة العصرية واللغة العربية.
2 - د. عبد الكريم خليفة- اللغة العربية والتعريب- دار الفرقان- ١٩٩٧- ص١٢٢-١٢٣-إربد- الأردن.
3 - عصر العقل - ترجمة ناظم الطحان- دمشق- وزارة الثقافة - ١٩٧٥، ص٧.
4 - جورج طرابيشي- شرق وغرب- رجولة وأنوثة- دار الطليعة - ١٩٧٧- ص١١—١٢.
5 - هاشم صالح- مخاضات الحداثة التنويرية- دار الطليعة- ٢٠٠٨- ص٢٧٤.
6 - سمير أمين- نحو نظرية للثقافة - معهد الإنماء العربي- ط١ ص١٣.
7 - علم اللغة- مقدمة للقارئ العربي- بيروت دار النهضة العربية- ص١٣٠.
8 - عبقرية اللغة العربية- دار الكتاب العربي- ١٩٨١- ص٥٤.
9 - شرق وغرب- رجولة وأنوثة- مصدر سابق- ص٨- ١٠.
10 - فقه اللغة وسر العربية- مطبعة السعادة- مصر- ١٩٢٣م- ص١٨٠.
11 - الشاهد من كتاب العربية لغة للعلم لـ محمد أبوغيّور.
12 - أصول النحو العربي- جامعة تشرين- ١٩٧٩- ص١٣٢.
13 - عبقرية اللغة العربية - مصدر سابق- ص١١٠-١١٧.
14 - رسالة ابن فضلان- ص١٠٣.
15 - المركزية الغربية - المركز الثقافي العربي- الرباط- ١٩٩٧- ص١٥-١٧.
16 - راجع كتاب اليد واللسان الصادر عن «العربية» ع ١٧٢ لعبد الله الغذامي تحت عنوان لا تحزن ثقافة الاستشفاء ٢٠١٢.
17 - عبد المنعم تليمه - مقدمة في نظرية الأدب- ص١١-١٦- دار العودة- ١٩٧٩.

«أياغو: الشخصية الشيطانية المركبة!»

❀
إبراهيم محمود الصغير



إنَّ عبقرية شكسبير في مسرحياته كلها، التراجيدية والكوميدية والتاريخية، لا ترتكز فقط على مواضيعها الرائعة، وحبكتها الممتازة، وشاعريتها الساحرة، وأسلوبها الفاتن، وإنما ترتكز أيضاً على اختياره الرائع والمدروس للشخصيات فيها، إن كانت رئيسية أو ثانوية، تراجيدية أو كوميدية، حتى باتت أكثر شخصياته معروفة في كل أنحاء العالم كهاملت وعطيل وما كبث والملك لير وشايلوك وفالستاف وغيرهم.

❀ أديب وناقد.

العمل الفني: الفنان فتحي صالح.

ومع أن أكثر شخصياته هم من الملوك والأمراء والقادة والنبلاء إلا أنه لا يظهرهم كما هم في مراكزهم الاجتماعية، بقدر مايظهرهم كغيرهم من الناس العاديين، يتمتعون بكل المشاعر الإنسانية كالحب والكره، والغيرة والحسد، والحقد والطموح، والجشع والغضب والتهور وغيرها من المشاعر الإنسانية الكامنة في أعماق النفوس، والتي يشترك بها كل الناس، على اختلاف أجناسهم وطبائعهم وطبقاتهم وعاداتهم ولغاتهم وغير ذلك في كل بقاع العالم. وهذا ما جعل مسرحياته مقبولة لكل الناس، وشخصياته قريبة جداً منهم وتماثلهم في السلبيات والإيجابيات، خاصة وأن شكسبير يربط المأساة بنقطة ضعف في الإنسان هي التي تؤدي إلى نهايته المأساوية. فعطيل قضت عليه غيرته العمياء، وهاملت قضى عليه تردده، وماكبث قضى عليه طموحه الأعمى، والملك لير قضى عليه تهوره وغضبه السريع، وهكذا مع بقية شخصياته المأساوية الأخرى.

والجميل في شخصياته المأساوية أنها لاقت إعجاباً شديداً من جميع المشاهدين والقراء، بكل ما فيها من نقاط ضعف، لأنه ما من إنسان إلا ويعاني من نقطة ضعف موجودة فيه. لذا رأى الناس في كل مكان أنفسهم مجسدين في هذه الشخصيات، ويعانون مثلها تماماً. والأجمل من ذلك في هذه الشخصيات المأساوية، أن شكسبير يجعل المشاهدين أو القراء، يتعاطفون معها بشدة، رغم جرائمها وأعمالها البشعة أو الوحشية أحياناً، ذلك بأنه يوجد لها المبررات المقنعة لأعمالها، لأنه ما من إنسان يختار طواعية نهايته المأساوية، إلا أن يكون مجبراً على ذلك، إما لعدم قدرته السيطرة على نقطة ضعفه الموجودة فيه، لأنه إنسان ضعيف عاجز يحتاج لكل الناس حوله، أو لوجود مغريات ومشجعات حوله تؤدي به إلى الهلاك، أو لظروف خارجية قاهرة تؤدي كذلك إلى دماره وهلاكه. والناس، وإن كانوا في الواقع يتعاطفون مع شخصيات شكسبير المأساوية، إلا أنهم يرضون في النهاية بإنزال العقوبة بهم، لأنه لابد للإنسان، في النهاية، أن يدفع ثمناً لما تقترفه يداه من الجرائم والآثام، مهما كانت المبررات والمسوغات، وهذا يعطيهم الشعور بالارتياح وإرضاء الضمير.

إنَّ شخصيات شكسبير المأساوية والتاريخية في معظمها شخصيات مركبة، وليست أحادية الجانب أو نمطية الشكل كما في الشخصيات الكوميدية. فالشخصية أحادية الجانب هي التي تظهر لنا بالشكل الخارجي فقط، دون أن نعرف دواخلها ونوازعها وأفكارها الحقيقية.

بينمـــا الشخصية المركبة هـــي التي تظهر لنـــا بشكلهـــا الخارجـــي والداخلـــي معاً. بمعنـــى أننا نستطيع أن نراها مكشوفة على حقيقتهـــا أمام أعيننا، ونعرف كل خفاياها، ومـــا تفكر فيـــه، وما يفرحها ومـــا يؤلمها، ومـــا تهدف إليـــه، إلى آخر مـــا هنالك من نـــوازع وأحاسيس بشريـــة. إلا أن شكسبير يمتاز عن غيره مـــن الكتاب في أنه يعرض علينا بعضـــ الشخصيات المركبة، غير أنه يبقـــي بعض جوانبها مبهمـــة وعصية على الأفهام، بحيث تكثر الدراسات والتفسيرات والتكهنـــات والآراء حولهـــا، وكل واحد من النقاد والدارسين يعتقـــد أنه فهمها، ولكن من وجهة نظره الخاصة. وإلى الآن ما زالت الدراسات المختلفة حول بعض شخصياته مستمرة، منها الأدبي والاجتماعي والنفسي والتاريخـــي اللغـــوي وغيرها. ومـــن أشهر شخصياتـــه المثيرة للجـــدل والنقاش حتى الآن هاملـــت والملك ليـــر وعطيل وما كبث وأياغو وغيرهم.

وأياغـــو هذا الذي ذكرناه مع من ذكرنا، والذي نحن بصدد دراسته وتحليله، هو أحد شخصيات مسرحيـــة عطيل، وهو شخصية ثانوية، كدور تمثيلي، ولكنه شخصية مؤثرة بكل شخصيـــات المسرحية الأخرى، بحيث يغـــدو هو الشخصيـــة الرئيسية والمحورية من حيث تسلسل الأحداث والنتائج النهائية فـــي المسرحيـــة. فـــإذا حذفنـــا أياغو من المسرحيـــة، حذفنا المسرحيـــة كلها، لأن المسرحية تقوم على أفعال أياغو، والتي هي الهيـــكل الذي تتفرع منه أفعال الشخصيات الأخـــرى كنتيجـــة لها. ولكـــي نتعرف على أياغو، وعلى أفعالـــه، سوف نستعرض دوره في المسرحية باختصار.

أياغو في مسرحية عطيل:

أياغو فـــي المسرحية هـــو حامل العلم للقائـــد العسكـــري عطيـــل. ومنـــذ بداية المسرحية نـــرى أياغو يكره عطيل لأسباب كثيرة، سنذكرها بالتفصيل فيما بعد ونتيجة لكرهه يحـــاول أن ينتقم من عطيل بوساطة إدخـــال الشـــك في قلبه مـــن ناحية زوجته الجميلة ديدمونة، والتـــي تزوجها من فترة قريبـــة، وذلك بإيهامه أنها على علاقة آثمة مع ملازمه كاسيو، والذي هو شاب وجميل. وفـــي الحقيقة لـــم تكن هنـــاك أي علاقة آثمة بيـــن كاسيو وديدمونة، إلا علاقة مودة واحترام، ولكن أياغو يستغل هذا في تدبير مكائـــده ليـــزرع الشك والريبـــة أكثر فأكثر فـــي قلب عطيـــل. وينجح أياغـــو في جعل كاسيو يشرب الخمـــر ليسكر ثم يتورط في مشاجـــرة مع بعض الجنود، فيفصله عطيل من منصبـــه، تشفع ديدمونـــة لكاسيو لدى زوجهـــا بحرارة وإلحاح وتطلب منه أن يعفو

عنه ويعيده إلى منصبه يستغل أياغو هذا الواقع كوسيلة لإقناع عطيل بخيانة زوجته، كما ينجح في سرقة منديل ديدمونة، وكان المنديل أول هدية لها من زوجها، ثم يتسلل إلى غرفة كاسيو ويضع المنديل على سريره. يلفت أياغو نظر عطيل إلى المنديل. ويسأل عطيل ديدمونة عنه، ولكنها لا تعرف كيف فقدته، ولا أين وضعته ويرسخ في اعتقاد عطيل أن زوجته تخونه مع كاسيو، فيطلب من أياغو قتل كاسيو، إلا أن كاسيو يجرح فقط وينجو من الموت. تحزن ديدمونة من أجل كاسيو، ويعتقد عطيل أن حزنها تأكيد لعلاقتها به، فيقوم بخنقها. تفضح إميليا، التي كانت وصيفة مخلصة ومحبة لديدمونة، تفضح زوجها أياغو بأنه هو الذي طلب منها المنديل وأنها أعطته إياه دون أن تعرف لماذا، وأنه حتماً من قام بالمكيدة ودبرها. يندم عطيل على قتله زوجته ديدمونة ويقتل نفسه بخنجرة ليسقط ميتاً إلى جوار زوجته ويلقى القبض أخيراً على أياغو بعد أن تنكشف كل مكائده. لقد أدت دسائسه ومكائده إلى سقوط ضحايا عدة بشكل مأسوي وظالم كعطيل وديدمونة وإميليا ورودريجو وجرح كاسيو، والتسبب بالحزن والألم لبقية شخصيات المسرحية.

كراهية أياغو لعطيل:

منذ بداية المسرحية، ومع دخول أياغو ورودريغو إلى المسرح، نرى أياغو يظهر كرهه الشديد لعطيل صراحة، حيث يقول لرودريغو: «أكره المغربي، أليس هذا الدافع كاف؟» ثم يضيف قائلاً: «إنما أتبعه لأنتقم منه. فإذا أتبعه فإنما إياي أتبع ويشهد الله أنني لا أوقره ولا أطيعه، غير أنني أداجيه بالتوقير والطاعة توسلاً بهما إلى أغراضي»

وفي مكان آخر يقول: «أنا أمقت المغربي». وفي الحقيقة أن المسرحية كلها تقوم على كره أياغو لعطيل ومحاولة الانتقام منه. وهو يظهر لنا بعض أسباب كرهه لعطيل، بينما يخفي بعضها الآخر، وما يخفيه هو الذي يثير التأويل والتفسير والجدل بين النقاد، وسوف نذكر ذلك في حينه. ومن الأسباب التي يفصح عنها ويذكرها صراحة هو اختيار عطيل لكاسيو كملازم له بدلاً منه، مع أنه أكفأ من كاسيو وأجدر منه بهذا المنصب حيث يقول: «وبحق الرجولة إنني لأعرف قيمة نفسي وأعرف أنني كفء لتلك المنزلة». وظل هذا الأمر يثيره ويثير حقده إلى آخر المسرحية.

أما السبب الثاني لكرهه لعطيل فهو شكه بأن عطيل يتودد إلى زوجته إميليا، وأن هناك علاقة بينهما، وفي ذلك يقول:

«يظــن الجمهور أنه أعلي منصبي من تحت لحافي على أنني لا أعلم إن كان هذا الظن صحيحــاً. ولكن الوهم فــي مثل هذا يكفي عندي للحلول محــل الحقيقة». وفي مكان آخــر يقول: «أظــن أن المغربي الفاسق قد اندس في فراشي، وهو تخمين يأكل الأمعاء أكل السم المعدني، ولا شيء يرفه عن نفسي إلا أن أجعله عديلــي، امرأة بامرأة. فإن لم أستطع أن أثير فيه من نار الغيرة مالا يقوى عليه العقل».

ومن خلال أحاديــث وتصرفات أياغو، لا يخفــى علينا احتقــاره العنصري للرجل الملــون، فهو غالبــاً ما يشيــر إلى عطيل بكلمة (المغربــي) تمييزاً له عن المواطنين الإيطاليين. وهو يقول أيضاً لبرابنسيو والد ديدمونة باشمئــزاز واحتقار: «فحل عجوز أسود يغشى نعجتــك البيضاء». ويقول في مكان آخر، وهو يشــرب مع كاسيو: «هناك بعض الكــرام القبرصيين يســرون بشرب نخــب في صحــة عطيل الأســود». ويشير في نهايــة المسرحية إلى موطن عطيل في موريتانيا في أفريقيا وهي كناية عن موطن يسكنه السود.

وهناك سبــب يظهر أيضــاً، من خلال تسلســل الأحــداث، هو أن أياغــو يغار من عطيــل، وأن غيرة أياغو المريرة ناجمة عن تفــوق عطيل، حيث يقول فــي البداية: «لو كنت أنا المغربي، سوف لا أكون أياغو». أي لو كنت في مركــز واحترام عطيل سوف لا أحتاج لأن أتظاهر له بالولاء ثم أكرهه.

إنه يغــار من تفوق عطيــل الاجتماعي والعسكري، ومن حــب واحترام الجميع له، وبشكل خاص من فوزه بديدمونة زوجة له. وبما أن أياغو كما نلاحظ، طموح جداً، فقد عزم على تحطيم عطيل فهو، برأيه، أنه إذا كان عطيــل المغربي الأسود الغبي والغريب عن بلده إيطاليّاً قد أصبح قائداً للجيش في البندقية، فلِــمَ لا يصبح هو قائداً بدلاً منه مــع أنه إيطالي وذكي جداً وصاحب تجارب وخبرة؟

أمــا السبــب الهام جداً في كــره أياغو لعطيــل، والذي يؤكد عليــه كثير من النقاد هو حب أياغو لديدمونة. بل إنَّ بعض النقاد يعتبــر أن المسرحية كلها تتوقف على هيام أياغو بديدمونــة، إلا أن بعضهم ينكر ذلك ويقــول: «إذا كان أياغو يحب ديدمونة حقاً، فلمــاذا يوغر صــدر عطيل عليهــا بالغيرة الشديــدة وهذا ربما يسبب لها الأذى وربما الموت؟» ويجيــب الفريق الأول: «لا بد أنها رفضته، أو تكبرت عليه فانقلب عليها، وأراد أن ينتقــم منهــا ومن عطيل الــذي فضلته عليه».

وفي هذا يقــول أياغو: «أنا أحبها الآن، لا لشهوة تقضــى، وإن كان الإحساس الذي

يدفعنـــي إليها لا يقل عـــن ذلك إجراماً، بل لأنها تهيِّئ لي سبيل انتقامي». وأياغو يعتبر أن عطيل ســـرق ديدمونة منه، وأنه خدعها بأساليبـــه الماكرة حتى قبلـــت به. ويجيب الطرف الآخر: «هذا غيـــر صحيح، فلو أن أياغـــو أقر برغبته الجسديـــة في ديدمونة فيكون ذلـــك مناقضاً لفلسفته بـــأن العقل يستطيـــع السيطـــرة علـــى العاطفـــة حية» يقول: «وما الحب إلا شهوة الدم وإجازة من الإرادة.... قبـــل أن أغـــرق نفسي في غرام دجاجة حبشية سأحول نفسي من رجل إلى قرد». فأياغو هنا، يصر بأن حبه لديدمونة هو نتيجة، وليس سبب مقته لعطيل.

وهناك رأي شخصي مستنبط من سياق الأحداث ومـــن دراسة وتحليـــل لشخصية أياغـــو، وهـــو للناقـــد المعـــروف (آ. سي. برادلي)، والـــذي سنعرض أهم أفكاره حول شخصية أياغو فيما بعد. يقول برادلي: «إن عقيدتـــه، أي أياغو هي أن الأنانية المطلقة هي الموقـــف العقلانـــي الصحيح». لذلك يشعر بالتفوق علـــى الجميع، وكل ما يجرح حسه بالتفوق يزعجه حالاً، لهذا يعمل على إرضـــاء حس التفـــوق لديـــه بالتسلط على الآخرين، وخاصة عطيل وكاسيو وديدمونة، وهـــذا الحس هو أشهر القوى التي تدفع به وتجعله يكره ما حوله ويحاول تدميره.

دهـــاء أياغو وقدرته علـــى حبكة الشر: لم يصور الشـــر في أي مكان آخر بالبراعة التـــي صورهـــا شكسبير بها فـــي شخصية أياغـــو، حتـــى إنَّ أحد النقاد قـــال: «ولكن والـــد مفستوليســـ (اســـم الشيطـــان عند غوته) والكثيرين غيره من أشرار الأدب هو أياغو بالذات». ويقـــول عنه أيضاً (آ. سي. برادلي): «ولكنه شر يشكل الروح بأكملها في شخصية واحدة». وتقول عنه إميليا، زوجته في المسرحية بشـــكل عفوي وساذج، وذلك قبـــل أن تعرف دوره فـــي المكيدة الشريرة، وكان وصفها من أفضل ما وصف به أياغو: «لقـــد خُـــدع المغربي خدعه أحـــد السفلة الأدنياء المجرمين الأبالســـة، أحد المكرة الممتهنين». كمـــا يقول بعضهم في معرض التعريف عنه: «إن أياغو كان يكره الفضيلة لأنها فضيلة ويحب الرذيلة لذاتها، وفعله لا يحـــدوه إليه دافع بسيط كالانتقام أو الغيرة أو الطمـــوح، بل هو ينبع عن (شرانية لا دفع لها) أو تلذذ موضوعي بآلام الآخرين».

لقد بدا أياغو في المسرحية رجلاً حقوداً جبـــل على حب الانتقام لأتفه الأسباب، كما بـــدا مريض الضمير لا يبالي بإشقاء الغير، بـــل كان يتلذذ بهذا الإشقاء. إنَّه الشر الذي يسعى لتحطيم الخيـــر. وهو بارد ماكر في كرهـــه، يدبر المكائد في هدوء وعن ترصد وسبـــق إصرار، بل يعترف ويقول: «هذه هي خطتـــي وهي الكتمان، فـــإذا جاء زمان باح

فيه ظاهري للرجل ببعض ما في باطني. أنا غير ما يرى مني». والعجيب أنه يبقى هادئاً لا يظهر عليه الاضطراب حتى في أشد المواقف خطورة، وخاصة عند النهاية حيث يقول: «هذه الليلة ليلتي. فإما العمار وإما الدمار»، إنه يعرف العاقبة إذا انكشفت خطته، ولكنه يظل هادئاً لا يظهر عليه الخوف والارتباك حتى لكأنه جامد ليست له أحاسيس.

كان دهاؤه هائلاً، ولكن حظه كان هائلاً أيضاً، فقد خدمته الظروف المحيطة به بشكل لا يصدق. فظاهره يبدو للجميع مستقيماً وأميناً ومخلصاً، لكن باطنه مليء بالحقد والأنانية والشر. إنه يستلذ وينتشي بإثارة الشر والشجار والتحريض على الكراهية، وخاصة عندما يستحث رودريجو أن يصرخ ويثير الجلبة في المدينة قائلاً: «ناد أباها، أيقظه من نومه ناوئ ذلك المغربي، دس السم في هناءته. أجهر باسمه في الأسواق». أو حين يثير الشجار بين كاسيو وبعض الجنود ويأمر رودريجو بأن ينطلق قائلاً: «طر. طر. وصح فتنة... فتنة..».

لقد كان من الدهاء والذكاء بحيث استطاع أن يدرس نفسيات من حوله،وأن يتغلغل إلى ذواتهم، ويعرف أفكارهم وتصرفاتهم وعاداتهم، وأن يتلاعب بمشاعرهم وأحاسيسهم حتى أصبحت كل الشخصيات الأخرى حوله أدوات في لعبته الانتقامية، إلا أنه ركز جل اهتمامه على عطيل، لأنه يعتبره عدوه الأول وصب كل كراهيته وانتقامه عليه بشكل وحشي وقاسٍ. فكل شيء نبيل في عطيل كان يتحدى كل شيء خبيث فيه، مع أنه يعترف في قرارة نفسه ويقر بأن عطيل إنسان صالح وجيد: «إنه ذو خلق حر وصريح، ويعتقد أن كل الناس شرفاء لأنه هو كذلك». و أياغو لذلك، يستغل طيبة عطيل وثقته به في تدبير المكائد له، حيث يقول: «الرجل يحترمني، واحترامه إياي يزيدني رجاء بإفلاح مكايدي».

لقد كان لفهم أياغو لطبع عطيل أهمية كبرى. لأننا باستطاعتنا فهم انسجام الرواية تماماً، عندما ندرك أن شخصية عطيل هي النبع والدافع لتصرف أياغو. لقد أخذه من أضعف نقطة فيه وهي الغيرة، فبدأ يثيرها ويزرع الشكوك حول زوجته، بالتلميح والمواراة والتزييف للحقائق. ومن أشد أساليب أياغو مكراً ودهاء تصويره لعطيل أن نساء البندقية لا يعتبرن الخيانة الزوجية من كبائر الأمور، على عكس نظرته هو إليها، وأن من المستحسن لعطيل أن يرضى بالوضع كأي زوج إيطالي. بل إنه يصر على تزييف الحقيقة حول منديل زوجته ديدمونة قائلاً: «إنني رأيت منديلاً في هذا

الشكل بيد كاسيو وكان يمسح به لحيته هذا الصباح».

لقد كان أياغو يستلذ وينتشي وهو يرى عطيل ينهار ويتحطم تحت أثقال غيرته الشديدة، فيقول في تشف وانتصار: «لا الخشخاش ولا غيره من المرقدات القوية يعيد إليك بعد الآن المنام الهادئ الذي كنت تنامه بالأمس». بل إنه يشعر بقمة اللذة والنشوة والنصر بعد أن يصفع عطيل ديدمونة، فيقول: «لا بذمتي لم يكن عملاً جميلاً، ولعله لا يتبعه بأقبح». إنه يعرف أنه قد أصاب الهدف، وأن الطعم قد التقطه عطيل، وأن الأعظم آت في الطريق. ومن حبه لذاته، واستمتاعه بشعور التفوق والسيطرة على كل من حوله يقول في شكل صلاة وابتهال لآلهة الشر والدمار، وطالباً من ملائكة الجحيم أن تتعلم منه ومن خطته الجهنمية التي لن توقع عطيل وحده فقط بل وديدمونة وكاسيو: «إيه يا آلهة سقر، متى أراد الزبانية الإيعاز بأشنع الخطايا صوروها في المبدأ بأبدع الصور السماوية كما أفعل الآن. لأنه بينما ذلك الأبله، سليم الطوية كاسيو يسعى لدى ديدمونة لاستعادة مكانته، وبينما هي تشفع له عند المغربي بقوة، أدس أنا في أذن عطيل سم الريب في حقها، بما أدخله على قلبه من أن رقتها لكاسيو ليست عن مبرة ولكن عن شغف أثيم. بقدر ما تزداد إلحاحاً في التماس الرأفة له يزداد تأييدها لسوء الظن عند المغربي. وهكذا آخذها في فخ فضيلتها واستخرج من مروءتها الفخ الذي أوقعهم فيه جميعاً».

أياغو: دراسة وتحليل:

من أهم النقاد الذين تناولوا شخصية أياغو بالدراسة والتحليل هو الناقد (آ. س برادلي)، والذي نستعرض هنا أهم أفكاره وتحليلاته، حيث يقول: إن أياغو يمتلك ذكاء متميزاً مشفوعاً بقوة إرادة متميزة. فنفاذ بصيرة أياغو، ضمن حدود معينة، إلى دواخل الطبيعة البشرية، وبراعته وتكييف ذاته في استغلالها، وسرعة بديهته، ومهارته في معالجة المصاعب الفجائية، والفرص الطارئة، ليس لها في الأغلب ما يوازيها في أي شخصية درامية أخرى. وقوة إرادته متميزة كذلك، فهو لا يفلح فقط في عدم الكشف عن طبيعته الحقيقية، بل إنه يتحكم في كل حركة أو بادرة قد تنال من إرادته، وفي أخطر اللحظات مكيدية عندما تكون أدنى زلة أو هفوة مجلبة للموت. لا يبدو عليه أثر لاضطراب في العصب.

وعندما يمسك به عطيل من خناقه يغير دوره بخفته الآنية المعتادة. وعندما يهاجم ويجرح في النهاية يبقى رابط الجأش تماماً. ولسوف نعترف بأن سيادة الإرادة

هذه وهي لديه عقيدة وممارسة أمر عظيم يقارب السمو، ولا ريب أن أياغو عظيم فعلاً من حيث الـذكاء (ضمن حدود معينة) ومن حيث الإرادة.

إن عقيدته هي أن الأنانية المطلقة هي الموقـف العقلاني الصحيـح الوحيد. وأن الضمير أو الشرف، أو أي اعتبار للآخرين، إن هو إلا سخف محض. إنه يعتبر معظم الناس بلهاء بأمانتهم، ويجاهر بأنه لم يلق قط إنساناً يعـرف كيف يحب نفسه. والإعجاب الوحيد الذي يعبر عنـه في المسرحية هو إعجابه بالخدم الذين «يرتدون من الواجب أشكاله ووجوهه، ويبقون قلوبهم في خدمة أنفسهم – هؤلاء فيهم شيء من روح».

غيـر أن الواضـح هـو أن أياغو شديد الحساسية لأي شيء يمس كبرياءه أو اعتداده بذاتـه. ومن الظلم أن ندعوه مغروراً، ولكنه شديد الاحتقـار للآخرين. وهو يعي تفوقه عليهـم من نواحي معينة. أما الصفات التي يفوقونه بها فإنها يحتقرها أو لا يؤمن بها. كل مـا يجرح حسه بالتفـوق يزعجه حالاً. وهذا هو السبب فـي أن تعيين كاسيو يثير حنقـه. وهذا هو السبب فـي غيرته على أميليا، كي لا يتعرض للشفقة أو السخرية كزوج شقـي. ولهـذا السبب أيضـاً نجده حاقـداً على الفضيلة، ومع أنـه يشعر بأنه الأكفـأ كثيراً، دون الآخريـن، إلا أن الذين مـن حوله علـى حماقتهم فـي صراحتهم وكرمهم يفلحون في الحيـاة أكثر من رجل (فيه شيء مـن روح). وهذا يجرح كبرياءه، ولنذكر بشكل خاصـ حسه العميق بالتفوق وازدرائه الآخرين، وحساسيته لكل ما يمس هذه المشاعر، وحقده على الطيبة في الناس كشيء غبي يناقض طبيعته ويزعزع كبرياءه، إن في قول أياغو: «أحقق مشيئتي وأزهوها» أي: أزيد من حسي للتسلط والتفوق، الدافع الحقيقـي اللاشعوري في كثيـر من أفعال القسـوة التي مـن الظاهر أنهـا لا تصدر بصـورة رئيسية عـن الضغينة، ولذلك هي أشـد ما يحيرنا، وأحيانـاً يرعبنا. كالرجل الذي يصاول زوجته وأولاده وينغص عيشهم بأوامره مـع أنه يحبهم. وهكـذا الأمر مع أياغو، حسه المحبط بالتفوق يريد الرضى وأي رضـى بوسعه أن يجد أعمق من شعوره بأنه سيـد القائد الكبير الذي غمطه حقه، وسيد المنافس الذي فضل عليه، وأن هؤلاء المحترمين الناجحين المحبوبين الأغبياء، هـم مجرد دمـى بين يديه. إنَّ تـوق أياغو لإرضـاء حس التسلط هو أشهر القوى التي تدفع به.

بيد أن أياغو، فـي النهاية، ليس مجرد رجل فعل، إنه فنـان، مكيدته حبكة، حبكة دراميـة معقدة، وفـي تخطيطها وتنفيذها يجـد توتر الخلـق الغني ولذتـه. حتى في

المشاهد الأخيرة التـــي يبدو لنا فيها عدم احتمـــال نجاح خطته بكاملهـــا، لاعتمادها أكاذيب كثيرة متنوعة، يظهـــر لنا أحياناً لا في مظهر المخطط الداهية، بل في مظهر رجل مفتون سائر حثيثاً إلى دمار حتمي.

إنَّ أياغـــو واحـــد من أبـــرز شخصيات شكسبيـــر الشريرة، لأن مبدعه استخدم في خلقه أبرع الخيال وأعمق التصور، إنه يعرض علينـــا الشر فيه مطلـــق. والأدهى من ذلك أن هذا الشـــر المطلق مقرون بقدرة ذهنية خارقة، وإنه لا يقف وحده، إنه جزء من كل. نراه فاعـــلاً ومنفعلاً معاً، مدمِّـــراً ومدمَّراً معـــاً. والقوى التي تحركـــه وتصنع مصيره هي حس القوة، والمتعة في إنجاز عمل شاق خطـــر، والمتعة في أعمـــال المهارة الفنية، ليست أمور شريرة أبـــداً، إلا أنها في أياغو مصحوبة بأمر مقيت يـــؤدي بها إلى الشر. ونحن نجد أن نفـــاذ بصيرة أياغو، وسرعة بديهته، وبراعته، وحسن خطابه، كلها أمور حرية بالإعجاب. والرجل الكامل يتمنى أن يتحلى بها، كما يتمنـــى أن يتحلى بشجاعة أياغـــو وسيطرته على نفسه، ويتمنى لو أنه مثله يستطيع أن يسمو على نزوات مشاعره، ويكـــون سيد عالمه الداخلـــي، إلا أنها عند أياغـــو تجعل إعجابنا مختلطاً بالكراهية أو النفور.

وتبقى أخيراً فكرة أن أياغو رجل خارق الذهـــن، ولكنـــه فـــي الوقت نفســـه خارق النذالـــة. فعجزه فـــي الإدراك وثيق الصلة بسوئه، والقوة التي هاجمها هي القوة التي دمرته وهي قوة الحب. وقد دمرته لأنه كان عاجزاً عن فهمهـــا، وعجز عن فهمها لأنها لم تكن موجودة فيه.

لقد استطاع أياغـــو أن يفهم الأشخاص حولـــه، وأن يسيطر عليهـــم ، ولكن الشيء الذي لم يتوقعه، والذي كان الأشد في دماره هـــو زوجته. لقـــد كانت مطيعـــة له في كل شـــيء، وكان يعتقد أنه يعرفها تماماً، إلا أن شيئاً واحـــداً فيها لم يعرفه، وهو أنها تحب سيدتها، وأنها تفضل أن تجابه مئة ميتة ولا أن يصاب اسم سيدتها بلوثة.

لقـــد كان أياغو، كما يقول بعض النقاد، بطلاً مأساوياً كعطيل تماماً، وبما أن البطل المأساوي، عند شكسبيـــر، هو الذي يعاني مـــن نقطة ضعف كبيرة فيه، هي التي تؤدي إلى دماره، فإن أياغو كان يعاني من الأنانية المفرطـــة التي تـــؤدي إلى الثقـــة الزائدة بالنفس، وإلى حب السيطرة على الآخرين، وكره كل من يقف بطريقه، وأن أنانيته هذه هي التي أودت به إلى الهلاك في النهاية.

المصادر والمراجع:

١- عطيل، وليم شكسبير، ترجمة خليل مطران، دار نظير عبود، بيروت، ١٩٩١، ط١.
٢- عطيل: مأساة شكسبير العظيمة، وليم شكسبير، ترجمة محمد نمر المدني، دار أسامة، دمشق، ٢٠٠٨.
٣- عطيل، وليم شكسبير، ترجمة محمد كامل حسن، مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٧٤.
٤- مأساة عطيل مغربي البندقية- وليم شكسبير، ترجمة جبرا إبراهيم جبرا، المؤسسة العربية، بيروت، ١٩٨٢.
٥- عطيل، وليم شكسبير، ترجمة غازي جمال، دار العلم للجميع، بيروت، بلا تاريخ.
٦- عطيل، وليم شكسبير، ترجمة إبراهيم جلال، العالمية، القاهرة، ٢٠٠٩.
٧- تاريخ الأدب الإنكليزي، جون بيرغس ويلسون - لونغمان، لندن، ١٩٧٠.
٨- ماكبث: الطموح الأعمى والضمير المتمرد، إبراهيم محمود الصغير، مجلة المعرفة السورية الصادرة عن وزارة الثقافة بدمشق، العدد (٦١٦)، ٢٠١٥.

ما بين الأدب الشعبي والعامي من اختلاف وائتلاف

❀
د.كارين صادر

عاشـــ الأدب آمـــاداً طويلة ربيب القصـــور والملوك، وعاش الأدباء في رحلة دائمة من ملـــك إلى آخر، ومن مملكـــة إلى أخرى ليقدّموا بضاعتهم الفخرية والمدحيـــة لهم في الدرجة الأولى، ثم ليطلقوا في سماء عليائهم نسائم الغزل والخمر حين يُسألون.

واستمـــرّ الشعـــب غائباً عن ذهن الشاعـــر في مرحلة التأليف موضوعاً، وفي مرحلـــة الإنشاد متلقياً أحقاباً طويلة، وبقي



عطاؤه أدباً رفيعاً يحلّق فوق رؤوس الجماهير من دون أن يراها، ويقفز فوق هموم البيئات الشعبية من دون أن يمسّها.

❀ كاتبة وباحثة من لبنان الشقيق.

والحجّة أنَّه فنّ سموّ ورفعة، غايته ليست مجاراة أبناء البيئة الشعبية في مباذلها ومعاناتها، بل السموّ بها إلى أعلى، ليهذّب عواطفهم ويصقل مشاعرهم.

وفي أوائل العصر العباسي، بدأت المسافة تقصر، وراحت إرهاصات النتاج الأدبي الشعبي تنتظم في تيار سمّي «التيّار الشعبي في الأدب» الذي نزل به أصحابه إلى الشعب، فسجّلوا صرخاته، وصيحاته، ورسموا حرمانه ومعاناته بألوان صارخة، وحاولوا أن يطرقوا بها أبواب الملوك، فصدّت في وجوههم، ومنهم الشاعر أبو الشمقمق، وأبو فرعون الساسي وغيرهم...

ثم إنَّ هذه البيئات الشعبية بدورها، وفي مرحلة متقدمّة زمنياً، ونظراً لتضافر ظروف سياسية واجتماعية، وثقافية معينة، لم تعد تنتظر أن ينزل إليها ذلك الأدب الرفيع من عليائه لتجد فيه نفسها، وتنهل منه مايروي عواطفها، ويصقل شخصيتها، لأنها وجدت نفسها في أدبها الخاص وفيما تفيض به عواطفها من الأحاديث، والقصص، والحكم، والأمثال، والأغاني، والاعتقادات.

وذاك هو الأدب الشعبي الذي كان منها وإليها، تملؤه ويملؤها، والذي شكّل أقوى مؤثّر في حياة البيئات الشعبية، وأكبر محرّك لوجدان جموعها.

وعمل هذا الأدب على بناء شخصيّة الشعب، وتكييف عواطفه، وتلوين اتجاهاته، لأنه كان الثقافة العامة التي يتداولها الناس في وقت كانت فيه الثقافة المكتوبة نادرة. وقد تراجع بعد انتشار التعليم وشيوع الكتابة.(١)

وإن كان الأدب الرسمي الرفيع يعطينا فكرة عمّا يجب أن نكون عليه، فإن الأدب الشعبي يعطينا فكرة عمّا نحن عليه. وهو هام بصفته حلقة من حلقات التطوّر التاريخي.(٢)

ثم كانت آخر القفزات الأدبية، فكان الأدب العامي، الذي ولّدته ظروف أغلبها سياسية بدأت بالفتوحات ودخول الرقيق، وانتهت عندما تولّى الحكم العربي حكّام غير عرب، يستعصي عليهم فهم الفصحى، فشجّعوا الأدباء على الكتابة والإبداع بالعامية. وقد رافق كل نوع من أنواع الأدب مستواه اللغوي الخاص الذي كان أكبر مؤشر في الفصل بين هذه الأنواع .

- المستويات اللغوية:

في سياق اللغة التي هي قوام الفنون القولية نجد أنفسنا أمام ثلاثة مستويات من اللغة العربية اصطنعتها أمّتنا في عصورها وأقطارها المختلفة للتعبير عن ذاتها وصياغة ثقافتها وهي:

١- اللغة العربية الفصحى المُعَرَبَةُ.

٢- اللغــة العربيــة المتوسطــة بيــن الفصحى والعامية (فهــي فصحى مكسّرة وعامية محسّنة).

٣- اللغــة العاميــة الدارجــة فــي الاستعمالات اليومية.

وإن تراثنا مــن العصر الجاهلي وحتى وقتنا هــو تراث عربي رسمي، لأنَّ لغته هي لغة القراءة والكتابة وليست لغة المشافهة.

وأمَّا المستويــان الثاني والثالث: فهما الواسطتــان اللتــان تتعامل بهمــا الشعوب العربيــة في مجالاتها الثقافيــة المختلفة، لذلك هما الوعــاءان اللذان يحويان الفنون القولية الفولكلورية العربية.

ففي الأول منهما نجد أشعاراً ملحونة، كما نجــد الأزجال، والمواليــا، والقصص الدينيــة، وسيرة عنتــرة، والزير، وألف ليلة وليلة، وتغريبــة بني هلال... وجميعها سير وملاحــم شعبية كانــت الشعــوب العربية ومازالــت تستمتــع بها وتطــرب لسماعها. وقد أطلق الجامعيــون في مصر على هذه المجموعة اسم «الأدب العامي».

أمَّــا المستــوى الثالث: مستــوى اللغة العاميــة، فهــو الوعاء الأكبــر الذي يحوي الآداب الشعبية؛ أي الفنون القولية للشعوب العربيــة، ويقــع ضمنــه الشعــر الشعبــي والأغاني الشعبية بجميع ألوانها والحكايات والأساطير والأمثال والأقوال والنكت...

وهــذا الأدب الشعبي لــم يدوّن منه إلاّ النزر اليسير عبر العصور التاريخية، وبقي شفوياً في معظمه، تداوله الناس في بيئاتهم الشعبية وما زالوا يتداولونه كذلك ويتوارثونه جيلاً عــن جيل وهو حــيّ لأن دورانه على الألسن والشفاه هــو بمثابة دوران الدم في العروق، وهو دائــم التشكّل والتطــوّر وإذا وقفت دورته يدخل في حالة ثبات.[٣]

ونلحــظ وجــود تمــازج عجيب وخلط أعجــب بين الأدبين الشعبــي والعامي، لأن الوعاء اللغوي الذي حوى الأدبين كان عاميّاً شديــد العاميّة أو عاميّا مخفّفــاً، واللسان الذي أبدع وروى ونقل من جيل إلى آخر كان اللسان العامي.

أمَّــا التراث الرسمي فبقــي محلّقاً في سمائــه بعيــداً عــن الخلط مــن المنظور اللغــوي ومحافظاً على هويّتــه، لأنَّه جرت العــادة أن يقتصر اهتمامنــا بالتراث على الآثار الفصيحــة وحدها، ويقتصر التدوين والتاريخ عليه.

ووسط هذا الخلط بيــن الأدبين، نرى أن الإضاءة على الأدب العامي باتت ضرورة ملحّة لتحديد هويته الخاصة، ووقف تداخله مع الأدب الشعبي.

- نشأة الأدب العامي:

ظهرت أوّل أدوار العاميّة زمن الفتوحات نتيجة لاتصال المجتمع الإسلامي بالمؤثرات الوافدة، وقد سجّل شيوع اللحن زمن الرسول (صلى الله عليه وسلّم).

وأمّا العامية بصفتها أدباً، فقد انتشرت على نطاق واسع حينما بدأ الرقيق الأبيض يدخل بيوت الأرستقراطية العربية، لأنَّه أوجد الحاجة إلى شعر يلبي حاجات الغناء والموسيقى.

وعاشت العربية الفصحى إلى جانب العاميّة في ذلك العصر من دون تنافس؛ واحدة: لغة للإبداع والأخرى: لهجة الحياة اليومية.

لكن"دخول العناصر غير العربية إلى الحكم بشكل كبير أصبح يشكّل خطراً على السياسة وعلى الوضع اللغوي، فعوام الأتراك صاروا أصحاب الأمر والنهي في قصر الخليفة العباسي، وهذا ما شجّع الشعراء على إنشاد الشعر في البلاط من دون اكتراث لما يعتري شعرهم من لحن، فهذا الشاعر زياد الأعجم كان يقلب في شعره الطاء تاءً، والسين شيناً، ومن ذلك قوله:

فتى زاده الشلتان في الحمد رغبة

إذا غير الشلتان كل خليل

وهو يريد بالشلتان: السلطان.

وهذا ابن الحجّاج (٣٩١هـ)، كان يلقي قصائد ماجنة متحلّلة من جميع قوانين الشعر متعمّداً ذلك، ومستخدماً الأسلوب الدارج المبتذل، حتى وصل به الأمر إلى إدخال اللغة الفارسية ولهجات الشحّاذين والعيّارين في شعره، كما أبدى احتقاراً شديداً لمبدأ «تنقية اللغة العربية».

وأمّا الشاعر أنو شروان البغدادي، فقد أدخل اللهجة الكردية القديمة في شعره.

وقد بلغ السقوط اللغوي مداه مع انحلال الدولة العباسية (٣٢٤هـ /٩٣٦م)، ثم سقوط بغداد مع الاكتساح المغولي للدولة الإسلاميّة، وشكّل ذلك بداية عصر الانحطاط الأدبي واللغوي.

فاللغة الفارسية صارت في عهد السلاجقة اللغة الرسمية، ولغة الأدب والشعر، وصار أدب العامية نتيجة لتدهور الوضع السياسي والثقافي بديلاً للأدب العربي الرفيع.(٤) فلذلك ليس مستغرباً أن تسجّل القصيدة العاميّة حضوراً تاريخياً وأدبيا لها في عصر «ملوك الطوائف»، وهو أحد عصور التدهور السياسي والثقافي، وأن يسجّل الشاعر «ابن قزمان» في منتصف القرن السادس هـ كأوّل وأهم شاعر عامي، كونه أول من أنضج «فن الزجل» وأرسى قواعده.

ومن شعره العامي قوله:

يـا فـقـيـر الـقـمـح غـالـي
والـدقـيـق أغـلا وأغـلا
والـبـطـون كـمـا عـلـمـك
بـلا خـبـز لـسـن تـخـلـى
فـإذا أعـطـيـت بـفـضـلـك
بـالـنـبـي عـجـل وروح

واتّسع الانحطاط مع سقوط الدولة في قبضة الحكم العثماني الذي امتدّ حتى آخر القرن التاسع عشر، ثم تلاه وقوع العالم العربي في قبضة الاستعمار الأجنبي في مطلع القرن العشرين، وإطلاق عدد من المفكرين والأدباء المستغربين أو المطّلعين على الفكر الأجنبي الدعوة إلى إحلال العامية محل الفصحى.

ولقيت هذه الدعوى مناصرين ومناهضين، ومدافعين عنها ورافضين لها. وكانت حجّة الداعين، وعلى رأسهم جملة من المستشرقين والمستغربين كقاسم أمين وعبد العزيز فهمي،أن الفصحى لغة صعبة.

وفيما بعد، جدد هذه الدعوة الشاعر اللبناني الكبير «سعيد عقل»، والشاعر الكويتي «صادق محمد أحمد بخيت» وآخرون، بحجّة أنها لغة جامدة متقوقعة ومتكلّفة.(٥)

وبالتأكيد فإن الداعين إلى تبني العامية، لم يكونوا يهدفون على الإنقاص من قيمة أدبنا الفصيح القديم أو الحديث، بل كانوا يهدفون إلى إيجاد نوع من التوءمة بين اللغة التي نفكرّ ونعبّر بها وبين اللغة التي نكتب بها أدبنا لتكون أقرب إلى عقل الشعب وقلبه.

تعريف الأدب العامي:

هو الأدب العاطل أو الملحون الذي جاءت بلاغته من مطابقة الكلام للمقصود ولمقتضى الحال من الوجود. وقد نشأ نتيجة طبيعية لتطوّر اللغة ونشأة لغة خاصة، اقتضت أن يكون لها أدب خاص شأن كل اللغات، فإن لكل لغة أدبها.(٦)

وهذا الأدب العربي الملحون الذي أخذ من الأدب الرسمي أغراضه، ومن الأدب الشعبي لهجته قد أبدع قالباً فنياً جديداً، وأعلن ثورة في الأسلوب وانعتاقاً من عمود الشعر وأحكام الأدب التقليدي..

ويشترط أحمد صادق الجمال في الأدب العامي: «أن يكون لفظه ملحوناً عاطلاً من الإعراب بعيداً كل البعد عن التزام الفصحى التي هي أساس الأدب الرسمي.ويرى أنه قد نشأ ليعبّر عن حياة القطاّع الاجتماعي الكبير، وهو نافذ إلى الأعماق لقوة معانيه التي استمدّها من الطبع السليم ولخروجه من الأعماق كي ينفّس عن نفس صاحبه. وبذلك هو صادق التعبير عن الواقع إذ

تنعكس على مرآته أحداث الحياة فيصورها تصويراً دقيقاً.

ويعتمد الأدب العامي على مادته المصحّفة التي وصفها صفي الدين حلي بقوله: «إعرابها لحن وفصاحتها لكِن وقوة لفظها وهن».[٧]

ويقول الرافعي: إنَّ اللغة العامية هي التي خلفت الفصحى في المنطق الفطري وكان سببها اضطراب الألسنة. ويرى أن اللّحن هو أصلها ومادتها، وأن نشأتها مرتبطة بالحاجة إلى التعبير عن حياة العامة بعد أن صارت اللغة الرسمية بالسادة والخاصة.

- الفرق بين الأدبين العامي والشعبي

إنَّ المطلّع على هذين النوعين، لا بدّ من أن تستوقفه ثلاث نقاط جوهرية يمكن اعتمادها لتمييز هذا الأدب من ذاك:

- **الأولى**: إنَّ مبدع الأدب العامي معروف، بينما مبدع الأدب الشعبي مجهول.

- **الثانية**: إنَّ نشأة الأدب العامي جاءت مقننّة في حروف مكتوبة،ولم يتم تناقله بالرواية من جيل إلى جيل كالأدب الشعبي.

- **الثالثة**: إنه يصوّر نفوس العامّة وحالتهم العقليّة والاجتماعيّة الراهنة، وينقدهم أحياناً كثيرة بأسلوب ساخر فكه، أمَّا الأدب الشعبي، فهو ثقافة الشعب العامة في مرحلة من المراحل بكل ألوانها وأنواعها..

وهذا ما توصّل إليه د.كامل حسين الذي اعتمد على الوسيلة اللغوية للتفريق بين الأدب العامي الذي يحاكي شخصية الفرد، وبين الأدب الذي يعكس الملامح العامة للأمة أو الشعب .لذلك نجده يفرّق بين هذين النمطين من التعبير الأدبي في التعريف الذي أوجده لكل منهما كما يأتي:

١- **الأدب العامي**: هو الأدب الذي يهمل الإعراب في الكلام، ومن المظنون أنه أخذ في التكوّن في القرون الأولى من الفتح العربي، وجاء نتيجة التقاء العربية الفصحى باللغات التي كانت سائدة من قبطية وسريانية وغيرها. وإن الكثرة الغالبة من ألفاظ العامية هي ألفاظ فصيحة أو ذات أصل فصيح؛ لأن أغلب ما فيها من أفعال، أو أسماء، أو حروف، أو حركات، أصله فصيح.[٨] وهو الأدب الذي يصدر عن أفراد بأعيانهم وكثيراً ما يسجلون أسماءهم في تاريخ الأدب الفصيح ولكنهم يبدعون باللهجة العامية تظرّفاً في المجالس والأندية. وهو أيضاً الذي دخل إلى لغته اللحن، وبعد عن قالب اللغة الفصيحة والأساليب المولدة واللهجات. فالعامي

استقـــى مادته من الفصحـــى المصحّفة أو الملحونة والألفاظ الدخيلة.

٢- **الأدب الشعبي**: الــذي لا يــكاد يعرف مؤلفــوه والذي يتّســم بالمرونة في التطور ويعبّر عن العقل الجمعي والوجدان الجماعــي. وإن الأدب الشعبي يعتمد على المشافهــة أكثــر منه علــى التدوين. وفي الدراســة الفولكلورية يبحــث الدارس عن العــادات والتقاليد والآثــار الجماعية التي ترتبط بالواقــع المحسوس، والتي تؤثر فيه الناحية الروحية والاجتماعية والسياسية.

فنحن نبحث فيه عن الأمثال التي ردّدها الشعــب وحملت فــي طيّاتهــا روح الشعب وطبيعته وكذلك نبحث ما خلف الشعب من قصص وأغان اشترك في صوغها وإخراجها استقى مادته من الملحون والدخيل وألفاظ أسلوبه هو الحديث الجاري وهو يعتمد على المشافهــة، ويؤثــر عن أفــراد المجتمع أو الشعب برمّته.[٩]

أنواع الأدب العامي:

يعود الأدب العامي في نشأته إلى بداية ظهــور اللحن الذي تسرّب إلى اللغة، واللغة كائن حيّ ينمو ويتطوّر، وهي انعكاس للضمير البشري وصورة من النفس. وهي ليس فقط لهجات مقسّمة حسب المناطق، وإنما لغات خاصة أو مهنيّة بحسب الطوائف وأصحاب الحرف، فلكل منهم لغته الحرفيّة.

ونتيجة للاختــلاط والهجرات، نشأت اللغة العاميّة ونشأ معها الأدب العامي لترسم صورة المجتمع الذي تحيا فيه بلسانه.[١٠]

وقــد قســم القدمــاء الأدب العامــي الملحون إلى أنواع وأخذوا يتفننون ويؤصّلون لكل نوع من أنواعه، وهذا اعتراف بأنه أدب له خصائصه وأغراضه ورسالته.

يقــول «صفي الديــن الحلي» في كتابه «العاطل الحالــي» الــذي خصصه للأدب الملحون.[١١]

«ومجمــوع فنــون النظــم عنــد سائر المحققيــن سبعــة فنــون لا اختــلاف في عددها بين أهل البلاد وإنما الاختلاف بين المغاربة والمشارقة في فنيَّن منها.

والسبعــة المذكورة عنــد أهل المغرب ومصــر والشام هي: القريضــ، والموشّح، والدوبيــت، والزجــل، والمواليــا، والــكان وكان، والحمــاق. وأهل العــراق وديار بكر ومن يليهــم يثبتون الخمســة منها ويبدلون الزجل والحمــاق بالحجازي والقوما، وهما فنّــان ابتدعهما للغناء بهما في سحور شهر رمضان في عصر خلفاء بني عباس.[١٢]

غيــر أن كلاًّ مــن هذه الأنــواع صادق التعبير عن العامة، ويمسّ الحياة الاجتماعية من جميــع نواحيها، ويشكّل جزءاً من تاريخ

العصر، لاحتوائه على كثير من حركات العقول والأفكار. ولعل ازدهارها يعود إلى أن رؤساء وسلاطين الوطن العربي لم يكونوا دوماً من العرب، ولم يتهيأ لهم إجادة العربية الفصحى فساندوا العامية وأقبلوا على أدبائها.[١٣]

- شعراء الأدب العامي:

إنَّ هذا الأدب موجود في كل بيئة وفي كل عصر، ولكنّه شاع ودوّن في العصر المملوكي.

ولم يتكلّف شعراء العاميّة شعرهم، وإنما جاءهم عن فطرة، وقد اعتمدوا فيه على سلامة طبعهم، وأصالتهم الفنيّة، ومقدرتهم على صوغ التراكيب العاميّة في قالب شعري بديع، غير مراعين قواعد النحو، ومتحررين من عمود الشعر الملتزم. وكانوا يشترطون فيه اللحن، والبعد عن الجزالة اللفظيّة، والسهولة. ويقول «الجزّار»، وهو أحد أهم شعراء العامية، شاهداً بأنه لم يتكلّف الشعر، بل وأنه لا يدري من علومه شيئاً:

وإن الشعر دون علاه قدراً
ولا سيما إذا ما كان شعري
لأني ما قرأت له صحاحاً
ولا نحواً على الشيخ ابن بري
وقد شاركت في لغة ونحو
بلا علم وشاع بذاك ذكري
وعيشك لست أدري ما طحاها
وقد أقررت أني لست أدري
وذا خبري ولو كشفت عني
لصغّره بعلم الجهل صبري
كأني مثل بعض الناس لما
تعلم آيتين فصار مقري[١٤]

والشاعر العامي قد يكون ممن يقرضون الشعر الفصيح أيضاً، ولكنه يلجأ إلى هذا النوع على سبيل التندّر، أو لكون الموضوع الذي يرغب في طرقه مما يناسبه هذا الثوب الشعري العامي.

لأنَّ هذا اللون يسمح للشاعر بأن يعبّر عن نفسه بمادته التي صاغها من الانفعالات المتصارعة ما بين لغوية ونفسيّة واجتماعيّة. وكثيراً ما نسجت هذه المقاطع الشعرية بخيوط من فكاهة وسخرية.

وكان الأديب العامي يعتمد في فنّه على التلاعب اللفظي والنكتة التي تبنى على اللفظ قدر ما تتجه إلى المعنى العميق الذي يرمي إليه. وقد نقل إلينا نفسيّة الشعب وما يعتريه من ضيق وألم.

ومن بين أهم الشعراء العاميين نذكر:

- يوسف بن أحمد بن يوسف الفراء: وكان شاعراً عامياً مطبوعاً، ينظم الزجل جيّداً. يقول واصفاً سوء حاله وضيق ذات يديه التي جعلته غير قادراً على ستر جسده بقميص آخر غير الذي بلي:

قميصي ذهب واتفضفض
وشعري وهتك ستري
غسلته اتمزق فاض دمعي
عاينو بعيني تجري
من قد عم علمه وحلمه
او هبني قميص عمه عام
صار خليع جديد واتمزق
وأخلع البدن والأكمام
قلت أنا اشتكيه للفاضل
زكي العام شيخ الإسلام[١٥]

- **الشيخ شهاب الدين أحمد المنصوري** (ت ٨٨٧هـ): وكان شاعر العصر ورأس الأدباء على الإطلاق على حدّ تعبير ابن إياس، وقد عرض له في أواخر أيّامه فالج، فلزم الفراش مُدّةً طويلة وانقطع في داره عاجزاً، فأنشأ يقول:

آه يا درهمي ويا ديناري
ضعت بين الطبيب والعطّار
كنت أنسى في وحدتي وشفائي
من سقامي وصحّتي في انكسار
قد حماني الطبيب عن شهواتي
فاحم يا رب قلبه بالنّار
طال شوقي إلى الفواكه والبطي
خ والجبن واللب والخيار
ضاع لبّي على مقاساة لب الـ
ـقرع والهندبا وبزر السَمار
كلما أجمع اخياراً حطاماً
فرّقته مني يد الاضطرار
ليت شعري وللزمان خطوب خطوب
وبلاء يختصّ بالأحرار
هل لميت قضى عليه طبيب
من كفيل أو آخذ بالثار[١٦]

يبدأ شاعرنا هذه الأبيات الفكهة باكياً على الدينار، وينتهي داعياً إلى الثأر من الطبيب الذي حرمه أطيب الطعام.

كما طرق هذا الباب من الأدب الشعراء أصحاب الحرف أمثال: أبي الحسين الجزار،والسرّاج الورّاق،، والنصير الحمامي، وإبراهيم الحائك،وابن دانيال الكحّال:الذي ولد في الموصل وتلقى بها أولى علومه لما كانت الموصل موئل العلماء،وبعد أن غزاها التتر، هرب إلى القاهرة حيث أتم درسه وفتح في أحد أحيائها دكاناً مارس فيه الكحالة ليكسب قوته. وقد اشتهر على يديه فن «خيال الظل» وارتبط اسمه به. ومما قاله في صنعته:

يا سائلي عن حرفتي في الورى
وضيعتي فيهم وإفلاسي
ما حال من درهم إنفاقه
يأخذه من أعين الناس[١٧]

سنعرض فيما يأتي لأهم هذه الأنواع ونورد نماذج منها لنكون بعد ذلك قادرين على تمييز الأدب العامي من غيره، وتمييز أنواعه من سواها.

- أنواع الأدب العامي:

إنَّ جميــع هذه الأنــواع هي فنون تتفق في صفات عامة تؤلف بينها وتجعلها ضمّة واحــدة؛ فهي بحسب صفــي الدين الحلي: «إعرابهــا لحَــن، وفصاحتهــا لكَــن، وقوّة لفظها وهن، حــلال إعرابها حرام، وصحّة اللفظ بها سقام، يتجــدّد حسنها إذا زادت خلاعــة، وتضعف صنعتهــا إذا أُودعت من النحو صناعة، فهي السهل الممتنع والأدنى المرتفع.[١٨]

١- الزجل:

وهــو أرفع هذه الفنون رتبــة، وأشرفها نسبة، وأكثرهــا أوزاناً، وأرجحهــا ميزاناً، ولم تزل إلى عصرنا هــذا أوزانه متجددة، وقوافيه متعددة. والزّجل هو الصوت. ويقال سحاب زجل: إذا كان فيه رعد.

وقــد قسمه مخترعــون أندلسيّون إلى أربعة أقسام من حيث المضمون؛ فلقّبوا ما تضمن الغزل والنسيب والخمرة والطبيعة: زجلاً، وما تضمّــن الهزل والخلاعة: بُلَّيقا، ومــا تضمّن الهجــاء: قرقيّا، ومــا تضمّن المواعظ والحكمة: مكَفَّراً.

وفي بعض البلدان يسمّون كل ما أعرب موشحاً، وكل ما خلا مــن الإعراب: زجلاً، وما اشترك فيه الإعراب واللحن: مزنَّما.

واختلفــوا فيمــن اخترعــه، فقيل إن مخترعه «ابــن غزلة» وقــد استخرجه من الموشّــح، وقيل هو «يَخلُف بن راشد»، وقيل «أبــي بكر بــن قزمان»، وقيــل بل مخترعه «مدغلِّيس»، والحقيقة ليس له مخترع.

وأوَّل مــا نظمــوه، جعلــوه قصائــد مُقصَّــدة، وأبياتاً مجرّدة في أبحر العروض بقافيــة واحــدة كالقريضــ لا يغايره بغير اللحن واللفــظ العامي، وسموها «القصائد الزجلية».

منها قول مدغلّيس في بحر المديد:

قـولـوا عـنّـي لـلـذي لـم تـسـلّـم
إن قـلـبـي عـنـهـا سـالـم مُـسـلَّـم
الـذهـب أنـسـي والـفـضّـة نعشق
وعـلـى هَـــوْلَ الـجـمـيـع نـقْـدم
وفـي أكـبـادي الـم مـن فِـرْقـهُـم
وجراح لَسْ بالله ينفعها مرهم[١٩]

ولمّا كثــرت واختلفت، عدلوا عن الوزن الواحــد إلــى تفريــع الأوزان المتنوّعــة، وتضعيف لزومــات القوافي ليكون ذلك فنّاً لهم بمفردهم.

ومثالنــا نقطفه من ديــوان ابن قزمان، يقول:

تحزّن أي قلبي	**على ما ترى**
اقلق أو اصبر	**حسبك ما ترى**
خُلق معشوقك	**ويهوى سواك**
ويترك وصلك	**ويمضي لذاك**
شِراء صالح	**كان بالله شراك**
لولا ما أفسد	**صلاح الشُرا[٢٠]**

٢- المواليا:

لــه وزن واحــد وأربع قــواف على روي واحــد، ومخترعــوه أهل واسـط من بحر البسيط، اقتطعوا منه بيتين وقفوا شطر كل بيت منها بقافية منها وسموّا الأربعة صوتاً. ونظموا فيه اللفظ القوي الجزل في الغزل والمديـح والصنائع على قاعـدة القريض المعرب.

منه قولهم:

زوروا فقد فقد النوم الهني طرفي
وقد وقد حبكّم ناري مَن المُطفي؟
ولي مُدَد مِداد ابكي، فاسمعوا وصفي
مالي عُدَد عَدد الحسرات لي يكني

وهــو يشبــه الزجـل مــن حيـث ترك الإعــراب، وإبدال بعض الحروف من بعض من حــروف العلّــة خاصة وغيرهــا. وأما ما يختصّ به وينفرد به عــن الزجل، فهو استعمالهم الإمالــة والتزامهم بها في سائر الألفاظ خاصة في القافيــة، ويعدّونها من محاسن صناعتهم. ويشاركهم في ذلك سائر الكان وكان، والقوما.[٢١]

٣- الموشّح:

هو ضرب من الشعر ينظم على مقاطع وقواف معلومــة بحيث لا يتقيّد فيه الناظم بقافية واحدة. وهو من اختراع الأندلسيين، وقــد شاع عندهــم وأحبّوه لسهولــة تناوله وميلهم إلــى التغيير وابتــكار الجيد. وقد طلبوا نوعاً يساعدهــم على ما يريدون من الكلام في بحبوحة اللهو والطرب والرقص وإنشاد الشعر بطريقة خفيفة على النفس.

وهو عند «ابن سناء الملك» كلام منظوم علــى وزن مخصوص، ويتألف فــي الأكثر مــن ستة أقفــال وخمسة أبيــات، ويقال له التــام، وفي الأقل من خمسة أقفال وخمسة أبيات ويقال له الأقرع، فالتام ما ابتدئ فيه بالأقفــال والأقرع ما ابتــدئ فيه بالأبيات. وقــد اصطلح علــى تسمية القفــل الأخير بالخرجة ويشترط فيها اللحن لا الإعراب.

والقفل: هو أجزاء مؤلفة يلزم أن يكون كل قفــل منها متّفقاً مــع بقيّتها في وزنها، وقوافيها، وعــدد أجزائها، وكذلك الأبيات، ويحسن أن تكون قوافي كل بيت منها مخالفة لقوافي البيت الآخر.[٢٢]

قال ابن نابتة:

حشى مــن نــارصــدّك ذائبـة
وتـحـسـبـهـا دمــوعــاً ساكـبـة
ولــــــم يــــفـــطـــن لــهـــا
ســـــــوى صـــــبِ أقـــــام
علـــى فــراش الـسـقــام
درى مــا قــصّــتــي فحــاكــى
لـوعــتــي وجـــارى عـبـرتــي
وبـتـنـا كـالحـمـائم فـي الحـنـين
ومـا يـدري الحزين سوى الحزين
سبـاني بـالفـتـوروبـالفـنـون

غـــلام شـــاهـــر حـــد الـجـفـون

عـــلـــى وجـــنـــاتـــه لام ونــــون

يقول وصال مثلي لن يكون(٢٣)

وقد بـــدأ ابن نباتة هـــذا الموشح التام على ما جرت عليه العادة من غزل، ثم ينتقل بعدهـــا إلى الخمر ووصف الكأس، والدعوة إلى الشراب، واغتنام اللذات.

٤- الكان وكان:

وهو ضرب له وزن واحد وقافية واحدة، ولكن الشطـــر الأول من البيـــت أطول من الشطر الثانـــي، ولا تكون قافيته إلاّ مُردفة قبل حـــرف الـــروي بأحد حـــروف العلّة، ومخترعوه هـــم البغداديـــون. سمي بذلك لأنهم لـــم ينظموا فيـــه ســـوى الحكايات، والخرافات، والمراجعـــات، والمنصوبات، فكان قائله يحكي ما كان وكان، ثم جاء بعض الشيـــوخ الأفاضل ونظموا فيـــه المواعظ، والزهديـــات، والحكم، والأمثـــال فتداولها الناس وبعدها نظم فيه الغزل وغيره. مثاله قولهم:

طوال ليلي اسهر كنّي أريد الكيميا

اقطّر الدمع مني وأصعّد الزّفرات

ماأطول ليالي جفاكم ساعاتها مثل السنة

وما أقصر أيام وصلي كأنها ساعات

مالي أرى حسناتي بالسيّئات تبدّلت

وسيئات الأعادي تبدّلت حسنات

خالفتموني وعمري ما زلت أتبع أمركم

كذا العبيد تتابع أوامر السادات

نسكت ونصبر عليكم ويفعل اله ما يشا

فالدهر من عاداته يقلّب الحالات(٢٤)

٥- القوما:

وهو ضرب له وزنـــان: الأول منهما بيته مركب من أربعة أقفال، منها ثلاثة متساوية فـــي الـــوزن والقافية،والآخر وهـــو الثالث، أطول منها، وهو مهمل بغير قافية. والثاني بيته مركب من ثلاثـــة أقفال مختلفة الوزن متفّقة القافية، يكون القفل الأوَّل منه أقصر من الثانـــي، والثاني أقصر من الثالث. وقد اخترعـــه البغداديـــون برســـم السحور في رمضان زمن بني عباس، وبعدها نظموا فيه لما شاع: الغزل، والزُّهري، والعتاب، وسائر الأنواع.

ولا ينبغي أن تنظم القوما إلاّ بلفظ عامي رقيق، وكل قسم منـــه قائم بنفسه كالمواليا والدوبيت.

وقيـــل إن أوَّل من اخترعـــه «ابن نقطة» برسم الخليفـــة «الناصـــر» (تولى ٥٧٥هـ- ٦٢٢هـــ). وكان الناصر يطرب له، وجعل له في كل سنة ما يفضل عنه من الأنعام.

فلما توفي ابن نقطة، وكان له ولد صغير ماهر في نظم القومـــا والغناء به، وأراد أن يعـــرّف الخليفة بموت والده لكن تعذّر عليه ذلـــك، فصبر إلى حين دخول شهر رمضان،

ثم أخذ أتباع والده من المسحّرين ووقف في أول ليلة من الشهر أمام قصره وغنّى بصوت رقيق، فأصغى له الخليفة وطرب له، فلما وصل إلى القوما كان أوَّل ما قاله:

يا سيّد السادات
لك بالكرم عادات
أنا بُنيّ ابن نقطة
تعيش أبي قد مات

فأعجب الخليفة منه وفرض له ضعفي ما كان لأبيه.

ومما قاله صفي الدين من القوما:

حال الهوى مخبور
يريد جلدا صبور
مَن كان هواه مستور
يحظى برفع السّتور
من كان جدُّ عَثور
مِن فرد كلمه يثور
كم حولَ تلك الخدور
من عاشقٍ مهذور
من يركب المحذور
هو في الهوى معذور
كن بالهوى مسرور
ولا تبيت مغرور(٢٥)

ويشير صفي الدين الحلي إلى أن أهل العراق وديار بكر يبدّلون الزجل والحماق بالحجازي والقوما.

٦- الدوبيت:

هو لفظ فارسي معناه: بيتان، وسمي بذلك لأن غالب ما ينظم على وزنه إنما هو بيتان فقط. ويشترط فيه الإعراب وإن كان لم يسلم من اللحن شأن الموشّح.

وهو من بحور الشعر المهملة وشطره: فعلن- متفاعلن- فعولن- فاعلن .ومؤلف من أربعة أشطار، ثلاثة منه على قافية واحدة والشطر الثالث مغاير.

مثاله قول ابن تاج الخطباء القوصي (ت ٧٤٢هـ):

يا غاية منيتي ويا مقصودي
قد صرت من السقام كالمفقود
إن كان بدت مني ذنوب سلفت
هبها لكريم عفوك المعهود.(٢٦)

ونخلص إلى أن الأدب العامي هو أدب وسط بين الرسمي والشعبي، يأخذ من الأوَّل أغراضه فيطرقها ويزيد عليها أغراضاً لا يسهل على الشاعر التقليدي أن يتناولها، ويأخذ من الأدب الشعبي سهولة أسلوبه، وبروز موسيقاه وقرب لسانه من حال الشعب وشيوعه على ألسنتهم.

وهو أدب يتوسّل اللغة عربية وإن كانت لغة خاصة، وطبيعي أن تظهر فيه بعض الألفاظ الفصيحة وبعض الصور والتشابيه المستقاة من الشعراء القدامى، وإن كان شعراؤه ينهلون من حياتنا وحياتهم وبيئتنا وبيئتهم ليسقونا الدم والدمع في كؤوس من بسمات.

الهوامش:

١- فنون المأثورات الشفاهية في الجزيرة، أحمد الحسين، دمشق، وزارة الثقافة، ٢٠٠٥م، ص٥.
٢- أبو زيد الهلالي، محمد فهمي عبد اللطيف، سلسلة اقرأ، القاهرة، دار المعارف، ١٩٤٦م، ص٦.
٣- بين التراث الرسمي والتراث الشعبي، ص١.
٤- موضوعات حول العاميّة والشعر العامي، قاسم حداد، عبد الرحمن رفيع، عبد القادر عقيل، دار قناديل، لا مكان، ١٩٨٣م، ص٣٣.
٥- المصدر نفسه، ص٣٧.
٦- كتاب العبر، ابن خلدون، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٧م، ص٥٨٣.
٧- العاطل الحالي والمرخص الغالي،، صفي الدين الحلي، تحقيق حسين نصّار، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨١م، ص٦.
٨- مجلة وجهات نظر، العامية فصحى محرّفة، شوقي ضيف، عدد ١٦، عام ٢٠٠٠م، ص٥٣.
٩- الأدب العامي في مصر في العصر المملوكي، أحمد صادق الجمّال، القاهرة، وزارة الثقافة، ١٩٦٦م، ص(ر).
١٠- الأدب العامي في مصر، الجمال، ص٦٩.
١١- وهو أهم كتاب قديم تعرّض للأدب العامي، وجمع فنونه وقواعدها وكثيراً من نصوصها. ولم يقتصر على قطر عربي بل أتى بنصوص من مصر والعراق والشام والأندلس. وقد أسماه العاطل الحالي والمرخص الغالي، لكونه عاطلاً من الإعراب، حالياً من المعاني والآداب، مُرخِصاً من ذوي الخلاعة والهزل، غالياً على ذوي الجدّ والجزل. العاطل، الحلي، ص٣.
١٢- المصدر نفسه، ص٩٣.
١٣- الأدب العامي، الجمّال، ص٦٩.
١٤- المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد، القاهرة، مكتبة جامعة القاهرة، ١٩٥٣م، ٣١٥/١.
١٥- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، السخاوي، مكتبة القدسي، ١٣٥٤هـ، ٣٠١/١.
١٦- بدائع الزهور في وقائع الدهور، ابن إياس، بولاق، ١٣١١هـ، ٢١٣/٢.
١٧- الأدب العامي، الجمال، ص٧٩.
١٨- العاطل الحالي، ص١.
١٩- المصدر نفسه، ص٢٠.
٢٠- المصدر نفسه، ص٧٢.
٢١- العاطل الحالي، ص١٠٦.
٢٢- الأدب العامي، الجمال، ص٩٧.
٢٣- الديوان، ابن نباتة المصري، القاهرة، لا مكان، ١٩٢٥م، ص٥٩٤.
٢٤- العاطل الحالي، الحلي، ص١٢٥.
٢٥- المصدر السابق، ص١٢٧.
٢٦- المصدر نفسه، ص١٣٩.

المصادر والمراجع

١- الأدب العامي في مصر في العصر المملوكي، أحمد صادق الجمّال، القاهرة، وزارة الثقافة، ١٩٦٦م.

٢- بدائع الزهور في وقائع الدهور، ابن إياس، بولاق، ١٣١١هـ.

٣- بين التراث الرسمي والتراث الشعبي.

٤- الديوان، ابن نباتة المصري، القاهرة، لا مكان، ١٩٢٥م.

٥- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، السخاوي، مكتبة القدسي، ١٣٥٤هـ.

٦- العاطل الحالي والمرخص الغالي،، صفي الدين الحلي، تحقيق حسين نصّار، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨١م.

٧- كتاب العبر، ابن خلدون، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٧م.

٨- مجلة وجهات نظر، العامية فصحى محرّفة، شوقي ضيف، عدد ١٦، عام ٢٠٠٠م.

٩- المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد، القاهرة، مكتبة جامعة القاهرة، ١٩٥٣م.

١٠- موضوعات حول العاميّة والشعر العامي، قاسم حداد، عبد الرحمن رفيع، عبد القادر عقيل، دار قناديل، لا مكان، ١٩٨٣م.

التواصل الناجح
سبيلك للسعادة والنجاح في الحياة

د. معمر نواف الهوارنة ❀



يعد التواصل «Communication» واحداً من النشاطات القديمة قدم وجود الإنسان على هذه الأرض، ولقد تطورت عملية التواصل وتعددت، الأمر الذي جعل الكثيرين يطلقون على النصف الثاني من القرن العشرين عصر التواصل.

ولقد أسهم عدد من العلماء في ميدان علم النفس في تطوير فهم عملية التواصل منهم «**كارل هوفلاند، وبول لزرز فيلد، وكيرت ليفين**» حيث كانت بحوث «هوفلاند» تدور حول سيكولوجية الإقناع، في حين تركزت

❀ أستاذ في كلية التربية- جامعة دمشق.
العمل الفني: الفنان علي الكفري.

بحوث «ليفين» حول تأثير سلوك الجماعة على سلوك الأفراد الذي ينتمون إليها.

ولم يقف الاهتمام عند دراسة موضوع التواصل على علم بعينه بل استحوذ على اهتمام عدد كبير من الباحثين الذين ينتمون إلى ميادين بحثية مختلفة كما أن الاهتمام بعملية التواصل لم يقف عند حدود علم النفس الاجتماعي بل تجاوزه إلى بحوث التعليم والإدراك بل والصحة النفسية والعلاج النفسي كذلك.

يعدُّ التواصل من أقدم أوجه النشاط الإنساني، وتلعب أنواع التواصل دوراً كبيراً في حياة كل شخص مهما كانت الوظيفة التي يشغلها، أو وقت الفراغ المتاح أمامه فالتواصل يؤثر على كل فرد بشكل أو بآخر.

تعريف التواصل:

هناك تعريفات عديدة للتواصل تختلف طبقاً لهدف من يقوم بالتعريف، وتبعاً لجوانب السلوك التواصلي الذي يكون موضعاً لتأكيده واهتمامه. ومن هذه التعريفات ما يلي:

يعرف ماير «Myers، E. & Myers، T ١٩٨٠» التواصل بأنه عملية اشتراك ومشاركة في المعنى من خلال التفاعل الرمزي، وتتميز بالانتشار في الزمان والمكان، فضلاً عن استمراريتها وقابليتها للتنبؤ.

يرى «هوفلاند» أن التواصل هو العملية التي ينقل بمقتضاها الفرد القائم بالتواصل «مثيرات» رمزية لغوية في الغالب بهدف تعديل سلوك الآخرين مستقبلي الرسالة.

يعرف شيري «Cherry» التواصل بأنه عنصر أساسي في الحياة الاجتماعية ومشاركة الأفراد في الرمز والمعنى والإشارة واللغة، وبأنواع العلاقات الاجتماعية كافة التي تحدث في الحياة اليومية. والتواصل يجعل الأفراد يفهمون بعضهم الآخر وما يطلق عليه «People in Communication» ويجعلهم في وحدة واحدة، ربما تكون الجماعة أو المجتمع أو الثقافة ككل.

إنَّ التواصل يشير إلى كل العمليات التي يؤثر بمقتضاها الناس على بعضهم البعض، وتعرف عملية التواصل بأنها العملية التي يتفاعل بها المرسلون والمستقبلون للرسالة في سياقات اجتماعية معينة.

يلاحظ مما تقدم أن عملية التواصل في شكل دينامي، كما يركز على جانب التفاعل في عملية التواصل، فلا يمكننا فهم جانب واحد منها بمعزل عن المكونات الأخرى مع إمكانية حدوث تعديل في السلوك، فالتأثير يشتمل على استجابات كل الأشخاص

المشتركين في التواصل، وانتشار التواصل في الزمان والمكان واستمراريته. فالتواصل بمثابة عملية تقوم على التفاعل «التأثير والتأثر» بين مرسل ومستقبل، ويتم من خلال نقل رسائل معينة. إنَّ التواصل بأساليبه وقنواته وأدواته إنما يحدده المجتمع من خلال ما ينتظمه من سياقات اجتماعية متعددة أو من خلال أطر مرجعية معينة تحدد طبيعة هذا التواصل.

أهمية التواصل:

لا غنى للمجتمع الإنساني المتحضر منه والمتخلف عن عملية التواصل، فمقدرة الإنسان على نقل حضارته وتاريخه ومعتقداته وثقافته بل ومشاعره ورغباته تتوقف على نجاحه في التواصل مع الآخرين، ففرصة الإنسان في البقاء، بل فرصته في الارتقاء تتوقف إلى حد بعيد على ارتقاء ما يملك من وسائل التواصل.

وإذا كانت عملية التواصل قد تمثلت في أغلبها بالتواصل الإنساني، إلا أن مقدرة الإنسان على إرسال وتلقي الرسائل ستظل هي الأكثر تفوقاً، من حيث التنوع والتعدد على كل ما صنع الإنسان من أدوات، فعملية التواصل تشمل جوانب عديدة من السلوك، وتنتشر بل وتتخلل عدداً لا حصر له من المواقف الاجتماعية، وعلى ذلك فلا غنى للمهتمين بدراسة السلوك البشري أو دراسة الحياة الاجتماعية في مجتمع ما عن دراسة عملية التواصل.

تعود الأهمية الخاصة للتواصل في حياة الفرد والمجتمع والتي دعت الكثير من الباحثين إلى دراستها وذلك من خلال الكشف عن الوظائف والأدوار التي يقوم بها التواصل، والحاجات التي يسهم بدوره في تلبيتها.

وهناك عدد من الدوافع التي تدفع الفرد إلى التواصل مع الآخرين ليس لإشباع الحاجات الأولية أو الأساسية فقط، ولكن لتلبية حاجات أخرى فردية واجتماعية بوصفه عضواً في جماعة من الجماعات في المجتمع.

وتتلخص أهمية التواصل بالنسبة للفرد في الآتي:

١- يقوم البناء الاجتماعي داخل الجماعة، أو داخل المجتمع على تحديد الدور الذي يقوم به كل فرد داخل هذا البناء. وهذا ما يجعل الفرد يشعر بقيمته داخل الجماعة أو المجتمع. ونادراً ما نجد دوراً اجتماعياً لا يفرض على الفرد تواصلاً مع الآخرين، وحتى إذا كان هناك مثل هذا الدور، فإن هذا الدور يفرض عليه تواصلاً مع زملائه أو أقرانه، خاصة وأن المعرفة العلمية أصبحت تميل إلى التخصص الدقيق

الذي يتكامل مع غيره من التخصصات وذلك إلى جانب التواصل اليومي لإشباع الحاجات الأولية أو الأساسية. إلى جانب ما يفرضه الدور الاجتماعي من تواصل مع الآخرين، فإن تواصل الفرد مع مصادر المعلومات والمعرفة يدعم المكانة الاجتماعية التي ترتبط بهذا الدور أو يفرضها.

٢- نظراً لأن العزلة داخل المجتمع تجسد لدى الفرد الإحساس بالخوف، فإن التواصل مع الآخرين يساعد الفرد على الاقتراب منهم، ودعم الإحساس بالأمن والطمأنينة الناتجة عن التماسك الاجتماعي، والذي يعمل أيضاً على دعم التواصل مع الآخرين، ويعتبر مظهراً من مظاهره.

٣- تظهر أهمية التواصل للفرد في حاجته إلى المعلومات والمعارف الخاصة بالقضايا والموضوعات اليومية، التي تفيد الفرد في اتخاذ قراراته اليومية.

٤- تظهر أيضاً أهمية التواصل للفرد في كونه العملية الأساسية لاكتساب الفرد خصائص وسمات المجتمع الذي يعيش فيه وينتمي إليه. وتدعم بالتالي انتماءه إلى هذا المجتمع. فالفرد من خلال التواصل يكتسب قيماً وأفكاراً ومعتقدات المجتمع وينقلها بالتالي إلى الآخرين في صورة أو أخرى.

٥- إلى جانب الأهمية التي يعكسها الدور الاجتماعي، والمكانة الاجتماعية والحاجة إلى التكيف والتوافق الاجتماعي. وإلى جانب الأهمية التي يعكسها كل ذلك حيث يستخدم الفرد التواصل للهروب من الواقع اليومي، والتحليق في عالم الخيال.

وإلى جانب ما يقوم به التواصل من وظائف تعكس أهميته للفرد، فإن أدواراً أخرى للتواصل تعكس أهمية المجتمع مثل:

• يوفر التواصل للأفراد في المجتمع كل المعلومات الخاصة بالبيئة والأخطار المحيطة بها. مما ينعكس على دعم الاستقرار والأمن داخل المجتمع وخارجه.

• يحقق التواصل الترابط والتقارب بين أفراد المجتمع وعناصره ودعم التفاعل بينهم، فيؤدي ذلك في النهاية إلى تحقيق التماسك الاجتماعي.

• يحقق التواصل المحافظة على الهوية الثقافية للمجتمع، بنقل تراثه من جيل إلى آخر، وتعريف الأجيال الجديدة بهذا التراث، الذي يعتبر أحد المحددات الأساسية للنظام الثقافي في المجتمع.

أنواع التواصل:

إنَّ التنوع فـي عملية التواصل هي التي دفعت إلى البحث عن أنواع التواصل وصوره المختلفة، لذلك سـوف نتناول التصنيفات المختلفة لأنواع التواصل:

أولاً: التواصل تبعاً للغة المستخدمة:

يـرى المهتمـون بالتواصـل الإنساني أنَّ اللغـة تقتصر فقط علـى الثقة اللفظية وحدها، بل إنها: فهـم منظم ثابت يعبر به الإنسـان عن فكره الـذي يجول بخاطره أو إحساسـ يجيش به صدره هـي لغة قائمة بذاتهـا. وعلى ذلك يمكـن تقسيم التواصل الإنسانـي حسـب اللغـة المستخدمة إلى مجموعتين:

١- التواصل اللفظي «Verbal Communication»:

يدخل ضمن هـذه المجموعة كل أنواع التواصل الذي يستخدم فيها «اللفظ» كوسيلة لنقل الرسالة من المصـدر إلى المستقبل، هـذا اللفظ في الأصل منطوقـاً يصل إلى المستقبل فيدركه بحاسة السمع تكون اللغة اللفظية مكتوبة، ومن الأمثلة على استخدام اللغة اللفظية استخدامها في المحاضرات والندوات والمقابلات الاجتماعية وغيرها.

وتعتبر لغـة الألفاظ هي الأداة الرئيسة لتحقيق التواصل بين أعضاء المجتمع، ذلك لتعقدهـا الشديد مما يجعلهـا أكثر مرونة واتساعاً لإمكانيـات التعبير، وللإسهام في تحقيق أدق عمليات التفاعل الاجتماعي بين الأنا والآخـر. والذي يعنينا هنا هو الإشارة إلى مدى إسهـام اللغة في تحقيق التواصل الذي هو أحد عوامل التكامل الاجتماعي.

٢- التواصل غير اللفظي «Non Verbal Communication»:

وهو عمليـة تبادل المعلومـات والآراء والأفكار دون استخدام لغـة الألفاظ كأداة تواصـل. وتشمل هـذه المجموعة كل أنواع التواصـل التي لا تعتمد على اللغة اللفظية، بل على اللغة غير اللفظية فتمثل هذه اللغة فـي الإشارات والحـركات التي يستخدمها الإنسان لنقل فكرة أو معنى إلى إنسان آخر يصبح مشتـركاً معه في الخبـرة. وهو ما يطلق عليـه التواصل باستخدام لغة الجسم «Body Language».

ويقسم بعض العلماء اللغة غير اللفظية التـي يستخدمها الإنسان فـي التعبير عمّا يجول في ذهنه مـن معاني إلى ثلاثة أنواع هي:

- **لغـة الإشـارة «Sign Language»:** وهـي تتكـون مـن الإشـارات البسيطة أو المعتمـدة التـي يستخدمهـا الإنسان في التواصل مع غيره.
- **لغـة الحركـة أو الأفعـال «Action Language»:** وتتضمـن هذه اللغة جميع

الحركات التي يأتيها الإنسان لينقل إلى الغير ما يريده من معاني أو أحاسيس ومن أمثلة ذلك ما يؤديه الممثل من الحركات على المسرح دون أن يصاحبها ألفاظ، ورغم ذلك تستطيع أن تفهم ما يعنيه، فإذا ما كان يمسك بيده شبكة ويقوم بأداء حركات بها، يمكن أن يفهم منها أنه يقوم بدور أحد صيادي السمك. إلى غير ذلك من الأمثلة.

• **لغة الأشياء «Object Language»:**

ويقصد بالأشياء ما يستخدمه مصدر التواصل، غير الإشارة والحركة للتعبير عن معاني أو أحاسيس يريد نقلها إلى المستقبل، فارتداء اللون الأسود في كثير من الأحيان إشعار الآخرين بالحزن الذي يعيش فيه.

ثانياً: أنواع التواصل من حيث حجم المشاركين في العملية التواصلية:

يمكن تقسيم نوع التواصل من حيث حجم المشاركين في العملية التواصلية إلى ستة أنواع هي:

١) التواصل الذاتي «Self Communication»

التواصل الذاتي هو ما يحدث داخل الفرد، حيث يتحدث الفرد مع نفسه، وهو تواصل يحدث داخل عقل الفرد ويتضمن أفكاره وتجاربه ومدركاته، ويتضمن التواصل الذاتي الأنماط التي يطورها الفرد في عملية الإدراك، أي أسلوب الفرد في إعطاء معنى وتقييم للأفكار والأحداث والتجارب المحيطة به.

ويعتبر فهم هذه العملية التي تحدث بين الفرد وذاته أساس عملية التواصل. ذلك أن رد الفعل تجاه أي رسالة يستقبلها الفرد في أي شكل من أشكال التواصل الأخرى يتوقف على ناتج هذه العملية التي تحدث ذاتياً في جميع المواقف، وتتأثر بالمخزون الإدراكي لدى الفرد عن الأشخاص والرموز التي يتعرض لها الفرد في عملياته الانفعالية.

وقد حظي التواصل الذاتي باهتمام خاص باعتباره حلقة مهمة تربط بين سلوك الفرد والبيئة التي يعيش فيها، كما حظي باهتمام علماء النفس، كونه يرتبط بالبناء المعرفي والإدراك والتعلم والسمات النفسية كافة.

٢) التواصل الشخصي «Interpersonal Communication»:

هو التواصل المباشر حيث يمكن فيه أن تستخدم الحواس الخمس، ويتيح هذا التواصل التفاعل بين شخصين أو أكثر في موضوع مشترك، ونتيجة التواصل المباشر تتكون الصداقات والعلاقات الحميمة بين الأفراد، ويتيح هذا النوع من التواصل فرصة التعرف الفوري والمباشر على تأثير الرسالة، ومن ثم تصبح الفرصة أمام القائم بالتواصل سانحة لتعديل رسالته وتوجيهها بحيث تصبح أكثر فعالية أو إقناعاً.

٣) التواصل الجمعي «Group Communication»:

يحدث التواصل الجمعي بين مجموعة من الأفراد مثل: أفراد الأسرة، زملاء الدراسة أو العمل، جماعات الأصدقاء لقضاء وقت فراغ أو التحادث، أو اتخاذ قرار أو حل مشكلة. حيث تتاح فرصة المشاركة للجميع في الموقف التواصلي.

٤) التواصل العام «Public Communication»:

ويعني وجود الفرد مع مجموعة كبيرة من الأفراد كما هو الحال في المحاضرات والأمسيات الثقافية والندوات. ويتميز التفاعل بين أعضاء هذا النوع من التواصل بأنه مرتفع، كما يتميز بوحدة الاهتمام والمصلحة والالتقاء حول الأهداف العامة. وعادة ما يتم هذا النوع من التواصل في أماكن التجمعات.

٥) التواصل الوسطي «Medio Communication»:

يسمى هذا النوع بالتواصل الوسطي لأنه يحتل مكاناً وسطاً بين التواصل المواجهي والتواصل الجماهيري، ويشتمل التواصل الوسطي على التواصل السلكي من نقطة إلى أخرى مثل: الهاتف، الراديو، الأفلام التلفزيونية من خلال الدوائر المغلقة. والمشاركون فيه عادة ذو ثقافة مشتركة ومرتبطون بتواصل شخصي، وغالباً ما يكون التواصل شخصي غير محكم البناء. ويشبه التواصل الوسطي التواصل الجماهيري من حيث استخدام معدات ميكانيكية أو إلكترونية في نقل الرسالة.

٦) التواصل الجماهيري «Mass Communication»:

هو عملية التواصل التي تتم باستخدام وسائل الإعلام الجماهيرية. ويتميز التواصل الجماهيري في قدرته على توصيل الرسائل إلى جمهور عريض متباين الاتجاهات والمستويات، ولأفراد غير معروفين، تصلهم الرسالة في اللحظة نفسها وبسرعة فائقة.

وتحتاج وسائل التواصل الجماهيرية إلى توافر بعض الشروط اللازمة لنموها وازدهارها في أي مجتمع هي:

- وجود مناخ ملائم من حرية الرأي والتعبير.
- وجود قاعدة علمية وثقافية في المجتمع يكون بإمكانها إنتاج المعلومات وتوزيعها واستهلاكها.
- وجود قدر معقول من الكثافة السكانية في المجتمع.
- الإمكانيات التكنولوجية المتاحة للتواصل مثل: «الهاتف، والأقمار الصناعية، والمطابع الحديثة».

أساليب التواصل «Communication Styles»:

ليس هناك شخصان يتصرفان بالطريقة نفسها، كما أن الشخص لا يتصرف بالأسلوب ذاته في جميع الأوقات. ومع ذلك فإن هناك ملامح أساسية للتواصل الإنساني تمثل طرقاً مميزة للتعامل مع المواقف المتبادلة بين الأشخاص. وقد حددت فرجينيا ساتير «Virginia Satir» خمسة أساليب أساسية للتواصل تنطوي على ما يلي:

١- أسلوب العدوان واللوم:

يميل الشخص الذي يستخدم هذا الأسلوب إلى أن يتصرف دائماً مع الآخرين مستخدماً لهجة الطلب. كما يتميز أكثر اللوامين تطرفاً بأنهم مستبدون كما أنهم يفرضون آراءهم على الآخرين ويفعلون ما يريدونه على حساب حقوق الآخرين ومشاعرهم وعواطفهم.

٢- أسلوب الاسترضاء وعدم الجزم:

يحاول الأشخاص الذين يتخذون هذا الأسلوب، استسماح الآخرين، وإنكار ذاتهم، وهم نادراً ما يرفضون أمراً، ولذلك فهم يحتاجون دائماً إلى من يساندهم أو يؤيدهم، وهم غير قادرين على التعبير عما يريدونه بصفة مباشرة وحاسمة.

٣- الأسلوب العقلي:

الأشخاص الذين يستخدمون هذا الأسلوب يعلقون أهمية قصوى على احتساب كل ما يفعلونه مع الآخرين ومعالجته معالجة تعقلية. ولهذا فإنه أسلوب يستلزم قدرة فائقة على أن يظهر الإنسان بمظهر الهدوء، والرصانة، والاتزان، فلا يسمح لمشاعره أن تخرج إلى حيز التعبير.

٤- الأسلوب الملتوي أو الاحتكاري:

يقوم هذا الأسلوب على أساس من عدم الاندماج في المواقف المتبادلة بين الأشخاص أو المواقف الشخصية، ويشار إليه بهذه العبارة «ابتعد عن المواقف المهددة». والأشخاص الذين يستخدمون هذا الأسلوب يتبعون كل أنواع الإستراتيجيات للمحافظة على ذاتهم بعيداً عن أطراف التواصل غير المريحة. ولكن عندما لا يتمكنون من تحاشي هذه الأطراف غير المريحة لهم، فإنهم يلجؤون إلى استخدام أسلوب آخر للتعامل مع هؤلاء وهو أسلوب المناورات الملتوية أو أسلوب احتكار مشاعر الآخرين وعواطفهم واستغلالها.

٥- الأسلوب الواضح المباشر:

يتميز الأشخاص الذين يستخدمون هذا الأسلوب بقدرتهم على الإفصاح عن حقوقهم، والتعبير عن مشاعرهم وأفكارهم، وحاجاتهم بطريقة مباشرة

وشريفة ومستقيمة. ويكشف الأشخاص الذين يعتمدون على هذا الأسلوب عن عدم لجوئه إلى تحقيق حرياتهم على حساب حريات الآخرين، واستعدادهم الدائم للتفاوض والحوار وعقد الصلح. لذا يعتمد هذا الأسلوب على مبدأ الاحترام.

مما تقدم نتوصل إلى أن كل أسلوب من هذه الأساليب يعتبر فعالاً وإيجابياً في مواقف معينة. وإن هناك كثيراً من أساليب التواصل المتاحة أمام الأشخاص. وإن الاستخدام المعتاد لنموذج واحد وبالذات في جميع المواقف دون تمييز لطبيعة الموقف، هو الذي يمكن أن يتسبب في المشكلات المتصلة بالعلاقات بين الأشخاص.

وظائف التواصل:

إنَّ التواصل الإنساني يستخدم لتحقيق وظائف متعددة مختلفة أهمها:

١- استقبال ونقل المعلومات من طرف إلى جانب آخر. وتبادل المعلومات والأفكار والتجارب بين أفراد المجتمع، وإحاطة الأفراد والجماعات بالأخبار الصحيحة والدقيقة والمعلومات الواضحة والحقائق الموضوعية.

٢- استقبال المعلومات والاحتفاظ بها. ويسهم التواصل في النشاط الترويجي والإعلاني عن البضائع والسلع التجارية.

٣- تحليل البيانات والمعلومات المتاحة واشتقاق نتائج جديدة تفيد في إعادة بناء الأحداث وزيادة القدرة على التوقع والتنبؤ بالمستقبل.

٤- التأثير في العمليات الفسيولوجية داخل الجسم وتعديلها.

٥- التأثير في الأشخاص الآخرين وتوجيههم. والتواصل بين أفراد المجتمع يسهم في تحقيق الاتزان داخل الجماعة.

٦- الوظيفة الشاملة للتواصل حيث أنه وسيلة للثقافة والتعليم والتعلم.

٧- التواصل وسيلة لنمو شخصية الإنسان منذ ولادته حتى نضوجه وتطوره.

٨- التواصل وسيلة لتحريك سلوك الإنسان نحو تحقيق الهدف.

٩- تمثل مهارة التواصل حجر الزاوية في الوظائف الأربعة لعملية التواصل هي:

• **التخطيط:** للحصول على البيانات وتحليلها ودراسة المشكلات واستنباط المؤشرات والتنبؤ والتوقع.

• **التنظيم:** حيث تمثل خطوط التواصل في الهيكل التنظيمي لأي مؤسسة أهمية كبرى لضمان سهولة تبادل المعلومات والبيانات بين أجزاء ووحدات المنظمة في ضوء تعدد وتباين الوظائف في المنظمة.

• **التوجيه:** أي تحريك سلوك العاملين لتحقيق الأهداف الإنتاجية أي إرشادهم

بصــورة مستمرة للكيفيــة التي تمكنهم من ذلك.

• **الرقابـة:** حيث تعتمــد عملية متابعة وتقييم أداء العاملين على مشاهدة وملاحظة نشاطهم وسلوكياتهــم، ويتطلب ذلك توفير بعض المهارات في إجراء مقابلات التقييم مع المرؤوسين أو الرؤساء، وكذلك التواصل المكتوب فــي صورة التقارير الدورية والتي تتعلق بإنجاز بعض الأعمال.

أهم مراحل التواصل:

تحــدد المراحل التي تتــم فيها عملية التواصل الإنساني كما يلي:

أولاً: مرحلة المواجهة «Encounter»:

وتمثــل المرحلــة الأساسيــة للتواصل الإنسانــي حيث يتم فيها الاقتــران بين ما يقدمــه فرد من معلومة محددة وبين متلقي من خلال وسيلــة معلوماتية محددة وتمثل المواجهة أبسط أشكال التواصل الإنساني، ومن شروط نجاح عملية المواجهة:

• دقة نظام بث المعلومات.

• المــدى الإرسالــي الــذي تصــل به المعلومات للمتلقي بدقة وانتظام.

• نــوع المتلقي إذا كان متعلماً أم أمياً أو شبه مثقفٍ.

ثانياً: مرحلة التبادل «Exchange»:

وهــي مرحلة تدفق المعنــى المشترك، وتمثل الجهد المبذول مــن المشاركين في حدوث عمليــة التواصــل لإبقــاء الالتقاء الفكري حول معنى محدد، وذلك من خلال مجموعة مــن الرموز، أو الشيفرات المتفق عليهــا. ولابــد أن تكــون الرمــوز وكذلك الشيفــرات مفهومــة لــدى المشاركين في عمليــة التواصل ولذا يتوقــف نجاح عملية التبادل علــى البناء النفســي والاجتماعي وخبرات المشاركين.

ثالثاً: مرحلة التأثير «Influence»:

وتتمثل في درجة التحــول التي تحدث في كل من اتجاه الفرد وسلوكه تجاه موقف أو شخصــ أو موضوع ما قبل مشاركته في المرحلتين السابقتين، وكذلك اتجاهه وسلوكه بعد المشاركة فيهما أو في إحداهما، وهذه المرحلة تعبر عن التأثير النفسي والسلوكي لعملية التواصل لدى الفرد لحدوث التواصل والتي يصعب قياسها وتتوقف هذه المرحلة على ما قبلها من مراحل.

رابعــاً: مرحلــة التحكــم والتكيــف «Control and Adaptation»:

تعتبر المرحلة التنظيمية لعملية التواصل والتــي تتضــح من خلالهــا فعاليــة نظام التواصل، ويشير التحكــم في هذه العملية إلــى الجهد المبذول مــن المرسل من أجل

تنظيم عملية التواصل، في حين أن التكيف يوضح الجهد المبذول من المستقبل لتنظيم عملية التواصل.

بعض النظريات السيكولوجية المفسرة للتواصل:

نشير فيما يلي إلى أهم النظريات النفسية التي اهتمت بالفعل بدراسة عملية التواصل هي:

١- نظرية التعلم «Learning Theory»:

إذا حاولنا تحليل مكونات نظرية التعلم للتواصل في ضوء تحليلات علماء النفس الذين ركزوا على أهمية هذه النظرية في دراسة طبيعة التواصل وأساليبه ووسائله المختلفة، نجد أن طبيعة التعليم كعملية من العمليات التي تكشف عن طبيعة التواصل الشخصي والتي تم تحديدها من قبل علماء التواصل من أمثال برلو «Berlo»، وهيل «Hull»، وسكينر «Skinner»، وثورندايك «Thorndik» وغيرهم. حيث ركزوا على كيفية إتمام عملية التواصل عن طريق التعلم.

كما سعى علماء نظرية التعلم لأن يوضحوا مضمون «المنبه» والاستجابة كنوع من المفاهيم الأساسية التي استخدمها رواد هذه النظرية. وقد استخدم علماء التواصل نظرية التعلم في الكشف عن الكثير من عمليات التواصل وهذا ما ظهر بوضوح في الكثير في نماذج التواصل «Communication Models» والتي تميزت في التواصل الشخصي، سواء كان تواصل داخل الفرد ذاته، أو بين فردين أو أكثر.

ومن ناحية أخرى يحدد علماء التواصل طبيعة السلوك الفردي «الشخصي» أو الجماعي نتيجة لحدوث عملية التواصل بين أطرافها «المنبه والاستجابة» وذلك عن طريق تحديد أنواع مختلفة للتواصل. ويهدف علماء التواصل الذين يركزون على ضرورة استخدام نظرية التعلم، لفهم عملية التواصل وشرح عناصرها الأساسية وعلى أهمية فهم السلوك البشري كشرط أساسي لتحليل ودراسة العملية التواصلية التي تزداد يوماً بعد يوم تعقيداً وتطوراً، سواء من ناحية مضمونها أو أساليبها ووسائلها التكنولوجية أو جمهورها من ناحية أخرى. وبالطبع إن التواصل في حد ذاته يعتبر نوع من المنبهات، التي تؤثر على السلوك الفردي.

كما سعى التواصل أيضاً لدراسة العديد من مكونات وعناصر العملية التواصلية، وذلك في ضوء الاهتمام بنظرية التعلم السيكولوجية، والتركيز بصورة خاصة على طبيعة عناصرها الأساسية «المنبه والاستجابة».

وفي الحقيقة أن الاهتمام بنظرية التعلم فـي دراسة وسائل التواصـل الجماهيري باعتبارها إحدى النظريـات السيكولوجية المرتبطـة بالعملية التواصليـة والتي ذاع استخدامها منذ فترة طويلة. أثبتت أهميتها في دراسـة الكثير من جوانب هذه العملية. ولاسيمـا أن طبيعة توصيـل المعلومات أو الأفـكار أو الآراء والاتجاهات أو الثقافات بمفهومها العام تكشف عن مجموعة علاقات متداخلة بين نوعية المنبهات والاستجابات التـي تظهر كرد فعل لنقل المادة الإعلامية أو التواصلية أو الثقافية ككل.

٢- نظريـة الاتفـاق «التـوازن» «Congruence Theory Balance»:

مع تطور الاهتمام بالمداخل السيكولوجية في دراسة عمليـات التواصل التي يعتبرها الكثيرون أنها عملية سيكولوجية « نفسية « من الدرجة الأولى، ظهرت تحليلات متعددة ركزت على تبني الكثير من آراء علماء النفس التقليديين، وهذا ما ظهر في نظرية الاتفاق أو نظريـة التوازن حيث تعتبر هذه النظرية علماء النفـس الجشطلتي الإطار المرجعي لها والتي ترتبط بالمحـاولات الأولى التي ظهرت لتوجيه نظريات التواصل العامة.

ومن الناحيـة السيكولوجية والمنطقية، نجـد أن مفهـوم الاتفاق يفرضـ دائما أن الإنسـان يسعى لتحقيـق التوازن في حياته وسلوكه وآرائه وأفكاره ومعتقداته وتواصلاته عموماً مع الآخرين، وأيضاً مع ذاته الفردية. ولذا يهتم علماء التحليل النفسي والسلوكي بمعرفة العمليـات والمحاولات التي يبذلها الفرد والتي تؤثر على كل من حالات التوازن والتوافـق وأيضاً عدم التـوازن أو التوافق. لأن مثل تلك العمليات تؤثر بها بالطبع على استجابتـه. والتي تعتبر كـرد فعل لطبيعة الرسائل التواصلية التـي يتلقاها دائماً من المصدر أو المنبه.

وتركز هذه النظرية على الكشف ومعرفة الأسلـوب الذي عن طريقـه يمكن أن تكون الحالـة السيكولوجية للفرد في حالة توازن أو اللا توازن. خاصة وطبيعة الفرد البشرية مـن الناحية النفسية، أما أن تكون في حالة من التوازن أو اللا توازن.

عمومـاً لقد اهتـم الكثير مـن علماء التواصـل بتطبيـق الكثير مـن النظريات السيكولوجية، التي يستخدمها علماء النفس في دراسة كل من الطبيعة الفردية والجماعية ومعرفة أنمـاط السلوك ورد الفعل الفردي أو الجماعي نتيجـة حصولهم على مصدر المعلومات التي تنقل إليهم سواء عن طريق التواصل الذاتي الذي يعتمد على الخبرة أو التعلم أو عن طريق التواصل الشخصي.

مقومات التواصل الفعال:

١- حسن الاستماع وعدم المقاطعة غير المدروسة، واحترام الآخر واحترام رأيه وإن كان مخالفاً لرأينا، والقبول بمبدأ الحوار وتقبل النقد البناء.

٢- المرونة في التعامل مع الآخرين ومفتاح ذلك أن نبدأ من موقع الآخر، أي أن نقف مكانه ونشعر بمشاعره ونرى ما يراه ونفكر بما يفكر به. والأهم أن نضع في اعتبارنا أن الأكثر مرونة هو الأكثر تحكماً في النتائج، ففي الأسرة مثلاً الأكثر مرونة هو الذي يستوعب ويتفهم باقي الأفراد ويحسن التواصل معهم.

٣- نحن المسؤولون أولاً عن نجاح التواصل مع الآخرين، وليس الآخر خاصة عندما نعلم أنه لايوجد أشخاص مقاومون للتواصل فكل شخص له مفتاح أو مدخل وعلينا اكتشافه، لذا يجب أن نغير باستمرار طرقنا في التواصل حتى نحصل على النتائج المثمرة والإيجابية.

٤- التركيز على نقاط التشابه مع الآخر سواء في الحركات، وطريقة الجلوس ونبرة الصوت، وأسلوب وطريقة الحديث، والتشابه في الأفكار والقناعات والقيم والعادات.

٥- التواصل هبة من الله تعالى، ولكنها مهارة مكتسبة يمكن تعلمها والتدرب على ممارستها بنجاح من خلال الاطلاع على علوم التنمية البشرية والدورات التدريبية، وقراءة الكتب والمجلات المتخصصة في هذا المجال.

٦- توافر البيئة المناسبة للتواصل «المكان والزمان» والخالية من المشاكل.

٧- إعداد الذات للتواصل «أي الحالة الصحية والنفسية السليمة» والتحرر من الأفكار الذهنية المسبقة، إن مفهوم الإنسان الإيجابي عن ذاته يعطيه فرصة أكبر ليتواصل بفعالية ونجاح مع الآخرين «الثقة بالنفس، وحسن التكيف، وتقدير الذات».

شروط نجاح التواصل:

١- وجود رغبة وحافز لدى المرسل وهذا يستدعي أن يكون له هدف واضح.

٢- تحديد صيغة الرسالة ولابد أثناء ذلك من توقع رد فعل المستقبل. والرسالة الناجحة هي التي تجيب عن خمس أسئلة:

أ- ماذا أريد من هذه الرسالة؟

ب- متى أريد ذلك؟

ج- أين أريده؟

د- كيف أريد أن يتحقق؟

ه- لماذا أنا أريده؟

٣- إنجاز الرسالة فعلاً وتنفيذها على أرض الواقع.

٤- استقبال المرسل لرسالتك.

٥- رد فعل المستقبل أو المرسل إليه

تجاه رسالتك هو الهدف الذي تسعى لبلوغه والوصول إليه.

إذن، نستخلص مما سبق أن التواصل حتى يكون ناجحاً لابد من ركنين أساسيين هما:

١- إقامة علاقات قوية مع الآخرين والتوافق معهم.

٢- نقل المعلومات والأفكار إلى الآخرين والتأثير فيهم بما تريد.

خصائص التواصل الاجتماعي:

يمكن أن نلخص خصائص التواصل الاجتماعي فيما يلي:

١- إنَّ التواصل يعني التفاهم وتبادل الرسائل بين طرفين يشتركان في علاقة اجتماعية، وقد تكون هذه العلاقة مؤقتة أو عارضة. كما يحدث لاثنين مسافرين على متن طائرة فجاءت جلستهما في مقعدين متجاورين فتجاذبا الحديث فاتفقت آراؤهما، ولما هبطت الطائرة ذهب كل منهما في حال سبيله.

٢- تعني قدرة الفردين على التواصل إضافة إلى وجود علاقة اجتماعية بينهما، أنهما يشتركان في نظام اجتماعي واحد، ويستخدمان لغة مشتركة، وإن التواصل بينهما يجعل منهما جماعة وإن كانت فترة التواصل عارضة وسوف تنتهي، وإلا ما حدث التفاهم بينهما.

٣- إن المعلومات التي تتضمنها أي رسالة متبادلة لها مظاهرها الصريحة ومظاهرها الضمنية. الأم حين تقول لطفلها باسمه «إياك أن تفعل هذه ثانية» تحمل رسالتها إليه من المعاني غير المعاني التي تحملها وهي تقولها غاضبة مهددة متوعدة.

٤- من خصائص شبكات التواصل أنها مقيدة محددة، بمعنى أن المعلومات التي تسري من وحدة إلى أخرى من وحدات نظام التواصل المستخدم يكون لها اتجاه وتسير في قناة هدفها محدد لكي تكون نقية واضحة خالية من التشويش الذي قد يعوق انتقال الرسالة.

٥- والتواصل الاجتماعي له أهميته في أنه يحدد لنا هوية الآخرين. فمن المألوف لدينا أن نجد أنفسنا في وسط جماعة لانعرف فيها كما يحدث حين نقوم بزيارة صديق فنجد آخرين لا نعرفهم. فإذا كان المتحدث ذا مركز رفيع فإنه في العادة يحظى باهتمام أكبر من الاهتمام الذي نعطيه لشخص نعرف أنه أقل مركزاً.

٦- وتعتبر اللغة من أهم أشكال التفاعل الاجتماعي لاستمرار الهوية الثقافية ويؤدي التحدث بلغة واحدة إلى تدعيم التماثل في السلوك الاجتماعي.

٧- يمكن تمييز المستوى التعليمي بل الطبقة الاجتماعية للفرد بل والإقليم الذي

ينتمـــي إليه، مـــن أسلوبه فـــي التعبير ومن لهجته. وينجح التواصـــل كلما زاد التقارب في المستوى التعليمي والاجتماعي.

٨- هنـــاك عامـــل آخـــر هـــو المسافة المترية التي يحتفظ بها الناس في الحديث وجهـــا لوجه، فإذا حاولنـــا -مثلاً- كتجربة علمية قيـــاس المسافة المترية التي تفصل بين المرؤوس أثنـــاء حديثه مع رئيسه لابد وأن نجد أنها أطول من المسافة التي تفرق بينه وبين صديق له يتبادل معه الحديث.

٩- إنَّ المعلومـــات المشتركـــة هـــي محور التواصـــل القائم على أساس التبادل، فالمعلومـــات المستقـــاة مـــن القـــراءة والملاحظة والإنصـــات للآخرين تؤثر في التواصل المتبادل بين الأفراد. فالمعلومات عن الآخريـــن وتوقعاتهم تؤثر في العلاقات القائمة على المواجهة بطرق متعددة.

تنمية مهارات التواصل مع الآخرين:

فن الحوار:

للحـــوار أهمية كبيرة، فهـــو من وسائل التواصل الفعالة، حيث يتعاون المتحاورون علـــى معرفـــة الحقيقـــة والتوصـــل إليها. والحـــوار مطلب إنسانـــي تتمثل أهميته من خلال استخدام أساليب الحوار البناء لإشباع حاجـــة الإنســـان للاندماج فـــي الجماعة، والتواصـــل مـــع الآخرين، فالحـــوار يحقق التوازن بيـــن حاجة الإنســـان للاستقلالية وحاجته للمشاركـــة والتفاعل مع الآخرين. كما يعكس الحوار الواقع الحضاري الثقافي للأمـــم والشعوب، حيث تعلو مرتبته وقيمته وفقاً للقيمة الإنسانية لهذه الحضارة وتلك. وتعد الندوات واللقاءات والمؤتمرات إحدى وسائـــل ممارسة الحوار الفعال، الذي يعالج القضايا والمشكلات التـــي تواجه الإنسان المعاصر.

وفيمايلي بعض الإرشادات التي تساعد على تنمية مهارة الحوار:

- **الإنصات:**

وهو أهم نقطة في المحادثة، وقد تعتقد أن الحوار يقتصر على الكلام المتبادل بين طرفين أو أكثر، ولكن من الصعب فهم كلام الآخريـــن ما إن كان الطـــرف الآخر يستمع وينصت إليـــك، وبالتالي يفكر في ما سوف يقولـــه فـــي الجملـــة التاليـــة، لذلك يجب الانتباه إلى كل ما يقال عند الحديث لشخص معك.

- **حـــاول أن تعـــرف مـــا يهـــم المتحـــدث أمامك:**

قبل أن تبدأ الحوار أو النقاش مع شخص ما حـــاول أن تفهم مفتـــاح الشخص الذي أمامـــك فلو كان من الشخصيات التي تحب المدح والإطـــراء، ستجد بعد جمل إطرائية عـــدة فـــي أول الحوار تفتح البـــاب أمامك

لطرح مواضيع عدة كان من الصعب طرحها سابقاً، وبالمدح والمجاملة تكون البداية أفضل لكسر كل الحواجز.

• إسأل بعض الأسئلة:

إسأل من يستمع إليك عن ما يحب أن يعمل؟ عن الأشياء التي عملها في حياته؟ ماذا يعمل في الوقت الحاضر؟ ماذا عمل اليوم أو في عطلة نهاية الأسبوع؟ استفسر عن بعض الأشياء التي قد تحب أن تعرفها؟

• فكر في ردة فعلك قبل المعارضة:

فلو كان اعتراضك على رأي ما غير مهم أو ليس ذا علاقة جوهرية بموضوع النقاش، فالأفضل أن تحتفظ برأيك وأن لا تطرحه أمام الآخرين، لأن طرح الآراء المعارضة غير المهمة تجعل من صاحبها شخصاً مجادلاً فقط، فالمعارضة الكثيرة والدائمة قد تنحيك جانباً. لذا تذكر النقاط التالية:

- الناس لديهم فروق كثيرة في كل شيء وذلك ما يجعل الحديث ممتعاً معهم.
- الموافقة على كل شيء تراه قد تقتل الحوار مثل المعارضة على كل شيء.
- قد يستمتع الشخص بأنك تختلف عنه، ولكنه سيجدك بغيضاً إذ كنت تعارضه على كل شيء.
- عند معارضتك حاول أن تلغي كلمة «لكن» في حوارك لأنها تضع المتحدث في موضع الدفاع واستخدم عوضاً عنها أسلوب المحامي اللبق مثل «أوافقك في بعض النقاط ولكن في هذه النقطة...».

• يجب أن تعرف كيف تنهي الحوار:

حتى أفضل المحاورين أو المناقشين يواجهون قطع الحديث، فبادر أنت بإنهاء الحوار إذا تطلب الأمر بشكل محترف صافح الشخص الآخر وتأكد من إخباره بأنك استمتعت بالحديث معه، أنه اللقاء بكلمات لطيفة تعطي الشخص الآخر الطابع الإيجابي لك، لأن ذلك يشجعه على العودة مرة أخرى بأشياء جديدة.

أفضل طرق تنمية مهارات التواصل:

- المعرفة:

والتي ربما أن تكون هي أهم المهارات المطلوبة لتصبح محاوراً جيداً. فأنت تحتاج إلى معرفة بالعديد من الموضوعات حتى تعرف كيف تتواصل مع الآخرين؟ ومتى؟. وأن تكون على علم بالبيئة المحيطة من حولك هذا وليس فقط لتحسين نفسك في عملية التواصل بل سيساعدك أيضاً على السيطرة على أي محادثة عموماً، فعندما تتحدث مع زميلك عن موضوع ما يجب أن تكون على دراية بالموضوع حتى تعرف كيف تتواصل معه؟، وتذكر دائماً أن الشخص ذا المعرفة الأفضل يصنع تواصلاً أكثر فاعلية.

- الثقة بالنفس والتخلص من الخجل:

إذا أردت أن تكون محاوراً جيداً، يجب أن تكون واثقاً من نفسك، وأن تخرج إلى العالم الحقيقي، فالتواصل والتعبير عن أفكارك للناس، وإذا كنت خجولا لن يوجد لديك على الإطلاق أي وسيلة للتواصل مهما كنت ترغب في التواصل فلابد أن تتخلص من خجلك حتى لو كان الأمر غير سهل على الإطلاق في البداية، ولكن فقط الخطوة الأولى تكون دائماً الأصعب. وتعلم من الناس الذين يتواصلون بشكل جيد جداً في عالم اليوم ستلاحظ عند كل منهم هو أنهم لا يخجلون ويتعاملون بحرية في العالم.

- اقرأ لتتعلم فتتحدث:

لننظر حولنا في كل التواصلات المدهشة بين الناس في العالم والتي تحدث باستمرار هنا وهناك. ستلاحظ شيئاً مشتركاً في كل منها أنها ناتجة عن القراءة بكل اللغات فيتعلمون ويتحدثون باستمرار. هذه هي الطريقة التي تحسن التواصلات الخاصة بهم. ولكي تكون من المحاورين الجيدين يجب أن تجعل القراءة عادة حقيقة لك، فالقراءة توسع المفردات الخاصة بك دون شك، مما يعطي لك فرصة أوسع لاستخدامها أثناء التواصل، والقراءة في لغة معينة تساعد أيضاً على تطوير فهمك عن هذه اللغة التي من شأنها أن تساعدك بالتأكيد في التواصل والقراءة أكثر ستساعدك على التواصل بشكل أفضل.

- تعلم مهارات لغوية جيدة:

ويتم التواصل بالعديد من اللغات في هذه الأيام، منها: «الإنكليزية والألمانية والإيطالية والهندية والعربية»، فاللغات ضرورية لاثنين من الناس ليتواصلا باستخدام اللغة نفسها. فإذا كنت ترغب في التحدث إلى شخص ما في اللغة الإنكليزية يجب أن تبدأ في التعامل السليم مع اللغة الإنكليزية. لا أحد يحب أن يتواصل مع شخص لا يعرف لغته بشكل صحيح.

- استخدم لغة جسدك ومشاعرك جيداً:

تعلم أن تعدل صوتك من وقت لآخر فلا تتكلم بنبرة واحدة وكذلك مع تعبيرات الوجه والجسد فتبتسم في بعض المواقف وتتنفس الصعداء وتضييق عينييك في مواقف أخرى. فلغة الجسد هي جزء مهم أثناء التواصل كما أنه يضيف أكثر بكثير على ما كنت تحاول أن تنقله.

- تأكد من أنك مفهوم:

كل ما يحتاج المرء إلى القيام به عند التواصل مع الآخرين هو التأكد من أنه مفهوم وأفضل طريقة للحصول على أفكار أثناء الحوار هي أن يبقى بسيطاً. فأنت لاتحتاج

إلى استخدام كلمات كبيرة ومعقدة وأن يكون مباشراً للغاية وإلى النقطة المحددة. فتجعل من السهل للشخص فهم ما تحاول توصيله وما كنت ترغب في الحصول عليه، فعملية التواصل الجيدة هي عملية ذات اتجاهين ترسلها عبر أفكارك وتتلقى رداً عليها. إذا كنت لا تفهم في المقام الأول وكنت لا تحصل على الاستجابة المطلوبة لن تتمكن من إكمال التواصل.

- **استخدم التواصل الجيد بالعينين:**

إذا كنت على تواصل بشخص فسوف تحتاج لجعل العين على تواصل جيد هذا هو جانب من التواصل والذي معظم الناس إما تتجنبه أو ليسوا على علم به، وهو يعطيك شعوراً بمدى توصيل رسالتك، وتشير الدراسات إلى أن النساء أفضل بكثير في جعل العين على تواصل من الرجال خلال المحادثات.

- **اتصل جيداً:**

هذه المهارة تأتي عندما تتواصل مع شخص غريب لأول مرة. فإن تكون قادراً على التواصل الجيد هو جزء مهم للغاية من كونه تواصل فعال، كالحديث عن المصالح المشتركة بين البلدين في حال كان من بلد مختلف.

- **تعلم كيف تبني علاقات جيدة؟:**

تكون التواصلات في أفضل حالاتها عندما تكون عملية ذات اتجاهين، ففي علاقاتك مع أصدقائك تعلم كيف تبني علاقات جيدة معهم؟ تقدر أعمالهم وتمدح أفعالهم، ليشعروا بقيمة التواصل معك.

الاستماع هو جزء مهم في عملية التواصل، وأفضل طريقة لتصبح محاوراً جيداً هو تعزيز مهارات الاستماع لديك، مما يجعل لك جهاز استقبال جيد يؤهلك للرد في أي عملية تواصل. للأسف معظم الناس لا يدركون أهمية الاستماع أثناء التواصل، أفضل التواصل دائماً من أفضل المستمعين، فكونه مستمعاً جيداً يساعدك على الاستجابة بشكل جيد أثناء التواصل، والاستماع بعناية إلى ما يتحدث به شخص يساعدك ويعطيك أفكاراً لإكمال التواصل بشكل فعال.

- **تنمية التواصل بين الناس:**

يؤمن كثير من الناس بفاعلية شبكة الإنترنت في تجمع الأشخاص ذوي الاهتمامات المتشابهة مع بعضهم، فإذا كنت تبحث عمّن يشاركك هوايتك المفضلة أو عّمن يحب الرياضة نفسها التي تحبها فالشبكة هي خير معين لك، فالناس الذين تضطرهم ظروفهم المرضية أو حابس يحبسهم في المنزل فالشبكة هي خير لهم فهي هبة من عند الله بالنسبة لهم.

ولكن يجب أن تتذكر أن قضاء وقت طويل أمام شاشة الكمبيوتر والتحدث من خلال

الكتابة إلى المستخدمين الآخرين على الشبكة لن يعوض عن متعة الجلوس وجهاً لوجه مع شخص آخر لكل ما تحمله لك التجربة من مزايا فأنت تحتاج إلى التواجد وجهاً لوجه مع أي شخص آخر ولفترة ما حتى تستطيع أن تصل معه إلى مرحلة من التفاهم سواء عن طريق الكلمات أو عن طريق الإيماءات والأحاسيس. فالأجواء التي تنشأ نتيجة الحضور الجسماني والعقلي تتفوق في الأهمية على الانجذاب السطحي الذي قد يحث بين الشخصين.

فإذا كنتما غير قادرين على إرضاء الاحتياجات العاطفية لبعضكما البعض فإن العلاقة بينكما تكون مهددة بالفشل وهذا ما يحدده التفاعل الشخصي فقط فهنا تستطيع أن تحكم ما إذا كنت فعلاً تتواصل مع الناس أم لا.

معوقات التواصل «Communication Barriers»:

تتعرض عملية التواصل لمعوقات مختلفة تؤدي إلى تشتت المعلومات أو ضعف القدرة على استيعابها مما يؤثر على كفاءة العملية، وتتضمن صعوبات التواصل والأبعاد التواصلية التالية كافة:

١- **المشكلات الذاتية**: للمرسل والمستقبل وتشمل: «التمركز حول الذات، التعصب، التواكل، تباين الإدراك، القصور في مهارات التحدث، المسايرة المبالغ فيها، التمرد، الخداع والكذب وعدم الأمانة، الشعور بالمعرفة الكاملة، والمبالغة في التواصل».

٢- **مشكلات معاني اللغة**: غالباً مايكون هناك درجات من الاختلاف في فهم الآخرين وإدراكهم المعاني، وتمثل طريقة استخدام اللغة أحد المعوقات الكبيرة للتواصل وتسبب اللهجات المختلفة في اللغة الواحدة والمسميات المختلفة للشيء الواحد الكثير من التشويش.

٣- **المعوقات التنظيمية «بيئة العمل»**: يعتبر الهيكل التنظيمي في أي منظمة عبارة عن مجموعة العلاقات بين جميع مكوناته أي جميع أقسامه وإداراته ووحداته، ويؤدي عدم الأخذ بالمبادئ الصحيحة للتنظيم إلى ضعف فاعلية عملية التواصل داخل المنظمة ويؤدي عدم وجود الهيكل التنظيمي أو وجود هيكل ضعيف إلى عدم وضوح الاختصاصات والمسؤوليات مما يؤدي إلى الكثير من التشويه للمعلومات لضعف أو فشل عملية التواصل، وقصور نظم التواصل يمكن أن يكون نتيجة لعدم وجود سياسة واضحة للإدارة، كما يؤدي القصور في المعلومات إلى عجز القائمين في العمل على الحصول على البيانات اللازمة لأداء أعمالهم، كما أن القصور في إيجاد

قنوات لربط المنظمة بالبيئة الخارجية من معوقات التواصل الجيد.

٤- **المعوقات الميكانيكية**: كلما زادت أجهزة التواصل تعقيداً كلما ظهرت الحاجة إلى تدريب الأفراد على استخدامها أو عدم صيانتها أو مشكلات البرامج المستخدمة في تشغيلها، مما يسبب حدوث معوقات كبيرة تؤثر في كفاءة عمليات التواصل وتحقيق أهدافها، كما يمثل المغالاة في استخدام الأجهزة الأكثر تعقيداً دون الحاجة إليها إحدى أهم معوقات التواصل.

المقترحات والتوصيات:

من أهم التوصيات والإرشادات التربوية والنفسية، التي يمكن أن تسهم في مساعدة الأشخاص على تنمية الحوار والتواصل لديهم ما يلي:

١- على المجتمع أن يؤمن بالحوار كوسيلة للتواصل بين البشر،والتأكد من جاهزية الطرف الآخر للقاء والتواصل.

٢- ضرورة ممارسة الحوار مع الآخرين.

٣- يجب التحلي بآداب الحوار، وتفادي الأسئلة التي إجابتها نعم أو لا وتجنب الأسئلة المحرجة.

٤- احترام حق الآخرين في التعبير عن آرائهم، والابتسامة اللطيفة والثناء على سلوكيات الآخر الإيجابية.

٥- لابد من وجود ميزة معينة أو خصائص يتقبلها الآخرون حتى يتم نجاح الحوار.

٦- توفير وسائل التواصل المتقدمة لجميع أفراد المجتمع المتعلمين.

٧- تعليم الفرد كيف يقدم نفسه بتواضع مقبول وكيف يبدأ الحديث وكيف يستمر به.

٨- يجب توفير مناخ يسوده الحب والمودة والاحترام في المجتمع حتى يكون هناك تفاعل وتواصل مستمر بين أفراده، وترك انطباع حسن يدعو للتواصل مرة أخرى.

٩- تبادل عبارات لطيفة وجميلة تبعث على الراحة النفسية والسلام الاجتماعي، والتأكيد على النقاط الإيجابية في الحديث وتفادي السلبيات والتأكيد على الأمور المشتركة.

التواصل الإيجابي يحسّن الصحة النفسية والجسدية نتيجة لزيادة فرص العلاقات الإيجابية البناءة وحل المشكلات النفسية والاجتماعية. ويزيد فرص النجاح في الحياة عموماً، وبالتالي فإن التواصل الناجح يشكل البوابة الرئيسة للسعادة والنجاح اللذين يرضيان جميع الأطراف.

المراجع

- عبد الغني، أشرف محمد؛ الشربيني، أميمة محمود.(٢٠٠٣). تنمية الابتكار ومهارات الاتصال. الإسكندرية: كلية رياض الأطفال، الكتاب الجامعي.
- عبد الله، مجدي أحمد محمد.(٢٠٠٣). السلوك الاجتماعي وديناميات. الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية.
- Cherry, C.(1980). What is Communication? In coner, howthorn Communication studies London: Edward arnold.
- Kramer,R. & Carneval, J. (2003). Trust and Intergroup Negotiation. In. Brown, R & Gaertner, S. Blackwell andbook of Social psychology: Intergroup processes.(USA): Blackwell Publishing.
- Sollivan, T. & et.al. (1991). Key Concepts in communication. London & New York.

ماذا نعرف عن الهستيريا
أضواء حديثة على الاضطراب

د.محمد قاسم عبدالله ❀



تعتبر الهستيريا من الاضطرابات النفسية الشائعة والقديمة (تسمى الآن الاضطرابات التحويلية والتفككية)، ويعود مصطلح هستيريا Hysteria إلى أصل يوناني هستيريا Hystra: ويعني حرفياً (رحم) الأنثى. حيث كان الاعتقاد السائد بأن هذا الاضطراب يصيب النساء فقط بسبب تجول وتنقل الرحم داخل جسم المرأة، وأن هذا التجول يؤدي إلى اضطرابات نفسية متعددة، فإذا تحرك الرحم باتجاه الأعلى أثر ذلك على الجهاز العصبي وأدى إلى أمراض عقلية، وإذا تحرك نحو الأسفل

❀ أستاذ علم الأمراض النفسية، وعميد كلية التربية - جامعة حلب.
العمل الفني: الفنان نتمي صالح.

فإنه يؤثر على الأجزاء السفلى من الجسم، ويؤدي لاضطرابات حركية وحشوية. وقد استخدم مصطلح الهستيريا hystria للإشارة إلى الاضطرابات التحويلية، وذلك من قبل الطبيب اليوناني أبقراط، الذي اعتبر أعراضه تصيب النساء، وتعبر عن انتقال الرحم في جوف الأنثى.

من هنا فقد نظر إلى الاضطراب على أنه يقتصر على النساء. ومصطلح hystra باللاتينية يعني الرحم womb الذي يتعرض لتحركات وتحولات وخاصة حين إنجاب الطفل. أما مصطلح التحول conversion، فيعود إلى الطبيب النفسي سيغموند فرويد، الذي عد القلق والصراعات النفسية عرضة للتحول على شكل أعراض جسمية. وقد كان الدليل التشخيصي والإحصائي الثالث للأمراض النفسية (DSM – ١٩٨٠) يعدها ضمن فئة الأعصبة Neurosis على أساس أن القلق يعتبر العامل الأساسي خلفها، وسميت عُصاب الهستيريا التي يقع ضمنها الاضطرابات التحويلية أيضاً.

أما في الدليل التشخيصي والإحصائي الرابع المعدل للأمراض النفسية (DSM-IV-RT، ٢٠٠٠) فلم يعد يستخدم مصطلح «الهستيريا» وحل محله الاضطرابات ذات المظهر الجسمي Somatofor، والتفككية Dissociative Disorders والاضطرابات التحويلية conversional، أي فئتين مستقلتين من الاضطرابات، ومستقلة عن أمراض القلق التي صنفت في فئة أخرى أيضاً. ففي الاضطرابات ذات المظهر الجسمي يعاني المريض من شكاوى وأعراض جسمية تعبر عن خلل عضوي جسمي وظيفي -وأحياناً دراماتكية بطبيعتها- مع عدم وجود عامل عضوي لها. أما الاضطرابات التفككية، فيعاني المريض من خبرات اضطرابات في الوعي أو الشعور Consciousness تؤثر في وعيه لذاته self-awareness، وفي ذاكرته memory، وفي هويته identity، أو تتحول الحالة النفسية إلى أعراض جسمية في الاضطراب التحويلي.

الاضطرابات ذات المظهر الجسمي (جسدية الشكل) Somatoform Disorders

وصف الاضطراب: في الاضطرابات جسمية المظهر، تأخذ المشكلات النفسية شكلاً جسمياً (soma وتعني الجسم body - وform تعني شكل أو مظهر). فالشخص يمر بخبرة جسمية ويعاني أعراضاً بدنية دون أن يكون لها أساس أو عامل عضوي محدد ومعروف no known physical cause. وبالتالي فإنها ليست تحت سيطرة وتحكم المريض وإرادته، ومن دون ثمن أو تكلفة

كبيرة no great expense، كما أنها تخلق حالة من الإرباك والتشويش للطبيب المعالج الذي لايقدر أن يحدد العوامل العضوية التي تقف خلفها. من أهم هذه الاضطرابات: الألم pain disorders واضطرابات تشوه شكل الجسم bodily dysmorphic disorders، وتوهم المرض أو الهيبوكندريا hypochondriasis واضطراب الجسدنة أو التجسيد summarization والفئة الأخرى هي الاضطرابات التحولية conversion. والشكل التالي يبين لنا الأوصاف الإكلينيكية لاضطرابات المظهر الجسمي، واثنين من الاضطرابات ذات الصلة بها وهي: اضطراب التمارض malingering، واضطراب التصنع المقصود intentionally factitious (والتي كانت تسمى جميعها: الهستيريا).

الاضطراب	الوصف الإكلينيكي
اضطراب تشوه شكل الجسم bodily dysmorphic	الألم الناتج عن عامل نفسي مهم
توهم المرض ypochandraisis	انشغال بعطب يحدث تشوه في شكل الجسم انشغال ومخاوف من التعرض لمرض خطير
اضطراب الجسدنة somatoform disorder	شكاوي جسمية مستمرة ومتنوعة بدون وجود أساس عضوي
الاضطراب التحويلي conversion disorder	أعراض حسية أو حركية بدون سبب عضوي لها
التمارض malingering	أعراض تصنعية ومقصودة

اضطراب تشوه شكل الجسم Bodily Dysmorphic Disorder:

المرضى الذين يعانون من اضطراب تشوه الشكل، لديهم انشغال متخيل مسبق ومستمر بعلة أو خلل مبالغ فيه يتعلق بشكل الجسم ومظهره. فهؤلاء المرضى من النساء، يركزن على حالة الجلد لديهم skin، أو الورك hips، أو الأثداء breats، أو الأقدام. بينما يركز الرجال منهم على الانشغال المستمر بطولهم، وحجم القضيب penis size، وشعر الجسم. ويقضي أحدهم ساعات كل يوم في الانشغال القسري والاهتمام المفرط والنظر إلى أجسامهم من خلال المرآة لفحص العلة أو التشوه المفترض. بينما يحاول بعضهم الآخر تجنب ذلك من خلال تمويه camouflaging التشوه أو الخلل. كأن يحاول المريض ارتداء ملابس فضفاضة من أجل تغطية وإخفاء العيب أو التشوه المتخيل لديه. إن أعراض اضطراب تشوه الشكل تخلق حالة من الضيق والكرب الشديد، مما يدفع بالعديد من المرضى إلى التفكير بالانتحار. وقد تبين أن نصف هؤلاء المرضى سيطرت عليهم أفكار انتحارية بسبب ذلك، كما أن ربع الحالات اتجهت للعمل الجراحي، على الرغم من أن الجراحة التجميلية plastic surgery لم تخفف انشغالهم واهتمامهم

بأجسامهم. وقــد كشفت تقارير العديد من هــؤلاء المرضى أنهم رفعوا دعاوى قضائية ضد الأطبــاء الذين عالجوهــم بعد العمل الجراحي، لأن النتائــج التي حصلوا عليها لم تكن كمــا يتوقعــون (Philips et al.، ٢٠٠٠).

تلعب العوامــل الاجتماعيــة والثقافية دوراً مهماً في الطريقة التي يقرر فيها الناس مــا إذا كانوا يتمتعون بالجاذبية أم لا. فبين طلاب الجامعــات، تنتشر حالات الانشغال المفرط بشــكل الجسم والمظهر الخارجي خاصــة في الولايــات المتحــدة الأميركية مقارنة بطلبة البلدان الأوربية، فقد تبين أن نسبة (٧٥٪) مــن الطلاب الأميركان لديهم انشغــال متخيل ومفرط بأجسامهم، كما أن النساء تسيطر عليهن حالة من عدم الرضا عن رشاقــة أجسامهــن مقارنــة بالذكور. وهنــاك أدلة تشير إلــى أن اضطراب تشوه شكل الجسم يحدث لدى النساء بنسبة أعلى منهــا لدى الرجال، على الرغم من أن نسبة انتشارها لديهــن ضعيفة، حيث لاتزيد عن (١٪). ومن النساء اللواتي يخضعن لعمليات جراحيــة تجميلية، تبيــن أن نسبة (٥-٧٪) منهن ينطبق عليهن تشخيص الحالة بأنهن يعانين من اضطراب تشوه شكل الجسم. من جهة ثانية، فإن الاضطــراب يبدأ بالظهور عادة في مرحلة المراهقة.

اضطــراب توهــم المرض Hypochandriasis:

المظهــر الأساســي لاضطــراب توهم المرضــ Hypochandriasis، هــو الانشغال المسبق المستمر بالصحة وسيطرة مخاوف مــن التعرض لمرضــ خطير. إن اللوحة السريرية لوصــف هذا الاضطراب في الدليــل التشخيصي والإحصائي الرابع المعــدل للأمراضــ النفسيــة (DSM-IV-TR) تظهــر أن المريضــ تسيطــر عليه مخــاوف مستمرة من التعرض لمرض خطيــر خلال فترة ستة أشهــر على الأقل، على الرغم مــن أن الفحوص الطبية تظهر عدم وجود أي مؤشر علــى المرض. ويبدأ هــذا الاضطراب عادة في مرحلة الطفولة، كمــا أنه يميل للتطور والتــأزم، ويظهر هذا الاضطراب لدى المسنين، والعزاب، والذين يعانون مــن الوحدة النفسيــة. ففي إحدى الدراسات، تبين أن أكثر من (٦٪) من الناس الذين تــم تشخيصهم بتوهــم المرض قد شخصت حالتهم بهــذا الاضطراب بعد (٤-٥) سنــوات. ويظهر لدى هــؤلاء المرضى ترددهم علــى العيــادات الطبيــة وإجراء الفحوصــ المستمــرة، وينظــرون للأطباء الذين يراجعونهم على أنهم غير أكفاء، وأنهم لايقدمون الرعاية اللازمــة. ويرافق توهم المرض أعراض القلق واضطرابات المزاج.

إن مفتــاح التفريق بين توهم المرض وغيره مــن الاضطرابات الأخرى، هو أن الشخص الذي يعاني من هذا الاضطراب يظهر لديه علامات الانشغال المستمر بصحته بوصفه يعاني من وجود مرض خطير لديه.

اضطـراب الجسدنـة Somatization disorder:

في عام (١٨٥٩) وصف الطبيب الفرنسي بيير بريكيــت Pierre Briquet متلازمة مرضية سميت «متلازمة بريكيت» Briquet Syndrome، وتعرف الآن باسم «اضطراب الجسدنــة» somatization disorder. ويتصف هذا الاضطراب بوجود العديد من الشكاوى والأعراض الجسمية المتكررة التي ليس لها أساســ عضوي أو تفسير عصبي، ولكنها تجعل صاحبها في حالة سعي مستمر في طلب العلاج الطبي. والتشخيص الدقيق والنوعي للحالة، يظهر أن المريض يعاني من سيطرة أعراض جسمية متنوعة، تجعله في حالة عجز وضعف دائمين. ويتردد المرضى بهــذا الاضطراب في طلــب العناية الطبية باستمــرار، كما يزورون عــدداً متنوعاً من الأطباء ذوي التخصصات المختلفة طالبين العــلاج الطبي. وتنتشر بين هؤلاء المرضى حالات كثيرة من الدخول إلى المستشفيات. ويعبر هــؤلاء المرضى عن أعراضهم بشكل مسرحي وتصنعــي histrionic وبطريقة مبالغ فيها تعبر عن تاريخ طويل من الشكوى والمعانــاة. ويعبــر المريض عــن ذلك بأن حياته كلها متوعكة ومزعجة ail all live.

يبــدأ اضطــراب الجسدنة فــي بداية مرحلــة الرشد، يشتكي هــؤلاء من العديد من المشــكلات السلوكية والاجتماعية، في العمل، والعلاقات الأسريــة والزوجية.كما تظهــر لديهم أعراضــ اضطرابات المزاج mood disorders، وســوء استعمــال المواد المؤثــرة والعقاقيــر substance abuse، وعدد مــن اضطرابات الشخصية personality disorders، والاضطرابات التحويليــة conversion disorders. أما فيما يتعلق بانتشار اضطراب الجسدنة فقد تبيــن أن نسبتــه (٠٥٪) في المجتمع الأميركــي وأنه أكثر انتشاراً بين الإناث منه بيــن الذكور، وخاصة بيــن الأميركيات من أصل أفريقي وإسباني كما أنه أكثر انتشاراً بين المرضى الذين يتلقون علاجاً طبياً. من جهة أخرى فإن انتشار اضطراب الجسدنة أعلى في مناطق معينة من العالم مثل أميركا الشمالية(Kimayer، ٢٠٠١).

الاضطرابات التحويلية Conversion Disorder **(الهستيريا):**

وصف الاضطراب التحويلي: هو الأعراض الحسية أو الحركية sensory or motor مثل فقــدان البصــر المفاجــئ، أو الشلل

المفاجـئ، الذي يتعلق بعطل عصبي، ولكن دون وجـود سبـب عضوي واضـح، حيث تكشف الفحوص الطبية عدم وجود خلل أو عامل عضـوي أو خلل في الجهاز العصبي للمريضـ. فقـد يعاني المريضـ من شلل جزئـي أو كلي في اليديـن أو القدمين، أو نوبـة seizure أو اضطراب في التناسق أو الاتزان الحركي، أو الشعور بالوخز والتنميل prickling and tingling أو فقدان الحس اللمسي والخدر anesthesia، وقد يتدرج هـذا الاضطراب من الخـدر والتنميل إلى ازدياد أو قلة الإحساس في عضو من أعضاء الجسم حتى انعدام الإحساس في كل أجزاء الجسـم أو بعض أجزائه، كمـا يأخذ شكل الألم غير المحدد، حيث لا يشعر المريض بأي ألم عند تعرضه لمثيرات مؤلمة كالوخز أو الكي بالنار أحياناً .وقد يأخذ الاضطراب التحويلي الحسي شكل العمى blindness حيث يفقـد المريض القـدرة على البصر مع غياب العوامل العضوية والعصبية، وقد يكـون جزئياً أو كليـاً يفرض على المريض لاشعورياً ولاإرادياً لإنقاذ نفسه من رؤية مالا يستطيع تحمل رؤيته لارتباطه بخبرة مؤلمة. مـن جهة ثانية فقد تتعطـل الرؤية وحاسة البصر لدى المريض محددة، حيث يحدث مايسمى بالرؤيـة الأسطوانية (رؤية أنبوبية tunnel vision). وفيه تكون الرؤية وكأنها خلسـة من خلال أنبوب أو أسطوانة tube.

أما بالنسبة لحاسة السمع، فقد يظهر على شـكل صمـم هستيـري deafness يفقد المريضـ سمعه بأذن واحـدة أو بالاثنتين معـاً، وفيهـا يتجنـب المريضـ سماع ما يتعلـق بخبرة لا يرغب في سماعها لأسباب انفعالية لاشعوريـة وصراعات نفسية. كما يظهر اضطراب التحـول على شكل فقدان الصـوت aphonia وهـو فقـدان القدرة على النطق وإصدار الأصوات، أو على شكل فقـدان القدرة على الشـم anosmia أي فقدان المريض حاسة شم الروائح. ويظهر المصـاب بالاضطرابـات التحويلية وكأنه راض عن نفسه، ولايظهر تلهفاً أو رغبة في التخلي عن أعراضه التي يعانيها. وقد يأخذ الاضطـراب التحويلي شـكل صعوبة البلع globous التـي لاترجع إلى التهاب أو آلية مرضية في البلعوم أو الحنجرة أو الحلق، أو على شكل الرعشة tics باعتبارها تقلصات عضلية نمطية لاإراديـة كالغمز أو حركات الشفتين والوجه والتي تتحول إلى مايعرف باسم العادة التشنجية hapitapasme أو الرجفة tremors أو التهيج excitement الذي يظهر على شكل نوبات حركية درامية تمثيلية لجذب نظر الآخرين.

وللاضطرابات التحويلية تاريخ طويل في علم النفس المرضي، حيث تعود إلى البحوث

والكتابات المبكرة عن السلوك الشاذ. فقد استخدم مصطلح الهستيريا hystria للإشارة إلى الاضطرابات التحويلية، وذلك من قبل الطبيب اليوناني أبقراط، الذي اعتبر أعراضه تصيب الناس، وتعبر عن انتقال الرحم في جوف الأنثى. من هنا فقد نظر إلى الاضطراب على أنه يقتصر على النساء، حيث يتحرك الرحم في جسمها. ومصطلح hystra باللاتينية يعني الرحم womb الذي يتعرض لتحركات وتحولات وخاصة حين إنجاب الطفل. أما مصطلح التحول conversion، فيعود إلى الطبيب النفسي سيغموند فرويد، الذي عد القلق والصراعات النفسية عرضة للتحول على شكل أعراض جسمية. علاوة على ذلك فإن الاضطراب التحويلي لا يظهر في العجز الحسي والحركي فقط، فقد ينال الأجهزة الحشوية بالجسم، فيظهر على شكل صداع، أو قيء وغثيان، أو الحمل الكاذب الذي يعبر عن رغبة ملحة في الحمل وخوف من اتهام السيدة بالعقم. كما يظهر على شكل سعال وذلك كاستجابة لنفور من حدث أو احتجاج على موقف لا يستطيع المريض أن يفصح عنه صراحة.

ومن الضروري التمييز بين أعراض الاضطرابات التحويلية كالشلل وفقدان القدرة على الإحساس من جهة، وبين الأعراض المشابهة التي تكون لها أساس عصبي وعضوي. فالشلل يطال آلية الحركة العلوية أو السفلية. وأحياناً نادرة يصيب الأطراف الأربعة، وقد يكون الشلل كاملاً أو جزئياً، صلباً أو ليناً، بسيطاً أو معقداً. ولكنه في جميع أشكاله لا يتفق مع الأسس العصبية العضوية المعروفة، ويكون ذا هدف رمزي، حيث يعمل على تحييد وإبعاد العضو الذي يكون محوراً تدور حوله صراعات بين رغبات ودوافع متناقضة، وقلق. ويكون المطلوب لاشعورياً من هذا العضو القيام بمهمة تنفيذية لواحدة من هذه الرغبات، ولكن بسبب تكافؤ هذه الرغبات والقوى المتصارعة يستمر الصراع ويفشل أحدها بحسمه لصالحه، وكحل وسط يعمل اللاشعور للهروب فيزيولوجياً فيعمد إلى شلل حركة العضو الذي يفترض ان يقوم بالمهمة، وبالتالي فإن استمرار الصراع لا مبرر لهوكأن الشلل التحويلي هو وسيلة تكيفية هروبية للتخلص من الصراعات المتناقضة وما يرافقها من قلق بطريقة غير مباشرة ولاإرادية. وقد يبدو للوهلة الأولى أن هذا التفريق والتمييز عملية سهلة، كما هو الحال حين لا يكون الشلل ذا أساس تشريحي، ولكن على المعالج والمشخص أن يكون حذراً. وهناك مؤشرات عدة للتشخيص التفريقي بين الشلل العضوي

والشلل التحويلي. فالشلل التحويلي يظهر فجأة، ويصيب ذراعاً أو طرفاً سفلياً بأكمله، ويكون شللاً تاماً ومصحوباً في الغالب بتقلص العضلات تقلصاً شديداً، ولا يشاهد معه ضمور أو فقد في الحس يتناسب مع الوضع التشريحي للأعصاب anatomical arrangement، كما تتميز صعوبة المشي في الشلل التحويلي بحيث أن المريض يحاول أن يفقد توازنه ويبدو فيه شعور خفي يدل على أنه يود السقوط على الأرض، لاسيما إذا وجد أن هناك من يراقبه. وإذا دفعه أحد إلى السير، فإنه يظهر وكأنه يبذل جهداً كبيراً حتى إنَّ قواه قد تخور بعد وقت قصير ولا يفلح في المشي خطوات. أمَّا المصاب بمرض عضوي يمنعه من السير، فبإمكانه إذا استند إلى كتف شخص آخر أو إذا حمل عصا يتكئ عليها أن يمشي بضع خطوات ولاسيما إذا كان مصاباً في أحد طرفيه السفليين، وهو في هذا ينقل طرفه المشلول بحركة لولبية خاصة. في حين أن المصاب بالشلل التحويلي، فلا يكفيه شخص واحد، ولابد أن يستند إلى شخصين أو أكثر، وقد لا يتمكن مع هذا من الانتقال خطوة واحدة، وإذا حاول ذلك فإنه يجر طرفه المصاب جراً. وكثيراً ما يخطئ الطبيب في تشخيصه للحالة معتبراً أنها شلل أو عجز حسي عضوي ناتج عن عوامل عصبية. فقد تبين في إحدى الدراسات التتبعية خطأ تشخيص هذه الاضطرابات التحويلية والتي عدها الأطباء المشخصون عجزاً حركياً حسياً، وأنه، بعد تسع سنوات من تشخيصهم للحالة، تبين فيما بعد أن نسبة (٦٠٪) منهم كانوا يعانون من اضطرابات تحويلية، وأن نسبة منهم قد توفوا ثم تبين أن حالتهم تحويلية وليست عضوية عصبية.

يظهر اضطراب التحول عادة في مرحلة المراهقة، وبداية الرشد، وخاصة بعد تعرض الفرد لضغط نفسي شديد. وقد ينتهي في أي وقت، ولكنه قد يعاود الظهور مرة أخرى تحت أي ظرف أو حدث ضاغط وبشكل مفاجئ، ويكون ظهوره في المرة التالية شبيهاً بشكله الأصلي الأولي، أو يختلف عنه بعض الشيء في أعراضه. أما عن نسبة انتشاره فإنها لا تتعدى نسبة (١٪)، كما أنه أكثر انتشاراً بين الإناث منه بين الذكور.

التفسير التحليلي النفسي:

تحتل الاضطرابات التحويلية مكانة مركزية في نظرية التحليل النفسي، حيث أن أعراضها تعد مثالاً واضحاً على دور العوامل اللاشعورية فيها. ففي حالة السيدة التي تستيقظ صباحاً لترى حالة شلل في يدها اليسرى، ولا يثبت الفحص

الطبــي وجود عامــل عضــوي أو عصبي فيها. ربما تكون قد قــررت أن تلفق fake الشلل وتصطنعه (بدافع لاشعوري) لتتجنب مايجب أن تقوم بــه، وهذا مثال واضح عن التمارض والتصنــع. إن العوامل والرغبات اللاشعورية قد عملت عملها. فعلى مستوى الشعور، إنها تقول الحقيقة والواقع، فيدها اليسرى قد أصيبــت بالشلل فعلاً، أما على مستــوى اللاشعور، فإنها غيــر قادرة على تحريــك يدها، رغم عدم وجود اي عطل أو خلل عضوي يقف خلفه.

لقد طــور فرويد نظريته فــي التحليل النفسي (١٨٩٥) واعتمدها آخرون (١٩٨١) في تفسيــر الاضطرابــات التحويلية. لقد افترض فرويد وزميله بروير أن الاضطراب التحويلي ناتج عن حالة يعبر فيها المريض عــن الإثــارة الانفعالية، ولكــن الانفعال لا يظهر صراحة وبشكل مباشر، ويتم منع تذكر الحدث المرتبــط بهذا الانفعال، والموجود على مستوى اللاشعور. فالاضطراب التحولي لدى هــذه السيدة يعود بجــذورهrooted إلى عقدة ألكتــرا Electra Complex. فحيــن كانت طفلــة، كانت تسيطــر عليها مشاعر جنسيــة تجاه والدهــا كونه الذكر الأول في حياتها ورمز القوة، وبما أن الوالد لــم يستجب لهذه المشاعــر، فقد تم كبتها repressed في اللاشعــور. والنتيجة هي أن هــذه الرغبات والمشاعــر الجنسية قد ارتبطت بسلوك تجنب وانسحاب على مستوى الشعور. وفي مرحلــة تالية من حياتها، فإن هذه الإثــارة الجنسية، مع خبرات وظروف جديدة قد عملت على إيقاظ هذه المشاعر والدوافــع المكبوتة لاشعوريــاً، بما تحمله مــن قلق، لتظهر على شكل أعراض جسمية صريحة. وفوق ذلك، فإن هذه الاضطرابات التحويلية، تجعل هــذه السيدة تتجنب حل الصراعــات المرتبطة بعقــدة ألكترا. كما أن هذه الأعراض التحويلية تجعلها تتجنب مواقف الحياة غيــر السارة، أو حتى جذب الانتباه نحوها. وعلى الرغم من أهمية هذا التفسيــر التحليلي، إلا أنه لــم يتلقَّ الدعم التجريبي الكافي.

وفــي تطــور لاحــق لنظريــة التحليل النفسي في تفسير الاضطرابات التحويلية، وخاصــة العمــى الهستيــريhysterical blindness، فإنه يستند إلى دراسة حالتين من هذه الحالات لدى الفتيات المراهقات. ففي واحدة منهــا، عبرت السيدة عن عجز في الأداء في اختبــارات الرؤية version testsالتــي نجحت فيهــا المريضة بالعمى الحقيقي العضوي. بينما في حالة المراهقة الثانيــة، فقد عبرت عــن عدم قدرتها على رؤية اللون فــي الصور التي عرضت عليها، علمــاً أنها استطاعــت أن تحــدد الأشياء

والموضوعات (المحتويات) التي تعبر عنها الصورة وحجمها، وشكلها على بعد (١٥) قدماً. واستناداً إلى هذه النتائج فقد افترض سيكم وزملاؤه (Sackeim، ١٩٧٩)، أن هناك نموذجاً ذا مرحلتين Two-Stage Model لتفسير هذا التعارض في اختبار رؤية السيدتين وتقريرهما عن العمى لديهما. ففي المرحلة الأولى، تم التركيز على فكرة أن الأفراد يمكنهم إجراء معالجة بصرية خارج نطاق الوعي وبعيداً عن مستوى الشعور process visual information outside the conscious awareness. فالبحوث التي أجريت على المرضى الذين لديهم أذية في القشرة البصرية من المخ قد دعمت هذا الافتراض. حيث أن هؤلاء المرضى، قد فقدوا خلايا أساسية في الجهاز البصري من المخ ويعتقدون بأنهم عميان، ولكنهم قادرون على الأداء والعمل جيداً في الاختبارات النوعية التي يتم فحصهم فيها. وتسمى حالتهم هذه باسم «الرؤية العمياء blindsight» أو بصر الأعمى. ومن الممكن للأشخاص أن يقرروا بثقة بأنهم غير قادرين على الرؤية، حتى لو كانت الاختبارات تبين عكس ذلك. وبشكل عام، فإن هناك العديد من الدراسات التي أثبتت أن المدركات التي تأتي خارج نطاق اللاشعور يمكنها أن تؤثر في سلوك الشخص. ولأن القدرات الإدراكية قد تكون لاشعورية (خارج نطاق وعي الفرد)، فإن المصاب بالعمى الهستيري يكون قادراً على أن يقول ما لا يمكنه رؤيته حتى حين يكون المثير أو الموضوع البصري مؤثراً في سلوكه. أما المرحلة الثانية من النموذج، فإنه يشدد على الدافعية motivation، فيمكن للبعض بسبب سمات شخصيتهم، أن يكونوا مدفوعين لأن يكونوا عمياناً. ومثل هؤلاء، يتوقعون أن بإمكانهم الأداء على اختبارات الرؤية (كالتي تجرى عليهم). ولدعم أهمية دور الدافعية، فقد بينت بعض الدراسات أن الرجال المصابين بالعمى الهستيري قد تم اختبار رؤيتهم في جلسات عدة، وتم تقديم تعليمات مختلفة حول الدافعية عبر جلسات مختلفة، وتبين أن الدافعية ذات تأثير قوي في السلوك ومنها الرؤية. ولابد من القول إن هذه النتائج تحتاج إلى مزيد من الدراسات التجريبية.

العوامل الثقافية والاجتماعية:

لمدة تزيد على قرن، تبين أن هناك انخفاضاً في حدوث الاضطرابات التحويلية، بما يؤكد دور العوامل الثقافية والاجتماعية فيها. ففي القرن التاسع عشر، افترض جان مارتين Jean martin وكذلك فرويد، أنَّ هناك عدداً كبيراً من المرضى المصابين

بالاضطرابات التحويلية، ولكن المختصين لم يستطيعوا رؤيتها وتشخيصها الحقيقي. وهنـــاك العديد من الافتراضات التي تفسر تناقص هذا الاضطراب. مثلاً، المعالجون من أصحاب الاتجاه التحليلي أشاروا إلى أنه في النصف الثاني مـــن القرن التاسع عشر كان هذا الاضطـــراب منتشراً بكثرة في كل مـــن فرنسا والنمسا، حيـــث كان يسود كبت الدوافع والرغبـــات الجنسية التي تزيد من انتشاره. أما عن انخفاض نسبته في الفترة اللاحقة فيعـــود إلى التعبير عـــن الدوافع الجنسيـــة بطرق مختلفة وعـــدم كبت هذه الرغبـــات، إضافة إلى سيادة الجدل الطبي والنفسي فـــي الثقافة التـــي أصبحت أكثر تقبلاً للقلق من العجز الذي لايظهر بطريقة عضوية محددة.

العوامل السلوكية المعرفية:

يعتمد الاتجاه المعرفـــي السلوكي على نمـــوذج يتضمن عدداً من الآليات المرحلية فـــي تفسيـــر الاضطرابـــات ذات المظهر الجسمـــي. ويبـــدأ هذا الاتجـــاه بالمرحلة الأولى التي تعد فيها أن الأعراض الجسمية كنتيجـــة لمرض ما illness أو تغيرات غير مرضية nonpathological changes فـــي الأداء الوظيفي العضـــوي (مثل ارتفاع معدل ضربات القلب نتيجة مجهود كبير).

إنَّ كل شخص يعيش أو يخبر إحساسات جسمية، كما يعير انتباهـــاً شديداً لمظهره الجسمـــي، ولكن بعضـــ الناســـ المهيئين للإصابـــة بالاضطرابـــات جسمية المظهر يملكون آلية معرفيـــة من نوع خاص، تتميز بتوجيه انتباه شديد ومبالغ فيه لهذه الأشياء في أجسامهـــم. وفي المرحلـــة التالية من نموذج العمليـــات المعرفية السلوكية، وبعد أن يكـــون الشخص قد ركـــز انتباهه بشكل مفرط على المؤشرات والعلامات المرتبطة بصحته الجسمية، ينتقل إلى المرحلة التالية، وهي مرحلة التنسيـــب السلبي negative attribution أي عـــزوه السلبـــي المفرط لهـــا more negative attributions، أي إنـــه ينسب هـــذه المؤشـــرات الجسمية علـــى أنها خلل وعلة جسميـــة شديدة لديه (ومن المعروف أن العزو هي عملية تنسيب سبـــب لحالـــة أو شيء مـــا). إن التنسيبات الخاصـــة قد تختلف من اضطراب إلى آخر فـــي الاضطرابـــات ذات المظهر الجسمي. فالتنسيـــب فـــي الألـــم يختلف عنـــه، في الجسدنة، وفي اضطراب تشوه شكل الجسم، أو توهـــم المرض. مثلاً، السيدة التي تعاني من توهم المرض ربما تفسر (تنسب) ظهور بقعة حمراء على جسدها بأنها علامة على مرض السرطان. بينما المريض باضطراب

تشوه شكل الجسم، قد يفسر (ينسب) هذه العلامات على أنها ستحدث تشوهاً في شكل جسمه وتجعله قبيحاً وغير مقبول من قبل الآخرين. وعلى الرغم من أن التشوه أو الانحراف المعرفي هذا cognitive bias قد يختلف أو يتغير، إلا أن جميع الاضطرابات ذات المظهر الجسمي (مثل الجسدنة، اضطراب تشوه شكل الجسم، توهم المرض، الألم)، تتصف بسيطرة الهم والقلق worry لدى المريض، حيث يكون مهموماً بشدة ومنشغلاً بهذه العلامات والأعراض الجسمية لديه. وحالما تبدأ مثل هذه الأفكار السلبيةnegative thoughts بالظهور لديه، فإنها تستجر وتحرض القلق وردود الفعل العضوية والبيولوجية مثل الكورتيزول الذي يعمد إلى تضخيم الأعراض الجسمية والكرب أو الضيق الشديد حيال هذه الأعراض.

أما المرحلة الثالثة من مراحل النموذج المعرفي السلوكي في تفسير الاضطرابات ذات المظهر الجسمي، فهي العواقب أو النتائج السلوكية behavioral consequences المترتبة على الأفكار والمعتقدات السلبية أو التشويه المعرفي (في المرحلة السابقة)، حيث إن تحسس الجسد والمبالغ بكل تغير فيه وتفسيره (تنسيبه) بوصفه مرضاً، أو على أنه سيؤدي إلى تشويه الجسم والقباحة، سيكون لها عواقب ونتائج سلوكية لدى المريض. ومن هذه العواقب والنتائج السلوكية أن يلعب الشخص دور المرض role of being sick، وأن يتجنب القيام بالمهمات والأعمال الاجتماعية المعتادة، مما يرسخ الأعراض، وبالتالي المبالغة في الاهتمام بالسلوكيات المتعلقة بالصحة. والعواقب أو النتائج السلوكية الأخرى، هي أن الشخص يسعى باستمرار في طلب الرعاية والطمأنينة سواء من الأطباء أم من الأسرة. إنَّ سلوك طلب المساعدة والرعاية هذا help-seeking behavior ربما يتعزز حين تتلقى حالته الجسمية وأعراضه اهتمام الآخرين وتعاطفهم. إن هذا الاهتمام والتعاطف الذي يتلقاه المريض يعزز سلوك دور المرض لديه وبالتالي تعزيز الأعراض جسمية المظهر في اضطرابه، وهذا ما يضعف الأنشطة اليومية والأداء الوظيفي الاجتماعي لديه.

الاضطرابات التفككية Dissociative Disorders

وصف الاضطراب التفككي: يعرف الدليل التشخيصي والإحصائي الرابع المعدل للأمراض النفسية (DSM-IV-TR)، الاضطرابات التفككية Dissociative Disordersبأنها تلك الاضطرابات التي تتضمن: فقدان الذاكرة التفككية

dissociative amnsia، والتجـوال أو التشرد التفككـي dissociative fugue، واضطراب الهوية التفككي dissociative identity disorder والـذي يعرف بأنه اضطـراب تعدد الشخصيـة (multiple personality disorder)، واضطـراب تبدد الشخصيـة depersonalization disorder. تنتـج هـذه الاضطرابات عن آلية نفسية شائعة هي التفكك أو الانشطار dissociation والتـي تحـدث كنتيجـة لعمليات معرفية وخبـرات غير مقبولة من قبـل الشخص شعوريـاً. فالتفكك هو فشل العمليات المعرفية، والدافعية، والانفعالية، في أداء وظيفتها على مستوى الشعور أو وعي الشخص. ويعتبر الطبيب العصبي الفرنسي بير جيانيه (Pierre Janet ١٨٥٩-١٩٤٧) أول مـن استخـدم مصطلح التفـكك، ظناً منـه أن حالات التفكك البسيطة شائعة بين الناس، وأحد الأمثلة على ذلك فقدان الوعي بالـذاتloss of self awareness، كما هو الحال حين ينسى الشخص طريق العودة إلـى المنزل حين يفكر في المشكلات التي يعانيها وتسيطر على ذهنه. أما الآن فيعتقد المحللون النفسيون والمعالجون السلوكيون أن حالة التفكك المرضي pathological dissociation بوصفهـا محاولـة تجنب أو منـع خبرات ضاغطة مـن الظهور على مستوى الشعور.

إنَّ الذيـن يعانـون مـن الاضطرابات التفككيـة، غيـر قادريـن علـى استرجاع الذكريات الشخصيـة المهمة في حياتهم، وربما ينسون هويتهم، وقد يذهبون ويتوهون إلـى أمكنـة بعيدة عـن أماكنهـم الأصلية دون وعـي منهـم بذلك. وقـد بينت بعض الدراسات أن نسبـة انتشار فقدان الذاكرة التفككـي، وتبـدد الشخصيـة، والتشـرد أو التوهـان والتجـوال هي علـى التوالي: (٠,٧٪،٤,٢٪،٢,٠ ٪)، والجـدول التالـي يعرض وصفاً إكلينيكياً لكل شكل من أشكال الاضطرابات التفككية كمـا ذكرها الدليل التشخيصـي والإحصائي الرابـع المعدل للأمراض النفسية (DSM-IV-TR):

الاضطراب	الوصف الإكلينيكي
فقدان الذاكرة التفككي amnsia	فقدان ذاكرة، عادة ماتكون خبرة مؤلمة وضاغطة
التشـرد أو التجـوال (التوهان) fugue	فقدان ذاكـرة مرافق لترك المنـزل، وتشكيـل هويـة جديدة
اضطـراب تبـدد الشخصية	personalization تبدل في خبرة الذات
اضطـراب الهويـة التفككـي أو ازدواج الشخصية وتعددها dissociative identity	شخصيتـان علـى الأقـل تتناوبان فـي الظهور لدى المريض

فقدان الذاكرة التفككي Dissociative Amnsia (النسيان نفسي المنشأ):

يسمى فقدان الذاكرة التفككي بالنسيان نفسي المنشأ أو الهستيري psychogenic or hysteric amnesia، والشخص الذي يعاني من هــذا الاضطراب يكون غير قادر على استرجاع المعلومات الشخصية المهمة، وخاصة تلك المتعلقة بالخبرة الضاغطة أو الصدمة التي مر بها. وتتميز فجوات الذاكرة holes of memory بانتشارهــا الواسع، كمــا أن المعلومات لا يتــم فقدها بسرعة، ولكنــه لا يستطيــع استرجاعها خلال فترة تعرضه لاضطراب فقدان الذاكرة التفككي والتــي قد تستمر لساعات أو لسنوات عدّة. ولايظهــر فقــدان الذاكــرة التفككي هذا بشكل مفاجئ حيــن العلاج. وعادة ماتكون المعلومــات التي ينساهــا ويفقدها متعلقة بمشاعره بالصدمة التي خبرها كرؤية موت مفاجــئ لقريب أو عزيز. وقــد افترض أن الشخصــ قادر في البدايــة على أن يشكل هذه الفجوات ويملأها. وحين يكون فقدان الذاكــرة شامــلاً لكل الأحــداث التي مر بها أثنــاء تعرضه للصدمــة النفسية والضغط النفســي، فإنهــا تستمــر لتشمــل أحداثاً ضاغطة وصدمات أخرى مر بها المريض، من هنا فإنها تمتــد لتشمل حياة الشخص كلها، وبذلك تتحــول إلى فقدان ذاكرة كلي وليس جزئي فقط. ويتصف سلوك المريض بأنه عادي وطبيعي، باستثناء فقدان الذاكرة الذي يؤدي لديه إلى حالة من ضعف التوجه الزماني والمكانــي diorientation. وفي حالة فقدان الذاكرة الكلي، يعجز المريض عن التعرف علــى الأشخاص الآخرين مثل أقربائه وأصدقائه، رغــم احتفاظه بقدرته علــى التحدث والتواصــل، والقراءة، وحتى اكتساب المعلومات الجديدة.

التجــوال أو التشــرد التفككــي Dissociative Fugue:

التجــوال أو التشــرد التفككــي Dissociative Fugue ويسمــى أحيانــاً التوهان (مــن جذر لاتينــي fugere يعني يهرب أو يهجــر Flee)، حيث يكون فقدان الذاكــرة شامــلاً أكثر مما هــو الحال في فقــدان الذاكرة التفككي. والسمة الرئيسية لهذا الاضطــراب هي السفــر أو الترحال المفاجئ بعيداً عــن مكان الإقامة المعتاد. وفيه لا يتذكر المريض ماضيه الخاص، كما يغيــب الإحساس بالهويــة الذاتية جزئياً أو كليــاً، كأن يخرج المريض من منزله قاصداً الالتحاق بعمله أو بأي مكان آخر ليجد نفسه في مكان آخر دون أن تكون هناك أية رابطة بين المكانين. إن هروبه (تشرده) من مكان إقامته شكل من أشكال الهروب من الموقف أو المكان المقلق، ونسيانه للماضي يرافقه

نسيـــان هويتـــه لفترة من الزمـــن. من جهة أخرى فقد يكون التشـــرد لساعات أو أيام، وقد يمتد لسنوات عدَّة، وكثيراً ما يظهر في المكان الجديد غير مهتم بما كان عليه من قبل حتى يستفيق إلى ظرفه الجديد بتأثير مناسبـــة عارضة أو حادثـــة شديدة التأثير. وكثيراً مـــا نقرأ أو نسمع خبـــراً عن شريد فقد ذاكرته ولا يعرف من أين أتى ومن كان في الأصل.

يحدث التشرد والتجوال عادة لدى تعرض المريضـــ لصدمة نفسية أو خبرة ضاغطة، مثـــل الخلافات والصراعـــات الزوجية، أو الرفض والإهمال، أو الصعوبات الاقتصادية والضائقـــة المالية،والحروب،والكـــوارث الطبيعية كالـــزلازل، والفيضانـــات. ولكن ليست جميع حالات التجوال والتشرد تحدث بعد تعرض الشخص لصدمة ضاغطة.

اضطـــراب تبـــدد الشخصيـــة Depersonalization Disorder:

في اضطـــراب تبـــدد الشخصية يكون إدراك المريضـــ وخبراتـــه عـــن ذاته في حالة تبدل ممـــزق ومفكك. تتصف بفقدان الإحساســـ بالـــذات والانفصـــال عنهـــا، باعتباره مراقـــب خارجي لجسمه وعملياته العقليـــة، وكأنه في حلم، حيث يفقد القدرة علـــى تعرف مشاعـــره وخبراتـــه الخاصة. وعلـــى العكس من الاضطرابـــات التفككية الأخرى، فـــإن المصاب بتبـــدد الشخصية وفق الدليل التشخيصي والإحصائي الرابع المعـــدل للأمراض النفسية (DSM-IV-TR)، لايعاني من اضطـــراب في الذاكرة. ويتحرضـــ تبدد الشخصية لـــدى المريض حين يمر بخبرات ضاغطة، ويفقد المريض الإحساس بذاته sense of self. ويتضمن ذلـــك خبرات حسية غير عادية. فقد تظهر عليه علائم التغير والتبدل في حجم صوته ونبراته، وتبـــدو وكأنها خارج نطاق جسمه، ويبدو وكأنه مراقب خارجي لها .وقد يظهر ذلـــك بشكل آلي بحيث يتحـــرك وكأنه فقد الحقيقة والواقـــع في العالم الخارجي.يبدأ اضطراب تبدد الشخصية عادة في مرحلة المراهقة، ويتطور ليصبح مزمناً، قد يظهر لدى المريض أعراض القلق والاكتئاب .

اضطـراب الهويـة التفككـي (أو ازدواج الشخصيـة وتعددهـا) Dissociative Identity Disorder

يحدثنـــا بعضهم عـــن أشيـــاء وأحداث لايتذكرونها فـــي شخصيتهـــم. فالشخص الذي اعتاد أن يستيقظ ويتناول فنجان قهوة صباحاً، ولا يرغب بتناول الشاي مثلاً، فقد اعتاد علـــى هذا السلـــوك النمطي وأصبح جزءاً من صفـــات شخصيته. فإذا استعملنا كلمة نمط، قلنـــا إن كل شخصية هي نمط مختلـــف عن الآخر يظهر عليـــه الشخص،

ويكون ظهور النمطين (أو الثلاثة أحياناً) بشكل غير منتظم زماناً ومكاناً، هو من أبرز مظاهر اضطراب الهوية التفككي. وقد كان هذا الاضطراب وفق الدليل التشخيصي والإحصائي الثالث للأمراض النفسية (DSM-III) عام (١٩٨٠)، يعتبر أحد الاضطرابات الهستيرية التفككية، حيث يسمى ازدواج الشخصية duble personality أو تعدد الشخصية multiple personality، بحيث يظهر الشخص الواحد بنمطين أو أكثر من أنماط الشخصية، وكل واحدة منها مختلفة عن الأخرى بصفاتها وسماتها وطرق تفكيرها. والشائع أن تكون الشخصيتان متناقضتين تأخذان زمام الأمور بشكل متناوب. فكيف يتم تفسير ذلك إكلينيكياً؟

يظهر لدى المصاب باضطراب الهوية التفككي شخصيّتان منفصلتان على الأقل tow separate personalities تتصف كل واحدة منهما، بمزاج مختلف، وتفكير، ومشاعر، وسلوكيات مختلفة تماماً عن الأخرى حيث تظهر كل منها بشكل متناوب وتبادلي، وفي أوقات مختلفة. وكل واحدة منها من طبيعة خاصة، فقد تكون الشخصية الأولى هي الأساسية أو الأولية primary وهي التي يجب أن تخضع للعلاج أو تطلبه. وعادة، تظهر الشخصية بنمطين وحتى أربعة أنماط وقت التشخيص، وفي سياق المعالجة تظهر هذه الأنماط أو الشخصيات. وفق ذلك، فإن فجوات الذاكرة (النسيان) يكون هو العرض الشائع فيها، وفي أكثر الحالات لا يكون هناك أي رابط بين هذه الشخصيات. فالشخصية الرئيسية تكون في حالة عدم وعي بالشخصيات الأخرى، كما لاتتذكر مايحدث في الأخرى لأنها خارج نطاق التحكم والسيطرة. ومن متطلبات تشخيص الاضطراب أن وجود التبدلات المختلفة للشخصية، يكون مزمناً ومتكرراً، فلا يمكن تشخيص الحالة على أنها اضطراب الهوية التفككي (ازدواج الشخصية أو تعددها) إذا ظهر ذلك وقتياً فقط، أو كان تحت تأثير تناول الأدوية مثلاً.

إنَّ كل تبدل في الشخصية يكون معقداً في نمطه السلوكي، وذكرياته، وعلاقاته الاجتماعية. وكل منها مختلفة عن الأخرى بسماتها وخصائصها السلوكية، ومتناقضة فيما بينها. فقد تستخدم شخصية اليد اليمنى، بينما الأخرى تستخدم اليد اليسرى، وقد تستخدم الأولى النظارة، بينما الثانية لا يظهر لديها ذلك، وقد تتصف الأولى بالتحسس من سوء استعمال بعض المواد المؤثر والعقاقير في حين لايكون الأمر كذلك في الأخرى، إلا أنها جميعها لديها

فجوات في الذاكرة، فكل واحدة منها لاتتذكر ما يحدث في الأخرى.

يبدأ اضطراب الهوية التفككي في مرحلة الطفولة، ولكنه يتبلور في مرحلة الطفولة المتأخرة حيث يأخذ شكله التشخيصي المعروف. من جهة ثانية، فإن هذا الاضطراب أكثر انتشاراً وخطورة من الاضطرابات التفككية الأخرى، كما أن علاجه أصعب، ويحدث لدى الإناث بنسبة أعلى منه لدى الذكور. وكثيراً ما يترافق مع أعراض مثل الصداع، والهلوسات، ومحاولات الانتحار، وسلوك سوء استعمال الذات self-abusive behavior، واضطرابات تفككية أخرى منهافقدان الذاكرة نفسي المنشأ، وتبدد الشخصية (Scroppo et al.، ١٩٩٨).

أمَّا عن الفرق بين فصام الشخصية أو الشيزوفرينياSchcizofrenia وازدواج الشخصية أو ما نسميه اضطراب الهوية التفككي موضع حديثنا، فكثيراً ما يساء فهم اضطراب الهوية التفككي (ازدواج الشخصية) واعتباره مرض الفصام (يعرف بالجنون)، خاصة وأن الفصام أو الشيزوفرينيا schizophrenia هو تفكك الشخصية، وهو من جذر لاتيني «شيزو أو تشظيschizo» وتعني انشطار أو انقسام، و«فرينيا phrenia» وتعني العقل أي «انشطار أو انفصام العقل». إلا أنَّ ازدواج الشخصية أو تعددها يختلف عن الفصام أو الشيزوفرينيا. فمرضى اضطراب الهوية التفككي (ازدواج الشخصية أو تعددها) لاتظهر لديهم اضطرابات التفكير، والسلوك التي تظهر في الفصام، لأن مرض الفصام اضطراب ذهاني ينال الخلل مكونات الشخصية: السلوكية، والانفعالية والعقلية، ويكون المريض غير قادر على التحكم بسلوكه، ويعيش في عالم خيالي تحت تأثير الهلوسات والهذيانات المسيطرة عليه، ويحتاج إلى علاج مكثف في المستشفى. أمَّا في اضطراب الهوية التفككي الذي يظهر على شكل شخصيتين أو أكثر فتبقى مكونات الشخصية متكاملة في كل نمط من أنماط الشخصية التي يظهر بها الشخص، وكأنه هروب من شخصية (متكاملة) إلى شخصية أخرى تحت تأثير الصراعات والقلق اللاشعوري.

من جهة أخرى فإن شخصية الفصامي متهدمة بالكامل، أمَّا في ازدواج الشخصية فلا يحدث هذا التهدم في القدرات العقلية، والسلوكية، وإنما يؤدي إلى إبعاد نظام الشخصية ككل، وتبني نظام شخصي آخر مناقض له بحيث ينسى المصاب كل ما يربطه بالنظام الشخصي الذي استبدله فالفصام مرض ذهاني خطير، أما ازدواج

الشخصية فهو أقل خطورة ويبقى الشخص متحكماً بسلوكه ومنتجاً.

أمَّا نسبة انتشار اضطراب ازدواج الشخصية وتعددها، فإن أول إشارة إلى اضطراب الهوية التفككي كان في القرن التاسع عشر، حيث أظهرت بعض الدراسات وجود (٧٧) حالة أكثرها قد ثبت تشخيصها بين عامي ١٨٩٠-١٩٢٠، وبعد هذا التاريخ انخفضت نسبة انتشاره حتى عام ١٩٧٠. ثم ارتفعت نسبة انتشاره ثانية، في الولايات المتحدة الأميركية، وفي بلدان أخرى مثل اليابان. من جهة أخرى فإن أكثر هذه الحالات تم كشفها في مرحلة الرشد في كل من كندا، وتركيا وغيرها من البلدان. وتقدر نسبة انتشاره بـ ١,٣ في إحدى الدراسات الكندية، ونسبة ٠,٤ في تركيا. وعلى الرغم من ذلك يبدو أن نسبته غير مرتفعة عموماً، حيث تبلغ حوالى الواحد في المليون (١/١٠٠٠٠٠٠).

العوامل المسببة لاضطراب الهوية التفككي:

أولاً- فرضيتان تفسران عوامل الاضطراب: هناك نظريتان في تفسير عوامل اضطراب الهوية التفككي (ازدواج الشخصية او تعددها) هي: فرضية أو نموذج مابعد الصدمة posttraumatic model، وفرضية النموذج الاجتماعي- المعرفي Sociocognitive Model.

يفترض نموذج مابعد الصدمة،أن اضطراب الهوية التفككي يبدأ بالظهور في مرحلة الطفولة كنتيجة لخبرة ضاغطة هي التعرض لسوء المعاملة الجسمية أو الجنسية في هذه المرحلة. فقد ثبت أن أكثر الحالات التي أصيبت بهذا الاضطراب قد تعرضت لإساءة معاملة جسمية أو جنسية في طفولتها. وأن هؤلاء الأطفال قد اكتسبوا عوامل خطورةrisk factors التعرض لاضطراب الهوية التفككي ونموه. ومن المهم أن نشير إلى أنه ليس من الضروري أن يصاب كل طفل تعرض لإساءة معاملة جسمية أو جنسية في طفولته، أن يتطور الأمر لديه إلى اضطراب الهوية التفككي لاحقاً. فبعضهم تظهر لديهم عملية التفكك بوصفها وسيلة تكيف وتعامل مع الصدمة أو الخبرة الضاغطة. من جهة أخرى فقد ثبت أن الأطفال الذين يظهرون أعراض التفكك أكثر احتمالاً لأن تظهر لديهم أعراض نفسية بعد الصدمة.

أمَّا الفرضية الثانية وهي النموذج الاجتماعي- المعرفي، فيشدد على أن اضطراب الهوية التفككي هو نتيجة تعلم واكتساب أدوار اجتماعية learning to enact social roles. ووفقاً لهذا

التفسير، فإن استبدال الشخصية يظهر كاستجابة لافتراضات المعالج النفسي وتشخيصه، ولما تظهره وسائل الإعلام عن هذا الاضطراب، وعوامل ثقافية في المجتمع. ومن أبرز تطبيقات هذا التفسير هو إيجاده ونشوؤه مع سير العلاج. ولكن هذا لايعني أن الاضطراب هو خدعة واعية ومقصودة، لأن نسبة انتشاره ماتزال منخفضة، من هنا يركز المختصون في علم النفس المرضي على طريقة نموه وتطوره. فكيف ينمو هذا الاضطراب؟ هذا مايحاول علماء النفس الإجابة عنه. من المعروف والشائع أن اضطراب الهوية التفككي (ازدواج الشخصية أو تعددها) يستند بشكل واضح إلى تعلم القيام بأدوار اجتماعية (على اعتبار كل شخصية لها أدوار مناقضة للأخرى)، وأن مثل هذا التفسير يلاقي إقبالاً في ثقافة كل مجتمع وفي الخيال العلمي. فالناس المصابون بازدواج الشخصية وتعددها يقومون بممارسة أدوار متنوعة في كل شخصية، كما يتبنون هذه الأدوار وخاصة حين يفترضها المعالج النفسي لدى مريضه.

ثانياً- أعراض اضطراب الهوية التفككي (ازدواج الشخصية وتعددها) باعتباره لعباً للدور: لقد افترضت بعض النظريات أن الأفراد يمكنهم لعب الدور role-playing في ازدواج الشخصية أو تعددها. فقد أثبتت بعض الدراسات أن بعض الأشخاص يمكنهم لعب أدوار شخصيات متعددة. وقد ثبت من خلال تطبيق التنويم المغناطيسي ممارسة أدوار تعبر عن دوافع لاشعورية في شخصيتهم، (ازدواج الشخصية). ويمكن للفرد أن يتبنى شخصيات عدة بالتناوب. وتجدر الإشارة إلى أن العملية مجرد لعب للأدوار، فلم يتم التثبت من أن ازدواج الشخصية أو تعددها في اضطراب الهوية التفككي إنما هو نتيجة مباشرة للعب هذه الأدوار. فهذا الاضطراب معقد، لأنه يتضمن أعراضاً متنوعة من أبرزها: وجود هلوسات سمعية، فقدان الشعور بالزمن، وكذلك تبدد الشخصية، وأن مثل هذه الأعراض لم تظهر أثناء لعب الدور.

الخلاصة:

يعتبر اضطراب الهستيريا من الاضطرابات النفسية القديمة، والذي يسمى الآن بالاضطرابات التحويلية والتفككية أو جسمية المظهر. وصنفت هذه الاضطرابات في ثلاث فئات هي:

١- الاضطرابات جسمية الشكل مثل: الألم النفسي، واضطراب تشوه شكل الجسم، واضطراب التصنع والتمارض.

٢- الاضطرابـات التحويلية وهي التي تتحول الحالة النفسية (قلق وصراعات) إلى خلل عضوي يطال الحواس والحركة (صمم نفسي، فقـدان قدرة علـى الرؤية، والشم، فقدان قدرة على النطق، شلل هستيري..).

٣- اضطرابـات تفككية مثـل: فقدان الذاكرة النفسي، وازدواج الشخصية، وتبدد الهوية، والتجوال .وتحدث هذه الاضطرابات عند الذكور والإناث.

المراجع:

- محمد عبدالله (٢٠١٣) علم الأمراض النفسية، منشورات جامعة حلب.
- أحمد عكاشة (٢٠٠٦) الطب النفسي المعاصر. الأنجلو مصرية. القاهرة
- صفوت فرج (٢٠٠٨) المرجع في علم النفس الإكلينيكي.الأنجلو مصرية: القاهرة.

- American psychological Association(2001) Diagnosis and Statistical Manual of Mental Disorders (DSM-IV) Washington.
- Ollendick, and Hersen (2002). Handbook of Psychopathology. Plenum press. new York.
-Reber Arthur (1985).Dictionary of psychology. Penguin press.USA.

بديع الكسم الفيلسوف

أسعد طرابيه ❀



ولد الدكتور بديـع الكسم سنة ١٩٢٤م. في حـي مئذنـة الشحـم، أحـد الأحياء الدمشقيـة العريقة، وقد اشتهـرت أسرته بطلب العلم والتعلق بالأخلاق الفاضلة وهذا ماانعكس على حياته وسلوكه. إنه ابن الشيخ محمد عطا الله الكسـم (١٨٤٤- ١٩٣٨م) الذي كان مـن كبار فقهاء الحنفية بدمشق، اختير من الحكومـة العربية ليكون المفتي العام للشام منذ عام ١٩١٧م. وظل في هذا المنصب حتى وفاته عام ١٩٣٨م. نال شهادة «البكالوريـا» سنـة ١٩٤٢م، وفي العام ذاته عين موظفاً في المكتبة الظاهرية بدمشق،

❀ باحث وعضو الجمعية الكونية السورية.

التي أمضى فيها عاما. ثم اتجه للقاهرة للالتحاق بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول في العام الدراسي ١٩٤٣-١٩٤٤م.وينال إجازة الفلسفة عام ١٩٤٧م.ولدى عودته لسورية عين مدرسا في اللاذقية للعام الدراسي ١٩٤٨-١٩٤٩م. وأصبح في العام التالي عضوا في لجنة التربية والتعليم بدمشق، ليختار في العام التالي ١٩٥٠م. للتدريس في جامعة دمشق.

أوفد إلى القاهرة سنة ١٩٥٤م ، ومنها إلى جامعة جنيف في سويسرا ، لمتابعة الدراسات العليا والحصول على درجة الدكتوراه التي حصل عليها عام ١٩٥٨م، عن رسالته(البرهان في الفلسفة) والتي صدرت عن وزارة الثقافة بدمشق عام ١٩٩١م.

أصبح أستاذاً مساعداً في جامعة دمشق عام ١٩٥٨م، ثم أعير في العام التالي إلى وزارة التربية والتعليم المركزية في القاهرة إبان الوحدة، وفي عام ١٩٦٨م، رقي إلى رتبة أستاذ في جامعة دمشق، وأعير في العام ذاته إلى جامعة الجزائر للإسهام في تعريب التعليم ونشر الثقافة العربية. عاد إلى دمشق عام ١٩٧٢م. ثم أوفد للبحث العلمي إلى فرنسا وسويسرا من عام ١٩٨١م. إلى عام ١٩٨٢م. وفي ١٧/١٠/١٩٩٠م أصبح عضواً عاملاً في مجمع اللغة العربية بدمشق.

الكسم في نظر بعض المفكرين:

يقول أنطون مقدسي: بديع الكسم ليس جدليا وحسب، بل هو فيلسوف أصيل، في ذهنه الخطوط الكبرى لفلسفة حاضرة ضمنا في الرسالة الجامعية، وكم كنت أود -أنا وغيري من أصدقائه- لو أنه خرج عن صمته المستمر وكتب في الفلسفة.

يقول جورج صدقني: لا أحد يماري في مكانة الدكتور بديع الكسم الرفيعة بوصفه أستاذاً للفلسفة، ولا يختلف اثنان من المعنيين العارفين في هذا الشأن.

يقول شاكر الفحام: واصفاً مشاعره إثر لقاء لهما عام ١٩٤٢م قبل أن ينهي الدكتور الكسم دراسته الثانوية، لقد بهرني حسن منطقه ، وتدفق عاطفته، واسترساله في حديثه، وراعني سعة معارفه. وتفتح فكره، وقوة حجته، وإحاطته وتعمقه، وشدة عارضته في الجدل والإقناع

في حديث دار بين الأستاذ سامي دروبي، وكان عائداً لتوه من الإيفاد، والأستاذ جورج صدقني، في عام ١٩٥٣م، وعندما عرف الأول أن الأستاذ الكسم يدرس الفلسفة العامة والمنطق في جامعة دمشق، قال: «استفيدوا يا جورج من الأستاذ بديع، بديع أحسن أستاذ في الشرق الأوسط».

جان إيكول :يقول: «إن السيد الكسم لم يتصدَّ لموضوع سهل، لهذا لا نستطيع إلا أن نثني على الشجاعة التي أظهرها، وعلى الطريقة الواضحة التي عالج فيها هذا الموضوع»

بورجلان: يقول في مجلة التاريخ والفلسفة سنة ١٩٦٠م، مقرّاً بالجهد الذي بذله الدكتور الكسم لفهم المهمة الفلسفية: «هذا الكتاب إسهام جيد في الجهد الذي بذله الوضعيون والمناطقة والمؤرخون لفهم المهمة الفلسفية».

ليفراز: يقول عن كتاب «البرهان في الفلسفة» للدكتور بديع الكسم: إنه كتاب ممتاز ربما وجب على كل مهتم بالفلسفة أن يقرأه.

بوخنسكي: يقول: «الآن نستطيع القول: إن العرب قد عادوا بعد غياب طويل إلى الإسهام في العمل الفلسفي، وبالتالي إلى القيام بدورهم في بناء الحضارة الإنسانية».

أذكر ذات مرة كنت أحضر محاضرة للدكتور الكسم في جامعة دمشق وكان يحاضر عن الفيلسوف الفرنسي هنري برغسون، فقلت له ألم يخطئ برغسون عندما تحدث عن مفهوم الزمن، فقال لي: ستدافع أنت عن العلم أكثر من برغسون.

شخصيته:

قد يعتقد الكثير من الناس أن شخصاً في هذه المكانة، وعلى هذا القدر من المعرفة والثقافة لا بد أن يكون على قدر من الغرور والتعالي، وربما العجرفة... أو على الأقل لا ينفك يتحدث عن ذاته.... ولكن الحق خلاف ذلك تماماً إذ إنه مثال للفيلسوف الحق الذي تجسد أفعاله أفكاره، تنطبق عليه المقولة الشائعة بين أوساط المثقفين، بل والهامة أيضاً، والتي تقول: «كلما ازددت علماً ازددت تواضعاً» وهذا هو بديع الكسم حقاً.كما أن شخصيته متزنة الأفعال والأقوال، رزينة، عميقة التفكير، كتوازنه وهو وإن كان يتسم على العموم بالهدوء والتحكم بانفعالاته لدرجة شديدة، إلا أنه سرعان ما يحتد من الخطأ، وسرعان ما تبدو عليه علامات الاستياء، ولكنه أيضاً سرعان ما يفرج عن قلب مجالسه بتعليق طريف ينم عن بديهة حاضرة وقريحة بارعة، توحي للمرء بغلطه في الوقت الذي ينتزع الضحك فيه من فيه، دون أن يجرح أو يخدش أحاسيسهم، ومثل هذه المواقف جد كثيرة ولذلك- كما يقول الدكتور الفحام لقد قضى حياته معلماً يدرس ويحاضر، هذا الجانب استنفد جل طاقاته إن يقف في مصافي أولئك المعلمين الكبار، والمفكرين

العظماء، وقد وهب نفسه للتعليم والإفادة يقدم لطلابه وسائليه العلم من أوسع أبوابه. ويشجعهم على اقتحام عقباته ويبسط لهم المصادر والمراجع ويعيرهم من مكتبته الكتب النادرة التي لا تكاد تجدها في المكتبات الكبيرة. ولكن لماذا كان الأستاذ مقلاً جداً، بل بعيداً إلى حد عن الكتابة؟ هذه الثقافة الفلسفية الموسوعية التي قل أن نجد لها نظيراً بين المفكرين العرب المعاصرين.

سأل أحدهم الكسم لماذا لا تكتب؟ أجاب الكسم: ولمن أكتب إذا لم يكن هناك من يقرأ، فقال فيما معناه: العلم كالدواء لايعطى إلا لمن يحتاجه ومن يحتاجه يطلبه.

أهم أعماله:

- البرهان في الفلسفة: ترجمة الدكتور جورج صدقني، ١٩٩١م.
- لغة الفلسفة: محاضرة ألقيت في مكتبة الأسد، ١٩٦٣م.
- الحقيقة الفلسفية: نشر في محاضرات جامعة دمشق، ١٩٦١م.
- في البحث الجمالية: طبع في كتاب الفلسفة العامة، جامعة دمشق.
- بين أحكام الوجود وأحكام القيم: دراسة، ١٩٨٢م.
- النزعة الإنسانية: نشر في مجلة الثقافة، العدد العاشر، آذار ١٩٦١م، دمشق.
- من خصائص التفكير: نشر في مجلة الثقافة، العدد السابع، آذار ١٩٦٥م، دمشق.
- الحرية أساساً: نشر في مجلة المعرفة، وزارة الثقافة، دمشق العدد (٦٢)، نيسان ١٩٦٧م.
- حول أزمة الإنسان الحديث: نشر في مجلة الثقافة، ١٩٦١م، دمشق.
- الإنسان حيوان ناطق: نشر في مجلة المعرفة، وزارة الثقافة، دمشق العدد (٦٣)، أيار ١٩٦٧م.
- حول الغاية والوسيلة: نشر في مجلة الثقافة، العدد التاسع والعاشر، أيار وحزيران ١٩٦٥م- دمشق.
- التربية الجمالية: نشر في مجلة المعلم العربي، العدد (٤)، شباط ١٩٥٠م.
- علاقة الجامعة بالمجتمع: العربية والأصالة، وزارة التعليم، الجزائر العدد (٥) ١٩٧١م.
- دور الفلسفة في توحيد الفكر العربي: نشر في مرآة العلوم الاجتماعية، السنة الثالثة العدد(٦)، ١٩٥٩م.
- حول الثورة الثقافية: نشرت في صحيفة المجاهد، الجزائر، ١٩٧٠م.

- الثقافة القومية والثقافة الإنسانية: محاضرة ألقاها الكسم في اللاذقية بتاريخ ١٩٦١م.

- ازدواج الدلالة في الثقافة العربية: نشر في مجلة المعرفة، وزارة الثقافة، دمشق، تموز١٩٧٤م.

- العالم محاضرات: بين مزايا الأمة وعيوبها: نشرته دار الطليعة، ١٩٦٠م

- طاغور الفيلسوف: وزارة الثقافة، ١٩٦١م.

- الشرق والغرب في فلسفة رينية جينون: نشر في مجلة الثقافة، كانون أول ١٩٦٠م، دمشق

- الشعب وحرية الفرد في فلسفة هيغل: نشر في مجلة الثقافة، حزيران ١٩٦١م، دمشق

- مفهوم الوطنية في فلسفة فيخته: نشر في مجلة الثقافة - أيار١٩٦١م، دمشق

من المحاضرات: الحقيقة الفلسفية

الإنسان، في جانب أصيل من جوانب كيانه الروحي، إرادة وعيٍ وتطلُّعٌ إلى الحق. وقد يميل بنا الظن إلى أنه تطلَّع إلى الحقائق كلِّها، ورغبةٌ نهمةٌ في معرفة كلِّ شيء. ذلك أن نزعة غامضة، خفيَّة في أعماقه، تصوِّر له المثل الأعلى للمعرفة معرفةً محيطةً شاملة، معرفة تَهْدُم مثلها الأعلى عن طريق تحقيقه. وليس لنا أن نسأل هنا عمَّا إذا كانت هذه النزعة الغامضة علامة من علامات العقل المطلق، تدمغ النفس المخلوقة وتدفعها إلى التشبُّه بالعارف العليم قدر طاقتها، أو أثراً إبليسياً من آثار شهوة العجرفة والفضول. ويكفينا أن نقرِّر أن الإنسان، في وجوده المتناهي وواقعه المتزمِّن ونشاطه الحي، إنما يتجلَّى في رفضه المستمر لجملة غير متناهية من الحقائق المحرَّمة والمعارف التافهة، وفي اختياره الحرِّ لنوع الحقائق التي تستحق أن تُعرَف أو يجب أن تُعرَف. فتطلُّع الإنسان إلى الحقيقة يعني إذاً أنه انفتاح على النور وجهد متصل لتركيز الحقائق الكبرى، الحقائق- القيم.

ونريد في حديثنا عن الحقيقة الفلسفية أن نقصر الكلام على الخصائص العامة للحقيقة المتضمَّنة في الحكم الفلسفي، لنخلص إلى ما يميزها من الحقائق الأخرى. نذكر، أولاً، بأن الحقيقة صفة من صفات الأحكام وحدها. فالحكم، أو التصديق، يقرر علاقة بين موضوع ومحمول، ويوصف بأنه حق إذا تطابق مضمونه مع الواقع. الحقيقة، إذن، هي تطابق ما في الأذهان مع ما في الأعيان، والتعبير اللفظي عن الحكم هو القضية. فقولي: «الكون متناهٍ في الزمان والمكان» قضية تعبِّر عن حكم يُسنِد

التناهي إلى الكون؛ وهي تتصف بالحقيقة أو الصدق إذا كان الكون فعلاً متناهياً في الزمان والمكان.

وإذا كانت الحقيقة صفة من صفات الحكم، وكان الحكم بدوره فعلاً من أفعال العقل، فلا معنى للتحدث عن الحقيقة إلا حين يقوم عقل معين بإطلاق حكم معين. والنتيجة أن الحقيقة هي، أولاً وبالذات، حقيقة بالنسبة إلى صاحبها، لأنها متضمَّنة في الحكم الذي يطلقه، وملازمة للقضية التي يقرِّرها. والواقع أنه لا فرق بين تقرير القضية وبين تقريرها على أنها صادقة أو متَّصفة بالحقيَّة.

نستطيع إذن أن نؤكد، في خطوة أولى، أن كل قضية، مهما يكن مضمونها، قضية صادقة بالنسبة إلى صاحبها الذي يقرِّرها، وأنها ليست صادقة إلا بالنسبة إليه. ولا نريد أن ننتقل من هذا اليقين الأول قبل أن نرفع عنه كل لبس ونستخلص نتائجه في التطبيق.

قلنا إن القضية صادقة بالنسبة إلى صاحبها لأن الإنسان لا يملك أن يطلق حكماً لا يؤمن بصدقه. فمن الواضح أن الاعتقاد ملازم للحكم، مقوِّم لوجوده كحكم أو كتصديق، بحيث يكفي أن ينسحب منه حتى يتفتَّت الحكم أو يُعلَّق ألفاظاً في الفراغ. وينطبق قولنا ذلك على جميع ميادين المعرفة وصورها. فالمعرفة العامة معرفة صادقة تعبِّر عن الواقع عند صاحبها، وهي صادقة صدقاً مطلقاً حتى يتكشَّف له خطؤها، أو حتى يتجاوزها إلى معرفة أدق وأشمل. وكذلك المعرفة العلمية والدينية والفلسفية. ويكفي أن يتأمل كل منا في البنية المنطقية للقضية التي تعبِّر عن معتقَد من معتقداته الدينية أو الفلسفية حتى يجد أنها لا تختلف مطلقاً، من حيث كونها متَّصفة بالصدق، عن القضية العلمية الخالصة.

قد يُعترَض هنا بأن الحقيقة الفلسفية لا تملك، حتى بالنسبة إلى صاحبها، هذا اليقين الجازم الذي تملكه الحقيقة الرياضية أو الطبيعية. وجوابنا أن تاريخ الفلسفة يشهد أن الفيلسوف، حين يقرِّر أحكامه تقريراً مليئاً خالياً من كل تحفظ، فهو يقرِّرها على أنها حقائق لا يقلُّ يقينها عن يقين أية حقيقة علمية. فديكارت يصرِّح لنا بأن وجود الله أوثق عنده من حقائق الرياضة. أما إذا كان الفيلسوف يتردد أحياناً في بعض أحكامه ويقرِّرها على أنها مرجحة فحسب، فيجب أن نعدَّ جملة التحفظات التي تمنعه من توكيد أحكامه توكيداً مطلقاً جزءاً من مضمون حكمه الحقيقي؛ أي يجب، بعبارة أخرى، أن نُدخِل جهة الحكم في مادَّته بحيث يظل

الحكم نقياً صافياً، يعبِّر عن الحقيقة تعبيراً كامــلاً. فإذا قيل إن أفلاطون -أو غيره من الفلاسفة- لم يكن واثقاً كل الوثوق من خلود النفس، وأنه لم يقرِّر هذا الخلود إلا بوصفه مرجَّحاً، قلنا إن القضية المعبِّرة عن موقف أفلاطون تعبيراً كامــلاً تنطوي هي نفسها على هذا الترجيح وتصاغ بالعبارة القائلة إن خلود النفس أمر مرجَّح. ولكن هذه القضية لابدَّ أن تتصف بأنها، بالنسبة إلى صاحبها، صادقة صدقاً يقينياً. طبيعي أن الخلود، في ذاتــه، لا يمكن أن يكون مرجَّحــاً. فهو إما أن يكون أو لا يكــون. وإنما يُحمَل الترجيح علــى حكم يتصل بدوره بمسألة الخلود. إنه إذاً جــزء من مضمون حكم على حكم ينتقل بنــا من سطح مشكلات الوجــود إلى سطح مشكلات المعرفة.

وقــد يُعترَض أيضــاً بــأن القضيــة الفلسفيــة، حتى لو نظرنــا إليها من حيث اتصافها بالصدق بالنسبة إلى من يقررها، تختلف عــن غيرها من القضايــا العلمية؛ ذلك أن القضية العلميــة واضحة الحدود، ثابتــة التصورات، بحيــث نستطيع أن نقرر صدقها استناداً إلى دلالتها المحددة الثابتة. أما القضيــة الفلسفية، كقولنــا مثلاً «الله موجود»، فهــي غير واضحــة الحدود لأن المعنى المقصــود بلفظة «الله» يختلف من فيلسوف إلى آخر، كما يختلف معنى الوجود نفســه. وجوابنــا أننا حين نربــط القضية بصاحبهــا فإننا نقرر، فــي الوقت ذاته، أن معناها الحقيقي هــو المعنى الذي يقصده من يقررها. فإله أفلاطون غير إله أرسطو، وإله ديكارت غير إلــه باسكال. ولكن معنى اللفظــة واضح فــي ذهن كل منهــم، ولابدَّ لنــا، لكي نفهم ما يقصده الفيلسوف نفسه، مــن أن نرجع إلى تجربتــه الروحية وجملة مذهبــه الفلسفــي. وهذا يعنــي أن ألفاظاً واحدة قــد تُستخدَم في الفلسفة لتدلَّ على معانٍ متباينة. فبرغسون، مثلاً، يؤكد حرية الإنسان، ويؤكد هــذه الحرية أيضاً لالاند. ولكــن لالاند يقول بصدد الكلام على حرية برغسون: «وقانا الله مــن الحرية إن كانت الحرية هي هذه!».

والخلاصة إن عجــز اللغة عن أن تقدم لنا لفظة خاصــة بكل فكرة هو الذي يجعل معنى القضية الفلسفية يتجاوز الألفاظ التي تعبِّر عنهــا، دون أن يفقد وضوحه في ذهن صاحبــه. القضية إذاً صادقة دائماً بالنسبة إلى من يقررها، إذا أخذنا بعين الاعتبار أنه هو الذي يعطيها معناها، وأنه يقررها دائماً بصــورة مطلقة من كل قيــد. وما دام ذلك صحيحاً بالنسبة إلى القضية من حيث هي توكيــد، أي مهما يكن مضمونها، فلا مجال للتفريــق هنا بيــن الحقائــق العلمية وبين الحقائــق الفلسفية والدينيــة. ولكننا قلنا

أيضاً إن القضية ليست صادقة إلا بالنسبة إلى صاحبها. وهذا القول بديهي في الواقع؛ إذ كيف يقرر إنسان ما صدق قضية دون أن يتبنَّاها؟ ألا نشعر جميعاً بأننا لا نستطيع أن نعترف بصدق حكم من الأحكام إلا إذا كنا نعدُّ أنفسنا أصحاباً لهذا الحكم؟ فلسانُ حال كلٍّ منا، إذن. هو أن الحقيقة هي التي أعترف أنا نفسي بأنها حقيقة. ولا تكتسب أقوال الآخرين صفة الحقيقة عندي إلا حين أقررها. فكل فرد منا ملزَم بأن يعدَّ نفسه مقياساً للحقيقة، أي مقياساً وحيداً للحقائق كلِّها. ولا مخرج له من ذلك إلا بالتناقض؛ إذ من التناقض الواضح أن أعترف بصدق حكم قبل أن يصبح حكمي، أي قبل أن أصدِّقه.

ولكن هذا لا يعني مطلقاً أن الحقيقة التي أقررها هي في نظري مجرد حقيقة ذاتية أو شخصية. فأنا لا أستطيع أن أقرر حقيقة ما وأن أعدها في الوقت نفسه حقيقتي وحدي؛ ذلك أني حين أعترف بها كحقيقة إنما أعترف بها حقيقة موضوعية مطلقة. بل إن تعريف الحقيقة، من حيث هو تطابق الفكر مع الأشياء، يتناقض مع المفهوم الذاتي للحقيقة. ومعنى ذلك أنه إذا كان على الفرد، من جهة أولى، أن ينتظر تصديقه الذاتي لحكم من الأحكام حتى يعترف بحقيقة مضمونه، فإنه يكفيه، من جهة ثانية، أن يعترف بهذه الحقيقة حتى يقرر أنها موضوعية مطلقة. فقولنا إذن، إن كل فرد يعدُّ نفسه بالضرورة مقياساً وحيداً للحقائق كلِّها إنما يعني أنه يعدُّ نفسه مقياساً للحقائق المطلقة.

ربما بدا أن في ما انتهيت من الإشارة إليه مفارقة غريبة تبتعد بنا عن المفهوم المستقر في أنفسنا عن الحقيقة. ولكني أنبِّه، أولاً، إلى أن الحقيقة التي يدور الكلام عليها إنما توجد في الأحكام، ولا توجد إلا في الأحكام. فهي إذن لا تعني الواقع والوجود.

وأنبِّه، ثانياً، إلى ضرورة التخلي -ولو مؤقتاً- عن كل مفهوم مسبق عن الحقيقة وأنواعها المختلفة، وعن كل محاولة لاستباق النتائج التي يُظَنُّ أنها تترتب على ما سبق أن قررناه من توحيد معنى الحقيقة في الميادين المختلفة، ومن ربط الاعتراف بالحقيقة بصاحب الحقيقة نفسه.

وأنبِّه، ثالثاً، إلى أن الحقيقة العلمية نفسها لابدَّ أن تستند إلى اقتناع الفرد بها حتى تصبح حقيقة بالنسبة إليه. فأنا لا أقبل حقيقة هندسية إلا لأن البرهان يُلزِمُني بها بحيث يمتنع عليَّ أن أقاومها، وذلك بصرف النظر عن اقتناع الآخرين بها. فليست الكلِّية إذاً شرطاً من شروط الحقيقة العلمية لأني أقبل هذه الحقيقة

مـن غير اعتبار لقدرتهـا على أن تثبت في العقـول جميعاً. وهي، بالتالي، لا تتميز عن الحقائق الدينية أو الفلسفية.

وأنبِّه، رابعاً، إلى أنه إذا رجع كل منا إلى تجربته الفكرية أحسَّ بـأن معنى الحقيقة في الحكم لا يتعلق بمضمون الأحكام، وبأن هذا المعنى يظل، بالتالي، واحداً في جميع معتقداته؛ وأحسَّ أيضـاً بأن الحقيقة التي يقررها هي وحدها الحقيقة الفعلية، وبأنها، في الوقت ذاته، حقيقة مطلقة.

وأنبِّـه، أخيراً، إلى أني لـم أقل أبداً إن كل فرد منا هو فعلاً مقياس الحقائق، وإنما قلـت إن كل فرد منا يعـدُّ نفسه بالضرورة مقياساً للحقائق. فإذا ما طبقت هذا القول على نفســي -كما يمكن أن يطبقه كلٌّ منكم على نفســه- قلت: «ليس صحيحـاً أن كل فرد مقياس للحقيقة المطلقة»، كما يتوهم، وذلك لأني أنا نفسي مقياسها الوحيد.

من المقالات: من خصائص التفكير:

التفكير بالمعنى الواسـع للكلمة، يعني جملـة العمليات النفسيـة التي نجربها في داخلنا، أو التي تجري من تلقاء نفسها. فنحن نفكر حيـن نتذكر أو نتخيل، وحين نحب أو نحقد، وحين نشكو أو نقرر، وحين نتطلع أو نصمم. إن هذا المفهوم الواسع الفضفاض للتفكير هو المفهوم الـذي قصده ديكارت عندمـا قال: «أنـا أفكر فأنـا إذاً موجود»، وعندمـا استخلص من قوله هذا إنه جوهر ماهية التفكيـر. وعلى ذلك فالإنسان يفكر حتى حين يكذب على الحقيقة والتاريخ وهو يفكر حتى حين يصـدق الأكاذيب وينخدع بالكلمة الزائفة. ولكـن للتفكير معنى آخر أخص وأعمق معنى ألصـق بحقيقته وأدل علـى شرف غايته. فهو امتناع عن الإنسياق الآلي ومقاومـة للاستسـلام الرخو وعين مفتوحـة يقظة. التفكير هنـا يعني التروي والتنصت، ويعني الاتصال بالعقل والمبدأ.

إنه تنبه، لأن الفكر لا ينشط إلا اذا أحس بالعقبة إلا إذا جابه الصعوبة واصطدم بها. نستطيـع أن نقول عنه، كما قـال القدماء عن الفلسفة إنـه وليد الدهشة أو الشك أو الشعور بنوع من الضيق الداخلي يسد علينا دروب التفتح والسكينة الروحية.

فالدهشة التي يثيرها فينا الوجود الكلي، منطلـق التفكير الفلسفـي، والدهشة التي يخلقها فينا الخطأ والتناقض واللامعقول، هو منطلق التفكير المنطقي، والدهشة التي نحس بها عند تأمل ظواهر الطبيعة والحياة الإنسانية منطلق التفكيـر العلمي. والشك أيضاً منبع رئيسي من منابع التفكير بل هو الخطوة الأولى من خطواته. فلا بد لنا لكي نفكـر، من أن نشك أولاً بما يقال لنا افتراء

أنه حقيقي. والقاعدة الذهبية في التفكير هي ألا نقطع الشك إلا باليقين.

ونحن نفكر أيضاً عندما نرى أن الأمور ليست بمواضعها. فالشر بأشكاله المختلفة، كالظلم والحرمان وامتهان الكرامة وطعن المقدسات، دافع ثابت من دوافع التفكير الإنساني، ذلك أنه يولد فينا شقاء الضمير وعذاب الروح.

وهل يحفزنا إلى التفكير كما يحفزنا إليه عذاب الروح؟ كل هذا يعني أن التفكير يبدأ بوقفة أمام العقبة بتنبه لوجود المشكلة. ولكن التفكير ليس مجرد وعي المشكلة، وإنما هو جهد لحلها. إننا لا نفكر إلا عندما نحاول اجتياز العقبة التي عطلت سيرنا. وهذا ما يجعلنا منذ الآن نسقط من دائرة الفكر، بالمعني الخاص للكلمة، كل محاولة تقمع بإثارة المشكلات. ذلك إن التفكير ليس مجرد إشارة إلى الصعوبة، ولا مجرد طرح للمشكلة أو طرح لها. إذ هل يكفي أن يقال إننا أمة مجزّأة أو أن الاستعمار يتآمر علينا حتى نسمي هذا القول فكراً؟ ليس الفكر فكراً إذاً إلا حين يبحث عن الحل، إن يستجمع قواه ليهدم العقبة.

بل إننا نذهب إلى أبعد من ذلك في تحديد معنا الفكر، فنحصره في جملة الحلول والأجوبة الناجزة فعلاً.

ذلك أن التفكير الذي لا يزال يتلمس حل مشكلة تعترضه، ليس إلا تفكيراً في طور التكوين، إلا محاولة لأن يكون تفكيراً حقاً. وهو لن يصبح كذلك إلا اذا انتهى إلى الحل ووقف عنده قولوا إن شئتم إن التفكير لا يولد فكراً إلا إذا بلغ غايته، أي إلا إذا كشف عن سر المشكلة التي يتصدى لحلها. والتفكير هو الحكم كما قال كانت. والحكم توكيد لعلاقة، إثبات لفكرة، تقرير لنتيجة. والمفكر مفكر حقاً إذ يحمل إلينا أفكاراً نضجت في ذهنه إذا كان يوضح لنا روابط كانت غائبة عن إدراكنا، إذا كان ينقلنا من الغموض إلى الوضوح، ومن التخبط إلى التبصر، وبكلمة موجزة إذا كان ينقلنا من السؤال إلى الجواب.

فنحن في خطوة أولى قد حددنا الفكر بأنه تحسس للمشكلة ويسعى لحلها ووصول مطمئن وائق لهذا الحل. وهنا تجدنا مضطرين إلى أن نسقط من دائرة الفكر مرة ثانية، جميع التلمسات الأولية التي تدور حول المشكلة ولا تنفذ إليها، وجميع الجهود الفاشلة التي تضمحل قبل أن تثمر. فالفكر إذاً من حيث هو تجسد للحكم انتصار على الشك وامتلاك الحقيقة. وإذا ربطنا بين الفكر والحقيقة فقد فصلنا بينه وبين الخطأ. الفكر الخاطئ ليس فكراً ولا شبه فكر. إنه تعثر. إنه سقوط وضياع. ذلك

أنه بدلاً من أن يدفع البحث إلى قمته يخبو به إلى الهاوية. وهــذا يعني أن الفكر ليس مجرد الوصول لنتيجــة، أية نتيجة، بل إلى نتيجــة صادقة نتيجــة يطلبها البحث وهي تفرضــ نفسها على البحــث. ومن هنا كان المفكــر بالتعريف سادنــاً للحقيقة وراعياً للحقيقــة. وكل راعٍ مســؤول عــن رعيته. المفكــر إذاً مسؤولٌ، والفكــر إذاً مسؤولية ولكنَّ المسؤولية عبء لا يحمله إلا الأحرار. إنَّها تفترضــ الحرية وتزول بزوالها. الفكر إذاً حرية والمفكــر الحر هو وحده المفكر وهنا لا بــد لنا أن نسقط مــن عالم الفكر كل فكــر زائف تخلى عن حريتــه. ذلك أن من بــاع حريته فقد إيمانــه بالحقيقة وكل من لا يصدر في أحكامه عن حرية داخلية، عن قناعة وجدانيــة لا يمكن أن يكون وفياً للحقيقة. إنه إذا أعلنها مرة أخفاها مرات. ولكنا قلنا أن المفكر راعٍ للحقيقة، وقصدنا بذلك أنــه راعٍ للحقيقةً في شمولها أي لكل حقيقة.

كل هــذا يــدل علــى أن الفكــر الذي لاينفصل عن الحقيقــة ولا عن المسؤولية ولا عن الحرية، لا ينفصل أيضاً عن القيمة. ونقصد من ذلك إن للفكر شروطاً أخلاقية إن هــي انعدمــت انعدم الفكــر نفسه. ألا تحمــل لفظــة الفكر نفسها معنــى التجرد والنزاهــة وسعة الصدر؟ بــل ألا توحي لنا، إذا أخذناهــا فــي صفائهــا ونقائها معنى المحبــة الفكر محبة لأنــه تطلع إلى النور، لأنه تفتح داخلي، لأنه عطاء. وهل يستطيع أحدنا حقاً أن يتصور المفكر الأصيل الذي آمن بالحق والحريــة، إنساناً خبيث الطوية حسير المقاصد؟ الحق إني لا أستطيع ذلك ولاأظن أنكم تستطيعون.

ها نحن في خطوة ثانية قد ربطنا الفكر بمعانــي المسؤولية عــن الحقيقة، وحرية الوجــدان وشرف النفســ. وزيد في خطوة أخيــرة أن نشد الفكر إلــى الحياة والواقع والعمل.

لقــد قلنا في البــدء إنَّ الفكر يستيقظ عنــد مجابهة الصعوبــة. والصعوبة حاجز في طريق الحياة، سواء أكانت حياة داخلية روحية أم حياة عملية. فالفكر مرتبط بالواقع لأنه استجابة حيــة لمشكلاته الراهنة. وما الحلــول التي يقدمهــا إلا الوسائل العملية لفتح الطريــق أمام التقدم. أما الفكر الذي لا يتحــول إلى عمل أو الذي ليس له مردود واقعــي، فهو فكر سطحــي هزيل. والأصح أن نقــول إنه ليس فكراً على الإطلاق. ذلك أنه لــم يكن عديم الأثر فــي الحياة. فاقد المصلحــة بالعمــل، إلا لأنه لــم يميز بين المشكلة الحقة وبين المشكلة الكاذبة فأساء اختيار موضوعاته وضل طريقه. إنَّ الفكرة قــوة، فإن لم تكن قوة لــم تكن فكرة أصلاً.

الفكــرة أداة عمــل. أداة تــلاؤم وانتصار. ومــا الفكر المجــرد المبتور عــن جذوره في الحياة ســوى خرافة. ذلــك أن الحياة الإنسانيــة إرادة تحرر، تحــرر من الخوف والعبوديــة ومن الحرمــان. وليس الفكر إلا وسيلــة هذا التحرر، ينيــر طريقه ويعين له وسائله. فالفكر والعمل إذاً لا ينفصمان، كل منهما يدافع عن الآخر وهذا يعني أن الفكر فــي جوهره لا يقتصر على فهم الوجود في مستوياتــه المختلفة وإنما ينــزع إلى تغيير هذا الوجود والارتقاء به.

لقد انتهينا من رسم الإطار العام للفكر وتحديــد خصائصه الجوهريــة. إنه قبض على المشاكل التي يفرضها الواقع، وتجاوز لهــا تجاوزاً فعلياً. إنه بكلمــة أوجز، إزاحة العقبات مــن طريق الحياة وتخطيط للعمل يضمن له النجاح.

خاتمة:

لقد كان الكســم مقلا في الكتابة، ربما لديه تبريــر قوي لذلك، ورغــم ذلك أثرى الفكــر العربــي بمشروعــه الفلسفي الذي استمــر ثلاثين سنة، دون أن يكمله، على أية حال لقد أعطى الكسم الكثير وعلى الأجيال اللاحقة أن تكمل ما بدأه إخلاصاً لهذا العلم الشامخ الذي أنار سماء بلادنا بفكر فلسفي ناصع يرتقي إلى مصافي العالمية.

المراجع:

١- مقالة منشورة بعنوان محمد بديع الكسم فيلسوف بالمطلق على العنوان
http://tishreen.news.sy/tishreen/public/read/٤٦٦٢٥

٢- عزت السيد أحمد، بديع الكسم، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٤.

٣- مــن خصائصــ التفكر: مقالة نشرت فــي مجلة الثقافة، دمشق، العــدد السابع، السنــة السادسة، آذار، ١٩٦٥م.

٤- الحقيقة الفلسفية: مقالة نشرت في محاضرات جامعة دمشق، ١٩٦١م.

تحقيق الذات في كتاب علم النفس الميسر

ترجمة: عبير حمود ❁



ماذا يعني فهم الذات؟

تنتقد المؤلفة النموذج الغربي القائم على السيطرة، قائلة: إنَّ القوة والهيمنة أصبحتا هدفين مرغوبين. وللأسف، لا يعلمنا هذا النموذج سوى وهم السلطة.

لا يوجد، في العالم أجمع، سوى شيئين نستطيع السيطرة عليهما:

١- الطريقة التي قررنا بها فهم ذواتنا.

٢- تصرفاتنا، تعتمد على هذا الإدراك.

❁ باحثة ومترجمة.

لا شيء آخر بين يدينا، إلا بعض الاستثناءات: كالفتيان. نملك إلى حد ما، سلطة على تصرفاتهم؛ نملك هيمنة بديهية في تعليمهم، وفي الطريقة التي نعلمهم فيها فهم ذواتهم. منذ أن يدخل أطفالنا مرحلة المراهقة، فإننا ندرك بسرعة وأحياناً بشكل مؤلم، كم باتت سلطتنا عليهم محدودة.

إذا كنا لا نملك السيطرة على شيء ما، فإننا لا نستطيع تحمُّل المسؤولية الكاملة والشاملة عليه. كم مرة أنهكنا أنفسنا تحت ثقل مسؤولية الآخر، أو نتائج لم نكن مسيطرين عليها في البداية؟ إنَّ مفهوم الهيمنة هذا أساسي لفهم النموذج الوجودي ولتطوير تقدير الذات. طالما نظل منخدعين بأوهام الهيمنة، وبالشعور بأننا نتحمل مسؤولية الأشياء التي لا نستوعبها، وبما أننا لسنا على بينة من حقيقة وجودنا: إذن، لن نستطيع السيطرة على أنفسنا.

توضح الكاتبة فيما يتعلق بالنقطة الأولى أعلاه وتشير إلى أهمية معرفة الطريقة التي نقرر فيها فهم أنفسنا: فإنَّها لا تتعلق بمشاعرنا بشكل عام ولا بالطريقة التي نفهم بها الوسط الخارجي. إنَّ الطريقة التي نفهم بها أنفسنا تنتج عن اختيار، ونحن نملك السيطرة عليها. وبالمقابل، مشاعرنا لا نختارها: تهرب عن رقابتنا. نحمل مشاعرنا دائماً معنا، فنتوصل للإحساس بالحزن مثلاً دون أن نعرف لماذا. الحدث نفسه ممكن أن يُحدِث فينا مشاعر عدة أو مشاعر مختلفة حسب السياق.

لنفترض مثلاً بأنك كنت تقطع شارعاً، دون شعور محدد؛ تأتي سيارة مسرعة جداً وتفشل في دهسك. إذن، ستشعر بالرعب بالحزن أو بالخنوع، أو تمتزج هذه المشاعر الثلاثة. وإذا كنت بمزاج جيد تسعد بحظك المبارك بأنك خرجت سليماً.

تظهر مشاعرنا بشكل عفوي، لا نستطيع السيطرة عليها. الطريقة التي نفهم بها أنفسنا، هي اختيار: نستطيع التحكم بها. نستطيع الاختيار بأن نحب أنفسنا أو نحتقرها. حين يُؤخَذ قرار، فإن تصرفاتنا ترجع إلى النقطة الثانية المذكورة أعلاه (تصرفاتنا تعتمد على إدراك الطريقة التي قررنا بها فهم ذواتنا) والتي تتماثل مع مشاعرنا المهيمنة.

إذا قررنا أن نحب أنفسنا، سنختار التصرف مع ذواتنا بشكل محبب وحذر. وسنتقبّل أنفسنا، وسنلتمس العذر لها وسنتعامل معها بكثير من اللطف. إذا قررنا ألا نحب أنفسنا وإذا لم نأخذ أي قرار (ما هو الاختيار بحد ذاته)؟ فستبقى تصرفاتنا مفروضة من خلال تعليمنا الأولي: سنحتقر أنفسنا وسننتقدها وسنرمي بمسؤوليتنا على عوامل خارجية وسنطالب أنفسنا بالكمال.

إن الطريقة التي نعامل بها أنفسنا تتعلق بنا كلياً؛ فحقيقة أن العالم الخارجي يقسو علينا ليس سوى عذرٍ لنخفف عن أنفسنا.

إنك لا تملك السيطرة على الطريقة التي يتعامل بها العالم الخارجي معك. وبالمقابل، فإن الطريقة التي تتعامل بها مع هذا العالم هي بين يديك. إذ تملك السيطرة على أفعالك ليس إزاء ذاتك فقط، وإنما إزاء الآخرين أيضاً. تذكر: لا نخلط الفعل مع الإحساس. تصرفاتنا هي التعبير الواعي عن مشاعرنا، فنحن الوحيدون من يقرر أفعالنا.

ثم تقول الكاتبة: سيلاحظ البعض بأنني لم أجسد في قائمة الأشياء التي نسيطر عليها، السيطرة على الآخرين. لأن السيطرة على الذات ليست وهماً، بل حقيقة.

ما هو تقدير الذات؟

يمكننا تعرّيف تقدير الذات بطرق عدة؛ منها أن يقوم على حب الذات واحترامها، وأن تضع نفسك بالمرتبة الأولى وتلبي حاجاتك الخاصة. كما أنه يقوم على انسجام الذات مع احترام تستحقه، أي في أعلى مستوى. عليك ألا تكتفي بحب ذاتك، بل أن تتصرف معها بحب في كل الظروف. الأسلوب الأبسط والأفضل لفهم تقدير الذات، هو تخيل أننا نحب شخصاً ما بعمق، ونحس بسعادة حقيقية عند لقاء هذا الشخص والتحدث إليه، ولا نتمنى سوى أن نمضي وقتاً معه، وأن نفكر به بحنو وأن نبذل ما بوسعنا لنسعده. هذا الشخص المحبوب هو أهم ما في العالم بنظرنا، ونبحث عن فعل أي شيء ليطلع عليه. في هذه اللحظة، لتضع نفسك مكان هذا الشخص ولتتصرف تماماً بالطريقة نفسها مع نفسك. ها هو ذا تقدير الذات.

أن تحب نفسك وتعتني بذاتك: إنه تماماً نقيض ما تعلمناه في التصرف والتفكير. تعلمنا تقدير الآخرين، أو العناصر الخارجة عنا؛ تعلمنا أن نقيس قيمنا الشخصية حسب ما نملك أو حسب الأسلوب الذي نحب. إنه التعريف نفسه للأنا الضعيفة: تتعلق قيمنا بالعوامل الخارجة عنا، وبعناصر لا نستطيع التحكم بها. عندما يُؤسس الرأي الذي نملكه عن أنفسنا على حب شخص ما، على عملنا، على معاشنا أو على «نجاحنا»، فنحن في حالة خطرة جداً: نعرض أنفسنا لفشل موجع. كل العناصر الخارجة عن أنفسنا هي آنية و انتقالية؛ ليست «نحن» فنحن لا نملك أي ضمان للاحتفاظ بها. بالنتيجة، إذا عهدنا إلى المتغيرات الخارجية بالمشاعر التي أحسسناها إزاء أنفسنا، إذا شعرنا بالتقدير لأنفسنا، بشرط أن نكون محبوبين وأن نستفيد من وضع جديد، فمن

سيوصلنا إذا تغيرت هـذه الظروف، أو إذا فشـل زواجنا أو إذا وجدنا أنفسنا في حالة بطالة؟ يتلاشى تقديرنا لأنفسنا في اللحظة نفسهـا مع ظروف كانت قـد ولّدته. نحس بأنفسنا منبوذيـن، مضطهدين، محرومين. ومن الجنون القول إنه الأسلوب «الطبيعي» فـي الغرب. لأن كل شيء يتغير بشكل دائم: لماذا يُربـط تقديرنا لأنفسنا بعوامل تهرب منا؟

تذكـر: إن الشيء الوحيـد الذي نملك القدرة على التحكم بـه، هو الطريقة التي نفهم بهـا أنفسنا وتصرفاتنـا الناتجة عن مشاعرنا. إذا قررنا أن نحب أنفسنا ونعاملها بحـذر، إذا قررنا تطوير تقدير ذواتنا. إذن، نحـن أسيـاد أنفسنا، لن نخاطـر بفقدان تطويرنا لأنفسنا.

الاختبار الأقصى لتقديرنا لأنفسنا، هو عندما يتلاشـى كل شـيء، وعندما يتدمر عالم المجانيـن ونخسـر كل الأشياء التي تعلقنـا بقيمتهـا. وإذا دأبنا علـى أن نحب أنفسنا ونعرف أننا محبوبون، هذا يعني أننا ملكنا تقدير ذواتنا.

لتثقيف تقدير الـذات، يجب أن نعامل أنفسنا بالطريقة الأكثر لطفاً، والأكثر حذراً والأكثر محبة في لحظة الآلام والصعوبات، تمامـاً مثلمـا نحيط بصديـق يمر بظرف صعب.

لماذا لا يُعد تقدير الذات عفوياً؟

إنـه علـى الأرجح عفوي، لكـن مربينا (أهـل، أصدقاء، معلمين) اهتموا بشكل واعٍ بأن يجردونا منه. في الواقع، لا يهتم النموذج الغربي إلا بالسلطة، بالطموح، وبالسيطرة، ونحـن نظهـر أنفسنا طلابـاً نمطيين لكل التقنيات التي تسمـح باكتساب أنا ضعيفة. تعلمنا أن يقلقنـا ما يفكر به الآخرون عنا؛ نتعـب أنفسنا لنعجب الآخرين الذين نبحث عن التأثير فيهم. نضع ضمن أولوياتنا بأننا لسنا مهمين ولا نستحق التقدير من أقربائنا. ثم، نتعلم بأنه، إذا أحببنا الآخرين إلى درجة التضحية بأنفسنا، فإننا سنعرف بشكل آلي مـا يحتاجونـه: إنَّ محبـة الآخرين تعادل تأمين حاجاتهم. يفترض بهؤلاء بدورهم، أن يقوموا بالطريقة نفسها ويسدوا حاجاتنا بحب. باختصـار، برمجنا أنفسنا عبر نسق لا يسير، بكل بساطة، بانتظام.

إضافة إلى ذلك، إننا لا نعطي أنفسنا حق الاختيار بين النموذج الموجود أعلاه وتقدير الذات. فـي أوج الشباب يُرسّخ في أعماقنا بأن حب الذات هـو الأنانية، يولّد نرجسية ويفيض بالذات: الأناني لا يُعاشر. الأسرة، الكنيسة، المدرسة: وكذلك مؤسسات أخرى تجتهد في قولبتنا ضمن نظام صارم! لكن، كل المؤسسات بحاجة لأناس يؤمنون بوظيفتهم وباتباعهم للأنظمة. ابتداء من هذه اللحظة

التي نعتبر فيها أن الطبيعة الإنسانية شريرة وأنه يجب أن نغلبها لنتمكن من العيش في مجتمع، نخاف من ترك الفرد يحب نفسه، نرفض الاعتقاد بأن الإنسان سيصبح طيباً إذا تركناه يطور نفسه كما يفهم ذلك. يفرض النموذج الغربي علينا اكتساب أنا ضعيفة؛ إنه مقتنع على وجه الخصوص لأنه يزودنا على ما يبدو، بوسيلة تجعلنا نتفوق على مشاعر الآخرين وسلوكياتهم: يكفي من أجل ذلك العناية بهم وأن نحبهم أكثر من الذات. للأسف، هذا خاطئ كلياً.

إذا كنا عاجزين -أو منعنا أنفسنا- من أن نحب ذواتنا، كيف لنا أن نؤمن بأننا قادرون على أن نكون محبوبين؟ إذا كان حبنا وتقديرنا بأكملهما مركزين على الآخرين، فكيف لنا أن نشعر بأننا أصحاء، كاملون ومحبوبون في أعماق ذواتنا؟ إذا ملكنا صورة سيئة عن أنفسنا، فكيف يمكن لإمكانياتنا أن تتفتح؟ لا أحد يستطيع أن يعطي الأفضل عن ذاته إذا كان لا يشعر بالارتياح الداخلي. أخيراً، إذا تكيفنا مع النموذج وأحببنا الآخرين أكثر من أنفسنا، دون أن نستقبل من هؤلاء بقدر ما نعطيهم، فكيف لنا أن نمنع أنفسنا من الشعور بالخطأ والمرارة؟ ليس من السهل للأشخاص الذين يشعرون بأنفسهم مهانين ومخدوعين أن يحبوا أنفسهم ولا حتى الآخرين. عندما نتعامل مع أقربائنا الذين يحبوننا ويلبون حاجاتنا، نضع على عاتقهم عبئاً ثقيلاً.

لا أحد يعرف طريقة محددة لما يحتاجه الآخر ولا اللحظة المناسبة. لن يستطيع أحد أن يعرف أبداً حب الآخر بالطريقة التي يريد بها أن يكون محبوباً. لن يستطيع أحد أن يفعل من أجل الآخر ما يمكن أن يفعله من أجل ذاته.

هل يعادل تقدير الذات الأنانية؟

بالمعنى الحرفي، نعم؛ تشمل الأنانية الاهتمام بالأنا- في اللاتينية ego (الأنا).

تعريف قاموس (الروبير) هو التالي:«ارتباط مفرط بالذات مما يدفع حصرياً إلى البحث عنها وعن سعادتها وعن مصلحتها الشخصية». يجب أن نشير لكلمتي «مفرط» و «حصرياً»: في الواقع، لدينا ميل لقراءة : «كل تعلق بالذات يُبحث فيه، بأشكال عدّة، عن سعادتها ومصلحتها الشخصية» يعلمنا النموذج الغربي أن الأنانية عيب كريه: لقد أتينا إليه لنطابق الأنانية بعدم لبقدرة على الاهتمام بشيء آخر سوى الذات. ويجب ألا نخلطها مع الذاتية المركزية، وهي «الاتجاه بكل ما يتعلق بالذات، وبعدم الاهتمام فعلياً إلا بها».

فــي الواقع، ما هو الفــرق بين الأنانية والذاتية المركزية؟ الأنانية في معنى تقدير الذات، هي فن تأسيس علاقات مع الذات: الذات ليست مداراً يدور حوله باقي العالم. لا يُطلــب من أحد أن يعتبر ذاته مركزاً لكل شيء؛ ببساطة، فالتأكيد إذاً على حقيقة أ ن كل شخص مطالب بتأمين حاجاته الخاصة. لنكف عن الحلم بأننا الشمس وبأن الآخرين لا يقومون سوى بالدوران حولنا: لنكتفِ بأن نكون نجوما تضيء بذاتها.

لا يوجــد إطلاقــاً أي مفهوم يثير معنى معاكســاً، و صعب القبول أيضــاً. لُقّنا، بأن الأنانية هي شر، أكثر من المفاهيم الأخرى. المفارقة المذهلة، بأن الأناس الذين نعدهم أنانييــن -هؤلاء الذيــن نتهمهم بالنرجسية وبقلقهم المفرط على مصالحهم الخاصة- هم أيضاً الأكثر قلقــاً و في الواقع تمركزاً حول الأنا. هؤلاء الناس لا يقدّرون ذواتهم، عاجزين عن تأمين حاجاتهم وحب ذواتهم. يمضون وقتهم بمحاولة التفوق على الآخرين ويفعلــون كل شيء، ليكونوا مركز محيطهم. يصرفون طاقاتهم مــن أجل أشياء سطحية وينهارون تماماً عندما يتخلى عنهم الآخرون. هــذه الادعاءات الأنانية هي التجسيد عينه للأنا الضعيفة ولتناقض الأنانية المفهوم جيداً، أي لتقدير الذات.

لنحــب ذاتنــا، يجب أن نعــرف نفسنا. لنلبي حاجاتهــا الخاصــة ورغباتها، يجب البدء بتحديدها. إنه مــن غير الممكن إذا لم نركز انتباهنا على ذواتنا. لنكن أنانيين. لنعتني بشخصنا الثمين. لا أحد يستطيع أن يحل محلنا بذلــك، وخاصة بالطريقة التي فعلاً نحن بحاجة إليها.

أيمكن للمبالغة في تقدير الذات أن تتحول إلى أنانية؟

لا. تقديــر الذات، ليســ كافياً للوصول إليها. ليس هدفاً، وليس سلعة: إنه سيرورة. إنه شــيء نمارسه كل يوم. تقدير الذات هو شعــور نجربــه إزاءها، مرتبــط بتصرفات تجاههــا. عندما نملك تقدير الذات، نحس بالسكينة، المحبة، القوة والقدرة.

في ظروف عــدة، نستطيــع الإحساس بأننا أقل ثقة بالذات، أقل محبة، أقل قدرة: هنــاك نصبح أكثر أهليــة لنتصرف مع أنا ضعيفة، أكثر محاولــة للطلب من الآخرين جعلنا محور حياتهم لنؤمّن حاجاتنا. ينبعث تعظيــم الذات من نقصــ التقدير لها. من أجل أن نتوقف عــن صياغة توقعات عبثية إزاء الآخريــن، فالأفضل هو أن نسد نقص ذواتنــا وننظــر إلــى عيوبنــا. إذا احتجنا للاهتمام فلنعطــه لأنفسنا بإسهاب. إذا كنا نهمين للمدح والمجاملــة، فلنمدح أنفسنا،

ونجاملها. لنكــرر كثيراً ما نرغب بسماعه. إذا لم نؤمن بذواتنا، كيف سنؤمن بالآخرين عندما يقولون لنا ما رغبنا بسماعه؟

عندمــا نمنح أنفسنا تمامــاً ما نحتاجه من مدح، هدايا، دلائل على الحنان، عندما نحس بالأمان، وبأننــا متفتحون ومفعمون، إذاً نتطلع للآخرين بحب. نملك طاقة كبيرة لنوزّع حسناتنا علــى ذواتنا وعلى أقربائنا. نحــن أكثر تسامحاً إزاء أخطائنا الخاصة و أخطــاء الآخرين. كلما بسّطت الأمور مشت بسهولــة. نحتفظ بهدوئنــا عندما لا يقول الآخرون ما نريده -أو لا يقولون شيئاً- لأننا نحس بالكمال في ذواتنا.

الصورة الأفضل لتوضيح هذه المفارقة، هــي بعلبتــي سكاكر. كل واحــد يملك في داخله علبتــي سكاكر: الأولى لــه، والثانية لقريبه. تعلمنا أن نمــلأ أولاً علبة القريب: سنستمر بصنع سكاكــر لنملأها. مُنعنا من طبــخ أي شيء لعلبة سكاكرنا، بل وتم منعنا من مجرد التفكير فــي ذلك.نردد بأنه، إذا حضّرنا حلويات من أجل الآخرين، ستمتلئ علبتنــا: يفترض بالآخريــن أن يقدموا لنا سكاكــر، وسيكــون كل الناســ سعداء. في الواقع، لــن تسير كل الأمــور كذلك؛ علبة سكاكرنا فارغة بشــكل عام وإذا وضع أحد فيها سكاكر، فإنهــا ليست ما نرغب به في هذه اللحظة. نشعر بمرارة، وبغضب أو بأننا منزوعــو الملكية وهذا ليســ مدهشاً: نرى الآخرين يحشون أنفسهم بحلوى حضرناها لهــم. مفارقة: لنملأ بالبداية علبة سكاكرنا بنفسنا بسكاكرنــا المفضلة والممتلئة جداً وسندخر العلبــة الثانية. لنحتفــظ بعلبتنا ممتلئة دائماً. لنعلم أفــراد عائلتنا أن يملأ كل واحــد علبتــه أولاً. وعندئــذ كل الناس سيربحون.

كيف نكتسب تقدير الذات؟

كي نتعلم شيئاً جديــداً، فالأسهل دائماً هو أن نجد أستاذاً جيداً. لكن أساتذة تقدير الذات هم قلة. لا نستطيع القول-على وجه الخصوص- إن كل علماء النفس، كل الكهنة أو كل المساعدين الاجتماعيين قادرون على تعليمنا محبــة أنفسنا. يجب أن يوضع أمام الأعين نموذج ليحتذى بــه، يطبّق ما يعلّم؛ يجب أن يكون هنــاك شخص يعرف محبة نفســه، ويعرف بشكل خاصــ طريقة تعليم الآخرين أسلوب الحياة هذا.

تقديــر الــذات يُكتسب بالتعلُّــم؛ وقلة هم الأشخاص الذيــن يتوصلون إليه بشكل طبيعي. تذكر: تعلمنا بألا نحب أنفسنا، في هذه اللحظــة علينا أن نفتح صفحة جديدة وأن نعيد تعلم حب أنفسنا.

إن تقديــر الــذات يكتســب كأية مهارة أخرى: وهكذا يجب رؤية الأشياء. إذا شعرت

بالحاجة لتقدير الذات، و كنت مصمماً بشكل تام على ذلك، فستصل إليه. من الأسهل تعلم موضوع حين نجهل كل شيء: العادات السيئة ليست مُكتسبة بعد.

لنفترض أنك درست لغة أجنبية خلال سنوات عدة قبل أن تلاحظ بأن معلمك لديه لكنة فظيعة وبأنه علمك لفظاً خاطئاً. لكي تتكلم بشكل لائق، يجب عليك العودة للخلف، وأن تتخلص مما علمك إياه هذا الجاهل وتبدّل المفاهيم الخاطئة بأخرى صحيحة. كان من الأسهل التعلم بشكل صحيح منذ المرة الأولى. مع ذلك، ليس الوقت متأخراً: إنه أصعب بكثير، لكنه ليس مستحيلاً لطالب صمم تماماً.

تقدير الذات يشتمل على التعلم من جديد الأسلوب الذي نرى به أنفسنا، ونعيد تعلم حبها. بالتأكيد، من الأسهل والطبيعي أن نتعلم حب أنفسنا منذ نعومة أظفارنا، عندما يكون الوعي طاهراً من كل دنس. للأسف قلما يحصل ذلك، بسبب نقص المعلمين والنماذج الممارسة لتقدير الذات.

إذن، يجب علينا أن نخلق هذه الفكرة: معلمونا هم نماذج ناقصة، لكن ذلك ليس خطأنا ولا خطأهم (هم أيضاً تلقوا تعليماً مغلوطاً في البداية). لن نضيع وقتنا لنتحسر على عدم تعلم تقدير الذات باكراً: لنكرس طاقاتنا لاكتساب كفاءة جديدة في هذه اللحظة.

لنبدأ بخيار: القرار الذي لا يبطل تعلم تقدير الذات. إذا رغبت بذلك القرار بشوق كاف، فستصل إليه. عندما لا يملك الناس شيئاً يخسرونه، فهم قادرون على تعلم أي شيء كان.

لتقنع نفسك بأنه ليس ثمة ما تخسره. ثم لتجد نماذج من البشر يقدرون ذواتهم، بكل بداهة. لا تعتمد عليهم ليعترفوا لك بأنهم يحبون ذواتهم أو بأنهم يجدون أنفسهم رائعين. ببساطة، إنهم يتخلصون من قوة راكدة ويبدون مشجعين للآخرين، بشكل ودي. إنهم متوازنون، واثقون من أنفسهم؛ يعترفون بسهولة بأخطائهم ويضحكون منها بشكل طوعي، لا يستهزئون من الآخرين، ولا يحكمون على الآخرين؛ متسامحون مع نقيضهم، يقبلون أنفسهم -ويقبلون الآخرين- كما هم. نشعر بالراحة مع أشخاص كهؤلاء. من المهم معاشرة أشخاص يقبلونك كما أنت في هذه اللحظة، ويشجعونك على امتلاك رأي صائب عن نفسك.

عندما ستجدون مثلكم الأعلى -طبيبكم النفسي، معلمكم، أهلكم أو أصدقاءكم، راقبوهم بانتباه. كيف يتصرفون عندما نرفضهم؟ أهم كاملون؟ كيف يتصرفون تجاه أخطاء الآخرين؟ كيف يتخطون الظلم

وهم ضحايا اسألوهم. اسمعوا وتعلموا من مثالهم. لكن لا يطلب منهم الرد على كل شيء: لا ترهقهم بآلامك، لا تطلب منهم أن يجعلوك كاملاً. النماذج الجيدة هم المعلمون الصبورون والمحبون، إذ إن تقدير الذات لايتعلق بك. النماذج الجيدة ليست بالضرورة أشخاصاً على صلة ببعضهم البعض.

بالدرجة الأولى، لتكن مستعداً لعمل تمارين تطبيقية. حتماً، سترتكب أخطاء عدة، لن تكون كاملاً. تقدير الذات راسخ في أعماق الطبيعة البشرية، ولكنه يشكل جهد حياة بأكملها. ليس حلاً خارقاً. إنه أسلوبٌ لتكون في عالم يسمح لك بمعرفة نفسك وانشغالك بذاتك جيداً.

لماذا لا تجلب لي كتب تطوير الشخصية شيئاً؟

في السؤال السابق، رأينا كيف نكتسب تقدير الذات. قراءة كتب تطوير الشخصية لم تذكر ضمن الحلول. يبدو هذا الإغفال غريباً، في كتابنا هذا (علم النفس الميسر) والذي نستطيع أن نعتبره علاجاً للتطوير الشخصي. هناك ثلاثة أسباب لذلك.

السبب الأول: معظم الأشخاص يشترون ويقرؤون هذا النوع من الكتب للبحث عن وصفة خارقة. فيتمنون أن يعطيهم الكتاب جواباً، و بالتالي سيقارنون ذلك مع قراءتهم. بالتأكيد، معظم كتب التطوير الشخصي تجلب أجوبة بشكل أو بآخر لكن تقدير الذات هو، بشكل جوهري، تجربة؛ تعاش، تمارس: لا يمكن تعلمها من خلال قراءة بسيطة.

إن تقدير الذات لا يُكتسب بطريقة سلبية، لكن بطريقة فعّالة وملموسة. وحدها الممارسة تتيح التعمق به. لا أحد يمكنه أن يمنحك تقديراً للذات على طبق من فضة، ولا أحد يستطيع الحصول عليه متعلماً – عبر القراءة مثلاً– أكثر من شخص اكتسبه. ذلك لا يعني بأن كتب التطوير الشخصي دون قيمة، أعتقد بأن لها أهميتها الخاصة، فدونها ما كنت لأستطيع أن أكتب هذا: لكن أهميتها الوحيدة تقوم على أنها تقترح أدوات. إن قراءتها قراءة بسيطة لا تكفي. ربما يكون من المهم أن نكتشف في كتاب ما بأننا لسنا وحيدين، بأن أشخاصاً آخرين وجدوا أنفسهم في الموقف نفسه، بأنهم تعلموا التغيير وبأن التغيير ممكن: إنه تشجيع سيدعّم المثابرة. لكن الكتاب بحد ذاته عاجز عن أن يمارس التغيير: معظم القرّاء يصرفون أموالهم ويلتهمون مجموعة من الكتب وفي ذهنهم أنها توصلهم إلى النهاية، سيجدون أنفسهم متغيرين بسحر. يشير الكتاب إلى طريقة يتعلمها القارئ للتغيير، طريقة فعّالة ستكشف نفسها

أمام آخرين؛ لكـن لا يمكن للكتاب أن يغير القارئ. لا أحد يستطيـع فعل ذلك، وحتى النماذج التـي أُختيرت. إنها مَهمة شخصية ولكل فرد حصته منها.

السبـب الثانـي: معظم كتـب التطوير الشخصـي لا تصل لهدفهـا لأنها تبدأ من حيث كان يجب لها أن تنتهي؛ تأخذ التغيير كمسلمـة. الكتاب يتحدث عن طريقة تغيير الذات، ورؤية الأشياء بشكل مختلف وأفضل من الماضي، وأن نرتب ما هو غير منسجم. إنـه المفهـوم نفسـه الذي سيقـود للقيام بمعالجـة نفسيـة. ما ينقص، هـو مفهوم القبول. مفارقة: للتغيير، يجب البدء بقبول أنفسنا كمـا نحن. لكن، إنـه لصعب قبول أنفسنـا خاصـة إذا كنا منبهريـن بضرورة التغييـر. إنـه أسهـل بكثير قـول: سأحب نفسي...

- عندما سأفقد غرامات من وزني؛
- عندما سأحصل على هذه الترقية،
- عندما هذا (أوهذه) ستكون مغرمة أو مغرمين بي؛
- عندما أملك ما أحتاجه؛
- عندما سأتغير

إنَّ حقيقـة التركيز الأعمى على التغيير يعادل اصطدام الرأس بالحائط للذهاب إلى الغرفة المجاورة. بقبول أنفسنا، نرتد للوراء، بالنسبـة لهذا الحائط، نلاحظ هذه الحالة دون حكم مسبق فننتهي من ذلك بملاحظة الباب. القبول، هو الباب الذي في الحائط، هو ذاك الذي يجعل التغيير ممكناً. القبول هو شرط غير متوافـر للتغيير. لكن المهم بكتب التطوير الشخصي هو بشكل عام هذه الرسالـة الخاطئة: قبل البدء، يجب التغيير من أجل قبول الذات.

إن ذلك يوصلنـا للسبب الثالث: الكتاب وحده لن يستطيع أن يجهز محيطاً مشجعاً ومتفهمـاً. نماذجنـا التي تقبلنـا كما نحن الآن، تستطيـع مساعدتنـا لتقبـل أنفسنا، تستطيـع تزويدنا بهذه النظـرة الخارجية التـي ستساعدنا على أن نرى أنفسنا بنظرة جديدة ونجد باب التغيير. قلنا أعلاه: لاأحد يستطيع أن يشتغـل على أعماقك ليغيرها، فتعلم تقدير الذات ربما موجع.

مثلك الأعلى سيستطيع مساعدتك لتقبل نفسك وسيزوّدك بوسط ودي سيسهل تغيرك بشكل محتمل. إن كتب التطوير الشخصي، يشمـل ذلك الذي تقـرؤه الآن، تستطيع أن تلعـب دوراً مكملاً في تعليمـك. يمكن أن تكون أداة -بيـن أدوات أُخَـر- بأفضل ما يمكن، لكنها لن تكـون الأداة الوحيدة التي تمنحك تقدير ذاتك.

هل تقدير ذاتي سيجعلني سعيداً؟

ليس بالضـرورة. إن تقدير الذات ليس ضماناً للسعادة؛ تقديـر الذات يعادل وعياً

أكبر بها، يجلب احتراماً عميقاً ومستمراً إزاء الذات، إنه بعد إمعان النظر، حب عظيم للذات. لا يساعدنا إلا بالسيطرة على أفعالنا وبالطريقة التي نفهم بها أنفسنا. تقدير الذات لا يجعلنا قادرين على التحكم بالمشاعر. السعادة هي شعور؛ يهرب إذاً من سيطرتنا. مع ذلك، إن حقيقة محبة الذات تحرّض غالباً شعوراً بالسعادة وبالرضى الداخلي العميق.

غالباً، لكن ليس دائماً.

بما أنه من المستحيل السيطرة على مشاعرنا الخاصة، فإنه ليس بإمكاننا السيطرة على مشاعر الآخرين.لا نملك السيطرة على تصرف الآخرين، نحن لا نتحكم بوسطنا. نظراً لأن سعادتنا تتعلق بجزء كبير بالآخرين وبوسطنا، فبشكل عام لا نستطيع التحكم بها.

من المهم أن نتحقق من أن خيار محبة الذات لا يغير العالم: إنه لا يغير سوى عالمنا. تبقى العوامل الخارجية نفسها لكن الطريقة التي ندركها فيها تتغير عندما نكتسب تقدير ذواتنا. نُضيّع عادة بذل طاقتنا على تغيير أشخاص أو أشياء تهرب منا. لن يصبح العالم أكثر عدلاً، دائماً تصفعنا المصائب نحن وأولئك الذين نحبهم.

لا يمنع تقدير الذات من الإحساس بآلام الحياة، إنه يساعد على تجاوزها. لا يقلل الحزن، الغضب، وحتى الخوف لكنه يمنح قوة تجعل الذات واثقة، نعلم بأنها في كل الظروف تعبّر بشكل أفضل عن مواهبها. مهما حصل، تعني محبة الذات أن نعرف كيف نكون حاضرين بذواتنا كما يجب. وهذا اليقين يمكن أن يجلب السعادة.

تذكر: هدف تقدير الذات ليس السعادة وإنما السلام الداخلي، التوازن ومشاعر الكمال. تحتوي الحياة آلاماً؛ إذن، ليس من الواقعية أن تطمح بالعيش، وأن تتوقع، في الوقت نفسه، السعادة الدائمة.

هل سيجعلني تقدير ذاتي كاملاً؟

لا، لن أكون كاملاً أبداً: إنسان كامل، ذلك غير موجود. إن مفهوم الكمال ليس سوى وهم خطير ومدمر. تطوير تقدير الذات يعنيَ الوعي بنواقصها وتقبلها. لتكن في سلام مع ذاتك، لتكن الأفضل في كل الظروف لكن لا تجعل الكمال هدفاً.

عندما تبدأ بمحبة ذاتك، تصبح أكثر تسامحاً إزائها. تتعلمُ التعامل مع نفسك برقة، وحتى عندما ترتكب أخطاء. وتتوقع ارتكابها لأن ذلك هو (الإنسان النقي).إن حقيقة اقتراف الأخطاء لن تمنعك من أن تعامل نفسك بحب. ستفقد عادة إرهاق

نفسك باللوم، ستتعلم أن تعذر نفسك وتحاول إيجاد حلٍ مختلف في المرة القادمة. ستكتسب التعلم من أخطائك: التي تستطيع أن تعلمك كثيراً. إذا كنت كاملاً، لن تكون بحاجة لتعلم أي شيء كان: ما هي إذاً أهمية حياتك؟ سيعلمك تقدير ذاتك أن تضحك بلطف من أخطائك. سيعلمك أن تتكفل كلياً بأفعالك و خياراتك، والتي تحظى بنتائج إيجابية أو سلبية. لدى غالبيتنا أسباب للتصرف كما يجب؛ سيسمح لك تقدير ذاتك تقبل هذه الأسباب التي قد تكون سيئة أحياناً.

في المرة التي تتعلم فيها تقدير ذاتك، ستلمس بعمق المعاناة التي أحدثتها أخطاؤك في داخلك ولدى الآخرين.من الصعب العيش من دون التسبب بألم؛ بالأحرى، من الصعب الموت من دون التسبب بآلام لأي كان. اعترف النموذج الوجودي بأن الألم كامن في كل حياة، وهو جزء منها. تقدير الذات يسمح لنا بالتوقف للبحث عن طريقة للتخلص من أخطائنا؛ يسمح لنا بألا نطمح للكمال، وأن نقبل طبيعتنا غير الكاملة والأخطاء التي تحدثها. بالنهاية ستستطيع أن تحدد لنفسك أهدافاً حقيقية.

لكن في الواقع، من يملك الرغبة في أن يكون كاملاً حقاً؟ فكّر بالنتائج التي ستحصل. أي نوع من العلاقات تستطيع أن تحصل عليها مع الآخرين؟ كيف ستستطيع فهمهم، وعلى النقيض، من سيفهمك؟ ماذا ستعرف عن المشاركة والتعاطف؟ كيف ستمنع نفسك من إبداء الرأي؟ أية وحدة، أي ضياع للتواصل مع الواقع! وحتى إن كان لديك القدرة لتصبح كاملاً، أأنت واثق من أنك مصمم على تحقيقه؟

متى سأحصل على تقدير ذاتي بما فيه الكفاية؟

أبداً. تقدير ذاتي ليس سلعة ولا هدفاً، إنه سيرورة. لن تستطيع أبداً القول: «ها قد: وصلت إليه! أستطيع الآن التوقف عن التعلم والعمل على ذاتي.» نتج من مثل هذه الأفكار نموذجنا الغربي، المتجه بأكمله نحو النتيجة؛ فهذه الأفكار لا تحسب حساباً لحقيقة الوجود. لا يمكن في أية لحظة من حياتنا أن نوقف الوقت لتجميده كلياً. تذكر دور البطل: يعرف بأنه ليس بمقدوره تغيير العالم لكن ذلك لا يمنعه من أن يبذل أفضل ما عنده. الحياة هي تحدٍ: أن تتعلم حب ذاتك هو وسيلة لترد على هذا التحدي.

عندما سينهار العالم من حولك، والأشخاص الذين تحبهم سيتركونك، وسيتلاشى وهمك بالأمان، فستمتلك اليقين باكتساب تقدير ذاتك. ستحس بنفسك حزيناً، غاضباً، تائهاً و مرعوباً، لكنك ستثابر على محبة نفسك وتعاملها بطريقة

ودودة. الأفضل، في هذه اللحظة أن تحب نفسك أكثر.

لا تستطيع أن تخزّن تقدير ذاتك، ولا أن تستمد من مدخراتك قياساً مع حاجاتك. ممارسة تقدير الذات يمكن أن تقارن بتمرين جسدي. إذا قمت بالرياضة كل يوم على مدار سنة ثم توقفت شهراً، فعليك أن تستأنف من الصفر أو ما يقاربه .لن يحتفظ جسدك بأي من مكتسباته، ولن يبقى في حالة جيدة إن توقفت عن استعماله. إن تطبيق تقدير الذات يعني ممارسته بشكل دائم. من المستحيل إيقاف التمرين والاحتفاظ بالحالة العقلية نفسها. لن تستطيع تعلم حب ذاتك، ثم تتوقف عن هذا الحب متمنياً أن تحس بنفسك محبوباً في اللحظة التي تحتاج لذلك. مع ذلك، يجعل التمرين الأشياء سهلة أكثر فأكثر. في النهاية، يصبح ذلك عادة، طبيعة ثانية: تعامل نفسك بلطف عفوي أكثر فأكثر، تطلب من ذاتك ما أنت بحاجة إليه وتتفق معها بشكل حر. تماماً كما التمرين الجسدي، تكلف الخطوة الأولى أكثر لأننا لسنا معتادين عليها .إن تدربت على تقدير ذاتك بشكل يومي، فلن تعود كما كنت سابقاً. عندما نقوم بتجربة شعور الحب الحقيقي للذات، نرغب بألا نخسره. لا نملك منه كفاية، ولم نعد نفهمه من زاوية كمية.

عندما تصبح غلطة الطبيب جريمةً لا تغتفر!

إبراهيم سلوم ✽



يجمع معظم الأدباء، ولاسيما الذين مارس بعضهم مهنــة الطب فكان طبيباً وأديباً في آن واحد على القول إن صاحب هذه المهنة النبيلة هو ذلــك الإنسان الرائع الذي يبذل كل مــا في وسعه من علم ومعرفة بالتركيب الداخلي لجسم الإنسان لكي يصارع المرض والموت من أجل أن يبقى مريضه على قيد الحيــاة، سواء أكان هــذا المريض عدواً أو صديقاً له، فكلاهما أمامه سواء بسواء.

✽ باحث ومترجم سوري.

قديمــاً كانــت مهنة الطــب قائمة على السحــر والتعاويــذ والرقى والكــيّ إلى أن جاء الطبيب اليونانــي أبقراط (٤٦٠-٣٧٧ ق.م) الذي يعد مــن أكبر الأطباء الأقدمين وأشهرهــم، إذ إنه حظي فــي زمنه بشهرة واسعة منقطعة النظير لأنه لم يهتم في حياته التي عاشها بأكملها إلا في مجال واحد وهو مجــال الطب. هذا ويعــود الفضل إليه في أنــه خلَّص الطــب من السحــر والأساطير ومن ظلمــات الطقوس السحرية وذلك بعد أن تأكد أن للأمراض جميعها عللاً طبيعية، وأن لكل علــة حالتها الخاصــة التي يجب الكشف عنها ووصف الدواء الناجع لها.

في الواقع، لقد جعل أبقراط الطب علماً موضوعيــاً قائماً على المنهــج العلمي في ملاحظة الحالات المرضية إذ كان يتبع في فحص المريض استجوابه والجس واللمس، وتفحصــ مفرغاته من بول وبراز. لقد كان دائماً يشــرح لمرضاه بــأن أساس الصحة الجيدة هــو الطعــام المغــذي واستنشاق الهــواء النقي، والحفاظ علــى النظافة، إلا أن ملاحظته هذه لــم تكن لتخلو من التأثر بالفلسفــة حيــث كان يوصي مرضــاه بألا ينهاروا خلال إحساسهم بالوجع، ويستسلموا للمرضــ بل أن يعمدوا إلى ممارسة الإيحاء الذاتي ليصار إلى إقناعهم بأنهم ما زالوا في حالة صحية جيدة حتى لا يستبد بهم الوهم والوسواســ. كما كان ينصحهم بألا يتعاطوا الــدواء إلا عنــد الضــرورة، وأن يعتمدوا على دفاعــات الجسم الذاتيــة عملاً بهذه المقولة التي تقول: ســرّ بدائك ما حملك. كمــا طالبهم بالاستعانــة بالصلاة والدعاء عسى أن يجلب ذلك كله السكينة إلى نفسهم المضطربة. كذلك لم تخــلُ ملاحظته من التأثــر بالكيميــاء آخــذاً بالحسبان نظرية المزج بين العناصر التي يتألف منها الجسم البشري، كالدم والبلغم والصفراء معتبراً أن الإنســان ذا الصحة الجيــدة هو ذاك الذي تكون فيه هذه العناصر ممتزجة مع بعضها بنسبها الصحيحة.

أما في حالات المرضــ فتكون ناقصة عن معدلها أو زائــدة. وهذه العناصر تتأثر عــادةً بالطعــام، ومزاج الفــرد، واختلاف البيئــة المناخيــة، وقد ساعدتــه كل هذه المعارف إلى أن يجري وصفاً دقيقاً لمرض الالتهــاب الرئوي، والصــرع عند الأطفال، والرمــد العينــي، والسل، والتهــاب الغدة النكافيــة، وحمى النفاس، وذات الجَنْب. ثم دعــم معرفته هذه بوصف الدواء اللازم من كــيّ بالنار ومراهم وعقاقير مستخلصة من النباتات الطبية. كما ويُذكر له ما قدمه من تعليمــات تتعلق بتحضير غــرف العمليات الجراحيــة وتنظيم الضــوء فيها، وتنظيف اليديــن والأدوات الجراحيــة، وطريقــة

استخـــدام هـــذه الأدوات، وطـــرق تضميد الجروح.

ولا يـــزال علم الطب ينســـب إليه بعض الحالات المرضية عندما نقول: مثل «أصابع أبقـــراط»، وهـــو ضَرْب من تشـــوّه الأصابع يتصـــف بتضخم في عضـــلات السلاميات الأخيرة وانعطاف الأظافر نحو راحة اليد. وغالباً مـــا نشاهد هذه الحالة عندما يكون المرء مصاباً بقصور رئوي مزمن، أو عندما يعاني من آفة قلبية وعائية.

كما ينســـب إليه علم الطب مـــا يُسمّى بـ«السحنـــة الأبقراطيـــة» التي يبـــدو فيها المريضـــ وكأنه فـــي حالة النـــزع الأخير. وهناك ما يسمى «بالـــرّج الأبقراطي» وهو طريقـــة استقصاء سمعيـــة لصدر المريض المصاب بانصباب الجَنْب والممزوج بالهواء، وقـــد عالجها أبقراط بالحجامة والكمادات الساخنة والمراهـــم، والتدليك من دون أن يلجأ إلى الاستدماء.

كذلـــك يُعتبر أبقـــراط أول مدون لكتب الطـــب حيث نشـــر أكثر مـــن ٣٠ كتاباً في الأجنـــة، وبعضـــ أعضاء الجســـم البشري والميـــاه والفصول وقد قـــام بترجمتها إلى السريانيـــة ثم إلى العربية الطبيب حنين بن إسحـــق (٨٠٨-٨٧٣م) الذي ولد في الحيرة في العراق وعيّنه الخليفة العباسي المأمون رئيساً لديوان الترجمة.

والأهم من ذلك كله هو أن أبقراط وضع ناموســـاً لمهنـــة الطب يعرف باســـم «قَسَم أبقـــراط»، وهو نصّـــ أخلاقـــي مؤلف من وصايـــا عدة، وتتطلب من الطبيب بأن يكون مُلماً بمعارفه العلمية المتعلقة باختصاصه، وأن يمتنـــع عـــن القيام بأي فعـــل فيه أذى أو ضـــرر بالمريضـــ، وأن يمارس عمله في النقاوة والطهـــر، وأن يظل بمنأى عن فكرة استغلال عمله بقصد المال، وأن يقصد من جميع التدابير التـــي يتخذها هدفاً واحداً وهو منفعـــة المريض من خلال العمل على تخفيف حدة أوجاعه وآلامه.

كذلـــك يوصـــي أبقـــراط الطبيب لدى تلاوته هذا القَسَم بالتقيد بنهجه الأخلاقي، لأنه إذا نكث بقسمـــه وخان الأمانة الملقاة على عاتقه فسيكون قد ارتكب غلطة فادحة ســـواء أكان ارتكابها قد تـــم عن غير قصد أو عن قصـــد وسابق تصميم. ومما زاد من شهرة أبقـــراط هو أن هـــذا القَسَم ما زال خالـــداً وساري المفعول منـــذ زمانه وحتى يومنا هذا حيث يتلى في جميع دول العالم، ويتم التشديد عليه مـــن قبل الأطباء الذين جاؤوا من بعده.

ففي القرن السادس عشر للميلاد أوصى الأديـــب والطبيب العربـــي داوود الأنطاكي (١٥٩٩) الذي أقام فـــي القاهرة في مصر جميـــع الأطباء بأن يلتزمـــوا بقسم أبقراط

مادياً وخلقياً، ثم ألف كتاباً بعنوان: «تذكرة داوود الأنطاكي في الطب»، وفيه يقدم شرحاً لهذا القسم مضيفاً إليه شروحات وتعابير أخرى من عنده، كقوله:

«ينبغي على الطبيب أن يتمتع بحسن الخلق، ويكون صحيح البنية، ونظيف الثياب، طيب الرائحة بحيث تستريح إليه النفوس، وألا يجس نبضاً وهو عابس. فالطبيب يقف عند حدود الله لأنه يصارع المرض والموت من أجل أن يبقى مريضه على قيد الحياة وذلك عبر الدواء الذي يصفه لمريضه، فمن خلال هذا الدواء تتحدد حالة المريض إمَّا بالتعافي أو بالتدهور نحو الأسوأ». ونظراً للشهرة الواسعة التي حصل عليها أبقراط فقد قررت اليونان في العام ٢٠٠٣م تخصيص يوم ١٩ أيلول من كل عام يوماً عالمياً مخصصاً لأبقراط وذلك تخليداً لذكراه.

ومع مرور السنين وتحديداً في تاريخنا المعاصر سارع بعض الأدباء إلى أن يستعيروا من الطب مواضيع أساسية في رواياتهم ومسرحياتهم بحيث لم تعد هذه المهنة وممارساتها حكراً على المؤسسات الطبية فحسب بل تعدت ذلك إلى عالم الأدب حيث بدأنا نقرأ روايات ومسرحيات تتناول عمل الطبيب، باعتبار أن الأدب ليس للأدب فحسب بل عليه أن يشمل كل جوانب الحياة. وحسبنا أن نذكّر بالرواية التي كتبها الكاتب الإيرلندي «برنارد شو» الذي ولد في مدينة دبلن في إيرلندا، واشتهر بالتهكم والتشاؤم في نتاجه الأدبي، ثم حصل على جائزة نوبل للآداب في العام ١٩٥٢م. ففي الرواية يوضح برنارد شو بأن المجرم يرتكب جريمة واحدة أو اثنتين في حياته ثم سرعان ما يلقى القبض عليه لينال جزاءه العادل. أما الطبيب الذي يظهر عن عدم كفاءة في مهنته سواء أكان ذلك على الصعيد العلمي أو الأخلاقي فإنه يرتكب أكثر من جريمة كل أسبوع، إمَّا عن طريق اختلاق عمليات جراحية لا لزوم لها، أو وصف أدوية لا داعي لها. وعلى هذا النحو تكون حياته سلسلة من الجرائم في حقّ مرضاه، إذ تتحول مهنة مداواة المريض إلى أداة للارتزاق وبأقصر الطرق. وهذا ما نقرؤه في مسرحية «الدكتور كنوك» للكاتب الفرنسي المعاصر جول رومان (١٨٨٥-١٩٧٢م) الذي وصف بطل مسرحيته وهو «الدكتور كنوك» بالإنسان الجشع الذي يعمل على جمع أكبر قدر من المال بإيهام أهل القرية الأصحاء بأنهم مرضى، إلا أنه يندم في نهاية الأمر لاحتياله على الأهالي وابتزازهم، ويطلب السماح منهم ولكن بعد فوات الأوان.

أما الكاتب الطبيب الإنكليزي جانيزون هاري فهو يطلب من أطباء العالم جميعاً أن «يكونوا رمزاً لمهنتهم التي يزاولونها».

وتاريخ الأدب العالمي يطلعنا بأن هناك أدباء مشهورين راحوا ضحية غلطة الطبيب، فرحلوا مبكراً عن دنيانا وكان رحيلهم خسارة كبيرة لا تعوض لأنهم كانوا بمثابة النور الذي تستضيء بهم الأجيال الحاضرة واللاحقة للسير على طريق التقدم والتطور، فجاءت غلطة الطبيب لتطفئ شعاع هذا النور لسوء الحظ، مثلما هو حال الأديب الفرنسي الشهير أنطوان بريفو الذي ولد في مطلع القرن الثامن عشر، وعُرف تحت اسم «القس بريفو» (١٦٩٧-١٧٦٣م) ومات بشكل عرضي بعد معاينة الطبيب له. هذا ويروي مؤرخو الأدب الفرنسي بأنه بعد أن تناول بريفو وجبة غداء دسمة لدى أحد أصدقائه قام بوداعه ليعود إلى مكان إقامته سيراً على الأقدام. وبينما هو سائر على الطريق أحس بألم شديد في معدته، ثم بدأ يتلوى ألماً إلى أن سقط مغشياً عليه.

تمكن بعض المارة من العثور عليه واصطحابه إلى الدير الذي يقيم فيه. استدعي الطبيب على عجل، فأكد وفاة بريفو وقرر تشريح الجثة لمعرفة أسباب الوفاة. وعندما بدأ الطبيب يشق بمبضعه معدة المريض من وسطها أطلق بريفو زفرة قوية من صدره، ما أذهل الطبيب الذي حاول على الفور أن يرتق ما كان قد فتقه باعتبار أن المريض ما زال على قيد الحياة، لكن المنية كانت على عجلة من أمرها فقضى بريفو نحبه. هكذا رحل بريفو في وقت مبكر بعد أن ترك أكثر من (٢٠٠) كتاب ومجموعة من القصص الأخلاقية والمغامرات. وكان رحيله خسارة كبيرة لفرنسا التي فقدت برحيله أديباً روائياً ذائع الصيت ومشهوراً.

كما كتب الناقد الأدبي الفرنسي سانت بوف (١٨٠٤-١٨٦٩م) الذي انصرف للنقد وتاريخ الأدب وتقدم طريقته على دراسة الأدباء من خلال بيئتهم الحياتية والتاريخية والاجتماعية، والذي يرى أن أنطوان بريفو هو بحق أحد هؤلاء العظماء، فهو أول من وضع الأسس لكتابة الرواية الفرنسية في القرن الثامن عشر. هذا العمل الأدبي الذي يقوم على سرد المغامرات أو دراسة الأخلاق والطبائع أو تحليل العواطف والمشاعر. في السابق كانت الرواية عبارة عن سرد حكاية سردية لمغامرات أشباح ولصوص غير محتملة الوقوع. لقد كانت خيالية وبقصد التسلية وتروى على لسان الحيوانات كما لدى الشاعر الفرنسي «جان لافونتين» أو عند «ابن المقفع»، وهذا ما أدى إلى نشوء الرواية الجديدة التي تقوم على الوصف الموضوعي

كأن تستعرض حياة أسرة بأجيالها وتقوم أيضاً على اللغة والفكر معاً.

إن قصة حياة هذا الكاتب لا تزال حية ومؤثرة إلى يومنا هذا، لأن حياته كانت متعددة الألوان مرهفة مثل سير الحياة التي أبدعها بقلمه. وما يبعث على الدهشة والعجب هو أنه اعتمد في حياته كلها كل الاعتماد على قلمه وكتابه فكان كاتباً خصباً غزير الإنتاج وساهم بشكل كبير في تشكيل الرواية الفرنسية.

ويعود الناقد الأدبي «سانت بوف» ليضيف قائلاً: لقد ترك لنا بريفو أكثر من (٢٠٠) كتاب تناول فيها القصص الأخلاقية والمغامرات وبشكل خاص الرواية التاريخية والأدبية. ونذكر على سبيل المثال روايته «مانون ليسكو» التي تعد إحدى روائعه الأدبية التي خلدت اسمه، فهي لم تمت منذ ذلك الحين وحتى يومنا هذا بعد أن خلدها عالم الأدب والفن والموسيقى والأوبرا.

تتحدث الرواية عن وقائع حدثت على مرحلتين. الأولى تتناول علاقة الشابة مانون بالفارس دو غريو الذي ولد وترعرع في بلدة «أميان» الواقعة في الشمال الفرنسي ضمن عائلة محافظة على التقاليد والمعتقدات الدينية، والذي كان يظهر دوماً تفوقاً على أقرانه في معهد البلدة حيث درس العلوم الإنسانية واللغة اللاتينية. لقد كان في نية والديه أن يلحقاه بجمعية دينية يطلق عليها اسم «جمعية فرسان مالطة» (نسبةً إلى جمعية فرسان القديس يوحنا التي تأسست في فرنسا في العام ١١١٣م، أي في خضم الحروب الصليبية لإسعاف مرضى وجرحى الإفرنج الذين كانوا يعودون من الأراضي المقدسة في فلسطين. لكنها سرعان ما تحولت في العام ١١٣٧م إلى منظمة عسكرية تدعو للقتال إلى جانب الفرسان الصليبيين في فلسطين، وبعد رحيل الصليبيين عن المنطقة في العام ١٢٩١م رحل أعضاؤها إلى قبرص ومن ثم إلى جزيرة رودس ثم حطوا رحالهم في العام ١٥٣٠م في مالطة حيث أخذوا اسم «فرسان مالطة» وحكموها حتى حملة نابليون بونابرت على مصر وسورية في العام (١٧٩٨ - ١٨٠٤م). واليوم أصبح لقبهم شرفاً دون صفة عسكرية. وهنا يقول دو غريو في الرواية: «وفي غمرة آمال والدي العريضة جعلاني أضع صليباً خشبياً على صدري». وعندما بلغ دو غريو السابعة عشرة من العمر تعرف على فتاة رائعة الجمال تدعى «مانون» التي ما إن رآها للوهلة الأولى حتى دخلت إلى قلبه بسرعة واستحوذت على كل تفكيره بقوله: «ولكن مانون مرت أمامي ودخلت حياتي. ومنذ تلك اللحظة تغير كل شيء بالنسبة لي. لقد كانت في الخامسة عشرة من عمرها ولم

تكن قد تنبهت بعد إلى الفارق الموجود بين الذكر والأنثى. كانت فتاة تعكس براءة الأطفال في عينيها كلما أطلتُ النظر إليها». وفي أحد اللقاءات تبلغه مانون بأنها جاءت إلى بلدة «أميان» من إحدى القرى المجاورة بناءً على طلب ذويها لتدخل دير الراهبات فيها وتصبح راهبة مستقبلاً. بيد أن هذه الرغبة لدى الوالدين تتناقض مع رغبتها الشخصية التي تدفعها إلى أن تعيش حياة غير ملتزمة بأي قانون أرضي أو سماوي.

أوليست تلك هي الحالة نفسها التي يعاني منها دو غريو الذي ينتفض ويعرض عليها التخلي عن كل هذا المشروع والرحيل إلى باريس الواسعة الأرجاء كمخرج لهذا المأزق الذي يعانيان منه. يصل العاشقان إلى باريس ويستأجران غرفة منعزلة عن الجيران حيث يعيشان حياة مشتركة غير خاضعة لأي قانون مدني أو كنسي ويظهر هذا بقوله: كان حبنا المتبادل بمثابة عقد زواج وكان ميثاقاً كافياً لإقناع الآخرين من الباريسيين بأننا نعيش كرجل وامرأة.

لقد تخلينا عن مراسم الكنيسة، ووجدنا أننا أصبحنا رجلاً وامرأة بشكل عفوي من دون أن نفكر بالطريقة التي أوصلتنا إلى مثل هذه الحالة أو ننتبه إليها، وما أحلاها، وبعد مرور بضعة أشهر يكتشف شقيق دو غريو أمر أخيه فيذهب إلى باريس بحثاً عنه. وعندما يجده يحاول إقناعه بأن يعود إلى أسرته وإلا حرمه الأب من الميراث. يرتبك دو غريو بأمره فيقرر العودة مع أخيه إلى مسقط رأسه حيث يقوم والده بتأنيبه ورده إلى صوابه ولاسيما وأن مانون أصبحت بالفعل خليلة السيد (جي إم) أحد رجال المصارف في باريس ولم تعد تكترث به. وهذا أمر كافٍ لكي يقوم دو غريو بنسيانها وإبعادها عن مسار حياته، بحسب رأي الأب.

لم يرق لـ«دو غريو» سماع مثل هذا العرض الذي تقدم به والده فتثور ثورته ويقرر الذهاب إلى باريس ليقتل هذا الرجل الذي سلب منه مانون، وما إن يعلم والده بالأمر حتى يعمد إلى حبسه عسى أن تهدأ ثورته ويعود إلى رشده بعد أن يكون قد صحا من سكره ومن غفوته. ويزداد الطين بلة حين يأتي أحد أصدقائه المدعو «تيبرغ» إلى منزل دو غريو ليثبت بالفعل الزعم بأن مانون هي خليلة رجل المصارف الباريسي المذكور، وليطلب منه الانتظام في تلك الكهنوت تكفيراً عن هذه الخطيئة التي ارتكبها مع امرأة ضعيفة الأخلاق ألا وهي خطيئة الزنا.

تردد دو غريو لدى سماعه مثل هذا النبأ الصاعق لكنه قرر أن يلتحق بأحد الأديرة في «أميان» بقوله: «وظننت أني تطهرت من

دنس الحب». ولكن بعد غياب دام قرابة عامين يحاول دو غريو نسيان مانون ليصبح مثالاً للتقوى والتعبد.

وفي أحد الأيام يتلقى دعوة لحضور مناظرة دينية في جامعة السوربون في باريس فيذهب إلى هناك، وخلال وجوده في المناظرة يفاجأ بمانون بين الحاضرين. وما إن رأته حتى غادرت مكانها وشقت طريقها إليه. وهكذا يلتقي الحبيبان من جديد وتعترف مانون لحبيبها بخيانتها له لكنها تقسم اليمين على أنها لم تقترف خطيئة الزنا مع السيد (جي. إم) إلا من أجل مسعى واحد وهو الحصول على المال الذي قد يساعدها في تسهيل رؤية حبيبها دو غريو، واللقاء به من أجل تجديد حبهما وإنعاشه من جديد. وخلال تجوالهما على ضفة نهر السين يتفق الحبيبان على أن يهربا من باريس ويسكنا في ضاحية (شايو) لطالما أن مانون تمكنت من ابتزاز العجوز (جي إم) مادياً والاحتفاظ بمبلغ قدره ٦٠ ألف فرنك. وهو مبلغ كافٍ لكي يستأجرا مسكناً ويعيشا حياة باذخة. إلا أن الرياح تجري بما لا تشتهي السفن إذ يسطو عليهما ليلاً أحد اللصوص ويهددهما بالقتل ما لم يعطياه ما لديهما من مال. وفي صباح اليوم التالي يحس الحبيبان بأنهما أصبحا بين عشية وضحاها شبه معدمين مادياً. وهنا يتنفس دو غريو الصعداء ويقول: «لقد أدركت آنذاك أن الإنسان قد يحب المال من دون أن يكون بخيلاً. لقد عرفت مانون، فهي مهما كانت مخلصة لي في وقت الرخاء فلا يمكن الاعتماد عليها في وقت الشدة. صحيح أنها جمعت المال خلال وجودها بعيداً عني من أجلي، أما اليوم فيجب علي أن أتصرف وأرد لها هذا الدين». وتشاء الصدف أن يلتقي دو غريو بأخ مانون الذي علمه لعبة الورق والقمار وكيفية التحايل من أجل كسب المال.

يمارس دو غريو بشكل جيد قواعد هذه اللعبة في الغش والاحتيال فيكسب مزيداً من المال لكنه يتعرض مرةً أخرى للسرقة ويسقط الحبيبان مرة أخرى في الفقر والحرمان. لم تعد مانون تتحمل عبء الحياة التي بدأت تثقل كاهلها فتقرر الالتحاق بالرجل الثري ولو أنه يكبرها بسنوات عدة. وهنا يفترق الحبيبان عن بعضهما البعض فتكتب مانون رسالة إلى دو غريو تقول فيها: «إني أعمل كل ما في وسعي لأجعلك سعيداً، يا فارس أحلامي». وفي هذه الأثناء تقرر رئاسة الدير طرد دو غريو من سلكها الكهنوتي بعد أن سمعت عنه ارتكابه الكثير من الموبقات ما لم يعلن توبته أمامها. أما دو غريو فلم يعد أمامه من همّ يشغل باله سوى اللحاق بمانون وينفذ خطة سرقة

رجل المال بالتعاون معها. وبالفعل يتمكن الحبيبان من تنفيذ خطتهما بسرقة هذا العجوز الثري الذي سرعان ما استدعى السلطات في باريس التي بادرت إلى إلقاء القبض على مانون ومن ثم إحالتها إلى القضاء. وعلى إثر ذلك صدر قرار قضائي يقضي بوضعها في ماخور باريسي باعتبار أنها أصبحت مومساً. أما بالنسبة لدو غريو فيعود إلى أميان ليعلن توبته أمام رئيس الدير. وفي هذه الأثناء يطلب من صديقه «تيبرغ» أن يقرضه مبلغاً من المال لطالما أن والده صفح عنه وسوف لن يحرمه من نصيبه خلال توزيع الإرث على أبنائه. يقدم تيبرغ المبلغ من المال إلى دو غريو الذي يقرر على الفور الهروب من الدير والذهاب إلى الماخور ليرشو البواب كي يسهل عملية هروب مانون. تهرب مانون من الماخور وتقطع على نفسها عهداً بحب دو غريو إلى الأبد. يعود الحبيبان للعيش معاً لبعض الوقت. وعندما نفد المال تتعرف مانون في «أميان» على رجل آخر ثري فيتخذها خليلة له ويغدق عليها المال الوفير. ثم تلقي السلطات القبض عليها بفضل وشاية تقدم بها والد دو غريو الذي أقنع هذه السلطات بضرورة ترحيلها إلى خارج فرنسا بموجب العقد الذي كان قد عقده أحد تجار الرقيق الأبيض الفرنسيين مع شركة أميركية، ويقضي بإرسال ٢٠ مومساً فرنسية إلى ولاية لويزيانا الأميركية بعد أخذ موافقة السلطات الفرنسية على ذلك. يُلبى طلب الأب وتوضع مانون على لائحة المومسات الفرنسيات اللواتي يتجهن بحراً إلى لويزيانا الأميركية في الأيام القريبة القادمة. لكن دو غريو يعلم بالأمر فيعمل جاهداً لكي يصطحب مانون في رحلتها الطويلة هذه إلى الولايات المتحدة الأميركية.

أمّا المرحلة الثانية فتدور حول استعدادات السفر التي اتخذها التاجر بشأن رحيل هؤلاء المومسات الفرنسيات إلى مدينة نيوأورلينز في ولاية لويزيانا، حيث نقرأ ما يلي: قبل ترحيل المومسات بأيام قلائل قدم دو غريو إلى ذاك التاجر طالباً منه أن يساعده في اصطحاب حبيبته مانون. ولما كان مفلساً فهو لا يستطيع أن يقوم بذلك، وحبذا لو قدم له المساعدة اللازمة لذلك. يفكر التاجر بالأمر ويستدعي الفتاة التي ما إن شاهدها حتى أسر قلبه جمالها واصفاً وجهها الرائع بأنه يمكن له أن يعيد العالم إلى عهد الوثنية، أما دو غريو فكان بائساً يستبد به الحزن والأسى لأنه مفلس. تتحرك المشاعر الطيبة لدى التاجر ويتأثر تأثيراً مزدوجاً نابعاً من حالة الحبيب التعيسة إذ يقوم بإعطاء دو غريو أربعة جنيهات ذهبية، وهذا ما مكن الفارس

من مصاحبة مانون في رحلتها البحرية إلى أن وطأت قدماهما لويزيانا، حيث يعيشان هناك حياة مليئة بالبؤس، كما أوضح الراوي بقوله: «لقد تعلمت مانون أن تتحمل مرارة الفقر وأن تكون مخلصة كل الإخلاص لدو غريو، وهذه الحالة دفعتهما إلى أن يعودا إلى ممارسة الشعائر الدينية. لكن سرعان ما يطرأ على حياتهما مفاجأة مذهلة مفادها: إن حاكم ولاية لويزيانا بعد أن تأكد له بأن الحبيبين غير مرتبطين ببعضهما البعض بعقد زواج شرعي، لذا فإن مانون ما زالت تعتبر عزباء ويجب أن تقبل بابنه زوجاً لها. وقبل تنفيذ عقد الزواج يذهب دو غريو ويشتري سيفاً ثم يقوم بطعن ابن الحاكم فيرديه قتيلاً. وعلى أثر ذلك يهرب الحبيبان إلى الفيافي والقفار سيراً على الأقدام. وبعد مسيرة أميال عدة تسقط مانون مغشياً عليها وتفارق الحياة». وهنا يقول دو غريو: «وقضيت يومين وليلتين لا تفارق شفتاي وجه عزيزتي مانون ويديها». ويحفر دو غريو بيديه قبراً لها ويواريها الثرى ثم يرقد على القبر لينوح ويبكي على فقدانها. وتشاء الظروف أن يأتي صديقه «تيبرغ» إلى الولاية بحثاً عنه وطمعاً بالحصول على المال الذي كان قد أدانه إياه فيعثر عليه ويقنعه بضرورة العودة إلى فرنسا، ويذهب الرجلان بحراً باتجاه فرنسا حيث ترسو السفينة في ميناء «بادوكاليه» الفرنسي، وهناك يلتقي الرجلان بتاجر الرقيق الأبيض الذي كان تواقاً لسماع أخبار دو غريو وأخبار حبيبته مانون. وخلال اللقاء يروي دو غريو كل حكايته التي تحطم قلب كل إنسان استمع إلى تفاصيلها.

لقد كان الإنتاج الأدبي لبريفو منهلاً لاينضب ماؤه ومصدر وحي وإلهام لقصص أخرى مبللة بالدموع فإن أي امرأة حتى ولو لم تكن محطمة القلب ستذرف دموعها على موت مانون، وعلى حالة الحزن والضياع التي يعيشها حبيبها الفارس دو غريو. ما من امرأة إلا وتغفر لمانون حيلها وأساليبها من أجل الحصول على المال طمعاً بتأمين العيش الرغيد لحبيبها. وأيضاً لدو غريو سلوكه جراء ما قام به من تطفل وغش وسرقة وقتل طبعاً إنه سلوك مألوف بالنسبة للبطلة التي كانت تلهث وراء المتعة واللذة لكنه غير مقبول بالنسبة للبطل الذي يجب أن يتحلى بالمروءة والإقدام، ولربما بلغت الرواية قدراً أكبر من التأثير لو أن دو غريو ترك نفسه ليموت فوق قبرها.

وفي مؤلفاته تحدث بريفو عن طبائع عصره فأجاد الحديث عنها، وأقام تحليلاً لعاطفة الحب التي تقود بطل الرواية إلى ضياعه وكأنه شخصية رومانسية، كما وبرع في التحليل النفسي لأبطاله الولهانين

مما جعل من روايته إحدى روائع الأدب الكلاسيكي.

كان همه الوحيد يتمثل بخلق المناخ الملائم لولادة الحب حيث يظهر مانون فتاة رائعة الجمال ساحرة وجذابة لكنها لعوب تتحلى بأخلاق ضعيفة تجعلها غير قادرة على مقاومة كل ما يجلب لها المتعة والسعادة من مال وجواهر، وكأنها خلقت فقط من أجل سحر الرجال وشدّهم إليها، وخاصة الرجال السذج والعاطفيين، ولهذا السبب أصبح دو غريو لعبة بين يديها. لقد كانت مانون قادرة على أن ترده إليها كلما حاول التخلص منها أو كلما حاول نسيانها. إنها بالفعل قادرة على أن تعطل عنده آلية التفكير وتقوده إلى الجريمة والخذلان وإلى السقوط والانحطاط الأخلاقي. ومع ذلك يبقى دو غريو صاحياً وحاضر الذهن على الرغم من إدراكه بأنه أصبح مسحوراً بعد أن فتنته مانون وجعلته يعيش حياة مليئة بالخسة والمهانة وهذا الحب له كل ما يبرره حتى الأخطاء التي ارتكبت بسببه فهي مبررة. إن دو غريو يقيم تعارضاً بين الفردوس السماوي الموعود في العالم الآخر وبين السعادة التي يمكن أن يذوق طعمها وهو على الأرض لكنه رضخ لهذه الأخيرة وأحب تذوقها بنهم شديد. إنه بذلك يهدم الحاجز النفسي الذي تقيمه الكنيسة أو العائلة أو الأخلاق والعادات الاجتماعية.

إنه كاتب سابق لعصره لأن ما جاء في رواياته يتطابق والنزعة الرومانسية التي جاءت بعده بعقود عدة في الأدب الفرنسي. لقد كان تأثير بريفو كبيراً لدرجة أن الفيلسوف الاجتماعي جان جاك روسو (١٧١٢-١٧٧٨م) تأثر به في روايته «هيلويز الجديدة» حيث نادى بطبيعة الإنسان والعودة إلى الطبيعة. كما أنه أوقد ذهن الفيلسوف الفرنسي ديدرو ليكتب مسرحيات عاطفية تدعو إلى البكاء وينشر مبادئ الفلسفة العقلانية في القرن الثامن عشر، وكانت هذه المبادئ إيذاناً بانطلاق الثورة الفرنسية في العام ١٧٨٩م. كما تأثر به الكاتب برنار دوسان بيير في العام (١٧٣٧-١٨١٤م) في روايته «بول وفرجيني»، التي تعد منبع الانفعالات الدينية ضمن المذهب الرومانسي. كذلك برز تأثيره قوياً لدى الروائي ألكسندر دوما (١٨٢٤-١٨٩٥م) في روايته: «غادة الكاميليا»، وهو الذي اشتهر بمسرحه الاجتماعي التوجيهي. فضلاً عن أنه لعب دوراً في ولادة الحركة الرومانسية الواقعية عندما قدّم غوستاف فلوبير (١٨٢١-١٨٨٠م) روايته بعنوان: «مدام بوفاري» في العام ١٨٥٧م. ومن المعلوم أن

فلوبير امتاز بالواقعية والصياغة الفنية في إطار رومانسي.

كما ويعتقد الناقد الأدبي (سانت بوف) أن بريفو كتب هذه الرواية لتكون مرآة حياته قبل أن تكون حدثاً قد وقع. ولربما روى الرواية بمثل هذا الإحساس لأنه هو نفسه كان لديه الحماسة والغيرة اللتان تجلتا في شخص بطل الرواية دو غريو. إنه على غرار بطل روايته انجذب نحو المغامرة وهو في سن مبكرة حيث كان قلبه يتأرجح بين السيف والكهنوت وعاش المصير نفسه الذي نلمسه من خلال الاطلاع على سيرة حياته الذاتية حيث ولد في العام ١٦٩٧م في بلدة «با دوكاليه» الواقعة في الشمال الفرنسي، لأبٍ كان يعمل في جباية الضرائب لدى الملك لويس الرابع عشر، وكان يحب أن يرى ابنه كاهناً. ومن أجل هذا السبب أدخله وهو في عمر الـ١٤ سنة إلى دير اليسوعيين في بلدة «كورتوي» القريبة من مسقط رأسه، إلا أن بريفو سرعان ما هرب من الدير ليختار الحياة العسكرية في العام ١٧١١م، ثم ترك الحياة العسكرية كضابط برتبة ملازم ليعود ثانية إلى حياة الإكليروس في دير البندكتيين (نسبةً إلى الراهب الإيطالي «بنوا دو نورسي» مؤسس رهبنة البندكتيين في القرن السادس للميلاد، التي تشدد على الالتزام بأداء الشعائر الدينية بشكل جماعي، وإتقان العمل اليدوي)، وهكذا تعمق في دراسة الفلسفة واللاهوت والعلوم الإنسانية، وهذا ما أهَّله لأن يصبح كاهناً غير قانوني في العام ١٧٢٦م وهو في عمر الـ٢٩ سنة. لقد ساعدته كل هذه المعارف التي اكتسبها في الأديرة إلى أن يكون واعظاً يتقن فن الخطابة والقدرة على الإقناع.

في العام ١٧٢٨م يغادر بريفو الدير من دون أن ينال موافقة رؤسائه باتجاه لندن حيث تعمق بدراسة الأدب الإنكليزي، وبدأ بترجمة روايات صموئيل ريتشاردسون (١٦٨٩-١٧٦١م) الضخمة إلى اللغة الفرنسية التي كانت بمثابة الأسس التي استندت إليها الرواية الإنكليزية الحديثة حيث تختلط الواقعية مع المشاعر الأخلاقية والعاطفية معاً، كما نرى ذلك في روايات: «باميلا»، و«كلاريسا». وقد كان لهذه الترجمة دور كبير في أن يتهافت الفرنسيون على قراءة أدب ريتشاردسون بفضل ترجمتها إلى الفرنسية من قبل القس بريفو.

كذلك قام بريفو بترجمة كتاب «تاريخ إنكلترا» للكاتب الإنكليزي دافيد هيوم (١٧١١-١٧٧٦م)، وهذا الأخير هو فيسلوف ومؤرخ أنشأ الفلسفة الظاهرية التي تنبثق من فلسفة لوك الذي عرف بتحرره وآرائه التقدمية معتبراً الاختبار وكأنه مصدر كل معرفة ثم نبذ الأفكار الفطرية، كما

نقــرأ ذلك مــن كتابه: «محاولــة في الفهم البشري».

في نهاية عام ١٧٢٩م يغادر بريفو لندن نحو أمستردام إلى بولندا، وهناك يحكى بأنه وقع في غرام امرأة تدعى هيلين ايخهاردت، ثم بدأ بنشــر مذكراته التي اندرجت ضمن ثمانيــة مجلدات تضمنت أفــكاره ومذهبه الأدبي الجديد في كتابة الرواية الفرنسية، وأيضــاً انطباعاته عن رحلاته التي قام بها عبر أوروبا.

بــدأ بريفو بنشر هــذه المجلدات تباعاً ومنها المجلد الأول بعنوان: «ذكريات رجل ذي منزلة رفيعة»، ومن ثم نشر المجلدين الثاني والثالث وأيضاً الرابع بعنوان: «تاريخ السيد كليفلاند، الابــن الطبيعي لكرومويل»، ويعد هذا المجلد من أوائــل القصص التاريخية حيث تناول فيه البرلماني البريطاني أوليفيه كرومويل (١٥٩٩-١٦٥٨) الذي تزعم حركة المعارضة البريطانية لسلطة الملك مطالباً بإقامة نظام شبه جمهوري في إنكلترا، والذي كان لــه دور هام في إخضــاع إيرلندا للتاج البريطاني. كما نشر مجلده السادس بعنوان: «التاريخ العــام للرحلات» وفيه يتحدث عن انطباعاته عن الرحلات التي قام بها داخل فرنسا وخارجها.

في العام ١٧٣٣م يعــود بريفو ثانيةً إلى لندن وهناك يقــوم بإصدار صحيفة بعنوان «الحسنات والسيئات» مكرّسة لمعرفة الأدب والثقافة الإنكليزية. في العام ١٧٣٤م يغادر لندن إلــى باريس وعندمــا استغرقت فترة غيابه زمناً طويلاً أصدرت رئاسة دير كورتي أمراً يقضــي بحرمان بريفو مــن أحضان الكنيسة اللهــم إن لم يأت إليها ويعلن توبته أمامها. وفي رسالة وجهها إلى رئاسة الدير طلب فيها الصفــح والغفران ثم غادر لندن باتجاه باريس ليحل قساً على دير البندكتيين في بلــدة «أيفرو» الواقعة على بعد ١٠٠ كم من باريس.

وبعــد قضاء عامين فــي الدير يتعرف عليــه أمير البلدة المدعو «كونتي» ويستعين به كمستشار روحي له ولأسرته. وقد ساعده وجــوده فــي باريس علــى أن ينهــي كتابة مجلداته الثمانية وإصدارها بشكل متلاحق وكان أبرزها وأهمها المجلد السابع بعنوان: «مانــون ليسكــو»، وأن ينشــر روايات عدة أهمها: «عميد كيلريــن» (١٧٣٥م) و«تاريخ امرأة يونانيــة معاصرة» (١٧٤٠م)، و«تاريخ الفارس غرانديسون» (١٧٥٥م).

وبعــد قضــاء كل هذه الفتــرة الطويلة في باريــس أحب بريفو أن يعــود إلى بلدة «كورتي» ويقوم بزيــارة الدير فيها. وخلال هذه الزيارة تلقى دعوة من صديق له يسكن في قرية مجــاورة لا تبعد سوى ١٤ كم عن الدير لكي يتناول وإياه طعام الغداء.

وضمن هذا السياق تروي حفيدته إلى الناقد «سانت بوف» قصة وفاته المفجعة على النحو التالي: في يوم ٢٢ تشرين ١٧٦٣م لبّى بريفو -أحد أقاربي الأباعد- دعوة صديقه بتناول طعام الغداء معه. يبدو أن وجبة الغداء كانت دسمة للغاية لم يظهر تأثيرها على صحة الكاتب إلا بعد أن ودع صديقه وسلك طريق العودة إلى الدير سيراً على الأقدام. ولدى مغادرته القرية أحس بمغص شديد في معدته وبقشعريرةٍ في ظهره، فبدأ يدثر نفسه بالمعطف الذي كان يرتديه، لكن الإحساس بالرعشة بدأ يقوى ويشتد، ما جعله يشعر بعدم القدرة على الحركة فسقط مغشياً عليه.

وكان من حسن حظه أن تزامن ذلك مع عودة بعض الفلاحين من القرية إلى منازلهم عائدين من حقولهم مساءً. وعندما لاحظوا أن الشخص الممدد على الأرض يرتدي لباس الكاهن عملوا على حمله على إحدى الدواب ومن ثم نقله إلى منزل كاهن الرعية في القرية. ما إن شاهده كاهن القرية حتى تعرف عليه على الفور فطالب بإرساله إلى الدير المجاور حيث يقيم هناك. استغرقت هذه العملية فترة زمنية لا بأس بها إلى أن هبط الليل. ولدى الوصول إلى الدير بعث رئيسه بمراسل إلى الطبيب «بوغون» المتقاعد لكي يحضر على وجه السرعة ويقوم بفحص بريفو. نهض الطبيب من فراشه حوالى منتصف الليل ثم ارتدى ملابسه وتناول حقيبته الخاصة واتجه باتجاه الدير. استقبله رئيس الدير بسرعة فائقة ثم طلب منه التوجه إلى الغرفة المجاورة حيث وجد الطبيب كاهناً في الستينات من العمر ممدداً على سرير خشبي ولا يقوم بأي حراك وكأنه فارق الحياة. اعتقد الطبيب بأن مريضه فارق الحياة ففتح حقيبته وأخذ مبضع الجراحة بقصد تشريح الجثة لمعرفة أسباب الوفاة. ثم طلب من الحضور تجريد بريفو من لباسه ليبدأ بشق البطن من وسطه إلا أن دهشته كانت قوية عندما أطلق بريفو صوتاً عميقاً يدل على أنه ما زال بعد على قيد الحياة. ومباشرةً حاول الطبيب رتق الشق فجاءت محاولته متأخرة جداً لأن المريض كان قد توفي عند ملامسة أحشائه الهواء الخارجي وخلال ثوان معدودة. لقد كان تصرف الطبيب غلطة فادحة ناجمة عن تسرعه في تشخيص حالة مريضه، ولو أنه قام بعمله بكل روية وتأنٍ لما كانت قد وقعت الفاجعة التي يمكن وصفها بالجريمة التي لا تغتفر.

لقد خسرت فرنسا برحيله أديباً مشهوراً ما زال قادراً على الإنتاج، فهو كان بصدد تأليف كتاب ذي طابع ديني يتعلق بدور

الديــن في المساهمـــة بالتربية الأخلاقية، ولاسيمـــا أنـــه كان يركز دوماً فـــي عظاته الدينية وفي أحاديثه على الجانب الأخلاقي الـــذي كان يشدد عليه حتى لا يصاب المرء بعاهـــة التعصب الديني. ربما كان ينوي من وراء ذلك كله، كما تقول حفيدته إلى الناقد «سانت بـــوف»، أن يؤلف كتاباً يكون مرجعاً أساسياً في مناهج التربية الدينية في فرنسا لكن الموت كان لـــه بالمرصاد نتيجة غلطة قاتلة ارتكبها الطبيب بحقه.

ما من شك أن غلطـــة الطبيب بحق أي مريض تعتبر فعلاً جرمياً لكن الجريمة تكون أقـــوى تأثيراً عندما يتعلـــق الأمر بكاتب أو مبدع مثلما هو حال الكاتب المذكور انطوان بريفو لأن أمثاله من المبدعين ورجال الفكر هم عادة بمنزلة الرجال العظماء أينما حلوا وعاشوا.

ولقـــد كان الجنرال شـــارل ديغول خير مـــن أشار إلى ذلك خلال ترؤسه حفل تأبين الكاتـــب الفرنســـي الراحل أندريـــه موروا (الذي عاشـــ بين أعـــوام ١٨٨٥-١٩٦٧م)، والذي اشتهـــر بقصة رائعة عن ذكرياته في الحرب الكونية بعنـــوان: «صمت الكولونيل براميل» ومـــن أهم آثاره أيضاً مجموعة من سيـــر الأدباء والرجال العظماء، مثل: شللي، بلـــزاك، فيكتور هوغو، بايـــرون، حين قال ديغول: «إن خســـارة ١٠٠ شخصية سياسية فـــي المجتمع الفرنسي يمكن لها أن تعوض لأن هؤلاء لـــن يشكلوا عبئاً ثقيلاً في إيجاد بديل عنهم، لكـــن الخسارة الحقيقية تكمن حيـــن يفقـــد المجتمـــع عالمـــاً أو أديباً أو مبدعـــاً، فعندها تشعر فرنسا بأن جزءاً من كيانهـــا قد فُقد». وبكلامه هذا يثبت ديغول موقف بلاده حيال هؤلاء الأدباء والمفكرين الذين خصصت لهم فرنسا مدفناً خاصاً في ضريح «البانتيون» الواقع في الحي اللاتيني فـــي باريس حيـــث يرقد رجالهـــا العظماء وحيث نقرأ على مدخله هـــذه العبارة: «إن فرنسا تدين بالعرفان لرجالها العظماء».

تلك كانت غلطـــة قاتلة قام بها الطبيب من غير قصد حيال بريفو. لكن الأسوأ في الأمـــر هو عندما يعمد الطبيب إلى ارتكاب غلطاته عن قصد وسابق تصميم كما حصل فـــي هذه الواقعـــة التي أثـــارت المزيد من الشكوك حول حيثياتها. ففي كتابه بعنوان: «لقاءات في حياتي» كتب الصحفي الفرنسي المخضـــرم جان لاكوتير الذي اشتغل طوال ٦٠ عامـــاً في العمل الصحفـــي، بدأها في عهـــد الجنرال شـــارل ديغول يقـــول: «لقد أتيحت لي الفرصة في أن ألتقي خلال عملي كصحفي بالعديـــد مـــن الشخصيات التي صنعت التاريخ من رؤساء دول وأدباء وملوك وشعراء وفلاسفة في بلدان الغرب والشرق معـــاً»، ثم تعرفت علـــى بعضهم بشكل جيد

مثـل: «جمال عبد الناصـر، وياسر عرفات والملـك محمد الخامس بطـل الاستقلال المغربـي عن فرنسا في العام ١٩٥٦م، هذا الأخير الذي وافته المنية في العام ١٩٦٠م بعـد حادثـة وقعت معه في العـام ١٩٥٦م حين قـدم زعيم الثورة الجزائرية أحمد بن بيلا إلى زيارته في المغرب. وعندما انتهت الزيارة أمر الملك المغربي أن توضع طائرته تحت تصرف (بن بـلا) ورفاقه لتهبط بهم في تونس. وخلال الرحلـة من الرباط إلى تونـس اعترضت طائرات حربيـة فرنسية طريـق الطائـرة المغربيـة وأجبرتها على الهبوط في فرنسا بهدف إلقاء القبض على قـادة الثـورة الجزائرية، الأمر الـذي أثار غضب الملـك محمد الخامسـ نظراً لأن (بن بلا) حل ضيفاً عليه ثم انطلق من بلاده على متن طائرته الخاصة. لقد اعتبر الملك المغربي أن هذه الضربة موجهة له من قبل فرنسـا الاستعماريـة لإذلاله ولأنـه أصبح معارضاً لإرادتها الاستعمارية في الجزائر. هذا ويشاء القدر أن يخضع الملك المغربي لعمليـة جراحية بسيطة لكنهـا تسببت في وفاته على الفور.

وأذكـر أن الجنرال شارك ديغول عندما سمـع بالنبـأ صمت وقال: ما هـي جنسية الطبيب الجراح الذي أجرى للملك العملية الجراحيـة وكان الرد بأنه طبيب سويسري. وهنا صمـت ديغول وقد بـدت على وجهه ملامـح القلق وكأنـه يريـد أن يوحي لمن حولـه بأن مـوت الملك ربمـا كان سياسياً تعمـده الطبيب الجراح عـن قصد وسابق تصميم، تنفيذاً لرغبـاتٍ أمليت عليه حتى يتم التخلص مـن شخصية عربيـة مؤيدة بشدة للثـورة الجزائرية. ولاسيما أن الملك ما زال في عمر لـم يتجاوز الـ٥٠ عاماً وإن حالته الصحية لم تكن تدعو إلى القلق».

ومهمـا يكن من حـال فكلنـا يعلم بأن الطبيب هو إنسان كسائر الناس قد يخطئ ويصيـب، ويكفيه فخراً أو شرفاً أنه يصارع المرض والموت من أجل إبقاء مريضه على قيد الحياة. لكن الأخطاء التي يرتكبها خلال ممارسة مهنته لا تقـارن بالأخطاء الأخرى التـي يرتكبها أصحـاب المهـن الأخرى، وهـذا يعود إلـى أن طبيعة مهنتـه الراقية التـي تتعامل مع الجسـم البشري الذي هو غاية الحيـاة وأسمى شيء لدى صاحبه في الوجود. من هنا اقتضت الضرورة أن يكون الطبيب واسع العلم والمعرفة ومتقناً لعمله وأن يدرك مسبقاً عواقب أفعاله بضمير حيّ وأخلاق عالية حتى يبقى دوره مهماً جداً في تخفيـف آلام المريض وأوجاعه ومنع وقوع حوادث مفجعة لا تحمد عقباها.

المصادر والمراجع:

١- موسوعة «لاروس الكبرى الفرنسية»، طبعة عام ٢٠٠٣م.

٢- كتاب بعنوان: «الدراسات الأدبية الفرنسية في القرن الثاني عشر»، تأليف بيير سورير، وجاك كاستيكس.

٣- مجلة «روز اليوسف»، تاريخ ٢٠٠١/٨/٩م.

٤- صحيفة «تشرين»، تاريخ ١٩٩٥/٥/٢٤م.

٥- ملخص لكتاب «حيرة الطبيب» للكاتب برنارد شو.

٦- «موسوعة ويكيبيديا الحرة».

٧- مسرحية «الدكتور كنوك» للكاتب الفرنسي جول رومان.

٨- مجلة «لوبوان» الفرنسية، تاريخ ٢٠١٤/١١/٢٥م.

٩- مقال بعنوان: «أنطوان بريفو مؤلف لمانون ليسكو شُرحت جثته وهو حي»، للكاتب الأميركي دوس باموس.

نظريات المؤامرة[١]:
هل أصيبت المجتمعات بالذهان الهذياني؟[٢]

كلودي برت Claudie Bert
ترجمة: د. ماري شهرستان ❀

في ٧ كانون الثاني عام ٢٠١٥م حصلت الجريمة ضد «شارلي إيبدو»، فقامت النظريات التآمرية المفروض أنها تعمل لكشف ملابسات هذه الجريمة إلا أنّها أخذت تندد بالمؤامرة الإجرامية، مدعية أنّها مؤامرة حركتها السلطات السرّية وأنّها دسيسة من «أعداء الإسلام»؛ وانتشرت هذه النظريات خلال بضع ساعات على مواقع الشابكة (الإنترنت). كيف نكشف ونكافح ضد هذه التفسيرات العجيبة الغريبة؟

في ٧ كانون الثاني (٢٠١٥م) تسلل رجلان، «شريف وسعيد كواشي» إلى المكاتب الباريسية للصحيفة الهجائية «شارلي إيبدو» Charlie Hebdo حيث قتلا أحد عشر شخصاً بدم بارد من بينهم «كابو» Cabu، و«شارب» Charb، و«فولينسكي» Wolinsky، و«أونوري» Honoré، و«تينيوس» Tignous. وهربا بعدها بسيارة سيتروين سوداء[٣]، ثم غادراها بسرعة كبيرة في شارع «دو مو» في منطقة الدائرة التاسعة عشرة من

❀ مترجمة وباحثة.

باريس. في بعض صور الفيديو التي تمَّ أخذها مباشرة بعد الاعتداء بدا فيها أنَّ السيارة التي استخدمها الأخوان «كواشي» كأنها مجهزة بمرايا ارتدادية بيضاء (بحيث يرى الناظر ما وراءه من خلالها). إلّا أنَّه وفي صور السيارة التي عثر عليها بعد بضع دقائق كانت المرايا سوداء اللون. إنها قصة سخيفة تعود لانعكاس الضوء. لكن على الرغم من ذلك أكَّد بعض محترفي الشابكة (الإنترنت) بأنَّ السيارة المستخدمة من قبل المهاجمين ليست هي نفسها التي وجدت في شارع «دو مو» de Meaux.(٤)

كما أن اكتشاف بطاقة هوية داخل تلك السيارة يدعم فكرة وجود سيارة ثانية حيث وجد في داخلها أدلة مزيفة قد وضعتها عناصر سرّية مجهولة الهوية.

نظريات أخرى للمؤامرة، جنونية بعض الشيء، على سبيل المثال المسار الذي اتخذه الأخوان كواشي في طرقات باريس هو إعادة إنتاج لحدود الدولة الإسرائيلية بقصد اتهام «الأخوين كواشي»، يكون ذلك بالنسبة لأصحاب نظرية التآمر برهاناً قاطعاً على مؤامرة يهودية. استمرت هذه النظريات بالانتشار في الأيام التالية للحدث. بعض السياسيين مثل «جان – ماري لوبن» أكملوا المسيرة.

ما هي نظرية المؤامرة؟

وهكذا تسير الأمور في العالم: لا يحصل حادث عنيف أو حتى دراماتيكي، إلا وتجد أصواتاً ترتفع هنا وهناك للتنديد بوجود مؤامرة بعيدة الاحتمال.

هذا النوع من الشائعات ينتمي إلى فصيلة «نظرية المؤامرة». التعبير يبدو تعبيراً بائساً برأي «بيير- آندري تاغييف»(٥) لأنَّه يجعلك تعتقد بأنَّ المؤامرات ليس لها وجود على الإطلاق وهذا أمر غير صحيح واقعياً. ربما يفضِّل الاختصاصي بعلم الاجتماع أن يقال «ذهنية تآمرية»، حيث طابعها هو الميل إلى نسب كل حادث دراماتيكي إلى مؤامرة مدبّرة بالسر من قبل شخص أو مجموعة قد تكون مهمة نوعاً ما.

هذا النموذج من التفكير يستند إلى أربعة مبادئ أساسية، اتفق عليها الباحثون:

– لا يحدث شيء بالمصادفة. إذا مات شخص مشهور بحادث، فهذا الحادث كان بالتأكيد مدبراً؛ وقد حصلت هزّة أرضية دمرت «هاييتي» في كانون الثاني من عام ٢٠١٠م، قيل بأن الأميركيين كانوا وراء حدوثها عن طريق إحدى منظماتهم السرّية المسماة «هارب HAARP».

– كل ما يحصل هو نتيجة إرادات مستترة. فوفق رسالة نشرت على الشابكة (لإنترنت) في ٢٢ نيسان ٢٠١٢م، «محمد

مرّاح كان عميلاً سرّياً وقد تمت التضحية به كي يعاد انتخاب رئيس الجمهورية نفسه».

- ليست الأمور جميعها كما يدل عليها ظاهرها. هل يعلن رؤوساء بعض الدول عن قراراتهم؟ هذا وهم: قد يبدو عليهم أنهم يحكمون، لكن القرارات تكون متخذة من قبل آخرين (أصحاب المصارف، الماسونيون...) الذين يتحكمون بخيوط هذه الدمى.

- كل شيء مرتبط ببعضه بعضاً لكن بطريقة خفية. في بداية سنة ١٩٥٠م، نجح السيناتور «جوزيف ماك كارثي» بنقل وسواسه المضاد للشيوعيين إلى عدد كبير من الأميركيين، هذا الاستحواذ الذي دفعه إلى أن يرى في كل مكان مؤامرة شيوعية ضد الشعب الأميركي. حتى فلورة المياه تمَّ تفسيرها على أنها جزء من هذه المؤامرة لإضعاف الشعب.

إلى هذه المبادئ الأربعة الأساسية، يمكننا إضافة مبدأ خامس ظهر حديثاً:

«كل شيء ينبغي أن يتم تفحصه بدقة أي أن يمرّ عبر غربال النقد». وهو أسلوب يمارسه أصحاب الذهنية التآمرية المعاصرون: في كتبهم وعلى مواقعهم في الشابكة (الإنترنت)، يجمعون الأدلة ويكثرون منها لإثبات المؤامرات التي يفضحونها. غير أنَّ أسلوبهم الذي يصفونه بالأسلوب العلمي له مثلب أساسي وهو: إنَّ المؤامرة المفضوحة تُعرض وكأنها حدث مؤكد وتجميع الأدلة لا يفيد إلا بتأييده. والوقائع التي لا تتناسب مع الأطروحة المعلنة يتم تجاهلها، والتي تتعارض معها وتنقضها يتم رفضها، والوقائع الأخرى يتم تفسيرها بالمعنى المطلوب والمراد.



التفسيرات الرئيسية

هناك مؤامرات حقيقية وهذا أمر مؤكد، لكن ما ينبغي تفسيره لنا هو التالي:

لماذا لا يتصوّر أصحاب النظرية التآمرية التاريخ إلا بهذا الشكل، رافضين أي دور للصدف وللخطأ البشري ولاحتمالات الوقائع وحصولها؟

يقول أحد التفاسير بأنَّ الرؤية التآمرية مفيدة لأنَّها تحفظ من القلق. ففي عالم خاضع باستمرار لدفق متزايد من المعلومات المعقدة، وخاضع للشك وعدم اليقين، يكون

العالم المؤيد للتآمر له الفضل بأنّه بسيط: فكل حادث من الحوادث أو الظاهرات المحزنة التي يبلّغون عنها مثل – الحرب، البطالة، الفقر، اغتيال شخصية ما، جريمة – يكون لها سبب وحيد: ألا وهو فعل إرادي لمجموعة معلن عنها بأنها تجسيد للشر. من هذا المنظور يقول «نورمان كون»:

«الشكل الأول لمناهضة السامية كان مناهضة السامية الشيطانية، وهذا يعني فكرة أنَّ اليهودية هي منظمة تآمرية، موظفة في خدمة الشر، (...) وتتآمر دون مهادنة لتدمير الجنس البشري».[٦]

رؤية للعالم بسيطة، وبالتالي يسهل شرحها وفهمها – وهذا ما يعطيها سحرها، ليس فقط بالنسبة إلى مخترعي هذه المؤامرات بل بالنسبة إلى جمهورهم أيضاً. وفق «حنة آرنت» Hannah Arendt الأغلبية الحديثة متلهفة للأيديولوجيا ولرؤية عالم يشرح كل شيء، أو كما يلاحظ الاختصاصي بعلم الاجتماع «جيرالد برونر» Gérald Bronner هذه الأغلبية تحب بأن تُروى لها الحقيقة كقصة لطيفة حيث الوقائع حتى المتنافرة منها تكون متحدة ضمن نص يؤدي إلى نتيجة منطقية ظاهرياً.

عندما يعطي «صاحب نظرية التآمر» لنفسه دور كاشف المؤامرات، فهو بذلك يعطي لنفسه رؤية مخادعة مجمّلة لنفسه: فهو لا يصدق كل ما يقال له، إنه يرى الحقيقة المخبأة خلف المظاهر، وعندما يصرِّح عما اكتشفه، يعتقد أنَّه يؤدي بذلك خدمة للمجتمع.

وقد تساءل بعض الباحثين في علم النفس الاجتماعي حول الشخصية النصيرة لنظريات المؤامرة: تُرى هل نجد سمات الطبائع نفسها عند الجميع؟ التقارب والتشابه بين حجج مرضى الذهان الهذياني (البرانويا) وبين أصحاب نظرية التآمر هو غالباً تقارب شديد: الطبع الاستحواذي نفسه، الاحتداد والسعي الحثيث نفسه لإيجاد الأدلّة، والتعامي نفسه عن عيوب ونواقص براهينهم.

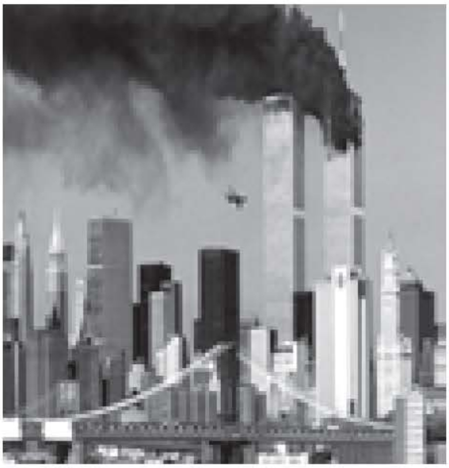
في عام ١٩٦٤م نقد «ريشار هوفشتاتر» Richard Hofstadter في كتاب له شهير جداً الأسلوب الذهاني الهذياني المَرَضي في الولايات المتحدة الأميركية. لقد لاحظ عند أصحاب نظرية المؤامرة أمثلة عن هذه الآلية في الإسقاط النفسي حيث كان «سيغموند فرويد» يصفها بـ«الذهان الهذياني» وقد قال عن«جمعية جون بيرتش» وهي عدو لدود للشيوعية، إنَّها اقتبست منها (أي من الشيوعية) نظام البنى وفق خلايا وأساليب الحرب الأيديولوجية.

أجرى اختصاصيان بعلم النفس بحثاً على ١٩٨ طالباً(٧) والباحثان هما «باسكال فاغنر إيغر» و«آدريان بانغيرتر» من سويسرا. اختبرا أولاً موافقة الطلاب على ثماني «نظريات مؤامرة» كبيرة وشهيرة أمثال: اغتيال كنيدي، حادثة ١١ أيلول، صناعة فيروس السيدا في المختبر... ثم قيّما مجموعة من السمات الشخصية وبحثا عن أية سمة منها لها علاقة قوية ومؤثرة في الموافقة على «نظريات المؤامرة».

هناك سمتان حاضرتان في جميع الأحوال: الريبة والفوضوية، وهذا يعني الشعور بعدم القدرة على التحكم بالعالم المحيط بهم ولا بالحياة الشخصية.

ثمَّ قارنا بين فريقين صغيرين: الأول مؤلف من أشخاص يعتقدون بالمؤامرات المدبرة من قبل أقليات (القاعدة، اليهود...)، أما الفريق الآخر فقد أطلقا عليه اسم «نظام» حيث تكون فيه المؤامرة منسوبة إلى أشخاص ذوي مناصب في السلطة (الـ CIA، والمخابرات...). لقد لاحظا أن الريبة والخوف من العالم موجدان عند الجميع، الفريق المصنف «أقليات» يتميز بأنه محافظ اجتماعياً والفريق المصنف «نظام» يتصف باللامعقولية أي موافقته على معتقدات سرية.

هل هناك اختلافات في الحافز والشخصية بين مؤيدي النظرية التآمرية وبين الناس الذين يصدقون بسهولة كل ما يعلن لهم دون ان يتخيلوا المؤامرات بأنفسهم؟ ربما بدرجات وليس بطبيعة الحالة. وفق دراسات حديثة عدة، الشخص الذي يصدق أنَّ هناك مؤامرة يصدق غالباً مؤامرات عدة ويكون جاهزاً للكشف عن مؤامرات بنفسه. حوافزه الأساسية للموافقة على هذه النظريات هي السحر الممارَس من رؤية بسيطة للعالم، منطقية تقسم العالم إلى خير وشر، وتحدد بوضوح مصدر الشر وبالتالي تسمح بالنضال ضده. ثم يأتي بعد ذلك الشعور المقيَّم بأنَّه خبير ومطّلع على سر وبأنَّه ليس غبياً خاضعاً لكل أنواع غسل الدماغ.



نيويورك في ١١ أيلول ٢٠٠١، في اللحظة قبل اصطدام الطائرة الثانية بأحد البرجين[٨].

لماذا نصدق بهذه السهولة

يبدو انَّ تقدّم التعليم والثقافة عاجز عن الكفاح ضد جاذبية نظريات المؤامرة الأكثر غرابة. يورد «ج. برونر G. Bronner» مؤلف كتاب «ديمقراطية السذج»[٩] دراسات عدة تظهر أنّ لا الإرهابيين مقتنعون ولا أعضاء المجموعات المذهبية أو المهتاجين بشكل جنوني فهم مجردون من التعليم العالي. الحساسية تجاه الفائق - الطبيعي وتجاه الطب التجانسي أي معالجة الداء بالداء، وتجاه النجامة (علم التنجيم) وتجاه الأساطير الحضرية هي أقوى عند الأشخاص ذوي الدراسات العليا مما هي عند الأقل منهم تعليماً. اعتداء ١١ أيلول ٢٠٠١م كان موضوعاً لاستقصاء الآراء. في الولايات المتحدة الأميركية، ٤٩٪ من سكان نيويورك وهم ليسوا المجموعة الأقل تعليماً في البلاد، يؤكدون بأنَّ الحكومة الأميركية كانت على علم بما سيحصل وقد امتنعت عن التدخل بإرادتها ووعيها.. هذه الآراء الضبابية يمكن تبريرها. التعليم يزيد من الفضول وانفتاح الذهن.

لنأخذ مثال علم الفلك: بعد أن مرّت قرون ونحن نعتقد بأنَّ الشمس تدور حول الأرض، اكتشف بعض علماء الفلك بأنَّ الأرض هي التي تدور حول الشمس. ثم برهنوا بأنَّ الشمس والأرض والكواكب الأخرى تشكل جزءاً من مجرّة وهذه المجرّة هي واحدة بين ملايين من أمثالها من المجرات التي لها البنية نفسها. فاحتمال وجود كائنات ذكية في الكون تمَّ أخذه على محمل الجد. يمكننا أن نفهم بأنَّ هناك أشخاصاً صدّقوا بفكرة وجود كائنات من خارج الكرة الأرضية نزلت على أرضنا سراً... وكلما اعتقدنا بأنَّ كل شيء محتمل وممكن، نكون جاهزين لتصديقه.

بالنسبة إلى التطور الرائع لتقنيات المعلوماتية، لقد اعتقدنا بأنَّها ستنظم المعارف، لكن ذلك لم يحدث لأنَّ وسائل الإعلام ليس لديها الوقت للتحقق من المعلومة وتجد لنفسها أسباباً وحججاً تجارية كي لا تقوم بذلك. والشابكة (الإنترنت) تمثل في الصف الأول بين المتهمين بسوء نقل المعلومات. المواد غزيرة لكنها سيئة التنظيم، والسيد «ج. برونر» Bronner يشرح ذلك بالأمثلة والبراهين. لقد فتح الشابكة (الإنترنت) ليستعلم عن حدثين مهمين وشهيرين: «موت الليدي ديانا» وزلزال «هاييتي» الذي حصل عام ٢٠١٠م.

في المرة الأولى سأل الشابكة دون أن يذكر كلمة «مؤامــرة»، وفي المــرة الثانية أدخل هذه الكلمة في بحثه، وكانت النتيجة الأولى أي دون ذكر كلمــة «مؤامرة»: موقعان فقط – مــن أصل ثلاثين موقعــاً اقترحهم جهاز بحثه – ذكــرا كلمة «مؤامــرة» محتملة في حالة «الليدي ديانــا»، لكنه لم يجد أي ذكر للكلمة في حالة «هاييتي». غير أنَّه عندما أدخــل كلمة «مؤامرة»، بــرز عشرون موقعاً من أصل ثلاثين قدمــوا نظرية تآمرية في حالة «الليدي ديانا»، وخمسة عشر من أصل ثلاثيــن في حالة «هاييتي». فــكل شيء إذاً رهن الأسلوب الذي نصيغ به السؤال...

برهن «ج. برونر» أيضاً – ومدعماً برهانه بالأرقــام – أنّه عندما يكــون هناك تنافس بيــن العلم ونظير العلم بصــدد ظاهرة ما، فالمواقع المخصصة للنظرية شبه الطبيعية هي الأكثر غزارة. وهذا يعود برأيه إلى الناس الذين ينتظرون الأخبار غير المتوقعة لأنهم أكثر اندفاعاً فيكثرون من الإصدارات غير التقليدية. لــو أنَّ عالِماً أو باحثاً في العلوم قام بجهد مرة واحدة فقط لنقض التنجيم وقراءة الأبراج أو «ذاكــرة الماء»[10]، نعتقد بأنَّه يكون قد عمل تماماً ما يلزم، ويستطيع أن يعود إلى دراساته بقناعة. فهو ليس لديه وقت ليهدره..

هل هي مضرة؟

الطروحــات التآمريــة يمكــن أن تكون غير مؤذية. قد نحضــر وليمة عشاء تكون فيهــا المحادثة فاترة مملــة. يقوم أحدهم بذكر فظاعــة ١١ أيلول، عندها يعبِّر جميع الحاضرين عن رأيهــم بالموافقة وهذا كل شيء. عندها يتخــذون هيئة العارفين سراً ويقولون: «ليست الأمــور كما تظهر أو كما يقال عنها، هناك براهين قوية تجعلنا نعتقد ونؤكّد بــأنَّ عناصر المخابــرات المركزية الأميركيــة والموســاد هــم الذيــن هدموا الأبــراج». بعضهــم يوافق ويــورد تفاصيل إضافيــة، لكن آخــرون يعترضون، وغيرهم كثر يذكرون مؤامــرات سابقة هي بالتأكيد صناعــة المخابرات المركزيــة الأميركية. والجميع يعــودون إلى منازلهم سعداء لأنَّهم أظهروا ذكاءهم والمخابــرات المركزية لم تتأثر بذلك سلباً.

لو كان الأمــر متوقفاً عنــد هذا الحد قد نتــرك الشائعات تســري. لكنها ليست غيــر مؤذية. أولاً يمكنها أن تكون قاتلة: في القرون الوسطــى لم يكونوا ليكتفوا بتوجيه تهمة التآمــر إلى المصابيــن بالبرَص، بل قتلوا جراء ذلك آلافاً منهم. وبشكل عام أن توصَم بالتآمر تلــك الأقلية أو غيرها يؤدي إلى فضحها والتنديد بها ومعاكسة جهودها للاندماج في المجتمع القومي.

الشائعات التي تندد بخطر هذا اللقاح أو ذاك بعد حصول مؤامرة بين المخابر والحكومة تكون نتيجتها عدم كفاية اللقاح لتغطية الحاجة إليه وبالتالي يتسبب ذلك بعودة بروز أمراض مثل الحصبة أو شلل الأطفال.

الشخص الذي يتبنى «نظرية المؤامرة» يقع بنفسه ضحية معتقداته، لأنهَّا تخرِّب قدرته وموهبته على المحاكمة: اجتماعياً، ريبته المعممة أصبحت سبباً في قلة أصدقائه. «ذهنية المؤامرة» مضرّة بالصحة: في الولايات المتحدة الأميركية برهنت الدراسات عن وجود علاقة بين نسبة الموت وبين مستوى العداء.

كيف نتصدى لها؟

بشكل عام، إنه من الصعوبة بمكان التصدي لشائعات المؤامرات. وقد كتب «تاغييف» Taguieff خلاصة مفادها: «كيف يمكن لأشخاص، قد حددت محاكمتهم العقلية سلفاً وفق مخططات ذهنية جامدة، أن يكتسبوا القدرة على تغيير رأيهم؟ الجواب تشاؤمي لأن ذلك يكون غالباً بعد فوات الأوان». خصوصاً عندما يعبر الشخص المعني عن الشائعة جهاراً على رؤوس الأشهاد وتكون أفكاره قد جعلت منه شخصاً مشهوراً كما هو الحال بالنسبة إلى العديد من الرافضين. غير أنَّه من الممكن مهاجمة شائعة ونقضها على أمل أن يتأثر الجمهور المستمع بهذا الرفض.

وفق رأي مجموعة من الباحثين الأستراليين والأميركيين، فإن أفضل الطرق هي التالية: (١١)

– تجنبوا تكرار الحجج التي تبغون محاربتها إذ تساعدون بذلك على تثبيتها في الذاكرة.

– لا تذكروا سوى الحجج التي تريدون إبرازها وتكرارها.

– استخدموا القليل من البراهين، واذكروها بقوة، لكن بلغة بسيطة.

– حاولوا ان تُفقِدوا الثقة والاعتبار للمصادر التي تبث أفكاراً مغلوطة.

– حاولوا أن تسبروا الرؤية إلى العالم التي تتموضع فيها معتقدات محاوريكم وأن تحددوها؛ فإذا هاجمتم مباشرة لن يكون لديكم فرصة للنجاح. فعلى سبيل المثال، إذا كانت جماعة البيئة مقتنعة بضرر «تقنية النانو»، فنلجأ نحن إلى الإصرار على استخدامها في حماية البيئة.

– ينبغي الحفاظ على تقييم الذات عند جمهور المستمعين. فإذا شعروا بأننا نعتبرهم أغبياء يصدقون كل شيء، عندها لن يعودوا يستمعون لشيء على الإطلاق.!!

ينبغـي أن نجعلهم يتحدثون عن قيمهم وأن نحاورهم بهذا الموضوع.

هنـاك إستراتيجية وقائيـة تحوز على القبول العام وهي تنمية روح النقد. لكن من المؤسف بأنَّ الـرأي العام قد أجمع وصرّح بأنَّـه ينبغي البدء بذلك منـذ الطفولة كي تنجـح العمليـة... لا يتوقف الأمـر واقعياً علـى التعلم والتمييز بيـن الصح والخطأ، بل ينبغي اكتساب مرونة ذهنية للتوصل إلى تغييـر الرأي دون أيـة مشكلة، وللاعتراف بالأخطاء الشخصية دون أن نصنع دراما.

إنه برنامج كبير جداً...

كلمـا كانت الكذبـة كبيرة فهي تسري بشكل أسهل

فـي عام ٢٠٠٢م، نشر أحـد الناشطين إعلامياً كتاباً زعم من خلاله بأن أية طائرة لـم تسقط علـى البنتاغون فـي ١١ أيلول ٢٠٠١م. البرهـان الرئيسـي: علـى صورة واجهـة البنتاغون نرى تماماً أنَّه يوجد ثقب لكنه صغيـر جداً بحيث لا يمكن لطائرة أن تغوصـ فيه كما لا يوجد هياكل عظمية ولا هياكل بنـاء على المـرج الأخضر. استنتج هذا «الناشط» الأمـر التالي: لم يكن هناك طائرة بل صاروخ بالستي تم قذفه بأمر من الحكومة الأميركية.

في العام نفسه ظهـر كتاب صغير كتبه صحفيان «جان غينيل وغيوم داسكيية»[١٢]، بعنوان «الكذبة المخيفة»[١٣]، وفيه يدحضان علـى نحو منهجـي مزاعم هـذا «الناشط الإعلامـي». وقـد أجابا كالتالـي: لم تقع الطائرة كما يقع الحجـر لكنها اصطدمت بالجدار بقوة صاعقة. ففي مثل هذه الحالة، تنغرز وتتابع مسارها لمسافة معينة. تتكسر الأجنحة وتلتصق بالحواف مع الهيكل. لهذا السبب كان الثقب صغيراً نسبياً.

لم يذكـر «الناشـط الإعلامـي» سوى شاهدين قالا إنهمـا شاهدا الطائرة... ثم طعـن بهذه الشهادة على الفور قائلاً: إنهما يعملان في خدمة الحكومة فهما يقولان ما يطلب منهما قوله.

أمّـا «غينيـل وداسكييـة» فقـد وجدا ١٨ شاهـداً من بين مئـات المارّة، وسائقي السيـارات، وسكان المباني المجاورة الذين رؤوا كل شـيء. فذكـرا واحـداً منهم على سبيـل المثال، وشهادته قطعية وأكيدة: لقد رأى هذه الطائرة، حتى إنه تعرَّف على شعار الشركة. وهو لا يعمل للحكومة والغريب في الموضـوع أنَّ لا أحداً حتى ولا شاهد واحد رأى الصاروخ المزعوم.

كل الأدلة التي جمعها «الناشط» هي من هذا النوع الغريـب. ومع ذلك أصبح لكتابه شهرة عالمية بينما كتاب «غينيل وداسكييه» ظلَّ طي الكتمان...

لمحة تاريخية عن نظرية المؤامرة

إذا كانت أسس الفكر التآمري لا تتغيّر مطلقاً، فإنَّ طبيعة المؤامرات والمتآمرين الموشى بهم قد تغيرت عبر القرون.

الاتهامات الأولى التي استهدفت مجموعة معينة تعود إلى القرون الوسطى: في عام ١٣٠٠م، تمَّ اتهام اليهود والبرص بأنَّهم قد سمّموا الآبار، ثمّ نشروا داء الطاعون كي يبيدوا المسيحيين. الموضوع هنا يوصف بـ«المؤامرات الصغيرة»، وفق تعبير «بيير – آندريه تاغييف» Pierre-André Taguieff، وهي مؤامرات يُزعم أنها قد دُبِّرت من قبل أقليات محلية. وبعد الثورة الفرنسية، شوهد ظهور «مؤامرات ضخمة»، حيث اشترك وتآمر فيها سلطات قوية أمثال: البناؤن الأحرار أو ما يسمون بـ«الماسونية»، والأثرياء المتنفذون بثروتهم، والشيوعيون، والنخب الحاكمة ضد الفقراء أو ضد المسلمين.

الدسائس الوهمية مرتبطة بالتاريخ السياسي والاقتصادي والاجتماعي. تنامي قوة الرأسمالية أدّى إلى رؤية تآمرية للمال الدولي. الحرب الباردة حرّكت وقوّت التشهير بالمكائد المدبرة سواء أكانت من قبل الشيوعيين أو ضدهم. أشار الاختصاصي بعلم الاجتماع «لوك بولتانسكي» Luc Boltanski عن العلاقة الرابطة بين ظهور روايات التجسس وبين تنوع وتغيّر الأدوار المنسوبة إلى الدولة. في هذه الروايات، تبدو الدولة وكأنها قد ضعفت بسبب المؤامرات المدبرة من قبل نوعين من الأعداء.منهم أعداء من الخارج لكنهم مستترون بشكل جيد جداً لدرجة يلزم معها تدخل بطل من الأبطال كي يكتشفهم، كما في «الـ٣٩ خطوة»(١٤)، وبعضهم الآخر هم في الداخل يحركهم أعضاء النخبة المثقفة كما في روايات «جون لو كارّي» John Le Carré. وفي القرن العشرين نشأت الأسطورة التآمرية التي استمرت أكثر من غيرها من الأساطير ألا وهي: «بروتوكولات حكماء صهيون». يصف هذا العمل «مؤامرة» دبرها حكماء يهود للسيطرة على العالم، غير أنّه في عام ١٩٢١م تم اكتشاف أن شرطة القيصر قد أمرت أحد المزورين بكتابتها.(١٥)

من الدولة إلى المخابر

بالنسبة إلى المؤرخين أضحى هذا الكتاب رمزاً للتزوير غير أنَّه استمر معروضاً على أنَّه نص لمؤامرة حقيقية وعلى الأخص في بعض الدول الإسلامية(١٦).

هذا الانتشار الحالي والمستمر لكتب وأفلام التجسس كانت نتيجته المساهمة في تدمير ثقة المواطنين بالحكومات.

لهــذا السبــب نشهد كيف تم اتهــام القادة الأميركيين بأنَّهــم قد نظموا ودبروا هجوم ١١ أيلول عام ٢٠٠١م، ثم كيف دبروا عملية «ماراتون بوسطن» في ١٥ نيسان ٢٠١٣م.

انتشار الخيــال الحديث غذّى الاعتقاد بنــوع آخر مــن المؤامرة: أنــاس من خارج الكــرة الأرضيــة اتخــذوا شــكل البشــر الآدمييــن وعاشــوا فيمــا بيننــا بالتواطؤ مع أنــاس متنفذين، بحيــث كل شيء يبدو طبيعياً لكن «الحقيقــة هي في مكان آخر» وفــق شعار المسلسل المتلفز « X-Files».

ووفق تخيّل أقدم تقول الأسطورة بأنَّ العالم تحكمه مذاهب قوية لدرجة أن باستطاعتها تدبير مؤامرات في الظل مثل «الإشراقيين» وأعضــاء «دير صهيــون»، الذي كشفه «دان براون Dan Brown»(١٧).

وأخيــراً، احتــرام وإجــلال كل ما هو طبيعي حــركا الريبة تجاه كل ما هو مصنّع كيميائياً، ووضعا في موقع المتهم نوعاً آخر من المتآمرين: المخابر الدوائية التي ربما صنّعــت السيدا بناء علــى طلب قوى خفية باحثة عن طريقة لإفناء العالم الثالث.

الهوامش:

١ - صدرت هذه المقالة في ٢٠١٥/١/٣٠م في مجلة العلوم الإنسانية -

Théories du complot : notre société est-elle devenue parano ?

٢ - ذهان هذياني مزمن من أعراضه الرئيسية الهذاء الثابت المنظم مع نزعة للشك والارتياب أو أيضاً يدعى بالذهــان التأويلي وهو جنون هذائي من أعراضــه الأساسية الهذاء الثابت الذي يصحبه اضطراب عقلي من نوع آخر.

3 - Citroën C3.

4 - de Meaux.

5 - Pierre-André Taguieff, Court traité de complotologie, Mille et une nuits,2013.

٦ - الترجمة: فكرة تبرئة اليهود الصالحين لا تبرِّئ تآمر الصهاينة الجدد...

7 - Pascal Wagner-Egger et Adrian Bangerter - «La vérité est ailleurs: corrélats de l'adhésion aux théories du complot», Revue internationale de psychologie sociale, t. XX, n° 4, 2007.

8 - New York le 11 septembre 2001, juste avant le crash du second avion sur l>une des tours jumuelles.

9 - ديمقراطية السذج La Démocratie des crédules)2013).

١٠ - ذاكرة الماء: عند نشوء الحياة على الأرض كانت المياه ضرورية لحياة الكائنات. لكن بالنسبة إلى بعض العلمــاء ظهر لهــذا العنصر الأساسي خصائص غير متوقعة. في عــام ١٩٨٠م أكد طبيب متخصص في

المناعـــة يدعى «جاك بنفينيســـت» Jacques Benveniste بأنَّه اكتشف قدرة المياه على الاحتفاظ في ذاكرتهـــا بخصائصـــ ذرات كانت على تماس بها حتى لو زالت هذه الـــذرات. نظرية مدهشة كانت موضع جـــدل كبير. لكـــن سرعان ما تم التشكيك بنظريته من قبل المجتمـــع العلمي. لكن «لوك مونتانييه» Luc Montagnier الحائـــز على جائزة نوبل في الطب أعاد تلك الأبحاث، ومنذ التجربة الأولى على بلاسما دمويـــة لمرضى مصابين بفيروس السيدا اكتشف أمواجاً كهرطيسية فصرّح قائلاً: «لقد كان ذلك مفاجأة حقيقيـــة لم أكن أتوقعها وسُحِرتُ بهذه الظاهرة». وهو قد فكّـــر مباشرة «بتطبيقاتها الطبية». قرَّر «لوك مونتانييـــه» كشف النقاب عن أبحاثه الحديثة واقترح تنفيذ تجربة هائلة امام الكاميرا وهي تجربة: تحوّل الـــ«DNA» قاصداً بذلك الإضاءة على الخصائص المدهشة للماء والمكتشفة من قبل «جاك بنفينيست» الذي يعتبره «غاليله القرن العشرين». لكن هذه التجربة لا تزال موضع جدل وأخذ ورد.

11 - تصحيـــح المعلومـــات المغلوطة - علوم نفسـيـة للمصلحـــة العامـــة Stephan Lewandowsky et al., « Misinformation and its correction. Continued influence and successful debiaising », 'Psychological Science in the Public Interest, vol. XIII, n° 3, 2012.

12 - Jean Guisnel et Guillaume Dasquié.

13 - L'Effroyable Mensonge,

14 - خطوة 39الـ John Buchan, Les 39 Marches, 1915م, rééd. Omnibus, 2011.

١٥ - الترجمة: لماذا لا تكون هذه الرواية أو هذا الاكتشاف مؤامرة ملفقة أيضاً لتبرئة الصهاينة؟

١٦ - الترجمة: لأن ما يحصل في هذه البلدان لا يختلف عما في الكتاب!!...

١٧ - دان بـــراون، ملائكـــة وشياطيـــن Dan Brown، Anges et Démons، Lattès، ٢٠٠٥م، et Da Vinci Code، Lattès، ٢٠٠٤م.

المصادر

- «أصول الشمولية» «حنه آرنت»، ١٩٥١م، إصدار «غاليمار» ٢٠٠٢م.

.Les Origines du totalitarisme.2002.

Hannah Arendt, 1951, rééd. Gallimard, 2002.

- «ألغاز ومؤامرات»، تحقيق بصدد الاستقصاءات، «لوك بولتانسكي» «غاليمار» ٢٠١٢م.

Énigmes et complots Une enquête à propos d'enquêtes- Luc Boltanski, Gallimard, 2012.

- «ديمقراطية السذج»، «جيرالد برونر»، بوف ٢٠١٣م.

La Démocratie des crédules- Gérald Bronner, Puf, 2013.

- قصـــة أسطورة «التآمر اليهودي وبروتوكولات حكماء صهيون»، «نورمـــان كون» ١٩٦٧م، إصدار «غاليمار» مجموعة «وليو» ١٩٩٢م.

Histoire d'un mythe La «conspiration» juive et les protocoles des sages de Sion-Norman

Cohn, 1967, rééd. Gallimard, coll. « Folio », 1992.

- «حماقات الاختصاصي بعلم الاجتماع» «ناتالي هاينيش، كلينكسيك، ٢٠٠٩م.

Le bêtisier du sociologue -Nathalie Heinich, Klincksieck, 2009م.

- «الأسلوب الذهاني الهذياني»، نظريات المؤامرة واليمين الراديكالي في أميركا، «ريشار هوفشتاتر»، ترجمه إلى الفرنسية «فرانسوا بوران» ٢٠١٢م.

Le style paranoïaque -Théories du complot et droite radicale en Amérique Richard Hofstadter, trad. fr. François Bourin, 2012.

- «المجتمع المنفتح وأعداؤه»، «كارل بوبر» ١٩٤٥م، ترجمه إلى الفرنسية «سوي» ١٩٧٩م.

La société ouverte et ses ennemis - Karl Popper, 1945, trad. fr. Seuil, 1979.

- «بحث مختصر في علم المؤامرة» «بيير أندريه تاغييف» «ألف ليلة وليلة» ٢٠١٣م.

Court traité de complotologiePierre-André Taguieff, Mille et une nuits, 2013.

الموت الجمعي بين الإبادة والانتحار

د. خير الدين عبد الرحمن ❀



لئن حضنا الله عز وجل تكراراً على التفكر في أمم قد خلت من قبلنا، وأمم لم تبق منها سوى الذكرى، وأمم لم تبق منها حتى ذكرى، فمن الحكمة في هذا التفكر والتدبر دعوة إلى الاتعاظ والانتفاع من تجارب تلك الأمم، وتحاشي أخطائها ومنزلقاتها لدى إدارة أمور حاضرنا وحسن التعامل معها، وفهم جوهر مسارات الماضي وروح أحداثه وتحولاته التي أنتجت وقائع الحاضر، دون الوقوع في شرك توهم أن ذلك الفهم يولد قوانين

❀ كاتب وباحث ومترجم ودبلوماسي سابق.

قطعيــة جامدة نستنسخ عبرها ما نشاء من الماضي مستقبلا.

إنَّ تذكيراً من قبيل «**وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشاً فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ**» (ق:٣٦)، ربما لا ينفصــل عن تحذير مــن قبيل قول الله عز وجــل: «**إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْماً**» (آل عمــران: ١٧٨) علــى الرغم مــن اختلاف الحالة والسياق، ويتكامل مع تأكيده: «**ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**» (الأنفــال: ٥٣). ولئن بــدا ماضي البشر أشبه بظلام دامس تتخلله بقع مضاءة وومضات خاطفة هي بؤر معارفنا والذاكرة المتداولــة، فإن من هــذه المعارف ما هو مختلق ومتخيــل، ومن هــذه الذكريات ما هو موضوع قــد صاغه أصحاب غرض بما يخــدم غرضهم، أو قد صاغه خيال ليعكس المشتهى مما لم يجد واقع به!

يشتد تنقيب بعضنا في دروس الماضي هذه الأيام، قلقا بحق على أمته من غد تلوح نــذره مشبعة برائحة المــوت والفناء. سأل أحدهم بمــا يداني القنوط، عمــا إذا كان المجتمع العربي في مرحلة توقف الوظيفة أم تحلل الشــكل: «هل مات أم أنه يتفسخ؟» إذ رأى أن: «المجتمــع العربــي اليوم قاحل في كومة مشرذمة مــن ذرات فوضوية، في مجتمعات تتســم بتورم الأفراد، والغرق في الديون الخارجية، والنمو الخرافي لأجهزة الأمــن، والأرقام الخرافيــة لشراء السلاح، وتشقــق المجتمع إلى طبقــات تتآكل فيها الطبقــة الوسطــى؛ بأســرع مــن التضخم النقدي، ولا تــؤدي الخدمات العامة دورها بعدما تحــول المجتمع منذ أيــام الحجاج إلى قبيلة من الصياديــن تصطاد الفرص، فلم تعد (الفرصــ) حقاً دستورياً للمواطن، وبدن يتفســخ تجتاحه طوابير من الجراثيم الصهيونيــة فلا يملك ضــراً ولا نفعاً، كما تتحلــل الجثة في القبــر!»[1] نحن لا نغفل مدى النخــر الــذي أصاب بنانــا الفكرية والمجتمعية وسلوكنا الجمعي والفردي، لكننا لا نفقد الثقة بأمتنــا ولا اليقين بنهوضها. مع ذلــك، لعل من أول ما يجــدر تحديده - قبــل أن نقرر موقفا مما يذهــب إليه هذا التشخيص لحالة جسد عربي يشغل (قارة) تمتد ما بين المحيــط الأطلسي والمحيط الهنــدي ليس بوسع مكابــر أن ينكر ترنحه منهــكا بأمراضه، بل لا يحتاج غاز أو طامع إلى جهد كبير للإجهــاز عليه - توافق على أن بقية روح لاتزال في ذلك الجسد، بحيث يستحق الأمر نقاشا بشأنه واهتماما بمآله، أي إنَّه لم يمت بعد، وتوافق آخر على طبيعة

الإصابة: أهــي بأمراض ذاتية، أم بضربات خارجيــة، أم بكليهمــا؟ أم أنــه شروع في انتحار ذاتي جمعي في ظل تلاشي الاكتراث بالمصير العام؟!

لقــد عرفــت مجتمعات عــدة حالات انتحــار جمعــي، وإن اختلفــت الأسبــاب والوسائــل والظــروف. ويجــدر بالمجتمع الذي شرع في الانتحــار، بوعي أو من غير وعــي، تذكر أن الله عز وجــل قد نهى عن قتل النفس وحرمه تحريما قطعيا، هو أشد حسما في الحالــة الجمعيــة: «**وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُـمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُـمْ رَحِيماً .وَمَن يَفْعَلْ ذَلِـكَ عُدْوَاناً وَظُلْمـاً فَسَوْفَ نُصْلِيـهِ نَاراً**..» (النساء: ٢٨. ٢٩). سمعنا أحدهم يردد قبل سنــوات طويلة أن التفكيــر بالانتحار جبن شديد، بينمــا يحتاج الإقــدام على تنفيذه إلى شجاعة فائقة نــادرة لا تتوافر لمعظم النــاس! فاعترضنا في حينــه لاعتقادنا أن الإقدام على تنفيذ الانتحار ينجم عن تهور يلغــى معه دور العقل، نتيجة يأس أو فقدان ثقــة مطلق بالذات. تبــدأ مقدمات الحالة الجمعيــة بيأس شديد يستشــري أو انتشار دعوة للخلاص عبر إقدام على الانتحار، كما تنتشر الحمى في الجسد، ابتداء من فرد أو مجموعة أفراد يطلقون الدعوة مع ذرائعها أو تهديد بأدوات الإرغام التي تسندها، وما إن تســري الاستجابة الإيجابية حتى ينزوي المعترضــون ويتلاشى دورهم، بل ويتظاهر أكثرهــم بخلاف مــا يرغبــون أو يعتقدون تحاشيــا لنبذهم عنــد ظهورهــم بمظهر الشواذ، حتــى لو كانــوا الأكثرية من حيث يدرون أو لا يدرون، ذلك أن التأثير الساحق للأقلية الفاعلة ـ أو للعوامل الطاغية ـ يجعل المجموع ينســاق لا إراديــا لتنفيذ الدعوة أو تقليد مــن بادر إلى فعــل والاقتداء به.

نستعرض بعض حــالات الانتحار الجمعي التــي ذكرهــا التاريــخ للتأكد مــن سلامة تشخيصــ حالة راهننا، فتلوح لنا المواجهة المأساوية بين أهالي صيدون (مدينة صيدا اللبنانية) والغزاة الفرس بقيادة الإمبراطور أرتحشيا الثالث الذين حاصروا المدينة في العام ٣٥١ قبل الميلاد، وهي مواجهة حدثنا المؤرخ الصقلــي ديودورس عنها، وخلاصة روايته أن أهل المدينة حاولوا التفاوض مع الإمبراطور الفارسي على استسلام مدينتهم سِلمــاً بلا قتال، بعدما أدركــوا أنهم لا قبل لهم بمقاومة التفــوق الكاسح للغزاة، لكنهم أخفقوا في إقناع الإمبراطور الغازي بقبول استسلام يحفظ لأهل المدينة بعض كرامة، وبعد التــداول في التصــرف المتاح الذي يليق بهــم، أقدموا على إحراق أكثر من مئة سفينة كبيرة كانت راسية في ميناء مدينتهم،

ثم أحرقوا منازلهم وممتلكاتهم عن آخرها فأتت النيران عليها وعليهم. لم يجد الغزاة عندما دخلوا أطلال المدينة سوى رماد العمارات والممتلكات والأجساد على أرضها، وبقايا أخشاب السفن المحترقة على سطح البحر عند شاطئها. لا بد أن بعض الغزاة قد تساءل عن السر في عدم استخدام سكان المدينة السفن للفرار بأطفالهم وأنفسهم وما غلا ثمنه من ممتلكاتهم، وهي سفن كانت تكفي لإنقاذهم جميعا، لكنهم فضلوا إحراقها بأيديهم والتضحية بفرصة خلاص ونجاة لهم جميعا. هل هو حرص على كرامة ترفض ذل الهرب والتشرد؟ أم هو قصور في الرأي ونقص في الحكمة؟ ألم يكن أكثر حكمة وصوابا وتعقلا إحراق المدينة دون السفن، والانتقال عليها إلى مكان آخر إنقاذا للذات ومبادرة إلى بناء قوة كفيلة باستعادة المدينة لاحقا من الغزاة، سواء عبر جهد ذاتي صرف، أو بتحالف مع آخرين، أو باقتناص فرصة مواتية قد تحملها تطورات ومستجدات قادمة؟ ليس لنا أن نخمن اليوم بعد ألفين وثلاثمئة وخمس وخمسين سنة. لكننا نأخذ مثلاً حالة ملايين ممن اقتلعهم الغزاة الصهاينة من فلسطين في العام ١٩٤٨ وشردهم في المنافي ضحايا تواطؤ متعدد الجهات، لم تفلح قسوة التشرد والمجازر الجمعية والقمع والقهر في قتل أملهم بالعودة إلى وطنهم. فبعض هؤلاء يصر اليوم على أن البقاء على أرض الوطن في العام ١٩٤٨، ولو تسبب بموت مؤكد على أيدي الغزاة، كان أفضل وأرحم من ذل المنفى ومرارة ظلم أولي القربى وعدم اكتراث العالم، بينما استدل آخرون بحيوية هذا الشعب وتواصل مشرديه مع من صمدوا على أرض وطنهم مقاومين الاغتصاب، وبتصميم هذا الشعب على بناء ذاته واستعادة حقوقه وانتزاع التقدم الفردي والجمعي بالعلم والجهد والتضحية وشجاعة المقاومة الأسطورية، إثباتا لصواب قرار المحافظة على الذات في لحظة اختلال موازين القوى، ومحاولة صنع ظروف أفضل وشروط أكثر ملاءمة لخوض الصراع.

هل لنا أن نقارن إحراق أهل صيدا سفنهم قبل انتحارهم الجمعي عن بكرة أبيهم بإقدام طارق بن زياد على إحراق سفن جيشه بعدما عبر المضيق البحري من البر الأفريقي إلى البر الأوروبي، ورسا عند الجبل الذي حمل اسمه إلى اليوم كما حمله ذلك المضيق، وخاطب جنده قائلا: «أين المفر؟ العدو من أمامكم، والبحر من ورائكم، وليس لكم والله إلا الصبر

والنصر أو الموت»! لا يمكن اعتبار ما أقدم طارق بن زياد عليه انتحاراً أو شروعاً في الانتحار، وإنما هو استحثاث لكل طاقات الصمود والشجاعة لدى مقاتليه من أجل ضمان النصر الذي من أجله جاء أصلا هو وجيشه، وهذا ما تحقق بفتح الأندلس.

هل يمكننا ـ في المقابل ـ مقارنة ما حدثنا عنه المؤرخ الصقلي ديودورس بشأن انتحار مدينة صيدا الجمعي بانتحار جمعي لحامية يهودية في قلعة تل بلدة مسعدة الفلسطينية، على نحو ما روى بعض المؤرخين اليهود الذين برعوا في تزوير التاريخ وتزييف وقائعه وتطويع دروسه وجعل رواياتهم وأساطيرهم وخرافاتهم مرجعية مقدسة لكل تاريخ العالم؟ تقول الرواية اليهودية المتداولة أن أفراد الحامية- بقايا يهود ذلك الزمان في تلك الأرض التي مروا بها لبرهة في تاريخ المنطقة- قد قرروا سنة ٧٢م الانتحار يأساً من المواجهة قتالاً أو النجاة فراراً، وبديلاً للوقوع أسرى في أيدي الرومان.

لقد شكك حتى كثير من المؤرخين والباحثين اليهود بهذه الرواية أصلا، مثلما شكك أكثر المؤرخين الثقاة المحترمين في العالم بمعظم الروايات والادعاءات اليهودية الأخرى التي شكل التحريف والغش والاختلاق والتزوير والكذب والافتراء أكثر نسيجها، على نحو ما أصاب توراة موسى، وما بني عليه تلمود الأحبار المفسدين. قام في اليهود من لم يحتمل كل ذلك الفساد والإفساد والتزوير والحقد على البشرية، كما هو شأن الفيلسوف اليهودي البرتغالي باروه سبينوزا الذي لم ينقذه الهرب إلى هولندا من طعنات خناجر الحاخامات الذين اغتالوه بعدما قال أن الحاخامات قاموا بتهريب الأكاذيب إلى داخل النصوص، ربما ليمنعونا من أن نكون بشراً «كثرت محاولات كشف باطل الروايات اليهودية عبر الأبحاث والدراسات الجادة، على الرغم من تفاقم عنف الانتقام اليهودي من الذين يتجاسرون على الاقتراب من تفحص تلك الروايات. نشير مثلا إلى كتاب البروفيسور البريطاني كيث وايتلام «تلفيق إسرائيل التوراتية» الصادر سنة ١٩٩٦[٢]، وكتاب «الأصولية اليهودية» للكاتب اليهودي الفرنسي إيمانويل هيمان[٣]، وأعمال المؤرخ الإسرائيلي زئيف هرتسوغ، وعالم الآثار الإسرائيلي يسرائيل فنكلشتاين والكاتب الإسرائيلي جدع جلادي والبروفيسور الإسرائيلي إسرائيل شاحاك والكاتب اليهودي الأميركي الشهير نعوم تشومسكي، ومئات غيرهم فضحوا التحريف والأكاذيب والأباطيل والخرافات في توراة

محرفـة وتلمود مخرب وتاريخ متداول ملؤه الخرافات والكذب والتزوير.[٤] لعلَّ من أوضح ما يثير الريبة والشك في كذب أمثال رواية انتحار مسعدة (مسادا وفقا للفظ العبري التداول) ما أكده أكثر المؤرخين بشأن الرواية/ الخرافة اليهودية عن خراب الرمز اليهودي المركزي (هيكل سليمان) في العام ٧٠م على يد القائد الروماني تيتوس. فقد جزم مؤرخون كثر على نحو قاطع أن الملك اليهودي أجريبا قد شارك الغازي الروماني تيتوس في تدمير ذلك الهيكل، وأن ثالث ثالوث هذا التدمير برنيكي، شقيقة الملك اليهودي أجريبا وعشيقة القائد الروماني تيتوس الذي يحمله اليهود، جيلاً بعد جيل، مسؤولية كوارثهم[٥].

أرجع المؤرخ اليهودي الشهير يوسيفوس السبب في المصائب التي نزلت باليهود عام ٧٠ الميلادي إلى تعاليم «يهوذا الجليلي». فلقد ألحقت يهوذا بالإمبراطورية الرومانية عام ٦ الميلادي. إذ أمر الإمبراطور أغسطس في ذلك العام بإجراء إحصاء لسكان يهوذا لفرض الضرائب عليهم. عندئذ أخذ «يهوذا الجليلي» يحرض اليهود على الامتناع عن دفع الضرائب، ورفض الاعتراف بالإمبراطور الروماني سيداً عليهم. تشدد الحكام الرومان في جمع الضرائب من اليهود الذين كانوا يكرهون دفعها.. فظهرت من بين اليهود جماعة إرهابية أطلق عليها اسم سيكارديم نسبة إلى سيكا، وهو الخنجر الذي كان يخفيه الإرهابيون في طيات ملابسهم. وانفجر العنف والإرهاب ليعم أنحاء واسعة. وراحت عصابات «سيكارديم» تقطع الطرق وتلحق الأذى بالرومان واليهود على حد سواء، لأن أفراد تلك العصابات ارتابوا في تعاون أغنياء اليهود مع الرومان، وأخذوا يفرضون إرادتهم على أعضاء المجلس اليهودي الأعلى (السنحدريم)، فيحضرون الاجتماعات ويغرسون خناجرهم في أجساد معارضيهم فتغص ساحة الاجتماع بالجثث. وعندما أدرك (يوسيفوس) العواقب المأساوية للمجابهة مع الرومان، آثر السلامة وانضم إلى الرومان. فرت فلول السيكارديم إلى القدس من وجه الرومان. وعندما دخل إرهابيو السيكارديم القدس، استعرت الحرب بين اليهود أنفسهم، وأخذ اليهود يجهزون على بعضهم بعضاً، بينما كانت ألسنة اللهب تتصاعد داخل القدس التي تحولت شوارعها إلى مقبرة تكدست فيها الجثث، فمن لم يمت بالخنجر مات جوعاً بعدما تعمدت تلك العصابات إحراق مخازن القمح والحبوب الأخرى. عندئذ بعث القائد الروماني تيتوس قواته إلى القدس لفرض

الأمـن، فدخلتها بسهولـة، بينما فرت فلول السيكارديـم من القدس واتجهت إلى قلعة (ماسادا) بقيادة أليعـازر أحد أحفاد يهوذا الجليلـي، واستولوا على القلعـة، وصمدوا فيها ثلاث سنـوات. وعندما سقطت القلعة في يد الرومـان، انتحر اليهود المحاصرون فيها بقتل بعضهم بعضاً وقتل أنفسهم، خوفاً من الموت صلبا على يد الرومان.

اهتمـت دراسـات عديـدة بمصيـر حضارات قد انقرضت بعـد ازدهار، وأمم قد اندثرت بعد قـوة. يلفت النظر من بين تلك الدراسـات ثنائية جاريد دياموند التي بحث كتابه الأول منهـا الحائز على جائزة بوليتزر «المدافـع والجراثيم والفولاذ» في الأسبـاب الجغرافية والبيئية التي أدت إلى ازدهار مجتمعـات سكانية، بينما بحث كتابه الثاني «الانهيـار: كيف تختـار المجتمعات السقوط أو النجاح»[٦]. ففـي الكتاب الثاني استعراضـ لأسبـاب اندثـار مجتمعات مثل البولينيـز فـي جزيـرة إيستـر والمايا في جنوب غرب القـارة الأميركية والفايكنغ في غرينلاند. استعمل الكاتـب دراسات مقارنة تستند إلى علمـي الآثار ودراسة المجتمعات البشرية(الإنثروبولوجيا)، إضافة إلى الكيمياء الحيويـة وعلم وظائف الأحيـاء، وتخصصه الرئيـس البيولوجيـا التطوريـة لإثبات أن اندثار المجتمعات مرتبـط بنوعية وطريقة تفاعلهـا مـع البيئـة، مركزاً علـى العوامل الجغرافية والمناخية والتاريخية، لكنه عرض حالات مضادة لمجتمعات تعرضت للظروف والتحديات نفسهـا، فتغلبت عليها وصمدت، بـل اشتدت قـوة وازدهرت. تحـدث جاريد دياموند عن نذر شؤم بدأت تلوح حاليا مشيرة إلى اندثار مرتقب لبعض المجتمعات، ومنها مجتمعات تبدو راسخة ومتقدمة.

إنَّ لسلـوك المجتمع أهمية حاسمة في تحديـد مصيره غالبا. فقـد عرف التاريخ العربـي مثلا حـالات موغلة فـي الغرابة لخنوع واستسلام للإبادة الجماعية على نحو يلامس انتحاراً جمعياً. لم يكن مجرد سلوك فردي شاذ أن يخرج آخر«خليفة» من قصره نصف عار، حاسر الرأس، للقاء هولاكو لدى اجتياحه بغداد سنة ١٢٥٨، بعد عشر سنوات من قرع أجراس إنذار ببدء سقوط الأندلس مع سقـوط إشبيلية، سقوطـاً كان لابد أن يستجيـب له المشـرق نهوضـا أو سقوطا مماثلا، **أجراس قد أسمعت لو نادت أحياء..** خـرج ذلك الخليفة من قصره لا دفاعا عن أمتـه ودولته أو سلطانـه الشخصي، وإنما ليناشد هولاكو متوسلا بمذلة أن يحافظ له علـى سبعمئة جارية لم تـر أي منهن ضوء الشمس! ليست هذه الواقعة مؤشراً على بؤس

حكم عفن فاسد وحكام بغاة تافهين بقدر ما تشير إلى انحطاط حال الأمة بأسرها إذ سكتت على مثل هؤلاء الحكام وتشاغلت باهتمامات فردية رخيصة عن التفكير بالمصير العام والسعي إلى حماية الذات الجمعية، وتخاذلت في الدفاع عن النفس. يتضمن الإنقاذ العام في ذاته إنقاذا للفرد والمجموع في آن واحد، لكن الإغراق في الأنانية والفردية والتشبث بالدنيا والخضوع لشهوات النفس الأمارة بالسوء يعمي الأبصار والبصائر، فلا يدرك المبتلون بهذا خلاصا إفراديا ولا جمعيا آخر الأمر، لا في الدنيا ولا في الآخرة. وهكذا تكون عاقبة التخاذل والتهاون والسكوت انهيار دولة ومجتمع وحضارة، وإبادة ملايين الناس، بحيث يعيش من ينجو من الذبح خارج الزمن والانتماء والفعل والجدوى، جيلا بعد جيل! لسنا نركز هنا على دور الحاكم أو القائد بأكثر مما يحتمل، لكننا نتفق مثلا بالتأكيد مع ما ذهب إليه الدوق ولنجتون، عدو نابليون بونابرت اللدود، عندما قال عن نابليون: يجب الاعتراف له بأن مجرد حضوره في ميدان المعركة كان يعادل زيادة في عدد جنود جيشه بما يعادل أربعين ألف جندي ترى كم يعادل وجود «خليفة» بمثل تفاهة مستجدي حارق بغداد وذابح معظم أهلها أن يدع له جواريه السبعمئة، في صفوف جيشه، لو افترضنا له نظريا جيشا غير جلادي الأمة ومغتصبي الإتاوات وناهبي الرعايا بالقمع من عصابة سميت جنداً؟

اجتاح الغزاة الفرنجة الصليبيون معرة النعمان بلدة الشاعر الفيلسوف أبي العلاء المعري الواقعة في منتصف الطريق بين مدينتي حلب وحمص فجر يوم ١٠٩٨/١٢/١٢، بعد ساعات قليلة من رفع سكانها الرايات البيض على سورها ومداخلها وأسطح منازلهم، في أعقاب مفاوضات منح قائد الغزاة فيها الأمان لسكان المدينة إن استسلموا. وصف المؤرخ الفرنسي واؤل دي كين كيف نكث الغزاة بتعهدهم وأبادوا سكان المدينة عن آخرهم، فقال: «كان جماعتنا يغلون وثنيين (أي مسلمين) بالغين في القدور الضخمة، ويشكون الأولاد في سفافيد ويلتهمونهم مشويين»[٧]. أكد مؤرخ فرنسي آخر كان مشاركا في ذلك الاجتياح ضمن قوات الغزو الصليبي هو ألبير دكس أن تلك القوات دمرت البلدة وأحرقت كل بيوتها بلا استثناء، وهدمت ما تبقى من أطلال جدران محترقة، وأبادت سكان البلدة عن آخرهم. قال دكس: «لم تكن جماعتنا لتأنف من أكل القتلى العرب والأتراك فحسب، بل كانت تأكل الكلاب أيضاً»[٨]. لم يكن حال مدن

فلسطين التي اجتاحها الغـزاة الصليبيون بعـد معرة النعمان أقـل بؤسا، فقد تكررت الإبادة في مـدن الساحل الفلسطيني، عكا وحيفا ويافا، وبلغت ذروتها في القدس التي تباهى المؤرخون الأوروبيون الذين عاصروا تلـك الغزوة بقتل أكثر مـن سبعين ألفا من سكانها(٩)، وبأن الدماء ظلت تجري أياما في شوارعها وأزقتها، فتخوض خيول الغزاة في دماء تغمرها إلى الركب! ترى أما كان أجدر بأهل معرة النعمان- وقد علموا بما عرفته أنطاكيـة من قبل- أن يقاومـوا الغزاة بدلا مـن الاستسلام لهم، مـا دام مصيرهم في الحالتين هو أن يلتهم الغزاة لحومهم مسلوقة أو مشوية؟ وأما كان أجدى لسائر أهل الشام أن يقاوموا أيضا بعدما تناهت إليهم أخبار ما حل بأهل معـرة النعمان من إبادة؟ ولئن اعتبر الجبناء باسـم «الحكمة والتعقل» أن المقاومـة اليائسة ضرب من الانتحار- وما أدراهـم أن تلك المقاومـة لا تكرر القانون الإلهي: وكم مـن فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ـ فلماذا لا يعتبر الاستسلام الذي ينتهـي بأصحابـه إلى المذبـح متسربلين بالمهانـة والذل انتحاراً أيضاً؟ وهل من ذل أشد من الذي يتجدد باستذكار تلك الواقعة المشهورة لبعض أجدادنـا إذ دخلت حفنة مـن الغزاة حيا فجمعـت كل ذكوره (؟) إلى جدار، وراح الجلاد يقطـع أعناقهم واحداً بعـد الآخـر، دون أن يخطر فـي بالهم أن عددهم كان أضعاف عديد الغزاة، وبالتالي لو دافعـوا عن أنفسهـم بأيديهـم العزلاء وأسنانهم التي أدمنت المضغ، بمثل مقاومة الدجاجة عند الشروع في ذبحها، لانتصروا علـى شرذمة الغزاة تلك. كلـت يد الجلاد لكثرة ما أطاحـت برؤوس، ووهنت أصابعه وهي تنقل السيف من عنق إلى عنق، فسقط السيـف أرضا، وإذ بمـن كان قد حل دوره للذبح ينحني ويلتقـط السيف: أخال أرواح عرب ومسلمين اعتزوا بأمتهم وأعزوها في عصر سبق كانـت تراقب المشهد، فتوقعت أن يضرب الرجل عنق الجلاد الغازي بعدما صار السيف في يده، فتدب النخوة في نفوس من كانوا ينتظرون دورهـم للذبح ويتحدوا في مقاومة الغزاة دفاعا عن النفس والوطن والمصيـر، لكـن أمـل الأرواح التي راقبت المشهـد قد خاب، وأدركـت أن الناس غير الناس الذين عرفـت، وأن الأمة غير الأمة التي اعتزت بالانتماء إليها. لقد بلغ الخنوع والذل بالرجـل مبلغا أعجزه عن إدراك أنه مـا دام أسَوَأ احتمال هـو الموت الذي كان آتيه في كل الأحـوال، فإن الثأر من الجلاد للضحايا الذين سبقوه يفتح ثغرة أمل أمامه وأمام من بقي مـن منتظري الذبح! وهكذا

مد الرجل يده مناولا السيف للجلاد الذي استعاد سيفه وضرب عنق ذلك الرجل، حتى دون أن يشكره على مناولته السيف، ثم تابع عمله فأجهز على الباقين!

ترى هل كان الخنوع يبلغ مثل ذلك الحد المشين لو لم تغتصب حرية الناس طويلا وتنتهك كرامتهم وتغتصب حقوقهم، ولو لم يتم حرمان الناس من أن يكونوا هم مصدر الشرعية الفعلية للسلطان ولقوة أخلاقية وقانونية تقود المجتمع، بعد حرمانهم من التفكر والتدبر، والمشاركة في إدارة أمور دينهم وحياتهم وبلادهم وحقوقهم، والدفاع عن الدين والنفس والأرض والتصدي للفساد والمفسدين، على نحو ما تأمرهم شريعتهم، وبالتالي حرمانهم من أن يكونوا بشراً أسوياء، وتحويلهم إلى كائنات محرومة من كرامتها وإنسانيتها، خانعة مستسلمة مطواعة أمام كل جلاد أو غاصب أو معتد، وكل قمع أو بطش أو انتهاك..

نعود إلى راهننا، فنتمعن مجدداً بكلمات «للمستعرب» يفغييني بريماكوف، رئيس المخابرات ثم وزير الخارجية ثم رئيس الحكومة الروسية سابقا ورئيس غرفة التجارة الروسية حاليا، إذ قال مخاطبا العرب قبل أربعة عشر عاما: لقد فقد العالم توازنه، أما أنتم فقد فقدتم كل شيء.. شيء ما يشبه الجاهلية يحدث عندكم.. العرب يقومون بتنفيذ السيناريو بدقة!.. فالأميركيون يمسكون حتى بطريقة تعاملكم مع الهواء.. نجحت الولايات المتحدة في تفكيك كل الضوابط في المنطقة.. إن وضعا يؤمن لإسرائيل البقاء لا يتحقق إلا بتفكيك الدول العربية التي لا تنقصها عناصر الانفجار العرقي أو المذهبي أو أشكال انفجار أخرى مستحدثة.. الجهود يجب أن تتركز على تفتيت القوة الديموغرافية العربية وتحييد المناطق النفطية.. انتقل الإسرائيليون من مرحلة التخطيط إلى مرحلة التنفيذ للسيطرة على البنى الاقتصادية في المنطقة. إن عدة عواصم عربية قد أخذت كلياً بالنظرية الأميركية القائلة بأن إسرائيل وحدها كقوة -إقليمية- هي التي تستطيع أن تحمي (حكومات) تلك العواصم من الاحتمالات الخارجية والداخلية على السواء» [١٠]! على الرغم من اتفاقنا مع تحليله العام، فإننا لم نقر بريماكوف آنذاك على ادعائه أن العرب قد فقدوا كل شيء، فقد قلنا آنذاك: لا يزال لدينا المستقبل، وإرادة مقاومة صلبة لدى نويات قادرة على التصدي للغزاة وأدواتهم.

لئن انقرضت مئات المجتمعات البشرية تماما على امتداد التاريخ، فمن أبرز أسباب

انقراضها غيابها أو تغييبها عن تقرير مصيرها والإمساك بشؤونها وإطلاق إرادة الخلاص لديها بما يجتث الفساد ويقاوم الانحراف ويعالج الخلل على الدوام، ويجدد اختيار الأفضل من البدائل المتاحة على كل صعيد، في ظل تمسك بقيم ومعايير أخلاقية وسلوكية شرعية لا تسمح بخرق أو انتهاك أو استثناء صاحب سلطان أو حظوة من المحاسبة. أول ضمانات استمرار المجتمع ونجاحه وتقدمه أن تكون قوة الشرعية والحق والأخلاق فوق قوة البطش والسلطان. جميل أن يعظ رئيس مثقف هو الرئيس الإيراني خاتمي في كتابه «الفكر والدين في شرك الاستبداد» مثلا من خلال إشارة إلى واقعة تاريخية موجزها أن آلاف الأشقياء وقطاع الطرق التفوا حول أبو ليث الصفار فروعوا العباد وأقلقوا البلاد ونشروا الرعب في كل جبل وواد.. ومع اشتداد سطوتهم قرر أبو ليث أن يحتل بغداد! حذره واحد ممن بقي لديهم حيز صغير للعقل والحكمة من أنه سوف يصطدم بحاجز «بيعة الخليفة» في بغداد. عندئذ التفت أبو ليث إلى أحد أعوانه قائلا: أحضر لنا «عهد السلطان» لنقرأه على الناس. أحضر الرجل لفة قماش ناولها لأبي ليث، فاستل منها سيفا وصاح في الناس: أيها القوم، هذا السيف هو ما أجلس الخليفة في بغداد، وهكذا فإن عهدي وعهد الخليفة واحد، فبايعوني على السمع والطاعة!

جدد أبو ليث بهذا جوهر وقفة زياد بن أبيه شاهراً سيفه في جامع دمشق الكبير إذ صاح بالناس: البيعة لمعاوية، ومن بعده لولده يزيد، وهذا السيف لمن لا يبايع! خنع الناس للبغي، فتوالد الخنوع مع توالد البغي إلى يومنا هذا. لكن المشكلة في مثل وعظ الرئيس خاتمي - في ظل اتساع الهوة بين رجل الفكر ورجل القرار –أن أكثر من يحتاجون إلى ذكرى تنفعهم وموعظة تصلح حالهم –وحال الأمة بالتالي– لا يقرؤون، ومن يشذ منهم ليس بوسعه أن يقرأ سوى ما يجيزه عسس السلطان!

تقترب حالتنا اليوم من تشخيص مالك ابن نبي في كتابه «ميلاد مجتمع» الذي رأى أن موت المجتمع موسوم بتمزق الشبكة الاجتماعية مع بقاء الفرد المتورم على حساب الشبكة، حتى يتم تصنيعه في أمة حية. ولعل هذا مغزى ما قاله نجم الدين أربكان، أول مؤسس للعديد من الأحزاب ذات المسحة الإسلامية في تركيا المعاصرة ورئيس الحكومة التركية الأسبق، في حوار مع الصحفي رضا هلال[11] من أن سبب تفكيره في تشكيل حزب سياسي واعتماد

بديل إسلامي هو هزيمة العرب أمام الجيش الإسرائيلي في العام ١٩٦٧ وانهيار زعامة عبد الناصر وإخفاقات تجربة التيار القومي العربي.

هل هو بحث عن عزاء يخفف وطأة الكارثة أن نتنفس قليلا عندما نقرأ من بين عشرات الكتب التي توقعت انهيار الولايات المتحدة واختفائها، على نحو ما توقع بول كينيدي سقوط بلاده ثم توقع اختفاء روسيا، أو كما توقع زبيجنو بريجنسكي أن يبدأ القرن الحادي والعشرون بهيمنة أميركية على العالم، لكنه شكك في أن تظل هناك ولايات متحدة أميركية بعد عقود قليلة؟

من آخر حلقات هذا التوقع المتكرر كتاب «ما بعد الإمبراطورية» لإيمانويل تيد، أحد أبرز علماء السكان في الولايات المتحدة، وصاحب التحليلات المتبصرة التي توقعت في كتابه «السقوط النهائي» الصادر سنة ١٩٧٦ سقوط الاتحاد السوفييتي السابق، وهو ما تم فعلا بعد خمس عشرة سنة. أكد تيد أن الولايات المتحدة تنهار حاليا وبتسارع واضح، على الرغم مما زعمته وزيرة خارجيتها السابقة مادلين أولبرايت، التي اكتشفت يهوديتها «فجأة» وهي تقترب من عامها السبعين أثناء زيارة لوطنها الأصلي تشيكيا، إذ تبجحت أن «الولايات المتحدة هي الدولة التي لا يمكن الاستغناء عنها أبداً». قال تيد إنَّ الولايات المتحدة لم تعد تستطيع إخفاء أنها غير مفيدة سياسيا، وتابعة اقتصادياً في ظل عولمة أصرت هي على فرضها، وبحكم تشبثها بمستوى رفاه لمجتمعها يستند إلى إدامة وزيادة نهبها الأمم الأخرى، بحيث بات المجتمع الأميركي يعيش عمليا إلى حد بعيد على نفقة الشعوب الأخرى، وبات العالم أكثر فأكثر «ينتج ما تستهلكه الولايات المتحدة». هذا ما يتم تحت غطاء واه لما كان الرئيس الفرنسي الأسبق الجنرال شارل ديجول قد فضحه سنة ١٩٦٥ وأسماه «نظام قنص وابتزاز» يفرضه الأميركيون على العالم بعضلاتهم وأسلحتهم، ويمولون عبره معيشتهم بإصدار مزيد من الأوراق الخضراء (الدولارات) التي تخدع شعوب العالم بقوة ذاتية مزعومة موهومة وامتياز راسخ مغتصب لتلك الأوراق. حقيقة الأمر لمن يتعمقون في خفايا النظام النقدي والاقتصادي العالمي هي أن شعوب العالم الأخرى تقايض ثرواتها وجهودها وأدمغتها التي تستقطبها الولايات المتحدة بوهم لا قيمة له في حقيقة الأمر

اسمه الدولار، على نحو مــا يؤكد إيمانويل تيد، الــذي يكرر تأكيد الانهيــار والسقوط مآلا لبلاده الولايــات المتحدة التي يجاهر بحبه لهــا، على الرغم من يقينــه باقتراب نهايتهــا. إن «السقــوط الأميركي في ذروة التحكم والبطش والهيمنة» أقرب إلى انتحار ذاتي لمجتمع مغيب عــن الوعي والإدراك. لكــن الانتحــار الأميركــي ليس عــزاء لنا، ولامدعاة تلــذذ بخدر فقدان وعــي أدمناه طويلاً، طويلاً، بدورنا.

الهوامش

١- خالص جلبي، هل مات المجتمع العربي؟ الاتحاد، أبو ظبي، ٢٠٠٢/٩/٢٥م ص (١٥)

٢- الترجمة العربية بالعنوان نفسه لممدوح عدوان، دار قدس، دمشق، ٢٠٠٠م.

٣- لترجمة العربية بالعنوان ذاته لسعد الطويل، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩م.

٤- انظر مثلا: أهرون ميجد، يديعوت أحرونوت، ١٩٩٩/٩/٨م، ود.أحمد علي مرسي، الفولكلور والإسرائيليات، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ٢٠٠١م.

٥- مجموعة أكاديمية يهودية تبحث مستقبل إسرائيل، الاتحاد، أبو ظبي، ٢٠٠١/١٢/٢٦م، ص(٢٤).

6- Jared Diamond,COLLAPSE:How Societies Shoose to Fall or to Succeed,Vikings Books,2004.

٧- أمين معلوف، الحروب الصليبية، ترجمة عفيف دمشقية عن الفرنسية، دار الفارابي، بيروت، ط٢، ١٩٩٣م، ص (٦٣).

٨- المصدر السابق، ص (٦٤).

٩- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٨، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٠، ص(١٨٩).

١٠- الكفاح العربي، بيروت، العدد ٧٧٧، ١٩٩٣/٦/٢١، ص(٢٢-٢٣)

١١- في: خالد بن قفة، تركيا تعود إلى هويتها...، الاتحاد، أبو ظبي، ٢٠٠٢/١١/١٢، ص (٣٢).

المنظومات المعقدة من المورثات إلى الدماغ

❀
موسى ديب الخوري



ما هـي النقطة المشتركة بين شبكة طرقيـة، ودماغنـا، أو انتشار وبـاء ما أو الفيسبوك أو المورثـات؟!! تشترك جميع هذه المنظومات بأنَّها تسمى «المنظومات المعقـدة»، وهـو أمـر ناجـم عـن كثرة الكينونـات المتصلة فيما بينها. ولكن لكي نفهم هذه المنظومـات لا يكفي أن نعرف أو نفهـم كلاً من هـذه الكينونات. فوصف كل عصبون لا يسمح بتفسير عمل ووظائف الدماغ! لهذا بـدأ يتبلور منذ بضع سنوات علم جديد، هو «علم الشبكات». وهو يتعلق

❀ باحث ومترجم ونائب رئيس الجمعية الفلكية السورية.

بفهم ديناميكية التفاعلات في قلب هذه المنظومات المعقدة، وهو أمر حاسم من أجل وصف هذه المنظومات.

ما هي المنظومات المعقدة وكيف تتم دراستها اليوم؟ المنظومات المعقدة هي المنظومات المكونة من عدد كبير جداً من الكينونات أو العناصر بحيث يمنع تعقيدها من التنبؤ بسلوكها. على سبيل المثال، نعرف أن قاعدة اقتصادية واحدة لا تكفي لحل أزمة اقتصادية كالأزمة التي أثرت على معظم دول العالم مؤخراً. بالمثل، فإنَّ الوعي لا يمكن تقليص الوعي إلى مجرد مجموعة من العصبونات. فهو خاصية منبثقة تتطلب تفاعل مليارات نقاط الاشتباك العصبية. ولفهم هذه المنظومات، نحن بحاجة إلى مواجهة التعقيد نفسه أي تحليله وفهمه. لكن البحث حول التعقيد هو مشروع شائك. ذلك لأن موضوعه ليس واضحاً تماماً.

هل يتعلق الأمر بتكثيف بعض المعادلات الجميلة والحاذقة مثلاً التي لم يتوصل العلم إلى تفسيرها بعد؟ أم على العلم أن يستمر في الدراسات التفصيلية والتجزيئية من دون محاولة فهم العلاقات على مستوى التعدد والكثرة؟

إنَّ تطور الدراسات التفصيلية نفسها قادت العلماء إلى ضرورة البحث في الظاهرات المعقدة، لأن قوانين الجزئيات في المنظومات لا تنفصل كما يبدو عن قوانين أكثر شمولا تتعلق بالكليات!

منذ بضعة عقود، كانت نظرية التعقيد حكراً على كبرى الأفكار النظرية المستلهمة من تمثيلات مبسطة ومن معادلات تفاضلية. وهي أفكار علمتنا الكثير عن العلم نفسه، كما وعن الظاهرات، ولكنها في الحقيقة لم تعلمنا الكثير حول المنظومات المعقدة نفسها. فعلى سبيل المثال، أفادتنا القوانين الإحصائية في دراسة الغازات، إلاّ تعميمها على منظومات بيئية متعددة لم تكن كافية لتعطينا فهماً أعمق لبنية هذه المنظومات وللعلاقات التي تحقق توازناتها وتطورها.

جاءت دراسة الشبكات رياضياً وفيزيائياً ومعلوماتياً لتقدم لنا إطاراً جيداً للتقدم في فهم المنظومات المعقدة. حصل ذلك إثر تطورات هامة وجذرية تعود إلى التسعينيات من القرن الماضي، وهو الدفق الهائل من المعطيات القادمة من الإنترنت والاتصالات والتكنولوجيا الرقمية بشكل عام، بما فيها المعطيات القادمة من السوابر الفضائية والمراصد الأرضية. وأدى ذلك إلى مواجهة العلوم كافة مثل الفيزياء والبيولوجيا والعلوم الاجتماعية والاقتصاد والكونيات والجسيمات الأولية وغيرها لهذا الانفجار الهائل من المعلومات التي يجب إدارتها والاستفادة منها.

إن دارات ميكروية صغيرة (شيبات بيولوجية biopuces تفيدنا بشكل متزامن حول نشاط المورثات البشرية وبروتيناتها؛ وتولد مسرعات الجسيمات الضخمة آلاف وملايين المعطيات المعلوماتية (آلاف التيرا أوكتيت) في كل سنة؛ وتسجل هواتفنا النقالة معطيات حول الموضع والتنقلات؛ وتجمع قواعد معطيات عامة معلومات اقتصادية من الأنواع كافة. أمَّا مراكز الدراسات المتعلقة بالبيئة أو البراكين أو الأعاصير أو المناخ، فإنَّ كمّاً هائلاً من المعطيات يتدفق إلى قواعدها في كل يوم. أمَّا المراصد التي تدرس الشمس أو المجموعة الشمسية أو المعطيات الآتية من أعماق الفضاء، فإنَّ العلماء لا يستطيعون متابعة تفاصيلها ولا تحليلها...

لقد بتنا نعيش في عصر المعطيات والمعلومات. ولكن ما هي الشبكات إذا لم تكن روابط بين المعطيات؟ لقد انبثق علم الشبكات لمحاولة فهم هذه البنى التي تزداد اتساعاً يوماً بعد يوم، ومن خلالها محاولة فهم المنظومات المعقدة التي تنمذجها.

إنَّ أية نظرية تخص الخلية أو الدماغ أو شبكة الإنترنت لم تعد تستطيع تجاهل الآثار التي تولدها الصلات المتبادلة فيما بينها. فإذا أردنا بناء نظرية للتعقيد، لا بد أن ترتكز بالضرورة على أسس أكثر فأكثر صلابة لعلم الشبكات.

لكن لماذا الحديث عن علم جديد للشبكات وبالتالي للتعقيد طالما أن علم الشبكات درس منذ فترة طويلة؟ في الحقيقة، تطور علم الشبكات ونما في مجالات مختلفة منذ أكثر من قرن، خاصة في الرياضيات عبر نظرية الـ graphes. مع ذلك، فإنَّ ثورة المعطيات التي ذكرتها أعلاه غيرت مستوى الشبكات التي كان يتعامل العلماء معها. وقد قادت إلى اكتشاف غير الطريقة التي كنا نتصورها أو ندركها بها. فحتى نهاية التسعينيات كان النموذج المعياري هو نموذج الشبكة العشوائية، حيث ترتبط العقد عشوائياً بوساطة روابط. وفي مثل هذه الشبكة، فإنَّ عدد الصلات التي تملكها كل عقدة يتبع قانون التوزع المعروف جيداً في الرياضيات، وهو قانون بواسون Poisson، وهو عبارة عن منحن جرسي الشكل ذي قيمة وسطية. بعبارة أخرى، فإن معظم العقد لها عدد من الروابط قريب من القيمة المتوسطة، في حين أن عدداً قليلاً من العقد يكون كثير الروابط وعدداً قليلاً من العقد قليل الروابط. فلو أخذنا شبكة اجتماعية، فهذا يعني أن معظم البشر فيها لهم عموماً العدد نفسه من الأصدقاء وأنه من الصعب العثور على أشخاص لديهم

الكثيـر من الأصدقاء أو على العكس القليل جداً من الأصدقاء. لكن العلماء لاحظوا أن الحال لا يكون دائماً على هذا النحو. فعلى شبكات مثل فيسبـوك أو الإنترنت عموماً، نجد «عقداً» لهـا الكثير من الروابط، وفي الوقت نفسه بعضـ العقد التي ليس لديها سوى القليل جداً من الروابط.

وفـي الواقـع، فـإنَّ غالبيـة الشبكات الواقعية هي شبكات متغايرة العناصر وغير متجانسـة، فيمكـن مثـلاً أن تتواجد عقد قليلـة الترابطات جنباً إلـى جنب مع عقد كثيرة الترابطات جـدّاً. وكان اكتشاف هذه الشبكات التي «بلا مقياس» مفاجأة للعلماء وميز بالتالي ولادة هذا العلم الجديد.

بحـث العلماء في البدايـة عن الآليات التي يمكن أن تأخذ بعين الاعتبار هذه البنية المتغايرة أو غير المتجانسة. وفي أحد أولى النماذج الـذي نشرته ريـكا ألبرت Réka Albert مع لازلـو باراباسـي[1] Laszlo Barabasi فـي عام ١٩٩٩م، حيث تمَّ خلق شبكة ابتداء من مبادئ بسيطة: عقد جديدة تضـاف واحـدة بعد الأخـرى، وتتصل كل عقـدة جديدة مع عدد m من الروابط في الشبكة الموجودة سابقاً باختيار العقد التي يكون الاتصال بها وفق احتمالية متناسبة مع العدد المجاور السابق من الروابط. يترجم هـذا المبدأ في الارتبـاط التفضيلي فكرة أن صفحة ويب جديـدة، بالنسبة للإنترنت على سبيل المثـال، سوف تتضمن نموذجياً روابط نحو صفحـات أخرى معروفة كثيرا مسبقـاً. ومع هذه الآليـة البسيطة، توصل العالمان إلـى إعادة إنتاج توزّع ارتباط غير متجانسـ يميز الشبكات التي لا قياس لها. ومع كونه بسيطا جداً فقد كان هذا النموذج أساسـاً للعديد مـن التحسينات التي قادت بدورها إلى التمييز الطبولوجي للعديد من الشبكات.

ولكن، هل تم العثور أو إيجاد بنى أخرى مشتركة بين الشبكات إضافة إلى التغايرات أو اللاتجانسـات؟ يجيب لازلـو باراباسي: «أجـل. وخاصـة واقع أن الكثيـر من هذه الشبـكات هي «عوالـم صغيـرة»». وبعبارة أخرى، ففي هـذه الشبكات كافة، فإنَّ أكبر مسافة ممكنة بيـن عقدتين (نسميها قطر الشبكة) هي مسافـة صغيرة. تمت نمذجة هذه الملاحظة للمرة الأولى في عام ١٩٩٨م على يد الفيزيائيين دنكان واتس Duncan Watts وستيفـن ستروغاتـز[2] Steven Strogatz . وكمـا فـي كل الشبكات التي بلا مقياس، فإن هذه الخاصية تؤكد حدس الكاتب الهنغاري فريغيز كارينثي Frigyes Karinthy الـذي كان قـد تخيل في عام ١٩٢٩م أن كل فـرد على كوكب الأرض كان متصـلاً بأقل من ستة «روابـط» بأشخاص

آخرين لا على التعيين. وهو حدس تم اختباره لاحقاً من قبل عالم النفس ستيفن ميلغرام في الستينيات وأثبت اليوم على نطاق واسع.

يمكن أن نتساءل أيضاً حول إذا ما كان لتغاير الشبكات، إلى ما وراء بنيتها، تأثير على ديناميكيتها. وفي الواقع فقد تمت دراسة الشبكات غير المتجانسة كثيراً من خلال مسائل جوهرية ونظرية ووصولاً إلى صيرورات تطبيقية مختلفة.

ويتم اللجوء في هذه الحالة إلى الفيزياء الإحصائية لأنها تنمذج منذ فترة طويلة انبثاق سلوك شامل (كما على سبيل المثال في المغنطة المجهرية) ابتداء من قواعد تفاعلات مجهرية أو دقيقة (على سبيل المثال التفاعلات بين السبينات المتجاورة، حيث السبين هو خاصية كمومية تميز الأجسام في عالم اللامتناهي في الصغر كافة). والحال أن هذه الظاهرة في انتقال المرحلة قابلة للنقل والتطبيق على مستوى العديد من نماذج التفاعل الاجتماعي، وتشكّل الرأي أو انتشار المعارف.

وقد سمحت دراسات على شبكات تفاعل واقعية، ومتغايرة جداً، بتمييز الدور الأساسي للتغاير في انتشار الآراء والمعارف. إن هذا النمط من بنية الشبكات يتضمن من جهة أخرى مقاومة كبيرة للأعطال، بل وهشاشة أيضاً تجاه الهجمات الموجهة. إنها ظاهرة قام العلماء بتكميمها باللجوء إلى تحليل الغراف بعد حذف جزء من العقد أو الروابط. إن تأرجحات الاتصالية تظهر في أساس هذا التناقض بين القوة والضعف، بين الصلابة والحساسية.

من جهة أخرى، يكتشف العلماء يوما بعد يوم أن التطور الديناميكي للشبكات هو حجر الزاوية في علم الشبكات نفسه. ففي حين أنه يمكننا الاعتقاد بأن شبكة اجتماعية مثلاً لا تشبه بحال من الأحوال شبكة أيضية (أي شبكة التفاعلات البيوكيميائية في الخلايا مثلا)، نكتشف على العكس أن لهما خصائص طبولوجية مشتركة، وخاصة اللاتجانس أو التغير كما وبنية «العالم الصغير». تكمن الصعوبة في فهم ما إذا كان يوجد بالطريقة نفسها سمات ديناميكية تطورية مشتركة على مستوى تنوع كبير جدّاً من الشبكات. وهذا ما يأمله العلماء عموماً! ولكن حتى اللحظة الراهنة يبدو أن تنوع وتعدد الديناميكيات الملاحظة تتجاوز بسعتها كل التصورات التي وضعها العلماء حتى الآن. مع ذلك، هناك بعض النتائج المدهشة التي تم الوصول إليها، وخاصة فيما يتعلق بانتشار الأوبئة. كما على سبيل المثال، من خلال مقاربة تسمى «الحقل الوسطي المتغاير الخواص»، وهو حقل

مستلهم مباشرة من نموذج «الحقل الوسطي» في الفيزياء الإحصائية. وهو يشتمل كما في هذا المثال على استبدال التفاعلات بين مختلف الأجسام. هنا بين مختلف الروابط، بتفاعل وسطي، إنَّما مع الأخذ بعين الاعتبار أيضاً للطبولوجيا المتغايرة للشبكة. وباتباع هذه المقاربة، استطاع ألساندرو فسبنياني Alessandro Vespignani الذي يعمل مع لازلو باراباسي في الجامعة نفسها، أن يبرهن وجود طور انتقالي بين نظام مصاب بعدوى أثرت على جزء كبير من الشبكة فيه وبين نظام ظلت العدوى محصورة فيه في منطقة صغيرة من الشبكة.(٣) ويتميز هذا الطور الانتقالي بعتبة. ففي شبكة متغايرة بين فسبنياني أيضاً أن هذه العتبة الحرجة للانتشار تميل نحو الصفر عندما يزداد حجم الشبكة. وهكذا، مهما كانت قابلية الانتقال والعدوى ضعيفة، فإن الوباء يستطيع الانتشار والاستمرار في الشبكات الكبيرة المتغايرة. وهي نتائج تبين أن التحصين والتمنيع الناتجين في إثر عدوى أو حملة تلقيح فعالة يجب أن يقترنا بالدرجة الأولى بحماية العقد شديدة الاتصالية، والتي تتمثل بـ«الناقلين الفائقين».

ويبدو واضحاً أن الفيزياء الإحصائية لها اليد الطولى في علم الشبكات المعقدة. فللفيزياء الإحصائية روابط مع نظرية الغراف، وتقترح منذ فترة طويلة أدوات من أجل التوصيف الإحصائي للمجموعات الكبيرة من المعطيات. وهكذا فقد وجدت نفسها فجأة بشكل طبيعي وتاريخي في قلب نمذجة الآليات المجهرية (على مستوى العقد والروابط) التي تسمح بالانبثاق الآني للخصائص الإحصائية للشبكة. ويعمل اليوم العديد من المعلوماتيين والمهندسين في مجال الشبكات، مقدمين طرائق جديدة مثل الأدوات الخوارزمية التي تستخدم على سبيل المثال في قياس المسافات بين العقد.

كذلك فإن المعلوماتيين ينشطون جداً من أجل إيجاد «تجمعات»، أي مجموعات من العقد التي يبدو أنَّها تقوم بالشيء نفسه على شبكة معينة. إنَّ اكتشاف مثل هذه المجموعات يهم مثلاً المشتغلين على الإنترنت الذين يبحثون عن تسويق موجَّه لمنتجاتهم، ويهم البيولوجيين الذين يبحثون عن مجموعات محددة داخل الشبكة الخلوية من أجل إيجاد مجموعة المورثات التي تكون سبب مرض ما. من جهة أخرى، يهدف العلم الجديد الناشئ البيومعلوماتية، من خلال مقاربة مختلفة (تحليل وتصنيف المعطيات)، إلى تكميم التعقيد البيولوجي. فقد أصبح التعقيد وعلم الشبكات مشروعين متعددي المناهج والعلوم ويحتاجان إلى

مصادر فكريـة وتمويلية مـن المجتمعات المهتمة كافة.

يقودنـا ذلك إلى الحديـث عن مشروع برنامـج أوروبي FuturICT أقل ما يمكن أن نقـول فيه إنه مشـروع «نمذجة السلوك المجتمعي البشـري على مستويات كبيرة»! وهذا هو تماماً ما يتحدث عنه العلماء حين يشيرون إلـى ضرورات تمويـل الأبحاث!! فالعلوم الاجتماعية باتت تستفيد اليوم من كميـة هائلة من المعطيـات المتوافرة عبر الدراسات المختلفة والإحصاءات الكثيرة. وهي توافـر فرصة جديدة تمامـاً لدراسة السلوك البشري بشكل كمي وموضوعي.

إنَّ هدف المشروع الأوروبي FuturICT هـو نمذجة ودراسة العلاقات الإنسانية من أجـل التنبـؤ بالأزمات وتخفيفهـا أو حلها إن أمكـن (!)، لكنه بطريقـة معينة يحاول الاستفادة من هذه الفرصـة واستثمارها!! وقـد أصبحت أدوات هذه الدراسة متوافرة ومعروفـة لـدى الباحثين والعلمـاء بشكل جيـد، أكان مصدرهـا علـم الشبكات، أم المعلوماتيـة (أي استكشـاف المعطيـات وكشف المجموعات من العقد) أم ميكانيك السوائل (ما أصبح يعرف اليوم بالديناميكية البشرية)، إلخ.

يقـول لازلو باراباسي إنـه يبقى علينا أن نكامـل وندمج هـذه المعطيات وهذه الأدوات كافة على مستويات كبيرة ومقاييس كبيرة جداً. غير أن هـذه المكاملة مكلفة كثيراً وتتطلـب الكثير مـن الخبرات. مع ذلـك، فإن التوجهات الفعليـة والدراسات القائمة على علوم الشبكات تواجه تحديات كثيرة في مختلف المجالات، من المورثات إلـى الدمـاغ، ومـن الجسيمـات الأولية إلـى المجرات وتشكلهـا، ومن علم النفس إلـى نظريـة التطور..فإذا كانـت نمذجة المجتمعات البشرية لا تزال تتطلب جهوداً كبيـرة، فهل مـن الممكن نمذجـة الكائن الحي الفرد؟[٤]

في الحقيقة، يستكشف علماء البيولوجيا اليـوم طريقا جديداً لدراسـة المنظومات الحيـة، مـن خـلال وصفهـا كمجموعات لتفاعلات بيـن كينونـات أو عناصر أولية كالمورثات أو الجزيئات.

تتنفـس أوراق النباتـات عبر عدد كبير مـن المسامـات الدقيقة. وعنـد حصول جفاف، فإنَّ هـذه الحساسات تنغلق، الأمر الذي يقلّص التبخّر، ويقتصد في استهلاك المـاء. وكلما فهمنا وعرفنا هذه الآلية أكثر كلما استطعنا ضبط الأنـواع وزراعتها في المناطق الجافة.

استطاعت الباحثة ساره آسمان Sarah Assmann مـن جامعة بنسلفانيا تصنيف أكثر مـن أربعيـن عاملاً تدخـل في هذه

الصيرورة: بروتينات ومورثات وأنواع الجزيئات كافة التي تتداخل، وتنتظم وتتعقد بعضها مع بعض. واستطاعت بعد ذلك مع زميلتها ريكا ألبرت بناء نموذج تنبؤي لإشارة إغلاق المسام عند نوع من النباتات Arabidopsis ، حيث أخذتا بعين الاعتبار هذه العوامل وتفاعلاتها.(٥) وهكذا فقد ساهمتا بتقدم فهم هذه الآلية، واكتشفتا بشكل خاص الدور الأساسي للبروتينات التي سميت G.(٦)

وبالطريقة نفسها تنتج كل أو معظم الصيرورات المسؤولة عن عمل الكائن الحي، على المستويات كافة. من الخلية إلى المنظومة البيئية الواسعة، من تفاعل عشرات بل مئات وآلاف العوامل: ومنها على سبيل المثال وجود أو غياب إيون، جزيء، مورثة، تَشكُّل أو تكييف أو انطباق بروتين على حالات معينة، إلخ. إنَّ تعميق فهم هذه الصيرورات يفترض بالتالي التمكن من استخدام أدوات قادرة على تمثيل وتحليل هذه التفاعلات المعقدة. وهذا ما نشير إليه اليوم بمصطلح «بيولوجيا الشبكات».

عقد وأقواس

تختلف الأداة الرياضية الدقيقة تبعاً للموضوع المدروس. لكنها تشترك جميعها بقدرتها على أن توصف بوساطة شبكة، وهي عبارة عن «عقد» تمثل مختلف العناصر الداخلة في التفاعل، وترتبط بوساطة «أقواس» تشير إلى تأثير عقدة على أخرى. إنَّ المعلوماتية هي بالتأكيد عنصر أساسي في هذه العملية، فهذه الشبكات تُبنى وتحلل وتنمذج بوساطة الخوارزميات. وتسمح هذه النماذج، التي هي مقاربات لأجزاء الكائن الحي بنمذجة آليات بيولوجية على الحاسوب. وبدراستها يصيغ العلماء تنبؤات الأمر الذي يقودهم إلى التجريب لكي يقارنوها بحقيقة وواقع الكائن الحي.

طبقت ريكا ألبرت نتائج خبرتها هذه على تجزئة جنين ذبابة الخل، وعلى التفاعلات بين الكائنات الممرِضة والنظام المناعي. وحصلت بشكل خاص مؤخراً على نتائج هامة تتعلق باللوكيميا ذات الخلايا اللمفاوية T الحبيبية. ويمكن لنتائجها هذه أن تفضي إلى حل علاجي لهذا المرض.(٧)

إنَّ اللوكيميا ذات الخلايا اللمفاوية T الحبيبية الشكل هي عبارة عن عامل ممرض نادر يتميز بتكاثر خلايا مناعية خاصة، هي الخلايا اللمفاوية T السامة للخلايا (CTL). ودور هذه الخلايا السامة CTL التخلص من الخلايا التي يحقنها فيروس في الجسم. وبعد القيام بالمهمة تصبح خلايا CTL غير ذات فائدة، وتختفي عبر انتحار مبرمَج، وهو ما يسمى بـ «موت الخلايا

المبرمَج». وعلى العكس عند المريض الذي يعاني من هذه اللوكيميا، فإنها تزدهر وتتكاثر وتستمر من دون حدود بدلاً من الانتحار، الأمر الذي يسبب اضطرابات عديدة ويهدد الإنذار الحيوي للجسم. وقد حاولت ريكا ألبرت وفريقها فهم لماذا استمرت هذه الخلايا حية. ولهذا، قامت بجرد المعارف حول الموضوع في المنشورات العلمية كافة. ثم بنيت شبكة تمثل مختلف العوامل . من مورثات وبروتينات وجزيئات أخرى . المشتركة في استمرار وموت هذه الخلايا اللمفاوية المبرمج كما في تفاعلاتها.

وبدراسة هذه الشبكة، وخاصة بنمذجة سلوكها، حدد هذا الفريق ما هي العقد التي كانت تلعب دوراً راجحاً في الانقلاب بين حالتين مستقرتين: من جهة الخلايا اللمفاوية السليمة، التي سيكون مصيرها الموت المبرمج، ومن جهة أخرى الخلايا اللمفاوية التي لا تموت، المرضية.

وهكذا استطاعوا التنبؤ ببعض جوانب الآلية التي لم تكن الدراسات التجريبية السابقة قد استطاعت حلها بعد. بل تحقق الفريق مخبرياً من أحد هذه التنبؤات، فكما تنبأ النموذج ثمة عائلة من البروتينات تسمى Smad، تنظم تعبير مورثات معينة، تنتج بشكل زائد في الخلية المرضية. وقد درس البيولوجيون بشكل منهجي نتائج التخلخلات الخارجية المتوقعة كافة على الجزيئات المتضمنة على حالة الشبكة، وبالتالي على حياة أو موت الخلية. واستطاع الفريق بذلك تحديد ١٩ من هذه التخلخلات كأهداف علاجية ممكنة. وتؤكد ريكا ألبرت قائلة: «وفقاً لنموذجنا، فإن كل إستراتيجية تعكس الوضع غير الطبيعي (فرط النشاط أو ضعف النشاط) لأحد هذه البروتينات ستؤدي إلى موت الخلية الليمفاوية الشاذة، وبالتالي تشفي من الحالة المرضية». وعلى سبيل المثال، الوصول إلى تدخل يوقف مورثة تسمى STAT٣، أو إلى تدخل آخر يعزز الإنتاج الخلوي لعائلة من الدهنيات (الليبيدات) هي السيراميدات.

اختارت ريكا ألبرت للوصول إلى هذه النتائج أن تمثل بوساطة «نموذج ديناميكي مترو» شبكة التفاعلات الجزيئية التي تضبط الموت الخلوي المبرمَج للخلايا اللمفاوية T. وكانت هذه المقاربة قد أثبتت فعاليتها في تجارب سابقة، وخاصة في مجال الإشارة ما بين الخلايا. وقد استخدمت بشكل أدق نموذجاً ديناميكياً منطقياً (نسبة إلى جبر بول)، وفيه يمكن لكل عقدة أن تأخذ حالتين فقط. وتقول ريكا ألبرت مدققة: «في الكثير من الحالات، هناك حالتان بشكل طبيعي، على سبيل المثال قناة تسمح لأيونات باجتياز غشاء

تكون مفتوحة أو مغلقة، أو بروتين في حالة تشكل نشط أو غير نشط. وفي حالات أخرى، توافق بالأحرى متغيرات مستمرة، فإن المقاربة المنطقية تتضمن عتبة. إنها حالة تركيز أدنى من العتبة، وغير كافية، تمثلها حالة «مغلق off»، أو تركيز أعلى من العتبة، وبالتالي كاف، تتمثل بالحالة «مفتوح on».

يبني العلماء اليوم شبكات تنبؤية. في البدايات الأولى، قبل تسمية هذه الأعمال بـ «بيولوجيا الشبكات»، كان فرانسوا جاكوب François Jacob وجاك مونو Jacques Monod الفرنسيان، الحائزان على جائزة نوبل عام ١٩٦٥م، قد طورا رؤية بيولوجية للتنظيم، لدور النسج. أو ما سمي بالعرى أو العقد. في المفاعيل الرجعية أو ردود الفعل. وكان ستيوارت كوفمان قد استخدم منذ عام ١٩٧٠م في الولايات المتحدة شبكات «بولية» لوصف الظاهرات البيولوجية. ومنذ ذلك الوقت تم حرق مراحل كثيرة، ولم تعد بيولوجيا الشبكات محدودة بالتحليل السطحي لطبولوجيا هذه الشبكات.

يشير إريك شادت Éric Schadt إلى أن «ظاهرة حالية كبرى، في مشهد بيولوجيا الشبكات، هي إدخال مناهج وأدوات تسمح بضبط السببية في التفاعلات». ويعمل فريقه على نماذج تنبؤية لأمراض ولاستجابات على مواد دوائية في مجالات مختلفة مثل أمراض القلب والسكري والسمنة. يقول موضحاً: «إن العنصر الأساسي، من أجل بناء شبكة بيولوجية سببية. تكون العلاقات فيها بين العقد ذات طبيعة سببية. هو اللجوء إلى تبعيات شرطية ناجمة عن نظرية الاحتمالات، وذلك من أجل استنتاج العلاقات السببية، في إطار مصدر نظامي للتخلخلات». وفي الواقع فإن الدراسة المنهجية لأثر التخلخلات على الجزيئات التي يكون نشاطها مترابطاً هي التي تمكننا من استنتاج علاقة سببية فيما بينها.

إن الشبكات التي تبنى على هذا النحو لا تحاول رسم العلاقات الداخلية بين العوامل المتضمنة في صيرورة ما، بل هي تعيد إنتاج المنطق السببي للواقع البيولوجي المدروس. فهي تعمل تقريباً مثل هذا المنطق. هذا ما يسمح بشكل خاص بالوصول إلى تنبؤات قابلة للاستثمار، مثل التعرف على أهداف دوائية أو شفائية.

ما هو دور الدولة في ازدهار التكنولوجيا؟!

هبة الله الغلاييني ❀



حين نصف الإنسان، رجلاً كان أو امرأة، بأنه حيوان اجتماعي فإن المقصود أنه يعيش بطبيعته في مجتمع ما، وأنه من دون هذه العلاقة ستصبح الحياة كما وصفها هوبز بكلماته الشهيرة «كريهة ووحشية وقصيرة».

ومن ثم فإن الحياة البشرية برمتها تسير داخل شبكة من العلاقات الاجتماعية. وتنقسم هذه الارتباطات إلى فئتين: إلزامية وطوعية.

❀ كاتبة ومترجمة.

والملاحظ أن الغالبية من العلاقات الاجتماعية هي علاقات طوعية حيث لنا أن نختار، نظرياً على الأقل، ما إن كان لنا أن ننتمي أو لا ننتمي إلى دور العبادة أو النقابات أو جمعيات الحفاظ على البيئة أو نوادي التنس. أما المجتمعات الإلزامية فهي قليلة العدد، ولكنها ذات شأن حاسم. وثمة اثنان منها فقط: الأسرة التي نولد في كنفها وتعطينا توجهنا العرقي والثقافي، دون أن يكون لنا خيار في هذا، والدولة وهي المسؤولة عن الحفاظ على القانون والنظام داخل مجتمع إقليمي معين، كما تعمل على ضمان تلاحمه في مواجهة أي عدوان من الخارج.

ونؤكد ثانية أن ليس لنا خيار بشأن الدولة التي نولد داخل نطاقها. وهكذا تستقطب المجتمعات البشرية إلى جماعات تدافع عن نفسها وهي الدول، حتى إن اخترنا يوماً التخلي عن تبعيتنا لدولة ما إنما يكون لننقل التبعية إلى دولة أخرى. ولا معنى على الإطلاق لوجود إنسان بلا جنسية لاينتمي إلى دولة ما. ولهذا تعتبر الدولة شكلاً من أهم أشكال المجتمع، ولها إمكاناتها الهائلة في أن تحسن أو أن تسيء استخدام التكنولوجيا.

ونذكر أولاً أن الدولة تخضع هي الأخرى لنوع القيود والضغوط التكنولوجية نفسه فيما يتعلق بالحجم حتى أثّرت في نمو المدن، فالسلطة الفعالة للدولة من أجل الحفاظ على القانون والنظام وتطوير وسائل الدفاع الضرورية ضد أي عدوان محتمل، إنما تحددها كفاءتها التكنولوجية لكي تزيد من عدد قوات الشرطة والجيش وتزودهم بالمعدات، وكذا كفاءتها في نقل هذه القوات بسهولة إلى أي مكان مطلوب، وكفاءتها في توفير الاتصالات مع هذه القوات في أثناء عملياتها.

ومن الجدير ذكره أن الإمبراطورية الرومانية توافرت لديها شبكة طرق برية متميزة، وتنظيم سياسي عالي المستوى، ومع هذا اضطرت إلى أن تعاني من هذه القيود إلى أقصى حد. إذ كثيراً ما اضطرت جيوشها إلى أن تحارب خارج حدود سلطة إدارة الإمبراطورية. ولهذا بدأت هذه الجيوش تعمل وكأنها دول داخل الدولة، ومن ثم أصبحت تشكل تحدياً لعوامل تلاحم الإمبراطورية، وهو ما عجزت عن مقاومته في نهاية الأمر. ومع انهيار السلطة الرومانية في غرب أوروبا ارتدت المنطقة إلى شكل أبسط من المجتمعات بعدما أدخل الغزاة التيوتونيون نظام ولاياتهم القبلية القائم على العصبية العائلية، والذي أصبح يمثل الشكل الأصلي والأساسي لتنظيم الولاية. واستعادت المنطقة تلاحمها السابق بعد

طرد جحافل الغزاة بفضل زيادة رخاء وقوة المجتمعات المستقرة. هذا على الرغم من أن هذه المجتمعات لم تندمج معاً في دولة واحدة مما كان له أثره الواضح في تطور الحضارة الغربية. معنى هذا أن الغرب، على عكس الحال بالنسبة للحضارتين المصرية والرومانية، كان يفرز دائماً خليطاً كبيراً من البلدان المختلفة والتي أمضت غالبية أيامها في تنافس واضح بعضها مع بعض. بيد أن هذه المنافسة ذاتها هيأت للغرب إمكان الوصول إلى أساليب بديلة للحكم مثلما هيأت إمكان تطور تقاليد حق الاختلاف والتسامح والليبرالية، وحفز هذا التنوع أيضاً التنافس في مجال التكنولوجيا.

كان لدينا فيما سبق مايبرر رصد أهمية توافر المناخ الليبرالي في عمليات التطور التكنولوجي. وحري بنا الآن أن نشير إلى أن نطاق هذا المناخ الليبرالي كان جزءاً لايتجزأ من العلاقة بين الدول الكثيرة المتنازعة داخل الحضارة الغربية، وليس معنى هذا أنه كان مقصوداً متعمداً. ذلك أن العلاقات بين البابوية والإمبراطورية، أو بين الكاثوليك والبروتستانت، أو بين أحد الملوك ومنافس له يدعي حقه في العرش لاتكشف عن شيء يماثل مايعرفه العالم الحديث من ليبرالية ديموقراطية. ولكن الانهماك في هذه النزاعات بين الدول في الغرب. أو في كثير غيرها مما له طبيعة شخصية أو عصبية. خلق تراثاً لرأي أكثر حرية وحق الرأي في الاختلاف والتعبير عن نفسه، بل شجعه على ذلك إذا ماكان قادراً على دعم مصالح طرف أو آخر في هذه النزاعات، خاصة إذا ماتعلق الأمر بإمكان تحقيق رخاء تجاري أو كفاءة تكنولوجية.

وهكذا نجد أن مجموعة العوامل المميزة والجوهرية الفنية بدأت تتشكل كما بدأت الدول في أوروبا تضعها في الحسبان أكثر فأكثر. وكان من بين السبل التي التمستها الدول لتشجيع التكنولوجيا التي يمكنها أن تهيئ لها ميزة على منافسيها، أن منحت المخترعين حق الاحتكار بما يكفل لهم جزاء مالياً لقاء أفكارهم. وتجلى هذا أولاً كوسيلة لدعم التجارة والصناعة عن طريق حماية مشروعات بذاتها في مجال التوسع التجاري. مثال ذلك التجارة عبر البحار مع جزر الهند الشرقية. أو جلب حرفيين أجانب لاستخراج النحاس من المناجم الإنجليزية. وتعدل المفهوم بطريقة ملائمة بحيث يمنح المخترع براءة اختراع مما يهيئ له فرصة تحقيق عائد مالي مقابل استثمار أفكاره. وبذلك يكون للمخترع وحده حق الاستفادة من اختراعه خلال فترة محددة.

والملاحظ أن النظام في بريطانية كان معقداً وباهظ الكلفة خلال القرن الثامن

عشر، ولهذا عجز كثيرون من المخترعين عن تحمل نفقات وأعباء الحصول على براءة الاختراع أو آثروا الاحتفاظ باختراعهم سراً. ولكن هذا لايمنع من الإشارة إلى أن عددا من رجال الصناعة المتمرسين من أمثال بولتون ووات اللذين عرفا كيف يفيدان جيداً من هذا الوضع لحماية براءة اختراعهما للمحرك البخاري الذي ظل سراً لهما على مدى ربع قرن. ولكن أصبح الوضع بعد ذلك أكثر بساطة وأقل كلفة مما هيأ الفرصة للمزيد والمزيد من المخترعين لكي يفيدوا من الحماية التي تكفلها لهم براءة الاختراع.

واستحدثت غالبية البلدان الصناعية في أوروبا وشمال أميركا نظماً مماثلة خلال القرن التاسع عشر. وبدأت براءات الاختراع تكتسب اعترافاً دولياً، وإن استطاعت بعض البلدان أن تستغل ثغرات في نص التشريع. ولكن أهم شيء من وجهة نظرنا بالنسبة لنظام براءة الاختراع ليس نطاق النظام أو فعاليته. بل وجوده في حد ذاته الذي يعبر عن الإقرار بحق الفرد، وبأنه جدير بهذا الحق، ومن ثم فهو عنصر عالي القيمة من بين مجموع العناصر التكنولوجية. وبحلول القرن الثامن عشر بدأت تخف القيود التقليدية على التطور التكنولوجي ونخص بالذكر هنا التفوق في بناء السفن الشراعية، وصناعة المدفع مما مكن دولاً أوروبية كثيرة من تكوين إمبراطوريات مهمة فيما وراء البحار. ومن دواعي السخرية أنه بينما ظل النقل البري داخل أوروبا بدائياً إلى أقصى حد كانت السفن الشراعية للبرتغال وإسبانيا وفرنسا وهولندا وإنجلترا والسويد تمخر أسراباً طويلة عبر محيطات العالم. واستطاعت هذه البلدان إنشاء محطات ومستعمرات تجارية لها على شواطئ الهند والعالم الجديد، ولكن تعذر عليها كثيراً الاختراق والتوغل إلى داخل القارات فيما وراء قواعدها.

ومن المسلم به أن الإسبان حاولوا بكل الطرق أن يفعلوا ذلك في أميركا الوسطى بفضل الشجاعة الفريدة للغزاة الإسبان وقسوتهم الوحشية، علاوة على تحالف الحظ معهم. إذ وجدوا سكان البلاد الأصليين وقد أعاقتهم الانقسامات والخرافات. ولكن ظل هذا الوضع استثناء إلى أن حظي البريطانيون بميزات مماثلة خلال غزوهم الهند في نهاية القرن الثامن عشر. وبعد ذلك بدأ المستوطنون الأوروبيون يتوافدون أفواجاً لم تنقطع. وتكدس المستوطنون الأوروبيون كما تكدست قوة السلاح الناري. وهكذا تهيأ إمكان ضم الجزء الأكبر من المناطق غير الاستوائية في العالم تدريجياً منطقة بعد أخرى. وفي شمال أميركا أخذ

المستوطنون هذه المهمة على عاتقهم بعد أن طردوا السلطة الاستعمارية البريطانية. ولكن كان على القوى الاستعمارية أن تنتظر فترة أطول لضم المناطق الاستوائية في العالم. وذلك إلى حين توافر الأدوات التكنولوجية الملائمة، خاصة البواخر صغيرة الحجم والموثوق بها. بحيث تكون قادرة على الملاحة عبر الأنهار وسط الغابات الاستوائية. هذا علاوة عن الحاجة إلى توافر عقاقير مثل الكينين لمقاومة الملاريا التي كانت سلاح الموت ضد الرجل الأبيض. وحين توافر هذا كله فضلاً عن التطور المستمر الصاعد للسلاح الأوروبي وزيادة شبكات السكك الحديدية عبر القارات.

وقد استطاع الدخلاء اختراق جميع القارات وإخضاعها لأوروبا. وبدأت الدول الأوروبية في القرن السادس عشر عمليات تكوين إمبراطوريات لها فيما وراء البحار. وذلك في وقت كانت هذه الدول المعنية لاتزال في حقيقتها منتجاً للتنظيمات الأسرية في العصر الوسيط. على الرغم من أن الإصلاح الديني البروتستانتي أضاف إلى الوضع بعد ذلك بعداً آخر للصراع الديني. حقاً لقد بدأت هذه الدول آنذاك في التفكير في نفسها باعتبارها «أمماً». ولكن الأمر استغرق زمناً طويلاً إلى أن نضج وساد المفهوم الحديث بكل مقوماته عن الدولة ـ الأمة. ولكن الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩م وجهت ضربة قوية اهتزت لها أركان مبدأ الشرعية الأسرية، وقدمت مبدأ أكثر قوة، وأصبحت لهذا المبدأ السيادة في السياسة الأوروبية ألا وهو صوت الشعب. بدا التعبير أول الأمر تعبيراً غامضاً على لسان العامة. ولكنه تدريجياً ازداد وضوحاً وتماسكاً وأصبحت له دلالته الواضحة كتعبير عن الحركات الجماهيرية الشعبية في القرن التاسع عشر التي اتجهت غالباً نحو أهداف قومية. وتمخض هذا عن نتيجة محددة، وهي أن أصبحت دول أوروبا دولاً ـ أمماً، ومن ثم عدلت من أهدافها وفقاً لمقتضيات الوضع الجديد. وظلت على حجمها زمناً وإن أصبح بعضها أكبر حجماً، كما لم تخف حدة التنافس فيما بينها. بل ربما زاد التنافس حدة في بعض الأحيان. ولكن الشيء الجديد هو تبني الدول الأوروبية لمواقف قومية فيما يتعلق بلغاتها وأصولها العرقية وتراثها الثقافي. وظل التنافس فيما بينها حافزاً للتطور التكنولوجي مع فارق وحيد أنه يخدم اليوم تطلعات قومية، ولنا عودة إلى موضوع المساهمة المتميزة للتكنولوجيا في الحرب بين الدول ـ الأمم المتنازعة، ولكن من المهم هنا أن نلحظ أن التطورات التكنولوجية خدمت دائماً النزعة

القوميــة في مجالات أخرى. والجدير ذكره أن الإزالة العمليــة لكل القيود التكنولوجية المفروضة على توسيع الدولة بسبب طبيعة وسائل النقل والمواصلات الحديثة. ووسائل توليــد القــوى المحركة ساعــد على دعم النزعة القوميــة وأشبع أسباب الخيلاء في الإمبراطورية. ووضعت هذه الوسائل أيضاً في خدمة الحكومــات قوى هائلة للسيطرة على المعلومــات والدعاية مما ساعد على خلق رأي عــام ساكن راضٍ بالواقع. وبدا واضحاً أثناء عبورنــا العام ١٩٨٤م دون أن يصدق الكابوس الذي تنبأ به جورج أورويل والذي أنذر باتخــاذ إجراء مروع من جانب الهيمنة الشاملــة للدولة ضد الشعوب، عن طريــق «أجهزة دعاية جديــدة والتحكم من بعــد» وغير ذلــك. ولكن الواضــح بالنسبة لبعض المجالات أن القوى المتاحة للدول - الأمم للإرهاب أو خداع المواطنين أضحت أكثر إزعاجاً من تلك التي تصورها أورويل. وأصبحــت اليقظــة ضــد تزايــد عمليات الإخضــاع القومية أمــراً حيويــاً بالنسبة لأي مجتمــع صحــي. إن مفهــوم الصحة الاجتماعيــة من شأنــه أن يثيــر تساؤلات كثيرة ما لم نحدده بوضوح. وهدفنا هنا أن ننقل فكرة توافــق الرأي الاجتماعي القائم على درجة عالية من المشاركة في عمليات اتخاذ القرار، سواء أكان قرار الدولة أو قرار مستويــات مباشرة أكثر تختصــ بالنشاط الاجتماعي، أو بعبارة أخرى، إننا نتحدث عن الديمقراطية، على الرغم من سوء استخدام هذه الكلمــة واختلاف معانيهــا باختلاف الناس، والتي تعني أن يكون «الحكم بوساطة الشعب» عنصراً فعالاً على وجه اليقين في هذه المشاركة. إذ من دون ذلك سوف ينتهي الأمر بأن تكون السيطرة الاجتماعية حكراً بين أيدي أصحاب الثروة أو الخبرة العملية، وهــو ما يوهن «سلطــة الشعب» إذا كان لها وجــود. لذلك فإننا نسلم هنــا كبدهية بأن أحد شروط الصحة الاجتماعية يوفر شكلاً ديموقراطياً للحكم الذي يدعمه مستوى عال من المشاركــة الشخصية، ونسلم هنا أيضاً بأن هــذا الوضع يعني ضمناً سيادة القانون بطريقــة واضحة لا لبس فيها، حيث تتحدد قوانين الدولة بناء على عملية عامة معترف بها لصياغة القوانين والتي تتضمن أحكاماً بتغيير القانون والذي يخضع له جميع أبناء المجتمــع دون استثنــاء وإذ اتفقنا على أن هذا تعبيــر منصف عن نــوع الحكم الذي يتضمنه مصطلــح «الديمقراطية» وأن هذه الشروط إجمــالاً، أكثر استصواباً ومعقولية من أي تدبيــر اجتماعي آخر، ومن ثم فهي السبيل الــذي يصل بنا إلى أقصى قدر من المجتمع الصحي، إذن سيكون يسيراً علينا أن ندرك أن لهذا كله نتائجه المهمة بالنسبة

للتكنولوجيا، وذلك لأسباب عدة، منها أولاً أن موارد التكنولوجيا الحديثة تهيئ قوى هائلة وتضعها في خدمة الدولة الديموقراطية لتوصيل المعلومات ولتشجيع المشاركة.

ولكن هذه الموارد ذاتها يمكن أن تتوافر لأشكال حكم أخرى وتستخدمها لأغراض أقل استصواباً على نحو ما شاهدنا في مثال الدعاية القائمة على تعصب قومي. وثمة أمثلة كثيرة عن ديكتاتوريات القرن العشرين البغيضة، وما أكثرها، وأكدت هذه الأمثلة إلى أي حد أساءت السلطات استخدام قوى التكنولوجيا، وهذا النوع من الحكم هو الذي يشكل مادة الكابوس الذي حدثنا عنه أورويل. ولعل من الحمق أن ننكر أن التكنولوجيا يمكن أن تستخدمها الدول بكفاءة عالية جداً على الرغم من أنها دول لاتحكمها توجهات أو نوايا ديموقراطية، ومن ثم يتعين علينا التزام الحذر السياسي اليقظ ضد هذه الانتهاكات، ويكفي هنا أن ندرك أن مثل هذه الانتهاكات غريبة على مفهوم الثورة التكنولوجية الذي عرضناه في كتابنا هذا، إذ إن هذه الثورة جزء مكمل لمجموعة عوامل من بينها أن السياسة جزء لايتجزأ وشرط لازم للتحرير وسيادة الليبرالية التي هي الطريق إلى الديمقراطية. وإذا كان ثمة خطر حقيقي داهم يتمثل في تسخير التكنولوجيا لأغراض مناهضة للحرية والليبرالية فإن نجاح هذا لن يفضي فقط إلى تدمير الديموقراطية، بل أيضاً إلى تدمير الثورة التكنولوجية كما نفهمها. وإن مثل هذه النتائج تعني ضمناً انهيار بنية المجتمع الحديث وتفكك نسيجه، وهو مايعني نذيراً أسود لمصير المجتمع العالمي كله. وإذا كان علينا ألا نقلل من هذه الأخطار، فإننا نؤكد مجدداً أن الدول الديموقراطية الليبرالية الحديثة يمكنها أن تتخذ إجراءات وقائية للحيلولة دونها، والتي تشتمل، من بين ماتشتمل على اعتراف بدور التكنولوجيا. وتمتد هذه التدابير الوقائية إلى محاولات التربية والتعليم والعلم والثقافة والحرب. وحري أن نتناول كلاً من هذه على حدة فالملاحظ بالنسبة للدور التكنولوجي في التعليم أنه لم يحظ بتقدير دائم، ولكن تزايدت أهميته باطراد خلال القرنين الأخيرين. إذ كان التصور حتى القرن الثامن عشر أن التعليم نظام يخص الصفوة، ويهدف إلى تثقيف عقول أبناء الطبقة الحاكمة عن طريق تعليمهم الكلاسيكيات وكذلك، وبنسبة محدودة، النظرية الرياضية. أما اكتساب المهارات سواء من أجل الحصول على عمل أو للإشباع الشخصي. فقد كانت المجتمعات تعتبره غير ذي فائدة بالنظرية أو بالممارسة التعليمية، لذلك لم يكن

هناك تخصص رسمي له. وكان المتوقع أن المهارات التقنية خاصة تكتسب خلال الممارسة العملية: مثال ذلك أن المهارات التقليدية القديمة مثل مهارات البنائين والنجارين وصانعي البراميل والحدادين وصناع الأدوات والأوعية المعدنية فقد تواضع المجتمع على أن يكتسبها المرء من خلال نظام التلمذة الصناعية. ويقضي هذا النظام بأن يلتزم التلميذ بناء على عقد بالتلمذة على يد المعلم فترة تمتد سنوات عدة يكون من المتوقع أن يتعلم خلالها التلميذ الحرفة. ويدفع آباء التلاميذ ثمناً مقابل ميزة تعلم التلميذ كلاً من التدريب على المهنة والانضمام إلى طائفة الحرفيين. ومن الأهمية بمكان أن نعترف بأن نظام التدريب عن طريق التلمذة الصناعية ظل ناجحاً على مدى قرون طويلة، وكان يمثل خلال هذه الفترة الشكل الوحيد المتاح للتعلم التكنولوجي. وليس لنا أن ندهش، إزاء هذا التراث الطويل العريق، حين نعرف أن المحاولات التي استهدفت في العصر الحديث، تغيير هذا النظام التعليمي وإبداله بنظام مؤسسي اجتماعي واجهت مقاومة أول الأمر. ولكن الواقع أنه بحلول القرن التاسع عشر، إن لم يكن قبل ذلك، اتخذت عدد من الحرف الأساسية مثل العمارة والجراحة خطوات تهدف إلى تحسين وتنظيم عملية تعليم الملتحقين بها لتعلم المهارات الخاصة بالحرفة، ذلك لأن التلمذة الصناعية لم تعد ملائمة للوفاء بحاجة المجتمع الجديدة للتعليم الفني، إذ زادت حاجة المجتمع نتيجة لزيادة حركة التصنيع. وتغيرت التلمذة الصناعية نوعياً نتيجة تطبيق اختراعات تكنولوجية واكتشافات علمية جديدة. مثال ذلك أن ظهور السكك الحديدية وشيوعها خلقا حاجة إلى عدد من المهندسين أكثر من طاقة نظام التلمذة الصناعية السائد آنذاك. كذلك فإن المجالات الجديدة مثل الكهرباء والكيمياء العضوية، وهي مجالات تولي أهمية كبرى للخبرة التكنولوجية ليست من المجالات التي يمكن تعليمها عن طريق التلمذة الصناعية، لأنها تتجاوز خبرة الممارسين العمليين لها. وكان حل هذه المشكلات وغيرها من المشكلات ذات الصلة هو استحداث نظام للتعليم التكنولوجي في المدارس والمعاهد والجامعات. ولسوء الحظ أن هذا النظام تعايش بصعوبة أول الأمر مع التقاليد القديمة في الممارسة التعليمية، ولكنه تمثل واستوعب آخر الأمر في صورة مزيج دائم ومعقول. وكانت الحاجة إلى ذلك واضحة البرهان.

وعندما تبين أن المؤسسات التعليمية القائمة عاجزة عن التلاؤم مع الجديد،

خطط لهيئات جديدة بديلة. وقادت الدولة الفرنسية الطريق إلــى التجديد بعد الثورة عــام ١٧٨٩م، إذ أنشــأت المدرســة الفنية متعــددة التخصصــات «البوليتكنيــك»، وأعقبتها بروسيا التي أنشأت معاهد رفيعة المستوى للتعليم التكنولوجي. وتبنت معاهد «المنحة الأرضية» ــ Grant Colleges Land فــي الولايات المتحــدة موضوعات تقنيــة عند تأسيسها في الولايات الجديدة. وقامت السويــد أيضاً بدور رائد في مجال التعليــم التكنولوجــي فــي جامعتهــا التي أسســت العــام ١٨٢٩م، واتخــذت لنفسها اسم التاجر الإسكتلندي وليام كالمرز الذي وهب منحة إنشائها، ولكــن ظلت بريطانيا وحدها متشبثة بطرق التعليم التقليدية على الرغم من أن نجاح التصنيع البريطاني في مطلــع القرن التاسع عشر رآه البعض حجة قوية ضد التغيير، كما أن النزوع القوي في منتصف القرن إلى تطبيق مبدأ حرية العمل Laissez Faire فــي التعليــم وفي غيره مــن إدارات السياسة العامــة، قضى على أي إمكان لقيام مبــادرة من جانب الدولة. ومع هــذا اضطــرت بريطانيا أخيــراً إلى الإقرار بحاجتها إلى التغيير، وهو ما أكدته النجاحات الملموســة التي حققتها البلدان المنافسة فــي النصف الثانــي من القرن. وشرعت بريطانيا في وضع مقررات دراسية جديــدة، وأقامت مؤسســات جديدة احتل التعليم فيها مكاناً بــارزاً. وهكذا مع نهاية القرن أصبحــت كل دولة في العالم الغربي ملتزمــة بالتعليم التكنولوجــي. وأقامت له المؤسســات الملائمة حتى وإن تضمن هذا تغييــر التصور العام عن دور الدولة والوفاء بالالتزامــات التعليمية الموضوعية التي لم يكن بمقدور الإدارات السابقة النهوض بها.

وأصبــح التعليم الفني، بنــاء على ماسبق، جــزءاً لايتجزأ من جهــود الدولة. وكان من مظاهــر اكتساب التعليم التكنولوجي صبغة رسمية متزايدة باطراد، تزايد الطابع المهني المتخصص، والملاحــظ أنه قبل أن تتخذ أي دولة إجراءاتها المسؤولة بشأن التعليم، شرعت جماعــات من أصحــاب المهارات في التخصصات التكنولوجية الجديدة في تشكيل جمعيات تعبر عن مصالحهم خاصة عــن طريق ضبــط وتنظيــم الانضمام إلى صفوفهم. ووضعت هذه الجمعيات أهدافها ومنهــا: تعويضــ النقصــ فــي المنشآت التعليميــة الرسميــة، عــن طريــق تطبيق نظــام التعليم الذاتــي لأعضائها من خلال المناقشات في أوقات الراحة والمرح.

ويعتبر المهندســون البريطانيون مثالاً رائعــاً للتعبيــر عن هذا الاتجــاه. فبعد أن كان من المتعذر وجود فريق معترف به قبل منتصف القــرن الثامن عشر بدأ عدد قليل

منهم يطلقون على أنفسهم اسم «المهندسين المدنيين»، وذلك عن رغبة واعية منهم في تمييز أنفسهم عن المهندسين العسكريين الذين كانوا مشهورين اجتماعياً. واستطاعوا بفضل قيادة جون سميتون تشكيل «جمعية المهندسين المدنيين» العام ١٧٧١م، لتكون على هيئة نادٍ للرجال مع القيام ببعض الوظائف المهنية المنوطة بها.

وبعد جيلين، أي في العام ١٨١٨م تزايد عدد أبناء المهنة الوليدة زيادة كبيرة كفيلة بأن تنشئ منظمة مهنية كاملة الحقوق والواجبات تحت اسم «مؤسسة المهندسين المدنيين»، وتولى رئاستها توماس تلفورد، وصاغت في عهده ميثاقها الملكي العام ١٨٢٨م، ثم أصبحت النموذج الذي تحتذيه مؤسسات هندسية مماثلة في بريطانيا وفي أنحاء الإمبراطورية البريطانية وفي الولايات المتحدة. ولم تكن الدولة مسؤولة عن إنشاء هذه المؤسسات وماشابهها مثل هيئة المهندسين المعماريين أو الملاحظين المعماريين أو غيرها من الجماعات المهنية الجديدة.

ولكن الدولة اتجهت في القرن التاسع عشر إلى النظر إليها نظرة رضا وأقرت بها باعتبار أنها تمثل توسعاً وامتداداً للنظام الاجتماعي القائم على الاعتماد على النفس، ورأت فيها أمراً صائباً. وهكذا ترسخ نظام التخصص المهني وأصبح موضع ترحيب اجتماعي عام كمنتج مشتق من التكنولوجيا الحديثة، وعمد هذا النظام في الغالب الأعم إلى خلق علاقة حميمة مع تعليم الفريق المتخصص المعني، ليقدم إسهاماً موضوعياً من أجل ظهور صفوة من الطبقة المسؤولة عن الإدارة.

وتوازى نمو النشاط التكنولوجي في العالم الحديث مع نمو العلم في ترابط وثيق بين الاثنين. ولكن يتعين الإقرار بأن الاثنين ظاهرتان متمايزتان وإن ارتبطا بعضهما ببعض، كما لاحظنا في مستهل هذه الدراسة، فالعلم معني بالمعرفة وبفهم طبيعة البشر في بيئتهم، بينما التكنولوجيا معنية بصنع وعمل الأشياء. أي معنية بالطريقة التي يغير بها البشر بيئتهم، وإذا كانت التكنولوجيا قديمة قدم النوع البشري فإن الخبرة العلمية اعتمدت على مهارات تعلم الكتابة والحساب، ولهذا فهي حديثة نسبياً وليست أسبق من الحضارات الباكرة. واتجه العلم والتكنولوجيا إلى التطور مستقلين عن بعضهما نظراً لتباين الخصوصيات الاجتماعية. فمن المسلم به أن العلم أرستقراطية، بينما اقترنت التكنولوجيا بالحرفيين والعمال والعبيد. ولم يبدأ التقارب بين البحث العلمي والمهارات العلمية إلا في المجتمع الأوروبي

الغربي في العصــر الوسيط، عندما تهيأت له ظروف تتسم بقــدر ضئيل من الانفتاح، وتجلــى هذا في عديد مــن مظاهر التقدم المهمة في مجالي ضبط الوقت والملاحة. وأسست الجمعية الملكية العام ١٦٦٢م، كما أسست خلال هــذه الفترة تقريباً مؤسسات علمية قومية مماثلة في بلدان أخرى.

وشجــع على هــذا مــا أكــده الكشف العلمي من فائدة مرجــوة، أو بعبارة بيكون الشهيرة أن الكشف العلمي استهدف «زيادة سيطرة الإنسان على الطبيعة». وطبيعي أن اختراعات مثل اختــراع المحرك البخاري مــاكان لهــا أن تتحقق دون تطــور العلاقة الخصبــة بيــن العلــم والتكنولوجيا. ولكن الملاحــظ خلال القرنين الأخيرين أن هذه العلاقة أصبحــت أكثر توثقــاً وتكافلاً مع اطراد مظاهر الاعتماد المتبادل بين العلم والتكنولوجيا. مثــال ذلك أن النجاح الهائل للمحــرك البخــاري حفز أهــل الفكر إلى استكشــاف طبيعة العمليات داخل المحرك الحراري وإلى تطويــر نظريات الديناميكا الحراريــة، التي حققت إسهامــاً مثيراً في مجال الفيزياء الحديثة. وأدى التقدم في فهم هذه الظواهر بــدوره إلى تحفيز مهندسين من أمثال رودولف ديزل إلى تطوير المحرك داخلي الاحتراق بفضل تصوره النظري عن محرك عالــي الانضغاط، وحدثت تطورات مماثلة في فــروع أخرى للعلم والتكنولوجيا كان أوضحها في العلاقة بين علم الكهرباء والهندســة الكهربائيــة، وكــذا بيــن علم الكيمياء وتكنولوجيات الهندسة الكيميائية والصيدلة.

وسبــق أن أشرنا إلى الدلالات الضمنية لهــذه الرابطة الوثيقــة المتزايدة في ضوء الإجــراءات التعليميــة. إنها إجمــالاً زيادة اعتماد التكنولوجيــا على النظرية العلمية، وفهــم أن هذا أدى إلى زيــادة الحاجة إلى تعليم رسمي مؤسســي في هذه المجالات، ولكــن لايــزال كل من النشاطيــن محتفظاً بهويتــه المميــزة. ونذكر بوجــه خاص أن تطور المعرفة العلمية ينزع إلى التحرك في طفرات أو «نقــلات للإطار الفكري»، بينما الخبــرة التكنولوجيــة يغلب عليهــا الطابع التراكمي في صورة آلية متدرجة ومتشابكة. ولكــن ثمــة أسباب عملية وجيهــة تبرر لنا معالجة كل منهما على حدة.

شجعــت الدول الحديثــة التعليم الفني وأحاطــت برعايتهــا التكافــل بيــن العلم والتكنولوجيــا. وأفاد هذا كثيــراً في خلق وتعزيز ظروف الحــراك الاجتماعي بحيث أصبــح الأفــراد واعين بالفرص المتاحة أمامهم لتحسين أوضاعهم، ومدركين أن لكل امرئ دوره الشخصــي الموضوعي والمهم، وبذلك رسخت الــدول أسس الديموقراطية

الليبرالية. ويصدق الشيء نفسه إلى حد كبير على علاقة الدولة بالعديد من الأنشطة الثقافية العامة مثل الآداب والفنون والدين والرأي العام. وليس من المطلوب ولا الصائب أن تتدخل الدولة على مستوى كبير في هذه المجالات. ولعل الأصوب أن الدولة التي تنزع إلى التسامح ستحقق الكثير في سبيل النهوض بالمزايا والمغانم المحتملة للتطور التكنولوجي، أكثر من دولة تنزع إلى توجيه مسار التحول الثقافي بأسلوب قائم على العدوان أو عدم التسامح، أو بعبارة أخرى إن المحاولات التحكمية من جانب الدولة بفرض رقابة صارمة على الفنون أو إيثار عقيدة دينية على حساب عقائد أخرى، أو صب الرأي العام في قوالب يصوغها الإعلان والدعاية بإمكاناتهما الطاغية، إنما هي محاولات غير صائبة. وليس هذا فقط لأنها ستؤدي إلى تقويض أساس الديموقراطية الليبرالية، بل أيضاً لأنها سوف تستنزف مناهل النشاط الفني التكنولوجي. وحري بنا أن نتذكر أن منابع الإبداع التكنولوجي ذات الثراء والخصوبة إنما تستمد طاقتها من احتياطيات القوة الإبداعية نفسها التي تحفز الجوانب الأخرى للنشاط الثقافي، ومن ثم فإن تقييد أحدهما يعني تقييد الآخر. والعلاقة الوثيقة بين التكنولوجيا والإبداع الثقافي واضحة على جميع المستويات، حقاً إن التكنولوجيا لم يكن لها بروز واضح في الأدب التقليدي في أوروبا وشمال أميركا، ولكن ثمة ألفة متزايدة بين الأدب والتكنولوجيا العالية في صورة الخيال العلمي.

وإذا كنا لانزال ننظر إلى القدر الأكبر من هذا النوع من الأدب باعتباره أدب العامة، فإن بعضه يخلق تياراً من الكتابة الجيدة التي تستحق هذه العلاقة، كما يثير العديد أن نأخذها مأخذاً جاداً باعتبارها شكلاً من أشكال الأدب، ومجالاً للتأمل المهم في جوهر المجتمع التكنولوجي. ولقد استطاعت التكنولوجيا في مجال الفنون البصرية أن تحدث تأثيراً امتد زمناً طويلاً، وذلك في مجال الفن المعماري لمحطات السكك الحديدية وفي الجسور الخرسانية، وأيضاً في حركات فنية مثل الانطباعية وحركة الفن الجديد والتكعيبية. ولكن تأثير الموسيقى أقل وضوحاً، هذا على الرغم من أن الموسيقيين المحدثين يغتنمون الفرص التي هيأتها لهم التقنيات والآلات الجديدة، لتوسيع نطاق عملهم ولتسجيل وعمل توليفات من إبداعاتهم.

وهناك أيضاً ظاهرة موسيقى البوب، فإنها تقدم صورة مضخمة قوية ولكنها متوازنة لجماهير عريضة من المستمعين، وتمثل تعبيراً واضحاً ومميزاً عن هذه

العلاقة، كما تثير العديد من المسائل المهمة عن الضبط الاجتماعي، فإذا كانت مصلحة المجتمع تقتضي ممارسة قدر من الضبط بشأن مواعيد ومواقع احتفالات البوب، فسوف يكون خطأً شنيعاً استخدام هذا الحد الأدنى من السيطرة كوسيلة لتوجيه شكل هذه الأحداث أو جعل السيطرة عليها أمراً مستحيلاً، إن العلاقة غالباً هي علاقة حساسة، ولكن المثل الأعلى كما في أي مكان آخر هو الحد الأدنى من تدخل الدولة، والحد الأقصى من حرية الفرد في التعبير. ويصدق الشيء نفسه على العلاقة بين التكنولوجيا والدين. حقاً إننا للوهلة الأولى لانرى رابطة واضحة بينهما. لقد كان الدين تقليدياً موضوع اهتمام كبير ونشاط مكثف من جانب الدولة التي اعتادت توجيه المواطنين إزاء التزاماتهم في الوقت الذي تحظر فيه أي رؤى بديلة. ولكن جميع دول العالم الغربي تخلت تماماً الآن عن موقف التدخل في الدين حتى وإن وجدنا بعضها يحتفظ بما يشبه الكنيسة القومية. وأثبتت الخبرة المرة أن التسامح هو العلاقة الوحيدة التي يمكن دعمها واستمرارها بأريحية وسعادة بين المعتقدات الدينية التي تبدو في ظاهرها متباينة. وهذا درس له دلالاته بعيدة المدى بالنسبة للإبداعية الثقافية وللديمقراطية الليبرالية وللمجتمع التكنولوجي. علاوة على هذا فإن الدين هو المعني بأهداف وغايات الحياة البشرية، ومن هنا نجد تجاوباً وثيقاً بينه وبين الأوضاع المادية التي هيأتها ووفرتها التكنولوجيا. إن التكنولوجيا يمكنها أن تحقق ثراء مادياً أو دماراً مادياً، وهذا من شأنه أن يفرض مشكلات يتعين على جميع الأديان في عالمنا الحديث أن تنظر إليها نظرة جادة للغاية. ونعود لنقول إن هذا يقتضي بالضرورة بيئة تسودها روح التسامح الاجتماعي. مجال آخر للتحول الثقافي العام هو الرأي العام، وله أهمية كبرى في أي مجتمع ديمقراطي. إنه يمثل مجالاً لتوافق المشاعر بين قطاع بارز ومهيمن في المجتمع ويعني ضمناً قدراً من المشاركة من جانب جميع أبناء المجتمع في عمليات اتخاذ القرار، وليس من الملائم على سبيل المثال الحديث عن رأي عام داخل دولة ديكتاتورية حيث جمهرة الناس لايستشيرهم أحد في أي من أمور السياسة العامة. وليس من الملائم كذلك الحديث عن رأي عام في مجتمع عاطل من وسائل الاتصال التي تصوغ الرأي العام وتعبر عنه. والمعروف أن التكنولوجيا الحديثة حين وفرت وسائل الاتصال السريعة والسهلة من خلال الكلمة المكتوبة والاتصالات اللاسلكية، فإنها أسهمت إسهاماً بارزاً في تطوير

رأي عـام أصيل داخل المجتمعات الغربية. واستطاعت التكنولوجيا بذلك أن تؤدي دوراً في تعاظم المؤسسـات الديمقراطية، ومن ثم في دعم وتعزيز قيام مجتمع صحي بكل ماتعنيـه هذه العبارة. وحـري بنا أخيراً أن نتدبر العلاقة بين التكنولوجيا والدولة فيما يتعلـق بموضوع الحـرب، إذ إن هذا مجال له أهمية قصوى لتماسك، بل لبقاء الدولة، وأسهمت التكنولوجيـا فيه إسهامات مبرزة ومتزايـدة باطراد. لقـد كان هدف الدول دائمـاً منذ قديـم الزمان امتـلاك أسلحة تفوق ماتملكه الـدول المنافسة كماً وكيفاً. وسبـق أن لاحظنا كيف أن المدافع والسفن الشراعيـة مكنتـا الـدول الأوروبية من أن تؤسـس إمبراطوريات بحرية شاسعة ابتداء من القرن السادس عشر. ورأينا أيضاً كيف أن التحسينات التالية في مجال التكنولوجيا هيأت لهذه الإمبراطوريات الأوروبية فرصة للتوسع خـلال القرن التاسـع عشر. ولكن سادت بين الدول القومية في أوروبا الحديثة حالة من شبـه التـوازن التكنولوجي نظراً لأن كل دولة ناضلت مـن أجل أن تكون نداً لمنافسيهـا فيما يملكونه من أسلحة، بل أن تتفوق عليهم. وأفضـى هذا إلى خلق حالة دائمة من سباق التسلح حتى وإن خفت حدة المنافسـة بين حين وآخر مع نقص مشاعر العداء بين المتنافسين الرئيسيين. وتسارع سبـاق التسلح من ناحية أخـرى مع نشوب حرب، أو بسبـب الخوف من حرب وشيكة، وهنا يجب البحث عن أسلحة أضخم وأفضل حتى وصـل الأمر إلى نسب كبيرة جداً مما أدى إلى استهلاك القدر الأعظم من فائض ثروة المجتمعات المتورطة في الصراع.

ونجد هذه العملية واضحة خلال القرن التاسع عشر ولكنها زادت حدة خلال القرن العشرين بسبب عوامل عـدة. وكان العامل الرئيسي في ذلك هو زيادة العلاقة الوثيقة بين الابتكارات التكنولوجية وأهداف الحرب أو قابلية هذه الابتكارات للتعديل والملاءمة بحيث تفي بأهـداف الحرب. إذ وقتما كان المحـرك البخاري هو القـوة التكنولوجية المهيمنـة لم يكـن واضحاً آنـذاك، وعلى مدى بضعة عقود، كيـف يمكن تعديل هذا المحـرك سريـع العطـب ليكـون صالحاً لاستعمـالات حربية، ويتعيـن في الحقيقة النظر إلـى المحـرك البخـاري باعتباره واحـداً من أهم الابتـكارات نفعاً للإنسان، إذ لم يكن له أكثـر من دور مساعد للقوات البرية. ومن المسلم به أنه أحدث أثراً كبيراً فـي الحـرب البحرية لأنه حـوَّل المعارك التقليدية التي كانت تدور بين سفن شراعية كثيفة التسليح، إلى اشتباكات سهلة الحركة نسبياً بين سفن تعمل بقوة دفع الرفاصات. والمعـروف أن السفن التـي تعمل بدولاب

ذي أرياش «الرفاص» كانت دائماً عرضة للأعطال بحيث لاتستهوي القوات البحرية لاتخاذها سفناً حربية مثالية، ولكن لم يكد الرفاص يصبح هو الشكل الأفضل للدفع البخاري حتى حدث تحول سريع إلى السفن الحربية البخارية.

كذلك مع التحول إلى التشييد بالحديد والصلب، ومع استخدام المدفعية الثقيلة المثبتة في أبراج متحركة تطلق القذائف المتفجرة Shells بدلاً من كرات المدفع التقليدية Cannon ball، بدأ التحول إلى السفينة «المدرعة». والمدرعة طراز من سفينة مصنوعة من الصلب، وتنطلق بسرعات عالية بوساطة توربينات بخارية ومجهزة بتصفيح ثقيل وقوة نيران رهيبة، واكتملت عملية صنع المدرعة قبيل اندلاع الحرب العالمية الأولى. ومع اندلاع هذه الحرب كانت القوات البحرية الأوروبية الرائدة في حالة توازن قلق، ومن ثم كان كل طرف حريصاً على كشف أوراقه، ولهذا لم تقم القوات البحرية إلا بدور صغير في العمليات القتالية، ولكنها برزت وأكدت أهميتها فقط في حرب الغواصات، وذلك بفضل المحرك داخلي الاحتراق، والكهرباء اللذين زودا الغواصات بالقوة الحركية.

بيد أن أهم إسهامات التكنولوجيا في حرب القرن التاسع عشر لم تكن في مجال المحركات الأساسية، بقدر ماكانت في مجال العمليات الكيميائية خاصة استحداث وتطوير المتفجرات الشديدة، إذ كان بالإمكان صناعتها في أشكال مناسبة للخراطيش مما شجع على تطوير البندقية التكرارية والمدفع الآلي وكذلك القذائف التي تطلقها مدافع كبيرة جداً. ويمكن استخدام هذه المدافع في المعارك البحرية والبرية. ونجد أثر ذلك واضحاً في عمليات القصف الكاسحة التي تسبق أي تقدم محتمل لحرب الخنادق التي سحقت إقليم الفلاندرز في شمال أوروبا فيما بين العامين ١٩١٤ و ١٩١٨م. وأصبح إنتاج هذه المتفجرات من أجل الاشتباكات العسكرية صناعة مهمة في جميع بلدان أوروبا مما يبرر وصف الحرب العالمية الأولى بأنها «حرب الكيميائيين». وطبيعي أنها كانت أكثر من ذلك، ولكن الاعتماد الكبير على الإنتاج الكيميائي كان على وجه اليقين أحد المحاور التكنولوجية لهذا النزاع. ونجد الابتكارات المهمة الأخرى في الحرب العالمية الأولى مستمدة من المحرك داخلي الاحتراق، وأولها الدبابة، وهي مركبة ثقيلة مسلحة ومجهزة بحصيرتين (مجنزرتين) يمكنانها من اختراق الأراضي الوعرة، ثم الطائرة التي ظهرت، كما رأينا، في الوقت المناسب لملاءمتها للأعمال العسكرية، وسرعان

ماهيأت مسرحاً جديداً للعمليات القتالية هو مسرح الحرب الجوية. واستخدمت الطائرات الأكبر حجماً طائرات قاذفة على الرغم من أن حمولتها من القنابل كانت قليلة، وكفاءتها الهجومية الجوية محدودة جداً. وكان الدور الأكثر فعالية وكفاءة للطائرة هو الاستطلاع، والعمل كوسيلة لتوريط تشكيلات العدو في معارك بين الطائرات المقاتلة.

وعملت في هذه الأثناء أيضاً في الخطوط الخلفية الشاحنات والسيارات، وأسهمت إسهامات مفيدة في الحرب، إذ كانت عاملاً مكملاً للسكك الحديدية في توفير ونقل الإمدادات والتموين والتعزيزات العسكرية علاوة على خدمات الإسعاف. وهكذا كانت الحرب حافزاً قوياً حث على إنتاج هذه الماكينات الجديدة، ومن ثم ساعدت على خلق صناعات كبرى لتحل محل وحدات الإنتاج الأساسية الصغيرة والمتجزئة التي كانت النمط العادي في السابق.

وإذا كان تشخيص الحرب العالمية الأولى بأنها حرب «الكيميائيين» تشخيصاً مقبولاً، فإن الحرب العالمية الثانية يمكن اعتبارها حرب «الفيزيائيين». إذ بينما هيمن على تكنولوجيا النزاع الأول إنتاج المتفجرات الشديدة فإن مسار الحرب العالمية الثانية حدده الرادار، وهو تقنية مسح إلكتروني حققت ميزة حيوية للسلاح الجوي الملكي في معركة بريطانيا. وأسهمت في تحديد مسار الحرب أيضاً ماكينات التشفير المعقدة، وحل الشيفرات مما هيأ للمخابرات دوراً حيوياً، ومهد السبيل للحاسب أو الكومبيوتر الإلكتروني. وأخيراً تحقق الانتصار والفوز بالحرب على ساحة الشرق الأقصى بفضل نجاح علماء الفيزياء في تطوير قنبلة ذرية خاضت المعركة الفاصلة لمصلحة الحلفاء.

وهذه الابتكارات امتداد وتطوير لنظريات فيزيائية معقدة لم تكن بصعوبة معروفة قبل الحرب. وكان تحويلها إلى عتاد هندسي للاستخدام في محطات الرادار والطائرات يستلزم تخصيص موارد هائلة من رأس المال والقوة العاملة البشرية الماهرة، وأياً كانت حدود هيمنة هذه الابتكارات فقد كانت جزءاً من التطور التكنولوجي السريع الذي أنضجته الحرب، إذ نجد من بين هذه التطورات الأخرى المحرك النفاث والطائرة الهليكوبتر وأسلحة الانتقام ف ١ وف ٢. ونخص بالذكر هذا السلاح الانتقامي الأخير وهو القنبلة الصاروخية التي كانت نذيراً بتطبيق تقنية ثورية جديدة، من شأنها أن تفتح حدود الفضاء خلال العقود التالية للحرب. أضف إلى هذا تسارع إنتاج المضادات الحيوية مثل البنسلين وتطوير

المبيدات الحشرية مثل الـ «دي، تي» من بين سلسلة من التقنيات الجديدة الأخرى. وفي ضوء كل ماسبق يمكن اعتبار الحرب العالمية الثانية حرباً غنية جداً بالابتكارية التكنولوجية. وثمة سبب مهم لثورة الابتكار التكنولوجي في الحرب العالمية الثانية هو أن الدول المتحاربة بذلت جهداً نشطاً في سبيل النهوض بما يعرف باسم «البحوث والتطوير» R & D. ذلك أن الحرب، ولأول مرة جعلت من الابتكار مسألة ملحة بالنسبة للدولة واستطاعت الأمم، نتيجة هذا الشرط التكنولوجي، أن تتبارى في سبيل الابتكار أو الهلاك، واستشعر الحلفاء قلقاً من أن هتلر ربما كان عاكفاً على إنتاج قنبلة ذرية، وكان هذا القلق حافزاً قوياً للعمل، ومبرراً لرصد نفقات هائلة لإنجاز مشروع مانهاتن الذي اعتمد عليه الحلفاء لإنجاز مشروعهم للتطوير الذري. ولم يكن ثمة مبرر لهذا الالتزام الشديد من جانب المستويات العليا بعد ذلك لولا الحرب الباردة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي السابق، التي أرغمت القوتين العظميين على مواصلة استثماراتهما الضخمة من الموارد في مجال البحث والتطوير في مجال الأسلحة المعقدة. وهكذا تحدد الدرس الذي تعلمناه من الحرب الحديثة وهو أن لامنجاة لأمة تهمل التكنولوجيا بعد ذلك، وأنه ما دامت المنافسة مستمرة على أعلى المستويات بين الأمم فسوف يظل لزاما عليها رصد الموارد الضخمة لتطوير الأسلحة، على الرغم من كل مايحمله هذا من آثار اقتصادية وسياسية شديدة الوطأة على المجتمع كله.

المراجع:

١ - التكنولوجيا الملائمة والتنمية/ مراجعة وتقديم: نجيب صعب. بيروت: مركز الشرق الأوسط للتكنولوجيا الملائمة ١٩٩٤م.

٢ - في مملكة العلم والتكنولوجيا/ تأليف الشافعي منصور، القاهرة، ٢٠٠٠م.

٣ - آفاق الاتصال ومنافذه في العلوم والتكنولوجيا/ تأليف جاك ميدوز، وترجمة حشمت محمد علي قاسم، القاهرة ١٩٧٩م.

٤ - العلم والتقانة: التكنولوجيا/ خير شواهين، إربد (الأردن: عالم الكتب الحديث) ٢٠٠٩م.

٥ - تاريخ التكنولوجيا/ تأليف ايفون لارسن، ترجمة مصطفى ماهر. القاهرة، ١٩٧٧م.

تداعيات إلى العصر الحجري الأول

(نص شعري)

❁
ساجدة الموسوي



كان الإنسانُ
يقتلُ حيواناً كي يأكلَ
صار الإنسانُ
يقتلُ إنساناً كي يأكلَ

❁ ❁ ❁

كان الإنسانُ بلغةٍ يُفهم
صار اليومَ بكل لغات العالمِ لا يُفهم

❁ ❁ ❁

كان الإنسانُ بلا بيتٍ ،فالعالمُ بيته
صارَ له بيتٌ
فسعى لخراب بيوت الناس

❁ أديبة وشاعرة عراقية.
العمل الفني: الفنان علي الكفري.

كان الشغلُ الشاغل للإنسان
أن يحمي بيته
من غضب الحيوانَ
صار الآنَ
يخشى من فتكِ أخيه الإنسان

❁ ❁ ❁

كان الإنسانُ بجلدة ماعز يستر جسمه
كان حيياً مستوراً مسرور
واليوم بأنفس أثوابهِ
يمشي والعينُ عليه تدور
يتساءل والخوفُ يلاحقهُ: أأنا عارٍ أم مستور؟

❁ ❁ ❁

كان الإنسانُ حكيماً يتفادى الأخطار
يخشى البحر ويخشى النار
يخشى الدم والدمع المهدور
لا يحسد.. لا يحقد.. لا شأن لهُ غير الأسرةِ والكهفِ
وصيد الريمِ وجمع الأحجار
صار اليومَ يعدُّ جيوشاً و يدمِّرُ أوطاناً
يحرقُ يقتلُ لا يخشى
الأخطار

❁ ❁ ❁

كان اللّهُ بقلب الإنسان
والقلب اليومَ يعشعشُ فيه الشيطان

❁ ❁ ❁

آه .. لو نرجع ثانيةً للعصر الحجري الأول
كي ندرك معنى الإنسان

القصيدة المقبلة

عصام ترشحاني ❁



هِيَ الآنَ تخطفُ
زهرة روحي
وشعرية اللون والضوء والمفردة..
هي الآن..
تبلغُ جوزاء قلبي..وترحلُ..
أراني أيمِّمُ

❁ ❁ ❁

في خَفَقان الغياب
وفي صورتي كالعذاب
فأدخُلُ في تيهِ أحوالها
قارئاً.. أعذب أوقاتنا

❁ أديب وشاعر فلسطيني.
العمل الفني: الفنان علي الكفري.

في التماع السراب...
فكم هَزّ أكتافها
قمرٌ.. طاعنٌ بالشّذا ..
هَزّها بأنامل كادت
تُجرِّح من شهوة الشوقِ
جسم الكمان..
وكم حافياً..
بالصهيل أتاها
ليدهش وحشية النوم
بالزعفران العليِّ وجمر الغضى..
مثيرٌ.. هو اللمسُ..
في عزلة الريحِ
كالانخطاف الذي في رجيف الرحيق
لهُ.. صَبَواتُ الغصونِ
التي كُلّما حَكَّ أجفانها
أُصبع الطلعِ
هَبَّ وَهِيجُ الجنون
مثيرٌ... هو الهمسُ في هالَتيْهِ
ويشبهُ ماء الجُمانِ،
وهسهسةَ الأرجوان..
فيا امرأةً ..
في العصيِّ من الوقتِ
أو.. في أقاصي الدخان ..
لماذا ..
على طرفٍ غامضٍ،
لا يُسمّى من الأرضِ،
تركْتِ غمامتنا الشاهدة؟
لماذا ..
ونحن بعافية الشمسِ
كُنّا نحبُّ،
وكنّا نُغنّي
تُريقين زَهْوَ البلاد بنا
ثمّ تمضين.. تمضينَ
للّحظة الجاحدة..!؟
أنا الآنَ يا...
غابةً في كتاب اليبابِ،
أنا الآنَ جذعُ فؤادٍ،
تهاوى.. وغابَ...
فهل توقفين الهباءَ قليلاً..
وهل تسحبين عن الظِّل..
بعض ظلام السماء...؟
سأخرج بعد دموعي الأخيرةِ..

بعد طيور البياض التي
كلمتني.. لكي أمسكَ
الأرض من لهجة الخصبِ،
والحلمَ من
متعة السنبلة..

ثمّ أُلقي..
على الذاهبينَ،
مع الريح والشمسِ،
ألقي.. قصيدتنا المقبلة...

اللعب في المقهى القديم

سامر أنور الشمالي ✽



(١)

– من يلعب النرد؟

سؤال ألقاه أحد أقدم روَّاد المقهى القديم، فمنذ تسلمه لأوَّل راتب اعتاد على قضاء مساء كل يوم في المقهى ذاته كي يهرب من شكوى زوجه، ومشاكل أولاده التي لاتنتهي، والأهم من ذلك كله لكي يجتمع بالأصحاب الذين أدمنوا مثله الجلوس لساعات طويلة في المكان ذاته، وإن كان لكل منهم سببه الخاص.

– من يلعب النرد؟

✽ أديب وناقد.

أعـاد السؤال الـذي لم يحـظَ بإجابة جادة وهو يتثاءب ويرمي حجري النرد على الطاولة ليعـود ويلتقطهما مـن جديد، ثم خاطب الرجل الجالس بمحاذاته:

- لم أرك تلعب النرد يوماً يا أستاذ!.

ابتسـم الأستاذ من دون أن يحول بصره عـن الصحيفة التـي يقرأ فيهـا، وغمغم قائلاً:

- لدي ما يشغلني.

- الأستـاذ ماهـر في لعـب الشطرنج فقط، إنها لعبة المثقفين يا جاهل.

قال مازحاً رجل يرتدي بذلة سوداء وهو ينظر إلـى الموظف الذي بادله غمزاً خفيّاً قبل أن ينطق:

- المثقفـون لا يجيـدون اللعـب، إنهم ماهرون في الثرثرة فقط.

- وأنت؟

سـأل النـادل وهو يوزع كؤوس الشاي الساخن على طاولة خشبية تآكلت حوافها.

- في الثرثرة أيضاً.

أطلقوا قهقهاتهم عالياً في فضاء المكان المثقـل برائحة التبغ والتنبـاك والضجيج وحطام الأمنيات، فقد كانـوا متلهفين إلى شيء مـن المرح فـي مساء هطـل سواده الدامسـ في الأزقة الخاليـة المبللة ببقايا مطر شحيح.

- لقد مللنا من اللعب!.

قال صاحب البذلة السوداء وهو يساوي من وضـع ربطة عنقه بحكم عـادة قديمة اكتسبها بعـد ارتداء أول ربطـة عنق. ولم يقصـد إغاظة صاحب المقهى الذي تململ علـى مقعد كبير منجد بأقمشة فاخرة بهت لونها منذ زمن بعيد، قبل أن يصيح مدافعاً عـن هجوم طـال مقهـاه وإن بطريقة غير مباشرة:

- العيب في اللاعب يا عزيزي، فالناس يلعبون منذ آلاف السنين ولم يشكُ أحد من اللعب يوماً ما.

- يجـب ألا يهـدر الإنسـان حياته في اللهـو، وحبذا أن يملأها بشيء مفيد يخدم الناس.

قال الشيخ بجديته المعهودة وهو يصلح من وضـع عمامته البيضـاء النظيفة على رأسه الكبير الخالي من الشعر.

كتم صاحب المقهـى غيظه وهو يرمق الشيخ بعينيه الضيقتين اللتين لا تكفان عن مراقبة روَّاد مقهـاه. بينما انبرى الموظف للرد:

- ماذا نستطيع نحن أن نصنع؟

اكتفـوا بالابتسام وهـم يرمقون الشيخ باحترام وترقب، وبادلهـم الشيخ النظرات بعينيـن صافيتين لا يعكرهما أي أمر طارئ مهما كان صاعقاً، وقال بثقة لا تتزعزع:

- أتحدث مع عباد الله، وأستمع إلى مشاكلهم، علنا نسعى معاً إلى ما يرضي العبد والمعبود.

أجوبة الشيخ التي لا تخلو من بلاغة لطيفة تجعل المتحلقين حوله يتأملون في أطوار الحياة المستعصية على الفهم لدقائق قصيرة، فسرعان ما تزول حالات الزهد المؤقتة ويجرفها ضجيج الحياة الذي لا يتوقف جريانه حتى في مقهى تنخفض درجاته عن مستوى الشارع الضيق في حي صغير نشأ مصادفة على أطراف مدينة عظيمة تتكاثر فيها الأضداد.

- من منكم يعرف لعبة نجهلها يعلمها لنا؟.. ألا توجد ألعاب جديدة حقاً على هذه الأرض الشاسعة؟!.

على الرغم من ضعف صوت الدكتور أنصت الجميع إليه باهتمام، فروَّاد المقهى يحترمونه ويبجلونه، وكثير منهم يعتقد أن من حقه ممارسة شيء من الصلف والغرور عليهم لمكانته الاجتماعية التي لا يمكن تجاهلها بسهولة.

- كل الألعاب استنفدت منذ زمن بعيد.

قال ماسح الأحذية الذي يختتم يوم عمله بساعات يقضيها بين أحذية روَّاد المقهى الذين يدفعون إليه ببعض النقود، وكؤوس الشاي، وفناجين القهوة، نظير عمله المتقن، وتعاطفاً مع وضعه المالي الرديء.

- ما أدراك أنت؟! دونك الأحذية.

قال الدكتور مستنكراً وهو ينظر إلى أسفل حيث ابتسم ماسح الأحذية من دون حرج، وتابع عمله باهتمامه المعهود. ثم قال بفخر لم تقلل منه ثيابه الملوثة ببقايا (البويا) السوداء الداكنة:

- منذ طفولتي وأنا أقضي يومي كله متنقلاً بين المقاهي. أعرف كل الألعاب، ولا يوجد لعبة لا أجيدها.

- إذا كنت ماهراً في النرد فاجلس قبالتي، فإذا غلبتني أدفع ثمن ما تشربه، وإذا غلبتك تدفع أنت.

قال الموظف ما بين الهزل والجد، فالتفت إليه ماسح الأحذية، وقال وهو يرفع فرشاته السوداء ذات الرائحة المميزة، فأرجع الدكتور رأسه باشمئزاز وهو يطوح بيده السمينة أمام أنفه الضخم:

- أنا أراقب فقط.

وأردف وهو ينهض بعدما قام بواجبه تجاه حذاء الزبون الذي وضع أجرته على الطاولة:

-أتعرف كم حذاء يجب عليَّ مسحه لأحصل على خبز يكفي أولادي وأمهم؟

-ليعنك الله في دار البلاء.

قال الشيخ وهو يبتسم بود إلى ماسح الأحذية الذي وضع يده على صدره بامتنان، قبل أن يبادر الأستاذ وهو ينحي الجريدة

جانياً بالكلام:

- الدعـــاء وحده لا يكفي.. يجب تقديم مساعدة حقيقية.

- المؤمنون إخوة في السراء والضراء.

قـــال الشيـــخ وهـــو يشيح بصـــره عمَّا حوله، فوقع بصره على كوة انكسر زجاجها فسمحـــت لدخـــان السجائـــر والنرجيلـــة بالهـــروب منها إلـــى الفضـــاء اللامحدود في الخـــارج حيث السكينـــة تشمل المنازل الصغيرة المتجاورة.

- هل من المعقول أن تتواصل الاختراعات في كل المجالات باستثناء الألعاب؟

أعـــاد الدكتور طرح أفـــكاره ذاتها، وإن بأساليـــب عدة، فلـــم يشأ ألا تكـــون أفكاره محور اهتمام الجميع من وقت لآخر.

- لو كانت الألعاب تُخترع لاخترعنا منها الكثير في السجن.

قال رجل متوسط العمر وهو يبتسم عن بقايا أسنـــان محطمة، فضحك الجميع، إلا الدكتـــور الذي قال بلهجة لا تخلو من عداء مبطن:

- الألعاب بحاجة إلى إعمال الفكر، وليس إلى وقت ضائع.

- لـــم نكـــن نعبث، وقـــد دفعنـــا الثمن باهظاً.

قال صاحب الأسنـــان المحطمة بحدة، فتجاهله الجميع مـــن دون اتفاق مسبق كي لا تنقلب جلستهم التـــي يريدون منها اللهو والســـرور إلى جد يرهق الأعصاب والفكر. وعادوا إلى الحديث عن الألعاب التي كانوا يمارسونهـــا في طفولتهـــم، وشاب أصواتهم الخشنـــة حنيـــن لا يمكن الفـــرار منه على الرغم من تعاقب السنوات الطويلة. وبعدما هدأ حماســـ الذكريات المتبقية قال الشيخ بصوته العذب:

- لم يخلـــق الله الإنسان في الأرض إلا لحكمة سامية.

تردد أكثر من صوت مؤكداً قول الشيخ، ولم يكن أصحاب الأصوات يدركون المرمى البعيد للرأي الذي سمعوه. ولم يشأ الدكتور أن يطغى حضور الشيخ على حضوره، فعاد إلى طرح فكرته بدأب:

- يجب الانتبـــاه إلـــى أن الألعاب التي نمارسها اليوم كانت في زمنها مجرد أفكار لرجال عظماء.

- قول صائب لا يخلو من حكمة.

- أجل.

- كيف تمَّ اختراعها في زمنها؟!.

- لنحـــاول الإجابة على هـــذا السؤال، فقد نخرج بنتيجة لم نكن نتوقعها من قبل.

قـــال الأستـــاذ بجديته المعهـــودة لدى مناقشـــة أي موضوع، ثم أشعـــل لفافة تبغ، وأخـــذ ينصـــت باهتمـــام إلى أجوبـــة روَّاد المقهى على اختلاف الآراء والأمزجة.

- اللعب متعة بذاتها.
- كي ينسى الإنسان همومه ومشاكله.
- طلباً للهو والتسلية.
- من يا ترى لديه القدرة على اختراع لعبة جميلة نلعب فيها جميعاً.

قال شاب بصوت لا يخلو من الاستعراض، من دون أن يحول بصره عن شاشة كمبيوتره المحمول الذي يأخذه معه أينما حل.

- كيف يكون ذلك؟
- ليس هذا بالأمر السهل.
-الأمر يحتاج إلى الكثير من التفكير.

(٢)

- لنجرِ انتخابات ونرَ من سيفوز؟

تدخل الرجل الجالس في الزاوية للمرة الأولى في النقاش الدائر بعدما وضع على الطاولة المذياع الصغير الذي كان يلصقه بأذنه.

التفت الجميع دفعة واحدة إلى المتحدث الأخير، وكأنهم فطنوا لجلوسه بينهم، وتبادلوا النظرات بدهشة بدت في أسئلة ملحة تنتظر إجابات شافية:

- ما علاقتنا نحن بالانتخابات؟
- من سيفوز يا ترى؟
- بل ماذا سيكسب الفائز؟.. وماذا سيصنع؟
- لا تحشرونا في السياسية. أريد أن أنام في منزلي هذه الليلة.

قال الموظف، فابتسم صاحب المذياع وهو ينظر إلى الجميع من مكانه المتطرف في أقصى المقهى، وقال وهو يشير بيديه بحركات سريعة لا معنى لها:

- إنَّها مجرد لعبة.. المرشح يلعب والناخبون يلعبون أيضاً.. ولدى معرفة النتيجة تنتهي اللعبة.
- أمر معقول لا ضير منه.
- قد تروقنا اللعبة فنزاولها كل يوم.
- لنجرب.
- لن نخسر شيئاً.

حرك صاحب المقهى جسده المترهل بصعوبة، وقال بروية وهو ينقل بصره من شخص لآخر، وكأنَّ الجميع ينتظرون إقراراً منه بالموافقة ليبدؤوا لعبتهم الجديدة:

- لا مانع لدي من إدخال هذه اللعبة إلى المقهى.

ما كادت تتصاعد بعض الصيحات المؤيدة لكلام صاحب المقهى حتى قال الدكتور وهو ينظر حوله باحثاً عن منافس قوي له فلم يجد من يعادله:

- يجب أن يكون المرشح لائقاً بالمنصب.
- طبعاً.
- يجب أن تتوافر فيه المؤهلات المطلوبة.

أكد الأستاذ وقد أحس بأهمية الموضوع المطـروح، وأن الأمـر لم يعـد مجرد لعبة عابرة.

ودب الحماسـ فـي صاحـب الأسنان المحطمة، وخرج عن حذره المفرط ليسأل بأعلى صوته:

- من سينتخب؟

- لا بد من شروط ما؟

- مـا هـذه الأسئلـة الغريبـة؟!.. كلنا سننتخب.

قال الشاب صاحب الكمبيوتر المحمول، وهو يلتفت حولـه باحثاً عن مؤيدين، فقال الجالس بمحاذاته وهو يعتدل في جلسته:

- أنا لم أشارك في أي انتخاب من قبل.

- وأنا أيضاً.

قـال صاحـب الأسنـان المحطمة، ثم سرعـان ما سحـب ابتسامتـه وأخذ ينظر حوله بحذر.

- من سيرشح نفسه؟.. من يقول أنا؟.

قـال صاحـب المقهـى بأعلـى صوته المبحوح من كثرة الصياح طوال اليوم، وقد برقت عيناه الضيقتان بشهوة جديدة.

- أنا.

قال بائع ورق اليانصيب الذي دخل للتو المكان من دون أن يعرف حقيقة الأمر، وبدأ كعادته يطـوف بين روّاد المقهـى ليبيعهم أوراقاً جديدة، ويمزق أوراقهم الخاسرة.

- يبدو أن اللعبة لا تسير كما يجب.

قال الدكتور باستياء وهو يطلب فنجاناً مـن القهوة، ولـم يأبه له أحـد هذه المرة، فقـد كان الجميع مشغوليـن بمناقشة لعبة الانتخابات.

- يجـب وضـع هيئـة استشارية لوضع قانون للانتخاب، وقانون للمرشحين أيضاً. وقانون لـ..

كان الموظـف يتحدث بلهجـة العارف عندما قاطعـه الشاب صاحـب الكمبيوتر المحمول بنبرة جادة لا تخلو من الحدة:

- يكفـي هيئات واستشـارات، لا نريد سـوى صندوق للاقتراع، وكلنا سنشارك من دون أي استثناء.

- هذه فوضى.

لم يهتم أحـد لاعتراض الموظف، وأيد الجميـع الشاب، فلم تكـن لديهم رغبة في خوض نقاشـات لا طائل منها، وسرعان ما أحضر النادل صندوقـاً خشبياً عليه رسوم لأسمـاك صغيرة مرصوصـة في علب من الصفيح. وأخرج أحـد الشبان من حقيبته دفتـراً قص منه أوراقـاً ملونة عليها رسوم لقلوب حمـراء غُرِسَتْ فيهـا أسهم ذهبية ووزعهـا على روّاد المقهـى الذين تلقفوها وهم يطلقـون بعض التعليقـات الطريفة، عدا الشيخ الذي رفـض المشاركة واكتفى بالصمت.

ثم جلس الدكتور علـى المقعد الطويل بجانـب صاحب المقهى حيث اتفق الجميع علـى جلوس المرشحيـن، وعلى الرغم من ذلـك ظل بائع اليانصيب واقفاً لأنَّ صاحب المقهى لم يفسح لـه المجال للجلوس على الرغـم من أنـه المرشح الثالـث. بل صاح بوجهه:

- أتقف ضدي وضد الدكتور، لن أدعك تدخل القهوة بعد اليوم.

شعر بائع اليانصيـب بخطورة ما أقدم عليه، فقال بخيبة وهو ينزل عن المصطبة المرتفعة التي عليها مقعد صاحب المقهى وطاولته.

- لم أقصد الإساءة إلى أحد، ظننت أنَّ الأمر مجرد لعبة لا غير.

- إذا انسحبـتَ فسـوف أرشـح نفسي والرزق على الله.

قال ماسـح الأحذية بحماسـ، ونهض واقفاً، فانتبه الحضـور إلى قامته الطويلة للمـرة الأولى، ونظر إليه صاحب الكمبيوتر بإعجاب قائلاً:

- إنَّها لعبة جماعية، وهذه أهم حسناتها، لهذا تستطيع ترشيح نفسك أنتَ أيضاً.

- لا.. أنـا منسحب لصالح زميلي الذي أرجو ألا يتراجع عن موقفه.

اكتفى بائع اليانصيب بهز رأسه بامتنان، فلم يقو على الكلام لأنَّ الدموع كادت تطفر من عينيه، فأردف ماسح الأحذية وهو يربت على كتف بائع اليانصيب:

- أتمنـى لك حظاً جيداً على الرغم من أنك لم تبعنا سوى الأوراق الخاسرة.

ضحـك روَّاد المقهى، وتبادلوا الكلمات الضائعة بين المحبـة العميقة، والسخرية الطريفة، بينما تجهم وجه الدكتور، وهمس لصاحـب المقهـى الذي كان يرمـي نقوداً معدنية في جرار طاولته.

- الأمر لا يبشر بخير.

- هذا ما كنتُ أخشاه.

- الاقتراع غير عادل، لقد تساوى صوت الحكماء مع الدهماء.

- يبدو أنكَ لا تؤمن بالديمقراطية.

تدخل في الحـوار الهامس النادل الذي كان يستـرق السمع وهو يضـع فنجاناً من القهـوة أمام الدكتور الذي عـراه الارتباك فلم ينبس بكلمة. بينما قال صاحب المقهى بصوت خافت:

- منذ متى بدأت تفهـم بالديمقراطية يا حمار؟!.

لـم يأبه روَّاد المقهى للهمسات المبادلة قرب طاولة صاحـب المقهى الكبيرة، فقد انشغلوا بالتصويت، وشعـروا بألفة المكان وبهجتـه بطريقـة لم يحسوا بهـا من قبل، وهذا ما عزز من أهمية العمل الذي يقومون به، وكأنه واجب مقدس يجب عدم التفريط بطقوسه مهما كانت النتائج.

(٣)

- مرشحكم الذي حصد أعلى عدد من الأصوات..

صاح الأستاذ بأعلى صوته وهو يلتفت حوله بترقب، فحدق الجميع صوبه باهتمام، فأردف باسماً:

- الفائز بالانتخابات هو بائع اليانصيب.

رفع الفائز يديه وقد دمعت عيناه فرحاً، وبدأ يتلقى التهاني من الذين شرعوا يهتفون باسمه، وهذا ما شجع ماسح الأحذية على حمله على كتفيه والدوران به بين الطاولات وسط التصفيق، قبل أن يوقفه على إحدى الطاولات التي تحلق حولها أكثر روّاد المقهى وقد بدؤوا ينشدون أغان قديمة حفظوها في طفولتهم. وظل الشيخ مكانه يهز رأسه بأسف، بينما استعد الدكتور للمغادرة وقد اربد وجهه، فودّع صاحب المقهى الذي حاول استبقاءه لبعض الوقت.

❁ ❁ ❁

ضُرِبَ بقوة باب المقهى على حين غرة، واندفع ثلاثة رجال ملثمين، سدوا الباب، وأشهروا أسلحتهم.

- انزل..

صرخ أحد المسلحين بوجه الواقف على الطاولة، فلم يقوَ على التحرك من شدة ارتباكه إلا بعدما مدَّ النادل إليه يده لمساعدته، وسيطرت ملامح الذعر على وجوه رواد المقهى الذين تجمدت عيونهم في محاجرها.

وسرعان ما خرج المسلحون، وقد اقتادوا بائع اليانصيب.

من دون اتفاق مسبق شرع روّاد المقهى ينسحبون تباعاً، وكل منهم يتساءل في نفسه عمن استغل فرصة الهرج والمرج وأوشى بهم إلى المسلحين الذين لا يعرفون شيئاً عنهم.

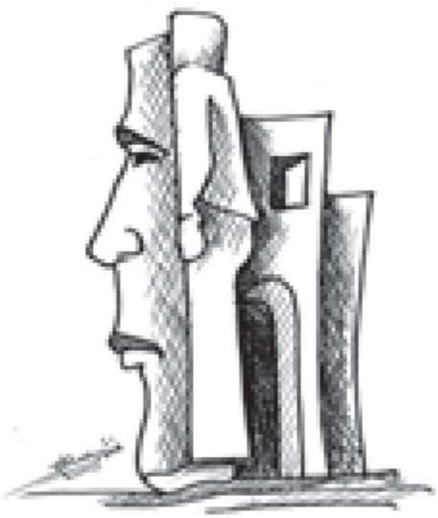
❁ ❁ ❁

كأن صاحب المقهى اكتشف مصادفة أن جدران قهوته التي خلت باكراً- على غير العادة- قد علتها الشقوق المتصالبة حتى رسمت عليها خريطة كبيرة غير مفهومة، ولكنها تنذر بالتقوض والسقوط من ثقل الصور القديمة المعلقة لوالده الذي ورث عنه جسده الضخم، وعمه ذي الشارب الكبير، وجده الذي بَهتت ملامحه وغابت.

وظلَّ النادل واقفاً مكانه.. وقد مزقته الحيرة، وشتته الاضطراب، فلم يعرف إذا كان يجب عليه خلع ثوب العمل ومغادرة المقهى ليلتحق بالراحلين، أو انتظار أوبتهم ليعود كل شيء إلى سابق عهده.

صديقي المُشَوّه

❁
محمد فطومي



منذ قليل غادر لؤيّ. شاب رأسُه لكنّه لم يتغيّر كثيراً. مازال يحرص على أن يُفطر في الصّباح أصابع البسكويت المنزليّ مُغمساً في قهوة الحليب، ويفضّل الوقوف طويلاً أمام واجهات المحلاّت حيثُ تُعرَضُ البدل التي تُقفل فتحاتها الخلفيّة بسحّاب عوضاً عن الأزرار. عندما أُصاب بنوبة فقدان جدوى الاهتمام بالأشياء،

❁ أديب وقاص من تونس.

العمل الفني: الفنان نتحي صالح.

أسعى للقائه والاستماع إلى قصصه اليوميّة التـي لا تنتهي والتي لم أشـكّ يوماً في أنّه كان سيُفضّل روايتها على

اثنيـن لا يعرفهمـا لـو خيّـروه بينهما وبينـي. فقط لأنّهما أكثـر منّي عدداً. كان ثمـلا إلى درجة أنّي لـم أُفلح في الردّ على كلامـه بقول يتّفق مـع كـمّ الأمزجة التي تلبّستـه. إنّها المرّة الأولـى التي أبوح فيها بأنّنـا ظللنا طوال حياتنـا نبحث عن مُسوّغ ليقتل أحدنـا الآخر فلم نجد غير أن يتعلّق أحدنـا بالآخر كأمّ. ظـلّ طوال فترة مكوثه عنـدي يـردّد علـى مسامعي بيـن الفينة والأخرى، كلازمة أغنية، بأنّه أقوى رجل في العالـم. في فترات هدوئـه كان يطرح عليّ أسئلة أقرب إلى الامتحان من قبيل: «لم قد ينجو مصباح زجاجـيّ منصوب في العراء بعد ساعـات من الاقتتـال».. أجملها كان: «هل تعلم لِم يجبُ أن نحبَّ الثّلج؟ أمر وحيد ينبغـي أن نحبَّ الثّلج من أجله يا صديقي.. هل تعلم ما هو؟». أجبتُه: «طبعاً.. أقصد.. ربّما لأنّه أبيض..».

قـال: «أحمق.. أترى.. قلـتُ أحمق كي لا أقـول مُخطئ... لأنّ الخطأ... هذا ليس موضوعنا... أليس كذلـك؟ الثّلج.. الثّلج.. كـم هو نبيـل ذاك المخلوق.. أتـرى.. إنّه لايعوي ولا يقـرع النّوافذ والأسطح والعلب وكلّ الخرافات الأخـرى.. بل ينزل صامتا، تمامـا كما يمشي القـطّ.. من دون ضجيج يأتـي ليُغيّر شكل الدّنيا لبعضـ الوقت ثمّ يمضـي صامتا أيضـاً... الثّلج رجل جميل بمعنى الكلمة يارجل..».

لم أُفلت حرفا واحدا ممّا قاله. ولافاصلة ولا نفسـا. هـا إنّ أنفاسـه الحـارّة بدأت تتلاشـى وها إنّ وخزات الرّطوبة في البيت بـدأت تعود تدريجيّا وأخـذ انصهار رائحة المفروشـات وخشـب الأثاث مـع الرّائحة النفّـاذة للمقاعد الجلديّـة يُحفّز ذاكرتي. إنّـه حقّا لأمر يدعو إلى السُّخرية أن أنتظر لحظة خروج لؤيّ بفارغ الصّبر لأشي به إلى دفتر. شعرتُ في الإبّـان وأنا أمسك بالقلم بأنّي أتصرّف كطفل يكتب كما لو أنّه يراسل نفسـه المُقيمة في زمن لاحق.. على الرغم من يقينـي بأنّه لن يأتي البتّـة اليومُ الذي سيتحوّل فيه أمـر كهذا إلى دافع يُسعدني. أعرف جيّداً ما لا يمكن أن يكون.

قبل أن يُطبق الباب أطلّ برأسه وقال: «قلتَ عنّي يوما بأنّي عنصريّ.. أتذكر؟.. أنـا أذكر على أيّة حال.. كنّا صغاراً، لكن لمَ لم تُبدّدها عندما صرنا كباراً..؟ لعلمك هي تتجوّل الآن في الغلاف الجويّ لمعطفي..» ضحـك عالياً ثمّ أغلق البـاب بلطف مبالغ فيه ما جعله يلامسـ الإطار مرّتين.. فجّر

القصّة في رأسي واختفى.. كم أشتهي أن أقتله مرّة.نعم كنّا صغاراً. بل لعلّ أغرب ما في القصّة أنّنا كنّا صغاراً.

كنتُ في الصفّ الرّابع أو الخامس لمّا وفد على حيّنا الجيران الجدد. كان لديهم أغراض كثيرة. وهم يكدّسون بعضها في ردهة المنزل ويمرّون بالبعض الآخر إلى الداخل أمكنني أن ألحظ كمّ الألعاب المهول لديهم. يُفترض في تلك الدّقائق أنّي ردّدتُ في نفسي: «لن أسأم أبداً لو كانت تلك الألعاب لي». ثمّ سرعان ما استقرّ الجيران الجدد وصمت منزلهم مثل منازلنا. رُويدا نشأت بيني وبين ابنهم صداقة وثيقة على الرغم من أنّي كنت أكبره بسنتين، لا أدري إن كان السّبب هو فضول لا يُقاوم بشأن عاهته التي لا يُشهدك القدر عليها كلّ يوم، أم أنّها ببساطة طريقة طفوليّة لأصرف نفسي عن السّخرية من هيئته القبيحة. سبب ما لا علاقة له بكمّ الألعاب المهول الذي لديه أو اللّهجة المُهذّبة التي يتكلّمها جعلني أنصّب نفسي حاميا له من سخرية بقيّة الأصدقاء، إذ لم يكن باستطاعتي مُقاطعتهم من أجله، كان الحلّ الوحيد أمامي هو أن أفرضه عليهم فرضا. في المُقابل كان عليّ أن أشاركهم إلحاق الأذى به، مثلما فعلتُ حين عقدنا جلسة طارئة لنطلق كنية بشعة على جميع أفراد العصابة كما سمّيناها آنذاك. خلال الجلسة الطّارئة تفنّنا في إلصاق كنايات فظيعة من اختيارنا، أي كلّ حسب ما يرغب. مُعين هو الوحيد الذي اخترنا نيابة عنه كنيته البشعة فكان من نصيبه مُعين الوحش. معينُ بالنّسبة إلينا كائن كان لابدّ أن يظهر في حياتنا كي نعيش بداهة سلامتنا الجسديّة بلذّة متجدّدة. بعضهم لم يكن يطيق لمسه أو حتّى الاقتراب منه. لؤيّ وعماد مثلاً كانا يفعلان ذلك من باب التّباهي بالشّجاعة، عماد المستعدّ دائماً لفعل أيّ شيء يجعله مُنغمساً في أمر ما، ما انفكّ يتباهى بطرفه الأخير كأنّه من صنع يديه. أمّا مُعين فكان يُواجه تصرّفاتنا بتفهّم حطّ كثيراً من كرامتنا الغضّة. قال لي مرّة إنّه لا يرغب في مواصلة التّعلّم في المدرسة الخاصّة وأنّ أباه هو الذي يصرّ على ذلك لأنّهم يعرفون كيف يتعاملون مع الأطفال المختلفين. قال ذلك تماما كما يتحدّث الكبار. لم أفهم كلامه إلاّ بعد سنين. في بيتنا ما فتئت أمّي تردّد كلمات الشفقة كلّما رويتُ لها حادثة وجدتها مثيرة أو شدّت انتباهي في طريقة تحركه، كانت تكتفي بالقول: مسكين! وحين تسأل أختي: «أمّي لم لا يُشبهنا مُعين؟» تجيبها: «إنّه مريض ولا ينبغي أن يسمعك أحد تقولين ذلك.»

أحيانا كان يحـاول الجري بصورة طبيعيّة، لكنّه إمّـا يسقط أو يتعب بسرعة. مع مرور الوقت بدأنا نعتاد هيأته وطريقته الطّريفة في التّعامل مع الأشياء، واعتماده الكلّيّ على يديـه.. كنّا نرى العالم الصّغير المُحيط بنا عبارة عن جبل مـن المآزق والعراقيل التي ينبغـي أن تُشقيه وتجـرح إحساسه. كرهنا الأشياء نيابة عنه، تمنّينا أن نسمع منه حنقا يُشفي غليلنـا. رأينا الطّريـق طويلا نيابة عنه.. والشّجـرة عالية وشرّيرة نيابة عنه.. لكنّه كان دائما يخـذل تصاميمنا لمشاعره تجـاه العالـم، فقد كان مُحبّا لـكلّ شيء.. بعبارة الكهل الذي صرتُه اليوم، كنّا نتصرّف إزاءه كمخمـور يبحث في كتـاب فهرسه لا يُطابق ترقيم الصّفحات. استقامته الغريبة، ملابسه التي لا أحد يدري من أيّ المحلاّت كان يحصـل عليها، والتي كنـتُ أتوهّم أنّها تكبر معه. وأشياء أخرى كثيرة اعتقدتُ أنّي نسيتها، تعاود الظّهور الآن أمام عيني كما لو أنّها مشكل يستوجب حلّه.

كان نابغـة في الدّراسة، يفهم الظّواهر ويحلّلها بشـكل عميق وواضـح. وكنت في سـرّي أشعر بالغيرة بسبـب تفوّقه الصّارخ غير المستحـق. لكنّي كنـتُ أواسي نفسي بتفوّقي الجسدي عليه وبأنّه لن ينال مركزاً أفضـل من مركزي بجسمـه المشوّه.. كان علـى علم بأنّه فاقد تمامـا لحظوظ الفوز علـى أحدنا فـي اشتباك بدنـيّ أو تحويل اهتمام فتاة ناحيته.

أبي متحامل علـى النّصيب الذي جعل مُعيـن متفوّقا وجعل منّـي فتى ثقيل الفهم والأصابع وربّما ثقيـل الظلّ أيضا. لم أشقّ علـى صدره لكنّي أراهن بـكلّ ما أملك أنّه قد أرهق تفكيره كثيراً ليقنع نفسه بالسعادة التـي يمنحها الأطفـال الأسوياء لوالديهم. كانت طريقتي لأسخر مـن مُعين في سرّي وعلى نحو حقيقيّ، هـي أن أساعد أبي على إتمام طقوس حسده لوالد مُعين من دون أن أزعجه بأسئلة الأطفال البائسة المعيدة إلى الرّشـد. كثيرة كانت الاتّفاقات غير المعلنة بينـي وبين والدي، فمثـلاً بوسعي في قمّة غضبـه أن أميّـز «كفى!» التـي يصرخ بها فـي وجهي والتي يريد منّـي بها الاستمرار في الهرج. يحدث ذلـك غالبا عندما نحلّ ضيوفا علـى عائلـة أخـرى وأنجح تحت تشجيع من عينيه في تعنيـف أحد أبنائهم بطرفـي الأخير. مـع ذلك لم أكـن وحشاً ولا كان أبـي وحشاً. بـل أكثر من ذلك كنتُ أشاهـد على شاشة التلفاز علماء الحشرات والزّواحـف وهم يقبّلـون السّحالي قائلين: أوه.. يا ملاكي الجميل..!

وحده مُعين كان وحشاً على نحو ما.

لقد امتلأ لديّ حقّا ما يُمكن أن أسمّيه منسوبا مُحترما من الوضوح، على الرغم من ذلك مازلتُ أتساءل لِماذا لم تستغرق منّي العودة إلى الماضي كلّ ذلك الوقت الذي احتجته للوصول إلى هنا. ها إنّي هناك ثانية وها نحنُ نلتفّ حول شجرة غرسها للتوّ ناس كثيرون بمناسبة عيد الشّجرة. منذ اللّحظات الأولى التي تلت رحيلهم ذبلت الشّجيرة المسكينة وتقوّس أعلاها، حينها لمع في ذهني أنّها تشبه طرف أبي الأخير. في اليوم الموالي يبست ثمّ بعد ذلك اندثرت. أنجزنا حلقة، ثمّ طفقنا نحوم حولها ممسكين ببعضنا مغيرين الاتجاه في كلّ مرّة بصورة عشوائيّة بقرار من أحدنا، كم كان حلواً أن يُطيعك عدد يتجاوز ثلاثة، غيّرت اتّجاه الدوران مرّتين. أثناء قيامي بمحاولة ثالثة أحسست بأنّي أسحب شيئاً مستعصياً له قوّة حيوان. حينها أدركت أنّي استنزفت حظوظي من قلب نظام الدّوران.

بلغت المنافسة على القيادة أشدّها بيني وبين لؤيّ. كلّ ذلك يحدث تحت أنظار معين الوحش. كان يبدو في عينيه أنّه فخور بي.. أعتقد أنّي ما زلتُ، على نحو ما، أحتفظ بتلك الطّاقة تسري في بدني.. حين تشكّلنا قطاراً انضمّ إلينا مُعين. اتّخذتُ وضعيّتي وراءه مباشرة. لمّا انطلقنا أحسست بجسده يندفع كقاطرة حقيقيّة. كان ذلك بفضل طبيعة اللّعبة المصمّمة لتُخفي مُشكلته المضحكة. حين أستجمع الآن كلّ تلك اللّمسات الحانية وهو يطوّقني بذراعه من رقبتي وكيف كنتُ أتخيّل بأنّنا كائن واحد برأسين. أشعر بالأسف والإشفاق عليه. لقد اختفى معين فجأة.. أخيراً، أليست قصّة جديرة بالرّواية أن يمّحي من حياتك أحدهم فجأة بصورة جادّة كجثّة؟ شيء ما قد احترق فعلا. سبق وقلتُ إنّي أعرف ما لن يكون.. لن أرى مُعين الوحش، صديقي المرفوض، مبتور الذّيل.

(التراثيةُ) الجديدة

✻
د.بغداد عبد المنعم

لماذا التراثيــة وليس التراث؟ ومن غير التوغل عميقاً.. أقــول، التراث ثابتٌ بحكم الزمن الذي أُنْجِزَ فيه، وأما (التراثية) فهي الحركة المشغولة عليه من أبحاث وتحليلات ونقد يكون بها هذا التراث موجوداً على أرض الواقع وفي قلب اللحظة بحيث يكون فاعلاً فيها مُنْجِزاً في الحضور الثقافي..

في تاريخية العلاقة مع التراث القريبة منا مباشرةً نلاحظُ أنَّهُ وحتى الربع الأخير مــن القــرن الماضــي صــدرتْ المشاريعُ والبحــوث الفكرية (التراثية) فــي السياق النهضوي الذي أَجَّجَ بداياتِ القرن العشرين، كان مــن أهمها وأكثرها شيوعاً على امتداد المنطقــة العربية بحــوثُ ومؤلفات حسن حنفــي ومحمد عابــد الجابــري ومحمد أرغــون وحسين مروة والطيب تيزيني وعبد الله العروي وطه عبد الرحمن والشيخ عبد الله العلايلي وجورج طرابيشي..

لن يكون هذا المقال مجالاً نقدياً لرؤاهم (التراثية) بل يمكن الإلماح إلى ثلاثة أنماط ظهرَتْ بها (تراثيــة) القرن العشرين، وهي تمثــل الطريقة التي تــم الاشتغال بها على التــراث (كي يتم تحويــل الموضوع التراثي إلى كائن معرفي موجود مُنْتَج)، كان من هذه

✻ كاتبة وباحثة في التراث العربي.

التجسيدات التراثيــة المعرفية (التوظيفُ الأيدولوجــي للتــراث).. و(الفهــم التراثي للتــراث) وهمــا شــكلان مــا زالا شديدي الوضوح والحضور فــي (التراثية الراهنة) ولئــن كان التوظيــف الأيدولوجــي للتراث قد حوَّلَهُ إلى ذخيرة فــي مواجهة أخرجتّهُ مــن إمكانية النمو الثقافــي الطبيعي، فإنَّ الحضور التراثي للتراث لم يُشكل إلا قراءة دائرية ضيقة تخــرجُ من النص لتدخلَ إليه مــن جديد فــي استسلام مطلــق لأهدافه وأساليبه ومشكلاته وحتى لـ لغته!!

والشكلان السابقــان افتقدا إلى تخليق حــوار مــع التــراث مــن موقعنــا الزمني والتقنــي.. يعانيــان مــن فقديــن كبيرين: النقد والنظرة التاريخيــة، وانعَدَمَتْ العتبةُ الإبداعيةُ المتجاوِزَة لما افتُرِضَ بأنَّهُ مُقدَّس أو تابــوه.. وبقيت نتائــج هذين الاتجاهين مُغَلَّفَة وبعيدة.

أمَّا الشكلُ الثالثُ التاريخي من الحضور المعرفــي للتراث فلعلــه الظهــور الأقدم والأعمــق تأثيراً فــي المســتوى البحثي.. ذلك هو الحضــور (الاستشراقي الخارجي للتــراث)، وقد تشكل باحثــوه ومنتجوه من المستشرقيــن وتلامذتُهــم العــرب الذين تخرجوا من المراكز والجامعات الأوروبية.. وأجيــال بحثيــة استمرت علــى منوالهم.. ومن هذه (التراثيــة الاستشراقية) انطلقتْ أبحاثُ تاريخ العلوم العربية في نسخٍ باهت أو غير باهت عن مناهج عمل المستشرقين. ومن استمراراتهــا الراهنة أيضاً التوجهات اليونيسكية نحو إيجــاد صيغ أممية ثقافية للاهتمــام التراثــي.. مثل إصــدار (وثيقة التــراث غير المادي) وغير ذلك.. مما بقي يستدعــي إقداماً إلى التبني السطحي لهذه الطُروحات مــن قبل القائميــن على (أمر الثقافــة) أو (أمر التراث).. من دون نقدها أو تقديــم وجهة نظر وطنيــة أو خصوصية تجاهها!

و(التراثيــة) مــع تساؤلاتهــا الحداثية ستحتفظ أكثر من السابق بالبعد التحميلي بل بالإمكانية الولادية من كونها إرثاً مشتركاً عربيــاً معرفياً قابلاً للتجــدد والتثوير مثل باقي أبعاد الواقع.

التراثيةُ الجديــدة.. المشروعيــة والداخلية

حيــن دخلَــتْ الثقافــةُ العربية خلال القــرن الماضي في تغريبتها طويلة الأمد.. قامت بشــكل طبيعي ببرمجــة الأسلوبيات الفكريــة وصنعتْ بالنتيجة واقعــاً حقيقياً امتــدَّ حتى ما قبــل هذه اللحظــة بقليل، واقعٌ احتلتهُ مجموعــةُ أمراضٍ مُتداخلة ما بيــن (الاقتصادي) و(السياســي) وبالتأكيد (الثقافــي) ..كان مــن الوقائع المَرَضِيّة

للتغريبــة الثقافيــة العربيــة حــالاتٌ من الفصام، منها الانفصال بين الواقع العلمي والثقل التاريخي الهائل.. فثم عقدة مرضية تجاه هذا التاريخ بأبعاده الشاسعة، ولم تكن هذه العقــدة ببعد واحــد أو باتجاه واحد، لكنها بالتأكيد حملت باتجاهين على طرفي نقيض.. اتجاهان بينهما مئة وثمانون درجة كلاهما محمولٌ على عقدة مرضية تضعفه فيمسي مصدرَ انحطاطٍ وتراجع..

الاتجــاه الأول تعامل مع التاريخ تعاملاً سكونيــاً مفصولاً عــن الجســم التاريخي المتفاعــل والمتجادل.. الاتجــاهُ الثاني، لا يعرف تاريخَهُ أصــلاً.. لكنه ينحني صاغراً لتاريــخ الآخر، من دون أن يبحث في هويته بل من دون أن يصنعهــا أو يحاول إنشاءَها وتقديمها..

شــيءٌ من أمراض هــذه التغريبة جعلنا بعيدين عن البنائية من داخل التاريخ العربي بمعنــاه الحضــاري الشامل وليســ كتاريخ للأحداث السياسية وتفاعلاتها فقط. ذلك أن التاريــخ كائن متعــدد الأبعاد والأرواح.. وداخل هذا التاريــخ يجثم بكثافة وجبروت التاريــخُ العلمي العربــي مثلما تكمنُ كذلك أبعاد تاريخية كثيرة كالتاريخ الأدبي والفني والتاريخ التشكيلي والتاريخ السياسي..

لقد خلقَ الغــربُ مصطلحَ تاريخ العلم (A History Of Science) وفروعــه في تاريخ الطب وتاريخ الكيمياء والهندسة، وتاريخ الهيدرولوجيــا وتاريخ الميترولوجيا وكذلك تاريخ العمارة وتاريخ الهندسة.. هو كذلك كان قد وضــع الإستراتيجية الفكرية الشاملة بتأسيسه الخالص لكل ذلك فأنشأه إنشاءً مــن جملة تاريخه وأعلامه، فأضحى هــذا التاريخ تاريخاً غربيــاً بمحوره الكبير والعــام والتأسيسي وصُــدِّرَ إلى كل الأرض على أنه تاريخٌ عالمي!!

إنَّ استنباط وبلورة هذه الفروع التاريخية عربياً وإسلامياً هو مهمــةٌ شاسعة وطويلة الأمد وذلك بسبب غزارة النصوص التراثية العربية التي كَمَنَتْ بداخلها موضوعاتُ هذه التأريخــات، ولكون عدد ليس قليلاً منها ما زال مخطوطــاً ومتناثراً في مكتبات العالم، وكذلك فــإن هذه العملية البنائية من داخل التــراث العربي ستكون حتمــاً في مواجهة مــع التواريخ الغربية التــي وضَعَتْ أزمنتَها ومدنَها ومؤرخيها فقــط على لوحة العالم حتى أصبحــت الألياذة والأوديسة جزءاً من التاريخ الأدبي العالمي الذي فُرض على كل الأرض.. في حين لم تغدُ معلقةُ امرئ القيس الليلية الهائلة جزءاً من هذا التاريخ.. فهذا الشاعرُ الملكُ هو الذي شَكَّلَ من شعره تلك اللوحــاتِ الباقيــة التي أعتقــد أنها تشكل مصدراً من مصــادر تاريخ الشعر العالمي، ومع ذلك فهو لم يحملْ على الإطلاق شهرةَ

هوميروس..! والسبب باعتقادي خضوعه منذ أمدٍ بعيد لـ قراءتنا التراثية الداخلية الدائرية والمسطحة..

فقد بقي (كتابُ الطبيعة) لأرسطو من المبادئ التي اعتُمِدَت عالمياً (غربياً) في بعض فروع تاريخ العلم فأصبح المبدأ لعدد من التاريخات العالمية (الغربية) ومنها (تاريخ الهيدورلوجيا).. لكنَّ كتاباً مميزاً مثل:كتاب وصف المطر والسحاب لابن دريد الأزدي (القرن الثالث الهجري) لم يغدُ جزءاً ولا حلقة من هذا التاريخ.. ولا كذلك الباب الرصين الذي أفرده الثعالبي عن المياه في كتابه الموسوعي (فقه اللغة وسر العربية)..

لقد تمَّتْ إهانةَ هذه النصوص التراثية من قبلنا حين أُخْضِعَتْ لتناولٍ لغوي فقط، وفي أحسن الأحوال لبعض القراءات الأدبية السطحية.. وحتى هذا بقي في الحدود الدُنيا البائسة.. ولم يُفطن إلى أنَّ بُعداً علمياً وعتبةً إبداعية قابلة للوجود في تلك الدرب (الافتراضية) المنطلقة من عمق التاريخ إلى نقطةٍ ما من المستقبل لن تتضحَ ما لم تغدُ تحت إدارةِ خطةٍ بحثية وطنية تمتلكُ الإستراتيجية والشمولية، ولها من التأثير والقرار ما يعطيها المقدرة على تفعيل المكونات الكلية للتراث العربي

- المحقق والمطبوع وكذلك المخطوط
- ومن ثم الصعود إلى السوية التجديدية في البحث التراثي. وهذه الإدارة البحثية الشاملة هي من يمتلك الأسلوبية الحديثة لنشر وترويج هذه النتائج عالمياً عبر القنوات الأممية والدولية مما يستدعي حتماً مجالاً واسعاً من الفعل الديبلوماسي المواكب للفعل البحثي والمؤمن به وبنتائجه بعيدة المدى.

إنَّ توسيع مفهوم المصادر المشكلة لمثل هذه التواريخ يُشَكِّلُ استناداً مهماً لأن النص العربي المكتوب واللغة العربية بشكل عام بقيت هي التجلي الأكبر للعطاء الحضاري العربي الإسلامي.. وبَدءاً ننطلق ونخرجُ من بوابة المصطلح الغربي ومن ثم تكون إعادة ملئه بشكل فعال بالحلقات العربية المغْفَلَة في معظم الأحيان والمسطحة والمهمَّشَة هذا في حال أنها ذُكِرتْ..

حقاً أنَّ (التراثية الاستشراقية) قدَّمتْ جهداً ضخماً ووجهة نظرٍ من التراث العربي (لكنَّها قدمت هذا المنجز إليها.. إلى الغرب!) وأطلقتْ روحَ النشر في جثث المخطوطات، لكنَّ ذلك ظل في دائرة خاصة بعيداً عما صنعهُ الغربُ وبناه من تواريخ علمه وتكنولوجياته والتي بناها بصلابةٍ وصلف وعن سابق إصرار

باستنادات تاريخيــة يونانية لاتينية فقط.. فــي بُعد بعيد عن الموضوعيــة والعلمية.. وهكذا قام بجهد عتيد لصالح مشروعه في الشرق.. وليس لأجل هذا الشرق.. وإذاً، ليس مــن المحتمل على الإطــلاق أن تكون هذه العملية البنائية الطويلة (التراثية الجديدة) عمليةً خارجية أو استشراقية.. وتلك ليست مسؤولية الغرب أصلاً.. فمن الطبيعي جداً أن تُحمَــل (التراثية الجديدة) على محورين عريضين: المشروعية والداخلية (المحلية – الوطنية – العربية).

وهــذه (التراثية) تعني من بين ما تعني: تشكيل ذاكرة جديدة وإعادة قراءة خالية من عُقد النقص لكل الأبعــاد التاريخية والتي سبق أن أدخلتها عقــدةُ الذُهان(الثقافي – السياســي) في أضيق حــدودٍ، فمنعتها عن النمــو وقطعتهــا عن حقيقتهــا في معظم الأحيــان.. وسلبتنا طاقتهــا الهائلة.. تلك الطاقة التي تغذي عادةً النهضات القادمة.

لقــد جــرى تشويــهَ النصِــ التاريخي باعتبــاره قــراءة مستمرة وناميــة.. فتلبث التشوهُ فــي الرؤيا العامة للوقائع فلا يمكنُ فصــل هذه عن تلك – طاقة التاريخ وطاقةُ بنــاء الوقائــع–.. وبالنتيجة تــمَّ بشكل ما تكريس (ذُهانية) مقطوعة عن الأمرين معاً: التاريخية الحقيقية ومبادرة صُنع الواقع..

الثقافةُ الجديدة

إنَّ حوامل الثقافة، وكذلك ما يتجسد في الأداء الإنساني داخــل منظومة المجتمع.. حوامــلٌ تعطي تجلياتها فــي كل لحظة، لا يمكن أن تتوقف ولا يمكن إيقافها، لكنَّ لحظةً بعد لحظــة يمكن تعميق السويــة أو تغيير زاوية النظر، لنغدو أمام فعل أو تجلٍّ ثقافي جديد غيــر وصائي ولا مُتعالٍ ولا نخبوي.. بل فعلٌ حيوي قائــم بحكم معادلات الواقع وصراعاتــه وتناقضاته.. وبحكم خصوصية واعتلاء هذه اللحظة.. ليتكون فيها وعبرها وبسببها تجددٌ حقيقي في مفهوم (ثقافتنا) وتتوالــد على هــذه العتبة الجديــدة زمنياً وتفاعليــاً ونفسياً فاعليةُ التحاور بكل أنواع المشــاكل بدءاً من المشــكلات المجتمعية المدنية المباشرة كالصحة والتعليم وانتهاءً بــ القيم والتعدد الثقافــي والتقاليد واللغة والتربية والهوية والمواطنة والأديان..

وهــذا التجدد الثقافي والذي يخرجُ من تربتنــا هذه المرة بشكلــه المبادر والصانع والمستمر، يحملُ بأمرين أساسيين تفاعليين، الأول: الانتماء إلى (الحداثة التكنولوجية)، والثانــي: انبثاق (حداثة) كلية غير مسبوقة في الأداء المجتمعي عموماً..

ويمكن أن نقول بكل بساطة بأن الثقافة الجديدة تشمل تقنيات التكنولوجيا الجديدة ليس كرافعــة ومُسَرِّع فحســب بل وكنتائج

جديدة تماماً، وعلى قـدر هذه التسارعات التقنية وعلـى قدر خصوصية هذه اللحظة غير العاديـة في تاريخنـا الحديث.. على قَدْرِ كُل هذا سنكـونُ بانتظار ظهورٍ(ثقافيٍ جديد) يكـون قادراً على بنـاء حالة النقدْ بمعناه الواسـع.. (التراثيةُ) فيه أمرٌ حتمي مـادام يمتلك أمرين: الهُويـة والجغرافيا.. سينزع الجذور السيئة وامتدادتها وأوهامها التاريخيـة التـي دخلت البنيـة الحضارية للمجتمـع.. الحداثـةُ فـي هـذا الظهور الثقافـي الجديد ستتجـاوز حمل المعرفة إلـى بنائها.. وسنغـدو بالتأكيد أمام مثقف واسع المرجعيات والإمكانيات بسبب المدى التقني الهائـل للتواصل، لكنّ لن يكون هذا كل شـيء! .سيكونُ قادراً علـى الاختزال والفرز والخلق.. مثل هذا المثقف (الجديد) كان موجوداً وفاعلاً في الأزمنة المفصلية.. والمفصلُ لن يغدو متحـركاً وفاتحاً إلا إذا غدا عـددُ المثقفيـن الجُدد كافيـاً.. من دون أن يكونـوا (نُخبـة) ولا مُصْطنَعين ولا متحركين على أجندات جاهزة..

يجب أن تتكاثر الأسئلة لتُحاصرَ الجوابَ وتعتقـلَ حقيقتَـهُ.. إنها أسئلـةُ المئة سنة السابقـة وأسئلةُ المئة سنـة الآتية.. وحين تتكاثـر الأسئلة تتوضح اللغـة وتوشكُ على ولادة: هـل صنع المثقفون خلال المئة سنة الأخيـرة نبضَ الواقع؟ هـل صنعوا ذهنيتَهُ أم كانـوا في أحيان كثيـرة خطباء نمطيين ورسميين؟؟

هـل سيستعيـرُ المثقفُ نبضَـ الواقع الجديـد ليكـون جديـداً ومقبـولاً وليتم الاعتراف به.. وذلك بعد أن أمسى هو بجهة والواقع في جهة متباعدة عنه باستمرار..؟؟ هل سيكون خروجُ المثقـف الجديد عملية جدليـةً مع الشارع بحركتـه المباشرة؟ مَنْ سيعطـي الآخر؟؟ مَنْ سيكتـب للآخر؟ مَنْ مرجعيةُ الآخـر؟ وبالتأكيد ما بين المثقف والشارع ثمـة أزمة نوعيـة! ولئن كان هذا الشرخُ قائماً في علاقة المثقف بواقعه فإنَّ شرخـاً موازياً لا شك قائماً في العلاقة بين المثقف نفسه وتراثه..

هذا الواقع يغدو مؤهـلاً ليكونَ حاملاً بكل شيء من التاريخ والذاكرة إلى التفاصيل اليومية العادية والتي غدت بحدِ ذاتها حاملةً للحداثة.. حداثة نوعية يمكن أن نقول أنها محلية أو وطنيةأو عربية.. وحين يكونُ الأمرُ بهذا الشكل وبهذا المضمون فهو على الأقل يُشكِّل مبدأً إحداثياً لعصرٍ جديد.. سيُشَكِّلُ مشروعَهُ التأريخـي الحقيقي لهذه اللحظة ولـ اللحظة التي تليها.. ولكنَّ هذا المشروع لـنْ يستند إلى فراغ فـي الهوية أو الذاكرة أو الثقافـة أو اللغة.. إنهـا فقط استناداتٌ

حداثية تختلفُ عمَّـا تعودنا عليه في المئة سنة الأخيرة..

ففي كل مفصل من التاريخ أعادتِ اللغةُ ولادةَ ذاتِهَا استجابةً وتماهياً مع بَدْءٍ جديد.. وكان التغيـرُ المعجميُّ وانبثاقُ فنونٍ كتابيةٍ جديدة أمراً يدعو إلى الدهشة.. بينما ماهو ملفتٌ للانتباه عدم الصعود البحثي الفكري عمومـاً والتراثي خصوصاً.. بقي في دوائر محـدودة غير مُتفاعلـة كأنها عمل مقطوع عن الحياة والنمو.. وبشكل أكثر تركيزاً بات عملاً مقطوعاً عن الثقافة!

ويتحـول سـؤالُ التجديـد فـي هـذه المقاربة إلى بُعد مُحدد في إجابة رَمَتْ إلى تشخيص ثلاث مشكلات فـي الطريق إلى الوصول: كيف تتبني (التراثية) في الثقافة العربية الجديدة بينابيعهـا غير المسبوقة (الحداثة التقنيـة والإلكترونية وما يتبعها، وفـي الحركـة التغييريـة المتسارعة على الإحداثيـات الأرضية لهـذه الثقافة..؟) فـ عمليـةُ الولادة لم تنته بعد لأنها ترتبط بكل ذلك وبها تتضح سماتُ هُوية ثقافية شديدة الثقل بواقعها وليسـ بتاريخيتها فحسب.. ولئن كان (التـراث) كائناً شديدَ الصلابة.. غير أنَّهُ بقي متوارياً ومُسْتَلَبَاً في الكينونات الثقافية التاريخية (الحديثة) وحتى الآنية.

إذن، سيكون على سؤال التجديد أن يتوجه إلى (التراثيـة).. أي إلى (الحركة الجديدة على التراث).. وكيـف تنبني (التراثية) في علاقة تجديدية في هوية ثقافية؟

النقـد التراثـي.. مـن (التراثيـة) إلى (هوية ثقافية).

لا تُولـدُ الحالـةُ النقديـة المواكبـة لـ (التراثيـة) مـن خـارج التجربـة البحثية والنفسية بآنٍ معاً..

إنَّ فقـدان (النقـد التراثي) لـم يُمكِّنْ كل الأنمـاط التراثيـة المُنتجـة في القرن الماضي: الشكلان الداخليان (الأيدولوجي والدائري) أو الشكل الخارجي (الاستشراقي وامتداداتـه) مـن العبـور الحقيقـي إلى الثقافـة.. تصلَّبَ هذا المنجـز ضمن أُطُرٍ محدودة من دون أن تؤدي إلى الوصول إلى التيـار الثقافي العام وتحقيـق بناء مستمر في داخلـه.. فبقيتْ كلُّ الأشـكال السابقة خارجيـةً بالنتيجـة ومحـدودة التأثيـر. ولن يمتلـك إلا النقد مهمـة المواجهة مع المُنتج التراثـي المُتَوَقَع.. وقد لاحظتُ أن المجـلات التراثية خصوصاً أهملت إهمالاً شديـداً آلية النقد فـي إصداراتها ومحاور بحوثهـا وتحولـت عن النقد إلـى ما يشبه لجـان تحكيم للبحوث تُقَيِّـم بـ(نعم أو لا)! وبقيت هذه المجلاتُ والمؤسساتُ التراثية

الصادرة تعيشُ مرعيــةً في حوض يخصُّها داخــل الأكاديميات غيــر المفتوحة أصلاً على المجتمع وتفاعلاته اللحظية. (وبقيت لجامعاتنا تلك الأسوار العالية كأنها سجون لصد المجتمع عنها ويبــدو ذلك استمراراً لعقليــة الطاغيــة) وتبعاً لذلــك بقي هذا (المنجز التراثي المعلب والمبَعَد) في شكل يُقاربُ الإهمال المهذَّب (المتَعَمَّد) مقطوعاً عن التفاعل ومقطوعاً عن أنْ يُتفاعل معه.. معزولاً.. مع انعدام (النقد التراثي).. فهذا النقــد لم يكن موجوداً ولم يكن فرعاً قائماً بذاتــه في يوم من الأيــام.. في حين صبَّتْ أعمالٌ نقديــة فكرية في القــرن الماضي على التراث نفسه.. وكان من أهم التناولات النقدية للتراث خــلال القرن العشرين تلكَ التي اهتمتْ بتقسيــم التراث إلى مستوياتٍ أربعة (الفكر المُنتج للتراث – الفكر المُستغل للتراث – الفكر المُستهلك للتراث – الفكر الدارس والمبلغ للتــراث). وهي تقسيمات مهمــة وتشريحية للباحــث المفكر محمد أرغــون حاول من خلالهــا أن يضع التراث وإنتاجاتــه في سويات كبيــرة متداخلة في معظم الأحيان.. وقد جعــل السوية الأولى تمتد حتى القــرن الخامس الهجري وحَمَّلَ هذه السويــةَ بأدائين كانــا موجودين معاً: الأداء التقليدي النصوصي، والأداء الإبداعي الذي أنتج النصوص العربية الجديدة في وقتهــا مثل: نص الجاحــظ ونص الفارابي ونص البيرونــي ونص ابن رشد.. وكان في الأداء الإبداعي مُنتَجٌ علمي واختراعي أيضاً فمنه على سبيل المثال النظريات الرياضية الجديــدة عند الخوارزمــي، والموضوعات الجبريــة والتفاصيل الهندسيــة التنفيذية عند الكرجي، وهي ليست إلا مبادئ تنتظرُ إعادة كتابة تاريخها (تواريخها) على خارطة غير مستوية بل تقتحمُها الأبعادُ اقتحاماً.. هي أبعادُ الحداثة تقنياً وإدارياً وبحثياً.

لنقل أن هــذا النوع النقدي الواقع على التــراث مباشرةً حــاول بقــراءات خاصة استجــلاب نمــاذج مــن التــراث موحيــة للحاضر.. كأنها أداة تغيير مثلاً.. استحضار صــورة تاريخية (ديمقراطيــة) أو (نقدية) أدَّتْ تاريخياً إلى تكوينٍ (جديد) في لحظته تلك.

إذن، ليســت الحالــةُ السابقــة هي ما أقصدها، إنما إيجــاد آلية (النقد التراثي) بأدواتــه وفلسفته وبنيتــه الخاصة.. وهذا النقــد الجديد من الممكــن أن يستفيد من أدوات النقــد الثقافي، وساحــةُ عمله هي المنطقة البحثية التراثية الحالية.. والنقد التراثــي لم يكن له من يعتنــي به ويخلصه ويبلوره ليكون واضحاً..

فـــي مجمل هـــذا المنجز غـــاب النقدُ الاحترافـــي الفعال.. الوصـــول إلى المعنى في النص التراثي من النص ذاته، ولعل من بديهيات هذا النقد تجَاوز التحميل المسبق سواء التراثـــي أو الأيدولوجي.. ثم التحليل التاريخي مـــن خلال ربط النصـــ بمجاله الزمنـــي وبمرجعياته الثقافيـــة والسياسية والاجتماعيـــة، وذلك لأجـــل تأصيل حضور هـــذا النص فـــي صورة جديـــدة وبعلاقات جديـــدة من أجل أن يكـــون معاصراً لنا. إن بنـــاء أركان هذا النقـــد (النقد التراثي) قد تتطلب حواراً واسعاً ومستمراً.. وقد نقترب قليـــلاً أو كثيراً من بناءات النقد الثقافي أو الأدبي..لكـــنَّ هذه الخُطـــة النقدية طويلة الأمد ستخلقُ جسراً نشطاً من التراثية إلى هُويّةٍ ثقافية حقيقية هذه المرة.

قميص

مالك صقور*



..«قميص» . عنوان قصة قصيرة للزميلة القاصة بلسم محمد؛ تناولت من خلالها بداية الأحداث الدامية في قطرنا الغالي، وإن لم تكن هذه القصة هي الأولى في موضوعها ومضمونها، فربما كانت من القصص الأولى التي تحدثت عن الإرهاب والإرهابيين.

ولما كان للعنوان أهميته، لأنه العتبة، والمفتاح للقصة، وهو يشي أيضاً بمضمونها، فإنَّ لعنوان القصة (قميص) . دلالته.

---

* أديب وناقد ومترجم ورئيس تحرير «الموقف الأدبي».

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

لـم تضـع القاصـة عنـوان القصـة: (القميص)، لم تسبقه بأل التعرف. فمجرد (قميص) أيضاً دلالة ما، كما سنرى.

فقد يوحـي (قميص)، مثـلاً أن يكون (قميصـاً) لفقير، لا يملـك صاحبه غيره، بمعنـى من المعانـي، أن يغسلـه صاحبه، ويبقى عارياً حتى يجف. وقد يكون قميصاً مزهـراً، ذا لـون لا يُنسى، كهديـة عاشقة لحبيبها، وقد.. وقد..

وفـي موروثنا، توجد دلالات عدة لكلمة (قميص). منها، مثلاً: قميص النبي يوسف عليه السلام، ولقميص يوسف ذاته أكثر من معنى ودلالة:

الدلالة الأولى: «**وجـاؤوا علـى قَمِيصِه بدمٍ كذبٍ...**» من سورة يوسف، الآية(١٨).

والدلالـة الثانيـة: «**واستبقـا البـاب، وقدّتْ قَمِيصَهُ من دُبُرٍ...**» من سورة يوسف، الآية(٢٥).

«**قـال هـي راودتنـي عـن نفسـي. وشَهِدَ شاهِدٌ مـن أهلهـا إن كان قَمِيصُـهُ قُـدَّ مـن قُبُـلٍ فصَدقـتْ، وهـو مـن الكاذبيـن ۞ وإن كان قَمِيصُـهُ قُـدَّ مـن دُبُـرٍ فكذبـتْ وهو من الصادقين**». من سورة يوسف، الآية(٢٦و٢٧).

الدلالة الثالثـة: «**اذهبُـوا بقمِيص هذا فألقوهُ على وجه أبي يأتِ بصيراً**». من سورة يوسف، الآية(٩٣).

والمشهـور جداً، أيضاً، هـو (قميص) عثمـان الخليفة الراشـدي الثالث (رض)، والذي اتخـذ للفتنة الكبرى فـي الإسلام، وصار مضرب الأمثال.

ثمة قصـة أخـرى، بعنـوان: (قميص الصـوف) للقاصـ اللبنانـي توفيق يوسف عواد، لكن بمضمون مختلف. ويوجد قصة عن (قميصـ السعـادة) لكاتـب فرنسي، إلخ...

ولا أخطـئ إن قلت، إن مغزى (قميص) هنـا، ونهايتهـا تتقاطـع مع نهايـة قصة (المعطـف) الشهيرة، والمعطـف الشهير أيضاً للكاتب الروسي غوغُل، والتي قال عنها أشهر روائي روسي فيودر دوستويفسكي:

«كنا خرجنا من كمّ معطف غوغُل».

لا أريد أن أجري مقارنة بين (المعطف) و(قميص) لكن كما فهمت أن المغزى واحد في القصتين من حيث الرمز والدلالة.

وهنا، لابـد لي من القـول، إني أعرف سلفاً، أنه لم يكـن في ذهن القاصة، أو في نيتهـا، أو فـي ذاكرتها علـى الأقل، كل ما ذكرت من قمصان: يوسف، وعثمان وعواد، ولا معطف غوغُل حتى، وما قلته، يجولُ في ذهن القارئ بادئ ذي بدء، عندما تقع عينه على عنوان (قميصـ)، ولهذا كان مثل هذا التداعي.

۞ ۞ ۞

قميص . بلسم محمد . قصة قصيرة، مؤثرة، واقعية، معاصرة، مؤلمة، تشهد على حدث مروّع، جريمة نكراء شنيعة، تناقلتها وكالات الأنباء، وعرضتها المحطات الفضائية العدوّة قبل الصديقة. وكانت بداية الحرب والأحداث الفاجعة التي حلّت بالوطن الغالي، كما نوهت أعلاه.

قميص . قصة رسمت بكلمات بسيطة، شفافة، مصير إنسان، ومصير هذا الإنسان، تحوّل إلى مصير وطن بحاله.

فالكادح البسيط، عبدٌ من عبيد الله، يسعى إلى رزقه، وله حياته، وآماله، وأحلامه، ومهما كانت هذه الأحلام بسيطة، فهي أحلام كل إنسان شريف، في الحصول على رزق حلال، ثم، يحلم ببناء عش الزوجية، ولقاء خطيبته، ورضا والدته.

وفي يوم، من الأيام المتشابهة الكثيرة، التي كان يعمل بها، ويذهب إلى السوق، حاملاً (بضاعته) في سيارته المتواضعة، من أجل العيش الكريم، كعادته كل صباح، حصلت المفاجأة، مفاجأة لم تكن بالحسبان، لا في حسابه، ولا حساب أمه، ولا حساب خطيبته، ولا حساب أحد من معارفه.

فعن أي مفاجأة يمكن الحديث عنها لمواطن كادح، يحمّل صندوق سيارته بالخضار والفواكه ويذهب إلى السوق. فقد تكون المفاجأة، مثلاً أن تتعطل السيارة في الطريق، فلا يصل السوق (ساحة الرزق) في الوقت المناسب، وهذا احتمال. فتتلف المواد التي ينقلها . وقد يسطو عليه قاطع طريق، فيسلبه حمولته، وماله، وسيارته، وهذا ليس مفاجأة، وهو احتمال لكن السنين الطويلة، الطويلة، خلت من قطاع الطرق، والبلاد كان يضرب بها المثل في الأمن والأمان، المفاجأة أن تموت أمه، التي تركها في الفجر، وندم لأنه لم يفتح الباب، ويلقي عليها نظرة، قبل أن يغادر، أو لماذا لم يسألها ماذا تريد؟

لكن المفاجأة، المفاجأة الصاعقة، الصادمة، الحقيقية، التي لم يستطع أن يجد لها تفسيراً، أو جواباً، أو مبرّراً، ولم يكن قد خالجه شعور ما، أو إحساس ما، بأن يحصل ما حصل، ولم يخطر في باله ذلك، فهو لم يخشَ، ولم يخف، ولم يدخل الرعب قلبه، وهو على علم ودراية بما يجري من إرهاب في مناطق متفرقة من البلاد، لذلك كانت مفاجأة، مفاجأة، أن شباباً طوقوه، وبالأمس، كانوا يتقاسمون الخبز معاً ويتسامرون، فهو الذي يأتي إليهم محمّلاً بالخضار والفواكه كل يوم، وفيها منفعة لهم وله.

و«فجأة».. وعندما وجد نفسه قد وقع في الفخ، أدرك أن مكيدة تحيق به، سأل ببراءة:

ـ ماذا هناك؟ ويأتي الرّد الفاجع المفاجئ:

ـ ألم تسمع نداء الجهاد؟

فيقول المسكين: إني حاضر، سأذهب إلى فلسطين، إلى القدس الشريف... هكذا، عرف، ووعى، أن الجهاد في هذه الأيام يجب أن يتجه إلى فلسطين يجب أن يتجه إلى تحرير القدس، يجب أن يحرّر الجهادُ بيت لحم مهد السيد المسيح، ومسرح ومعراج محمد إلى السماء، إلى هناك يجب أن يتجه الجهاد.

لكن «جهاد» هؤلاء، يا للأسف، يا للألم، يا للفاجعة، يا للخيبة، لا يتجه إلى فلسطين، ولا يدين دولة الكيان الغاصب، ويكون الجواب الصاعق:

ـ الجهاد فيك.

لكن وببراءة أكثر يتساءل:

ـ ولماذا أنا؟

ويأتي الجواب، أقسى، وأصعب، وأفظع:

ـ جاء يومك أيها الكافر...

وعندما قرأ الشر في عيونهم، صاح مرة أخرى، وببراءة أيضاً:

ـ أنا لم أرتكب ذنباً!

أيضاً، يأتي جواب أقسى وأفظع من الأول:

ـ لقد أفتى الشيخ أنك آثم سليل آثمين... ومن ثم يتم الإجهاز عليه ذبحاً، وتقطيعاً، وتمثيلاً بجسده.

لكن القصة لم تنته باستشهاد هذا البطل الكادح، الذي لم يستسلم لقدره ببساطة، ولكن تكاثر الثعالب والذئاب عليه، وبأيديهم البنادق والخناجر والسواطير، وهو أعزل تماماً، مع ذلك حاول المقاومة، التي كانت غير متكافئة.

أقول: لم تنته القصة باستشهاد هذا الكادح.. بل بدأت القصة: لقد ارتفع مثل كل الشهداء إلى السماء، وأولهم السيد المسيح، وصار دمه، وجسده، وقميصه رمزاً. تحوّل قميصه إلى شبح، وصار القميص شبحاً مخيفاً، لهؤلاء الذئاب، تحوّل هذا الإنسان المغدور، من شهيد إلى شهيد حي يزور المساجد أيام الجمعة، والكنائس أيام الآحاد.

وقميصه المعطّر بدمه الطاهر أمسى وأصبح شاهداً ليس يوم القيامة، بل أمامنا، نحن الأحياء.

❁ ❁ ❁

تكمن أهمية هذه القصة، من وجهة نظري، إضافة إلى كونها من القصص الأولى التي تناولت بداية الأحداث الدامية، التي أراد منها الغرب وأعداء سورية أنها «ثورة» ولكي تثير فتنة طائفية تتحول إلى حرب أهلية. وهذا ما أخفق الإرهابيون في فعله، سلطت القصة الضوء على الخطر القادم من «الفتاوى» التي حللّت الدم، والعرض،

باسم شياطين الفتنـــة، وقتل الإنسان الذي حـــرم الله والأديان قتله. كمـــا وأشارت إلى خلفيـــة المجرميـــن الذين يتهمـــون الآخر بالكفـــر. والحقيقة هم الكفـــار، والسؤال، مـــن أعطى هؤلاء الجهلـــة الحق في الحكم علـــى إنســـان، كائناً من يكـــون، بالكفر، ثم بالذبح، ثم بالتمثيل بجسده، فقط لأنَّ ذنبه وذنـــب الكثيرين أن اسمه (كـــذا)، أو هويته (...)؟!!!!

لو لم تثبت الحقائـــق الكثيرة، والوقائع الدامغة، المسجّلة بالصوت والصورة، والتي عرضت على شاشات الفضائيات أمثال هذه الجريمة النكراء، في أنحاء البلاد، ربما قال قائـــل إن هذا من شطحـــات الخيال، خيال القاص، والقصة. لكن ما حصل في (عدرا) العمالية، وفـــي أماكن كثيـــرة، يثبت صحة هذه القصـــة. وكما تحوّل صاحب المعطف إلـــى شبح يـــدب الذعر في قلـــوب النبلاء والجندرما وكل الظالميـــن في بطرسبورغ، هكذا تحوّل قميص الشهيد إلى رمز وشبح يرعـــب المجرميـــن الذين ولغـــوا في الدم السوري...

في مثلّث المسرح السوري

أنور محمد ❁



ثلاثــة مسرحيين؛ أعتقد أنَّ مسرحهم لعــبَ دوراً تفكيكياً للاكتئـاب المسرحي، اكتئـاب العقـل المسرحي السـوري، هم: سعد الله ونُّوس ومحمد الماغوط وممدوح عدوان. مع أنّي أُقــدِّر كثيراً مالعبه مسرح فرحـان بلبـل ومصطفى الحــلاج اللذان سنخصُّهمـا بدراسة لاحقاً. فالمسرح على أيديهــم كان مقدِّمــة لثـورة ثقافية شغَّلت التفكيــر النقدي في سبعينيات وثمانينيات القــرن الماضــي وما تــزال، لدرجــة أنَّ مسرحهم كان أكثر من بيان (رسولي) ولكن مادي، لزمــن (إنساني) جديــد، قام على

❁ ناقد وباحث مسرحي سوري.

البيِّنـــة الثقافية، والحجـــة العقلية؛ في أنَّ المسرح هو ينبوع النبالة المرشد للفروسية الحقيقية، وليس لتصفية الحياة بالمسدَّس الثقافي.

١- مسرح سعد الله ونّوس

كأنَّ ما كتبه سعد الله ونوُّس من مسرح، إنَّمـــا هو فعلٌ من أفعـــال الفلسفة، التي لا تـــرى نفسها إلا بالحيـــاة؛ فنصير ندركها، نـــدرك الحياة بالحدســـ. وربَّما وحده من بيـــن المسرحيين العـــرب، كان يسعى في مسرحه، منذ تلـــك المسرحية التي اجترأ فيها على الحاكـــم العربي (حفلة سمر من أجل ٥ حزيران) وعلـــى مباشرتها سياسياً وفنيـــاً؛ إلى تأكيد (الأنا) أنـــا المثقَّف، أنا الشعـــب المفكِّـــرة؛ كقصدٍ وفعـــل؛ كتفرُّد وكليَّة.

فمسرحه مـــن «بائع الدبس الفقير» إلى «منمنمـــات تاريخية»، هو بحـــثٌ في ترقية شعور القـــوَّة عند الضعيف /الحق/ الخير، حتىَّ يقوى، وما أن يصير باطلاً- شراً حتى يتخلـــى عنه. هو هنا لا يسمِّن؛ يغذِّي الخير ليصيـــر باطلاً، شراً، لأنَّـــه نقيضه. بل هو يبحـــث عن الحقيقة ليس لأنَّها مشكلة، لكن لأنَّها وجودٌ يمثِّـــل (الله) بوصفه ملجأً، قوَّة يستغيث بها الضعيفُ فلا يتستَّر على الشر، فيزيِّف العقل، يزيِّـــف العلم بعنفه ليضلِّلَنا، يخدعنا.

سعد الله ونوس فـــي مسرحه، هو ضدّ تزييف الحقيقة بحجة الحفاظ على الحياة، فالمسرح غنيٌّ بقيم الجمال الذي فيه الخير، الذي يحمي الحيـــاة؛ يحمينا من الإحباط، والسأم، والملـــل، والضجر، والانغماس في العدم. هو في مسرحه يقهرُ البشر بوساطة البشر. لكنَّه يـرى أنَّ المسرح وحده من بين الفنون، كل الفنون، من يقدر على أن يصنع الحياة الكريمة؛ ووحده الذي يقدر على أن يغوينا بها.

فهـــو يرفض حيـــاة الخضـــوع والفقر والدونيـــة، والتخلي عن القـــوَّة، التي فيها الخيـــر كما فـــي «يوم من زماننـــا»، فيحقِّر الأنانية- المُخبر؛ العميل؛ المطيع الذي لا يفكِّـــر في معصية الحاكـــم، رغم ما يخفيه فـــي أعماقـــه من قـــوَّة حيوانيـــة متوحِّشة ومفترسة.

في مسرحيـــة «الملك هو الملك»، يريد أن يُقنـــع الشعب /المواطـــن الذي تدعسه؛ تدوســـه نعال الملك، بأنَّ هـــذا الحق الذي للملـــك إنَّما هو (باطـــل)، فليس الملك في (الأسمـــى) وليس له عندنـــا كشعب من حقٍّ فطري فيدوسنا؛ يدوســـ الأسمى الأعلى- الأدنى. فالأدنى هنا في مسرح ونوس، يمثِّل

الجمال الـذي فيه قداسـة، القداسة التي فيها غضبه وثورتـه، التي هي ضد رغبات وشهوات الملـك. قداسة يحوِّلها الملك إلى سلعـة. شعبٌ سلعة، وطـنٌ سلعة، إلا الملك فهـو صاحب السلع/ السلعـة. ملكٌ، ملوكٌ مصابون بجنون العظمة والقوَّة.

سعد الله ونوس وإن كانت الأيديولوجيا كمـا يشتمُه بهـا بعضـ المتمسرحين من السوريين تغلِّف مسرحه، لكنَّها الأيديولوجيا التي تساعدنا للتمسُّك والمطالبة بحقنا في أن نعيش أحـراراً لا عبيداً، وليس بوصفها سرطان الحياة.

ما أحقـر العبيـد، يكتبـون ويثرثرون ويمثِّلون ويغارون من سعد الله ونوس، غيرانَ الخصيِّ مـن الفحل، عبيـد بسلوكهم وإن كانوا لايزالون يحملون؛ يحتفظون بصكوك الحريـة، حريَّتهـم، لأنَهم بوعيهـم الرديء يزيِّفون ويدمِّرون حريتهم، كونهم تعوَّدوا أن يعيشوا حياة القطيع، فدائماً هم في حالة من الرضا والتسليم: قدَّرَ الله، أرادَ الله، مشيئةُ الله، وينسـون تاريخهـم العابـق بالخيانة، بالشبـق المؤامراتي في السـرِّ والعلانية، فيتزيَّنون بالمساحيق؛ بمسرحيات ومقالات وأشعـار ومؤتمـرات- مؤامـرات حاكوها ليخفـوا قباحتهم وجبنهـم وضعفهم، التي فضحها ونوس فـي مسرحياته؛ مسرحياته التي نـرى فيها الأكثر حزنـاً وشقاءً وبؤساً وضجراً بالحياة، يصيـر الأكثر روعة وقوَّة و(فرحـاً) حين يقلب هذه اللحظة (الحزن) رأساً علـى عقب، فيمنـع الرئيس، الملك، الأميـر، الشيخ. صاحب الفخامة؛ المعالي؛ السعادة، من أن يستفـرد بالحياة لحسابه، فلا يحوِّلنا في مَخابِـره إلى كائنات بشرية من نوع جديـد، نوع مستنسخ لا يعرف غير الطاعة الخالدة الجامـدة المتجمدة لمثل هؤلاء (الكراكـوزات) وهـم يعتمرون فوق رؤوسهم قبعة الأيديولوجيا، وبأيديهم عصا الأيديولوجيا، فيمـا يشتموننا وينهوننا عن الاقتـراب مـن الأيديولوجيـا. كراكوزات، عملاء، مخبرون، لكنَّهم من ملوك؛ يريدون أن يموتـوا فـي ساحات المعـارك لا على أسرَّتهـم ليصيـروا أبطـالاً. خونة يريدون أن يشلـوا الحركة الفكريـة للعقل الذي هو أنبل وأشرف المخلوقـات، فيحجروا عليه بالأوهام-توهيمـه- ويقيّـدوه بالخرافات، ويخرِّفوه.

كراكوزات؛ مسرحيون، مثقفون يريدون تحريضـ شهوة ولـذَّة السلطـات العربية لإجهاض الأمل، لشحنه بشبقيتهم، فيركبونه بتلك الوضاعة والنذالـة التي تربُّوا عليها، بصفتهم مخلوقات رخوية، بصفتهم عبيداً. فيا حُزن الفرسان.

٢- مسرح محمد الماغوط

على خلاف المسرح، أو النصوص الوعظية التي تطلب منك أن ترفع يديك إلى فوق لتستنجدَ أو تستغفر، فإنَّ مسرح محمد الماغوط يمدُّ يده- يدفع أيادينا إلى تحت «ليفرجيها» صوت الأحداث لاصوت الكلمات؛ التي تُصنع منها هذه التراجيديا التي نعيشها والتي اسمها زوراً حياة. وكأنَّ محمد الماغوط وبفطرته الثورية في أشعاره وفي مسرحياته وفي مقالاته، ينعي حركة الثورة العربية التي لم تستطع أن تنتج معرفتها النظرية؛ وهذا ما أدَّى إلى إخفاقها في إنجاز مشروعها. فلا اليسار ولا اليمين ولا الوسط الذي بينَ بينَ؛ استطاع أن يفرِّق أو يستفيد من غيفارية «أرنستوتشي غيفارا»، ولا من غيفارية «أبا ذر الغفاري» الذي مات وحيداً في صحراء الربذة.

محمد الماغوط في مسرحه كما في شعره، نعى الثورة والثوريين، ولم يندمج بهما. بل شقَّ طريقه لوحده، واستطاع بنزعته الفردية التي بدت فوضوية وإلى حدٍ ما متطرِّفة أن يربح صفَّ الشارع الشعبي، حتى تلك السلطة (الثوروية) التي هجاها، بل التي انتقدها في مسرحه كانت مرتاحةً له، وعندما نزلت إلى الشارع بصفتها مواطنة وشافت مسرحه -رأت فيما بعد أن تستخدمه في تحرير الفرد/المواطن من سخطه عليها- أي رأت أنَّه يمكن أن ينفِّس عن ضيق وكرب هذه الجماهير، وهنا رأى المواطن العربي في الماغوط مثقَّفاً (فطرياً) ما يزال يحافظ على طهارته القومية. من جانب آخر؛ كان الماغوط يثير في مسرحه اللعبة الأيديولوجية ويدفع بها نحو الانفجار، وهي أيديولوجيا السلطة العربية- أيديولوجيا القمع، وظهرت أفكاره، وآراؤه المعارِضة لكلِّ أشكال الهيمنة التي يتعرَّض لها المواطن في معظم مسرحياته، وبدا الماغوط ديمقراطياً هازئاً ساخراً ناقماً وليس حاقداً. كما ظهر حنينه لكلِّ ما هو طبيعي وشعبي، بل وافتتانه به- افتتانه بالشعبي وباندفاعاته الطبيعية،فبدت شخصياته شديدة التجريد (الكهل- الطالب) في مسرحية «العصفور الأحدب»، و(المهرِّج- صقر- دحام) في مسرحية المهرِّج .

في مسرحية «المهرِّج» ثمَّة ظاهرة- هي موقفٌ نجده في مسرح الماغوط، وكذلك في شعره، وهو أنَّ حريَّته الشخصية تصطدم وبشكل مباشر مع القانون الذي تشرِّعه الدولة القمعية، وذلك لأنَّه يريد أن يستعيد دور المثقَّف الناقد، وليس دور المثقَّف الهلامي، فنراه- نرى الصراع تحرِّكه حماسة أخلاقية، هنا الماغوط يستند إلى مرجعيات أخلاقية هي فطرية شعبية-

أخذ منها عهداً علــى نفسه بأن يعمل على تحقيق أهدافهــا السامية، فصرنا نرى في مسرحه البشاعة -بشاعــة القمع تصطدم مع عذابات الــروح- روحه، فتسمو المعاناة التراجيديــة لأبطاله وخاصّــة في مسرحه الذي اشتغله مع «دريد لحام»، فبطله يدخل الزمن المسرحي جريحاً، ويخرج منه جريئاً جريحــاً، وهو يحسُّ بالخجــل النبيل،لأنَّ أهدافه /أحلامــه لم يقدر على تجسيدها، فالسلطــة القمعية ماتزال تســوِّر أحلامه، ماتزال تسجنها، فهي ترعى الفساد والرشوة والغشــ والتسيُّب والفوضى. بــل وشجَّعت علــى تكريس قطيــع (المتنمرين) الذين لا يردعهم ضميرٌ أو وجــدان، ولا تفيد معهم الشكــوى ولا الدمــوع ولا صرخات الرجاء، بأنَّ ما يفعلونه هو اغتصاب لعذرية الشرف الوطني والقومي، وهــدرٌ لروح المقاومة - مقاومة أي عدوان/ اعتداء خارجي قد يقع على الوطن.

لــذا نرى الماغــوط بقدر مــا يتمسَّك بحريَّة روحه ويدافع عنها- يدفعها للصدام مع قوانين الدولة القمعية، نراه وبقوَّة الشعر الــذي يسكنه يشــقُّ عن الدولــة هذه ثوب الوقار- ثوب وقارها ينزعه. فصراعه معها هــو صراعٌ أخلاقي، ومعركتــه معها معركة رجوليــة فارســ لفارس، وعشــرة لفارس. فينشر غضبه علــى كامل الزمن المسرحي وقد مسَّنا لهبه، فلا يعود قبح الدولة القامعة قبحــاً جميلاً، كمــا تُصوِّر هــي نفسها به، فالطبيعة البشريــة بفطرتها، وبمرجعياتها الشعبية التي تسكن أعماقه صارت تحرِّك، صارت تصنع الفعل التراجيدي لشخصياته وتشوفها وقــد أصبحت شخصيات مرعبة، لأنَّها شخصيات متماسكة روحانياً وعقلانياً، شخصيات تنتزع حقــاً ضائعاً، مضيَّعاً لها، فلا تبطش ولا تقمــع، بل تقاتل وبفروسيةٍ؛ الشهوةَ العمياء للتنمُّر عند قطيع المتنمرين الذيــن يرعون في جسد وروح الوطن، ومردُّ هذا إلى غزارة أفــكاره التي يُصيِّرها فعلاً تراجيدياً، وإلى تدفقها بسلاسة ومرونة.

قد يخطر لدارس مســرح الماغوط أنَّ شخصياته تحمل قــدراً من السوقية بسبب من إفراطها فــي إظهار مشاعرها الحاقدة والغاضبــة وبهزء وسخريــة مريرتين، لكن هذا لا يقلِّــل من سموِّ طبيعتهــا الفطرية، لأنَّ غضبهــا أساسه الحــزن- هو من جرح ينزف حزناً قديماً- دمــاً حزيناً فيه صورةٌ لمشاعرهــا السياسيــة النبيلــة، التي هي مشاعر بطولية.

فالماغــوط أيــن (يدفّر) بــل أين يفرُّ بأهــواء هــذه الشخصيات التــي اغتُصِبَ وانتُهِــكَ حقُّها في ممارسة حياتها بحريَّة؟. هو سيبقى في الأرض، ولن يهرب منها إلى الفردوس. الماغوط سيبقى يبحث ويجتهد

فـــي الشأن الأرضي- وكما قلنا في السفلي، ولن يرفـــع عينيـــه أو يديه إلـــى العلوي لا بصفتـــه سيصنع معجزات، ولكـــن بصفته فارســـاً محارباً ولو اضطرَّ أن يحارب بفأس الحطَّـــاب أو بأصابع يديـــه التي تسيل منها مفرداته اللغوية.

هذه المفردات والتي رغم شعبيتها، فإنَّها لم تكن مفردات متقوقعة على ذاتها- ثمَّ إنَّ الماغوط لـــم يُقِم مسرحه علـــى المواقف اللغويـــة فحســـب، بل هـــو اجتـــرح اللغة، أخرجها من خدرها، مـــن نعاسها، ودفشها إلـــى المحافـــل الرسمية والشعبيـــة، وإلى مجالـــس السمر والعزاء، وأطلق لها لسانها، فكَّ عقدة خجلها وحيائها ، فصارت تتنفَّس وتصرخ حين تتوجَّع بلا حرج وبأعلى صوتها حتى لو أخطأت، والماغوط يدرك أنَّ اللغة تحمل فـــي معناهـــا دلالات، إشارات،لأنَّها تعبِّر عن أفكار.

فـــي مسرحيتـــه «العصفـــور الأحدب» يقول صانـــع الأحذية للكهل في جواب على سؤال له (ماذا تشتهي)؟ فيجيبه: أشتهي أن أصنع خفَّاً من المطر لكلِّ الحقول الحافية في العالم. فتشـــوف أنَّ صانع الأحذية لَزِمَ مهنتـــه ولـــم يطالبنا بـــأن يصنـــع سجناً أو طائـــرة. لكنَّه عبَّر عن فكرتـــه/ حلمه، بعد أن يئـــس من البشر؛ مِـــنْ صنع أحذيةٍ لهم- وبجـــلاءٍ وصفاء قبضنـــا فيهما على لحظةٍ من أشدِّ لحظات المكاشفة مع النفس حين تتكلَّم بصوت الضمير الجمعي للأمَّة، فكان مفاجئـــاً، لكنَّه لم يكن غريباً رغم سرياليته. فمن المستحيل صنع خـــفٍ من حبَّاتٍ، من قطراتِ المطـــر وللحقول كـــي تمشي بها، الماغـــوط هنـــا وبسريالية فيهـــا صوفية، فيها عشق يتوحَّد فيـــه العاشق بالمعشوق، يفرجينا صورة من أغرب الصور السريالية: الحقول وهي تنتعل خفاً من قطرات المطر وتتمشَّـــى، فتتبـــادل الزيارات فيمـــا بينها، وربَّما، ربَّما تلعـــب بخفِّها هذا بالكرة حين ترمي به الجســـد وقد انسحبت منه الروح. الماغـــوط يرفع الغطاء ، فـــلا حجاب بينه وبين اللغـــة -هو يفجِّر خيالاتهـــا، يحرِّكها لترسم صـــوراً جديدة يدافع فيها عن موته، صوراً تنتشي باللغة- مفردة تخطف قارئها فيسكـــر. قد يشعر القـــارئ أحياناً أنَّها لغة يوميـــة، والماغوط يرسم بهـــا (كاريكاتيراً) ساخراً وساخطـــاً، وسخريته لاذعة حارقة، لكنَّهـــا- وهذه تُحسب له، لغـــة صامدة أوَّلاً لأنَّها تسخر مـــن المبتذَل والتافـــه. وثانياً لأنَّها مغمَّسة بنشاطٍ رجولي- رجولة الشعبي الذي لا يخون، وإنْ ماتَ فيموت واقفاً.

مسرح الماغوط كمـــا العقل، فلا يلتزم إلا بما هو عقلي، فيستخدم عقله بكل جرأةٍ وشجاعة، حتى لو أشهرَ مَنْ أشهرَ في وجهه سيفَ/ســـلاحَ التكفير. إذ كيف سيُصدِّقُ أنَّ

القنبلة التي ألقتها أميركا وتلقيها إسرائيل في العراق وسورية وفي الجنوب اللبناني، إنَّما هي برتقالة أو تفاحة. مسرحُ الماغوط على قلّة نصوصه وليس كثرتها، يدفع العقل إلى التحرُّر من «الدوغما» السماوية والأرضية، فيذهب إلى الحرية والإبداع فلا يستسلم، لا يسلِّم الراية، فيما لو -كما ذكرنا آنفاً- اتَّهَمَتْهُ بالكفر والزندقة، ومهما كان شكل ولون سيف القهر والتسلط والإرهاب الذي تمارسه عليه قوياً وعنيفاً. إذ كيف تسلبه حقَّه في التفكير والتفسير والتأويل وهو سيِّد المخلوقات!؟. مسرحُ الماغوط وبطبيعته الفطرية يفرِّقُ بين السلوك الوحشي وبين القيم المتوحِّشة، فلا يسمح باستباحة حقوق العقل/ حقوق الإنسان من حقِّ الحياة إلى حقِّ المواطنة، فحقُّ التفكير والاعتقاد، فلا نموت تلك الميتة الحضارية، وندفن في تلك المقبرة الجماعية، ويُكتب على شاهدتها: كانت خير أمَّةٍ أخرجت للناس.

٣- مسرح ممدوح عدوان

ممدوح عدوان كان يلزمه أكثر من حياة، كي يعيش مايلزمه من حياة وكان يلزمه كل الأجناس الأدبية والفنية، وإذا لزم أيضاً، اخترع أجناساً جديدة لتتّسع لما يودُّ أن يقوله في الحياة. ممدوح كان يتأمَّل، كان يفكِّر في ذاته كفرد، وفي ذاته كأمَّة. وكان يرى أنَّه لوحده يشكِّل قوَّة خاصَّة، قوَّة فيها بطولة. وكان رصيده من الأعداء أكثر من رصيده الذي يملكه من الأصدقاء،وكان دائماً على (نفير). فوعيه النقدي كان يدفعه للفعل- فعل الحكي الذي لا ينفكُّ عنه؛ وفعل الكتابة الذي يعدل فيه الحياة -يصحِّح لها مسارها- وفي كل هذا كان جدياً، حتى وإن مازحكَ فهو جدِّيٌّ، هو يقرأ بجدِّية كما يحلِّل ويكتب بجدِّية.

عندما كتب مسرحيته «هاملت يستيقظ متأخراً» كان يبرز تناقضات الأنظمة العربية، والتي سيفرُّ بعضها أو أحدها إلى الصلح مع العدو الإسرائيلي. ليست نبوءة؛ ولكنَّها فلسفة المثقف العضوي الذي ينظر إلى السياسة على أنَّها ترجمة لتفكير أنظمة علاقاتها بأمَّتها، علاقة أستاذ بتلاميذه. مسرحه/مسرحياته التي كتبها (٢٧) مسرحية، على ضعفها وعلى قوَّتها فنياً وفكرياً، كانت أكثر من بحث، وأكثر من دراسة، ضمَّنها فكره الفلسفي الذي كان فيه حرَّ التفكير. إذ كان ضدَّ كل التيارات بما فيها اليسار، لكنَّه لم يكن ضدَّ أمَّته، بل كان يفكِّر ويتأمَّل ويحارب عنها، تفكيره كان تعبيراً عن مزاج جماهيري عام، وشخصيات مسرحياته كانت تعبِّر عن روح التمرُّد لدى هذه الجماهير. شخصياتُ عكست

-أو عكسَ ممـدوح عدوان مـن خلالها- خصوصية مرحلـة الستينيات والسبعينيات من القـرن الماضـي، باعتبارهـا مرحلة الهزيمة، المرحلة التي خيَّمت فيها الهزيمة بكلِّ ثقلها على معنويات هذه الجماهير.

هو لم يفعل مثلما فعل سعد الله ونوس؛ أقـام مذبحتـه، أقام وليمتـه العظيمة في مسرحيته «حفلة سمر من أجل ٥ حزيران»؛ ممـدوح بقوَّة فكره الشعبـي، كفلاح، وبقوَّة حسِّه وحدسه الشخصي كمتعلِّم جرح كرامته بقـاء السيف معلقاً علـى الجدار؛ استيقظ عنده الشعور القومي، فصار يلاطمنا بحثاً عـن قوَّة الجماهير القومية الشعبية، وكيف تـمَّ التفريط بها، كيف تـمَّ تدجينها. طبعاً ممـدوح وكأيِّ مثقفٍ عضـوي، لا يمكن أن يقوم بمهام الزعيم القومي، الزعيم الموحِّد. لكن يمكن أن يكون زعيماً ثقافياً، أو المثقف الزعيم غير المتوَّج.

لذا مسرحياتـه كانت تنقل صراعها، أو كان الصراع الـذي فيها يصدمنا/يصطدم معنا؛ لأنَّها كانت تبدأ نزاعاً خفيفاً، بسيطاً، عفوياً، ثمَّ يسخن، يسخن حتى يصير صراعاً وينفجر.

ممـدوح في هذه الصراعـات التي في مسرحياته لم يكن يرى الناس، البشر بما فيهم «أكلة لحوم البشر» وهي إحدى (مونودراماته) أكثـر من ضحايا فقر، بـل ضحايا مستبد.

ففي «هاملت يستيقظ متأخراً» يرى ممدوح أن نخلـعَ؛ أن نشيلَ أنظمة الخيانة، نقلعها، نجتثها. فـكلُّ دولةٍ تنتج الفسـاد من عهرٍ ودعـارةٍ سياسيـةٍ واقتصاديـةٍ وثقافيـة- هاملـت كان منشغلاً بالثقافة- هي آيلة إلى الخيانة وليـس للسقوط. فهاملت كان عليه أن يغيِّـر الملك (عمَّه) قاتل أبيه مع حاشية الدولة، فهذا مطلب شعبي، مطلب الشعب، لا أن يثأر لمقتل أبيه. هاملت لم يسرق، ولم يهرِّب ثروات المملكـة، ولم (يصالح) عدو المملكـة التاريخـي (فورتينبراسـ). لكنَّه بانشغالـه بالثأر -أي بالشـأن الشخصي- فـوَّت عليه، علـى الأمَّة كل فرصـ الحياة الكريمة التي كانت في متناوله. فيتم الصلح مع العدو، ويسمن ويثرى القتلة والمرتشون والمفسـدون، ويموت هاملـت شرَّ ميتة في مبارزة مفتعلة.

ممـدوح فـي مسرحيته هـذه كان يكزُّ على أسنانه وهو يرى القاهر العربي يصير مقهوراً ذليلاً أمام عدوه التاريخي، كيف يردُّ له روحه؟.

ممدوح ومن قبـل وفي مسرحيته «كيف تركت السيف» حاول طويـلاً أن يوقف هذه الكارثة. لـ «نيتشه» مقولة تفيد: (أنَّ الدولة هـي أكثر المخلوقات غلاظة وبشاعة، فهي تكـذب ببرودة عندمـا تقول: (أنـا الدولة صـوت الشعب). هنا الدولة، دولة الأغنياء؛

الدولــة التي حاول إقناعها أبو ذر الغفاري فــي أن تعطي بعض مالهــا للفقراء!!، لكن أي أغنياء هــؤلاء؟.. أليسوا الأغنياء الذين امتصّوا ثــورة الإسلام وصيّروها دولة فيما بعد حَمَتهم وحَمَت أموالهم وأعراضهم؟.

ممدوح يحاكم يحــاور أباذر. صحيح أن عثمــان بن عفان الخليفــة الثالث نفاه إلى صحــراء الربــذة، حيث مات هنــاك أبوذر وحيــداً –لقد كان عثمــان أثرى أثرياء مكة قبل الدعــوة- إلاّ أن ممــدوح والذي تركنا نرى أباذر شخصية حية، أكثر منها شخصية استعاديــة، كان يريد أن يقــول على لســان أبي ذر:

كلُّ حــق لاتسنده القوَّة هو باطلٌ، يصير باطلاً ما لم تشهر السيف- تدعمه بالسيف. ممــدوح في «كيف تركــت السيف» كما في «هاملت يستيقــظ متأخراً» وفــي «الغول» و«ليل العبيد» هو يريد أن يهزّنا، يلذعنا، بل يجدع أنفنا،- فالموت لــم يعد موتاً، مثلما الحريَّة لم تعد حريَّة. ف «وحشي» الذي قتلَ حمزة عم الرسول (صلــى الله عليه وسلم) ثمناً لحريَّته، القتل×الحريَّة، في مسرحيته «ليل العبيد» وجدَ في نفسه أنَّ هذه الحريَّة لــم تمــحُ عبوديته، بقيــت الحريَّة في هذه الحالة مثل العبودية، بينما(بلال) وجد فيها إنسانيته حين صار يدافع عن الدين الجديد. في مسرحية «ليل العبيد» يحيلنا إلى قراءة الحريَّة فــي بداوتها- الحطيئــة ووحشي؛ فالحطيئة يأخذ علــى وحشي حيازته على الحرية مقابل قتل رجل هو حمزة عمُّ النبي (صلــى الله عليــه وسلم)- القتــل من أجل الحرية- بقوله مستنكراً: (ألم تجد ياوحشي سبباً أفضل من القتل لتنال حريَّتك؟).

لأنَّ الحطيئة وهو الحــرُّ الذي لايملكه أحد؛ يجد نفسه أتعس (عبد) في بلاد العرب كلها، بل نراه يصعِّد غضبه ويقول لوحشي: (أنــت تكره عبوديتك ولا تكره مستعبديك). وحشي يكره حريَّته- فأبو سفيان يطرده من مجلسه فهو ما يزال يراه عبداً، على الرغم من أنَّ زوجته هند هي التي أعتقته. فلا هو حرٌّ ولا هو عبد؟! وحتىَّ يتأكَّد من ذلك تراه يعرضــ نفسه للبيع في ســوق النخاسة فلا يجد من يشتريه؛ فيعرض، يقدِّم، يهب حاله عبداً لهند فترفضه.

إنَّهــا لعنة الحريَّة التــي نالها وحشي بـ (الغــدر) الغدر= الحريــة. لذلك لم يستفد منهــا، صــارت تشــكِّل ثقلاً علــى روحه، ضجــر منها، صارت تستعبده. ولهذا فقدت صلاحيتها رغم أنَّــه أسلم وعفا عنه رسول الله (صلــى الله عليه وسلــم). هنا تنهض الحريَّة، أو ستنهضــ من جديد، فإذا كانت فــي مسرحية «ليل العبيــد» مطلباً فردياً- شخصيــاً- لكلٍ من وحشي وبلال، فإنَّها في مسرحيــة «الغول» والتــي تتناول فترة حكم

السلطان العثماني جمال باشا الذي أعدمَ في مطلع القرن الفائت وفي السادس من أيار عدداً من الزعماء الوطنيين في كلٍ من دمشق وبيروت على خشبات المشانق، مطلباً شعبياً.

هنا ممدوح يواجه الدولة المستبدَّة، الدولة التي تقطع، وتطحن وتحيي وتميت كما يقول جمال باشا في المسرحية في حوار بينه وبين المراسل الذي يخبره فيها بأنَّ «شكري القوتلي» قد انتحر. كيف ينتحر؟ يقول جمال باشا للمراسل: (من المسؤول عن المساجين في الخان -خان أسعد باشا- ؟ أريد أن أراه اليوم على الخازوق. مفهوم؟ يجب وضع حد لهذه الفوضى، تصوَّر ماذا يحدث لو أنَّ الجميع يفعلون مثل شكري القوتلي، أن يقرِّر أيُّ إنسان منهم أن يموت ساعة يشاءَ. ماذا أشتغل أنا إذاً:

أفهمني. أتعرف ماذا يعني انتحار شكري القوتلي؟

يعني أنَّه يقول لي: طز، نعم، طز في عظمتك وفي دولتك، ها أنذا أموت ساعة أشاء ولا تظل لك سلطة علي، اسمع، لا تقولوا لأحدٍ إنَّ شكري القوتلي قد انتحر، علِّقوه على المشنقة حتى وهو ميِّت).ما يذكِّرنا، الأمر الذي يذكِّرنا، بمقولة للكواكبي: لو خُيِّرت ملكة بريطانيا (فيكتوريا) بين أن تحكم بالديمقراطية مدى الحياة، وبين أن تحكم مستبدة خمس دقائق، لاختارت أن تحكم... دقائق.

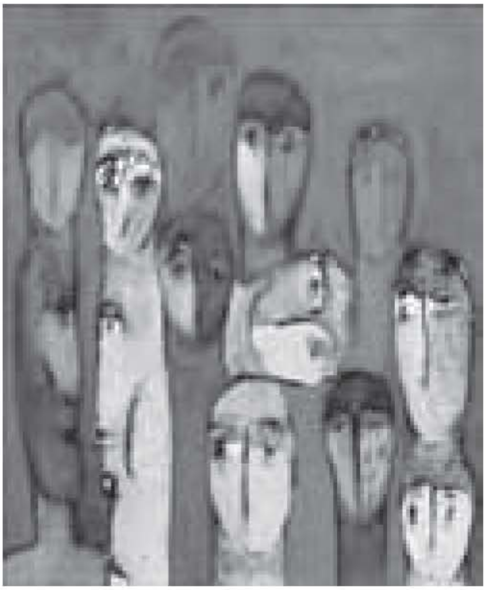
ممدوح عدوان في مسرحه كما في حياته كان يتميَّز عن غيره من المثقفين السوريين، بأنَّه كان يملك إرادة استثنائية؛ كان صريحاً حتى لتحسبه وقحاً، وجريئاً حتى لتحسب أنَّه عدوُّك. ممدوح لم يكن من السهل أبداً إقناعه أنَّ أميركا، أو الإمبريالية ومن ثم العولمة هي التي تحرم شعوب العالم، بما فيها الشعب العربي، من حقِّ الاستمتاع والتلذُّذ بنعمة الديمقراطية. ومقاومته في شعره كما في مسرحه للاستبداد، لم يكن بحثاً عن بطولة، بل كان إبرازاً للرعب والقسوة المفرطة التي نمارسها على بعضنا.

فالفعل المسرحي عنده كان ترجمةً للحيونة والنمرنة والقمعنة والوحشنة والوسخنة والسلبطة. ترجمةً شفناها في تعابير مصوَّرة، في سخرية عارية لا تخشى أحداً ولا تكترث به مهما كان شأنه. ممدوح سعى في مسرحه إلى تحطيم الأوثان التي من نوع العجول الذهبية التي تسكن أعماقنا، فهزَّنا، هزَّنا بعنف. قد يقول قائل: ولكنَّه كان قروياً- لم يحدِّث ثقافته.

ونقول بقيت قرويته؛ بقيت بدويته في أعماقه، فكانت بنبرتها (الصاغ) الساخطة الساخرة الناقمة تولِّد حداثتها.

تأمـــلات ثقافيـــة

❁
عبد الباقي يوسف



معضلة اللاحكمة

عندمـا يفقـد الإنسان الحكمـة، فإنه يصبـح في تيـه وشتات من أمـره، ولذلك فإن الحكمة هي المشكاة التي يستهدي بها الإنسان في سائر شؤون حياته.

لعل أكثر ما يفتقده عصرنا، هو افتقاده إلـى روح الحكمة، حيث باتت الحكمة نادرة في جـل السلوكيـات، والمواقـف، وردّات الفعل سواء التي نعيشها في حياتنا اليومية، أو التي نشاهدها في وسائل الإعلام.

❁ أديب وناقد

والحقيقــة، أنَّ الحكمة تقــدم التهدئة والعــلاج لسائر الإشــكالات التي يستعصي علــى الإنسان علاجها، والحكمة تعني فيما تعنيــه، أن يضــع المرء الأمــر في موضعه المناسب بذكاء حتــى لايرتدّ عليه. تعرفتُ أكثــر مــا تعرفــت علــى روح الحكمة من خلال دخولي إلــى عالم قطب الحكمة في التاريــخ الإنساني (لقمــان الحكيم) عندما اقتنعتُ بجــدوى كتابة رواية عنه هي رواية (إمــام الحكمة) التي طبعتها وزارة الأوقاف الكويتيــة سنــة ٢٠١٠م، واقتصــرت على تقديمهــا كهدية لضيــوف الكويت، دون أن تأذن لبيعها في المكتبات لتكون في متناول الناس عامة.

أمضيتُ سنوات عــدة، أقرأ فيها كل ما هو متعلق بلقمــان الحكيم سواء من قريب، أو من بعيد، ثم قمــت بجمع كل ما أمكنني من حكمة قالهــا، عندئذ باشرتُ العمل في هذه الرواية.

إنَّهــا حكمة متجددة تصلــح لإنسان كل زمــان ومكان، هذا الرجــل الذي بلغ مرتبة متطورة من عبقريــة الحكمة إلى درجة أن استشهــد الله بحكمته، وحملــت سورة من القرآن اسمه.

لقمان الحكيم الذي قال ذات يوم لرجل: إن كنت تراني غليــظ الشفتين، فإنه يخرج من بينهما كلام أبيض، إن كنت تراني أسود، فقلبي أبيض.

إنَّ لقمان الحكيم لا يتحدّث إلا الحكمة، وكل كلامــه فــي جــل أوقاتــه حكمة في حكمة.

وواقــع الأمــر أن الإنســان الحكيم هو إنســان قدوة للناس في سائــر أوقاته، فإن النــاس يأخــذون عنه ويتخذونــه قدوة في أقواله وأفعاله.

لننظر إليه كيف يتعامل مع الناس، حتى أولئك الذين يريدون الإساءة إليه، فذات يوم تقدّم إليه رجل وسط جمع من الناس وأراد أن يستفزه قائلاً: ما أقبح وجهك يا لقمان

غــرق لقمان فــي صمت، وهــو يكظم غيظه، بيــد أن الرجل أعــاد كلامه وطلب الإجابة.

عنــد ذاك نظر إليه لقمان وقال بهدوء: أتعيب على النقش، أم على النقاش؟!

لقد نبّه لقمان الحكيم إلى أوبئة الجمود التي تصيب عقل الإنسان وقلبه، ولذلك دعا إلى أن يجدّد الإنسان نفسه، وليس من سبيل شطــر تجديد النفس البشريــة سوى سبيل الإشراق الفكري.

يبقــى أمام الإنسان أن يعمل جاهداً في تحصيل العلم كي يطوّر نفسه ويبني أواصر

متينة بينــه وبين المتلقيــن لحديثه، وكلما اتسعت مطالعاتــه، واتسعت دائرة علاقاته وولوجه إلى قاع المجتمع، استطاع أن يترك أثراً، ويمتلك مقدرة حقيقية على تغيير الناس وتطويرهم، وفي هــذا يقول لقمان الحكيم على شكل وصيــة: (تعلم الحكمة وأخلاقَها كلها، واجعلها لك شغلا، وفرّغ نفسك لها.

أسرع إلى كسبها، وأبطئ إذا أنفقتها، وقر عينا إذا جمعتها، واعلم أن الحكمة لاتصلح إلا باللين، وأن اللين جــراب الحكمة، وأن مثل الحكمة بغير تدبير بمنزلة ما في يدَي غير خازنه أباحه سارقــا ووجده مَعوزا، أو كمثل غنمٍ تروح في غير زريبة أتاها الذئب ووجدهــا ضائعة فأكلهــا، وتعاهد مع ذلك لسانك، واعلم أن اللسان باب الحكمة، فإذا ضيعــت الباب دخل مــن لا تريد أن يدخل، فإذا حفظته حفظت الخزانة، وإن من ملك لسانــه إن قال، قال بعلم، وإن صمت صمت بحلم.

إذا رأى لقولــه قرارا تكلــم، وإن لم يره قرارا فإذا استنطقه من يريد الدين اجتهد، وإن استنطقه السفهاء صمت.

من خلال شخصية لقمان الحكيم يتبيّن لنا أن من الناس ناس يقودون أنفسهم قيادات فكريــة سليمة، ومنهم من يقــودون أنفسهم ويقودون عائلاتهم قيادة فكرية سليمة، ومن الناس نــاس يقودون أمة كاملة قيادة فكرية سليمــة، فكم من رجل استطــاع بمفرده أن يكــون علامة مضيئة من علامات مجتمعه، حتى بات عصــر بأكمله يُعرف بقائد الفكر هذا دون غيره، وإذا تأملنا سيرة حياة لقمان الحكيم، نــراه كان دائم التفكر، ومن خلال علاقاته وتأملاته في ملكوت الكون وفي نفس الإنسان، أخرج جواهر حكمته.

عبء الإعلام

تحوّلت وسائل الإعلام إلى وبال وقع على الشعوب العربيــة، وقــاد الانفتاح الإنساني إلــى أبواب مسدودة، وأمســت التكنولوجيا المعاصــرة عبئاً ترزح تحتــه غالبية الدول العربية.

عندما بدأت ثورة الأنفوميديا المعاصرة تتسرّب إلى بلدان العالــم العربي المنسي، يبــدو أنــه لم يكــن مؤهــلاً بشــكل جيد لاستخدام هذه التكنولوجيا المعاصرة، ومع مرور السنوات، بــدأت هذه الثورة تنال من بنية هذه المجتمعــات العربية، وتعمل على تفكيكها، حتــى تكلل ذلك بأكبــر انعطافة شهدتها المنطقة العربية.

رأينا كيف أن هــذه البرامج باتت تُسهم فــي إرواء نزعــة العــداوة وتقويتهــا بين

الطرفين، عندما أخذت تأتي بشخصين، كل واحد يمثــل الاتجاه المعاكس للآخر، وبات مدير الحوار يعتقد بأنه يبلغ النجاح وحسن الإدارة على قدر ما يؤجج الخلاف، ويزيده إشعــالاً بين هذيــن الشخصيــن الممثلين لجهتين، حتى بات هذا المدير يشبه الديك، ينفش ريشه ويتبختــر على قدر نجاحه في ارتفاع حــدة التصعيد إلــى درجة انحدار الحــوار إلى جملة شتائــم واتهامات يكيلها أحدهما للآخر، والحقيقة أن الإنسان يحق لــه أن يشعر بالفخر والنجــاح عندما يردم هــوة بين شخصين، لا عندما يصعّد بينهما العداوة والبغضاء.

ثــم من ناحية أخرى أطــل علينا أناس بذقــون، يرتــدون جبباً وعمامــات، وباتوا ينادون بفتنة بين المكوّنات الإسلامية ذاتها، ثــم بفتنة بين المكوّنــات العرقية والدينية، والثقافية.

إنَّ مجرد النظر إلى أربع سنوات مضت، يرينا تلــك المنجزات السوداء التي حققتها تلك الوسائل الإعلاميــة، وسوف نرانا إزاء كــوارث بشرية مفزعة لعلها لم تكن لتُرتكب لولا وجود هذه الوسائل، لأنها ارتكبت فقط في سبيــل إظهارها في تلــك الوسائل، ويا لتلــك المشاهد المأساويــة المزرية عندما ترى هؤلاء في أروقة المحاكم، وهم يحملون القرآن بتلك الأيدي الملطخة بدماء النساء والأطفال والسياح ومحبي الحياة والرفاهية، والقــرآن الــذي لا يتشرف بــأن يمسه إلا المطهــرون، فمــن المحقــق لا يتشرف أن يمسه قتلــة الأبرياء، ولا تحمله تلك الأيدي اللعينــة التي تمتهن مهنة قتل عباد الله في أرضه، وانتهــاك كل الحرمات الإلهية التي حفظها القرآن.

بتنــا في واقــع مرعب باتــت القنوات الفضائية مصدر فــزع للناس، حتى بدؤوا يتحاشونهــا، لأنهــا تحولــت إلــى مسرح لكل هــذه الانتهــاكات الإنسانية، وهي في حقيقتهــا وسائــل ترفيهية مسليــة للناس استبشر الناس بها خيراً عند ظهورها، كما الأمــر بالنسبة لوسائــل التواصل الإنساني الأخــرى مــن هواتــف محمولــة، ورسائل إلكترونيــة، وصفحــات شخصيــة تيســر التعارف والمودة والتعاضد بين الناس، وقد وُجدت بالأصل لهذا الغرض، وهذا ما تتبعه المجتمعــات المتحضرة، حيــث تحقق لها هذه التكنولوجيا عوامل الرفاهية والازدهار والتطــور، بيــد أنها عندما حلــت في ديار العــرب والمسلمين، تــم استخدامها لنشر الفتن، وإعطاء صــورة سلبية عن الإسلام، وإظهار مــدى ما يبلغه النــاس مع بعضهم البعض من درجات الوحشية التي لا موضع

للرأفة والرحمة فيهـــا، فهذه الوسائل باتت تصور كل تلك الممارسات الجاهلية الأولى التي جـــاء الإسلام وأوقفها، بيـــد أنها الآن تُمارس على أنها من متن الإسلام، ومَنْ يقوم بها هم مسلمون يحملون بأياديهم القرآن في قاعات المحاكـم الضخمة في العالم. وقد تم ضبطهم وهم يقومون بتفخيخ المطاعم، أو السـكك الحديديـــة، أو المطـــارات، أو أنهم يحتجزون طائـــرات مدنية بركابها، أو يتخذون رهائن من المدنيين العزل.

إنَّ غالبية هذه الانتهاكات لعلها لم تكن تحدث لو لم تكـــن بنيّة إظهارها في وسائل الإعـــلام، وإن نظرت إلى بعضها، ترى بأنها صُـــورت، وأُخرجـــت وفـــق أحـــدث معايير الإنتاج، ولعل بعض هذه الأفلام يتم إنتاجها وتقديمهـــا في شـــركات إنتـــاج محترفة، لا تنتمـــي إلى هذه الجهـــات، بيد أنها تحصل على أموال طائلة نظيـــر إنتاج هذه الأفلام وفق هذه التقنيات الحديثة.

هيبــة المعلّم

المعلّم في نظـــر تلميذه الطفل هو عالم مـــن المعرفة والنضج والقـــدوة، وعلى هذا المفهوم يتولـــد شعور بالتبجيل والتقدير في نفوس هؤلاء التلاميـــذ تجاه معلميهم، فهو يعرف مـــالا يعرفون، ويدرك مـــالا يدركون، ويـــرى مالا يرون، والتلميذ فـــي نظر معلمه مهمـــا كان متقدما في الصفـــوف، فإنه مثل طير وليد يتعلم الطيران للتو، ولذلك فإن أي تلميذ وفي أي مرحلة دراسية يجب أن يكون معلمه قدوة له.

عندمـــا يتعامل الطفل مـــع معلمه، فإنه يشم رائحـــة الأبوة من هـــذا التعامل، لكنها هذه المرة أبوة الدراسة والتعليم والتحرر من الأمية، وتعلم القراءة والكتابة، والانفتاح على معارف ومعلومات جديدة يدركها لأول مرة.

يلمس شيئا من الأبوة التربوية والتعليمية والمعرفيـــة في شخصية وسلوك معلمه إلى جانب منارة القدوة الحسنـــة والتخيّل بأنه ذات يـــوم سوف يقف في مقامه، وعلى ذلك فإن المعلـــم الماهر لا يكـــون منارة وقدوة للطفل إلا على قدر ما يلمس شيئا من البنوة لديهم، إنـــه يعيش معهـــم بالفعل حميمية مشاعر الأبوة.

يـــؤدي المعلـــم وظيفة هامة فـــي بنية المجتمع، ويسهم في صناعة جيل مستقبلي جديـــد، وأي مرحلة متقدمـــة من المراحل المزدهـــرة التي تقوم بهـــا المجتمعات من ثـــورات فكرية، أو علمية، أو تقنية، أو فنية، أو أدبيـــة، فإن لمعلمي تلك الأجيال فضلهم الجليل علـــى ولادة تلك المنجزات البشرية الانتقالية الكبرى، ذلـــك أنهم غرسوا بذور العبقريـــة في نفوس الأطفـــال الذين قاموا

بتقدم تلك المنجزات الكبرى عندما كبروا، إنهم يقفون على سواعد معلميهم ومربيهم.

إنَّ وظيفة المعلم لا تنتهي لدى خروجه من باب المدرسة، أو مـــن درس خاص، بل هي شبيهة بوظيفة الأديب، فهما يلبثان في بحث مستمر عـــن مصادر التطوير الفكري والتثقيف الذاتي.

يطـــور المعلم دائـــرة معارفه بالاطلاع والمناشط التثقيفية والاجتماعية والتربوية، فهو لن يؤدي وظيفتـــه المعرفية والتعليمية التنويريـــة بصورة حسنة مـــا لم يكن ملما بتفاصيـــل إيقاع المجتمع الـــذي يقوم فيه بهذه المهمة البالغة الخطورة والحساسية.

المعلم هـــو شعلة استنـــارة متقدة، وهو شخصـــ متكلـــم بامتيـــاز ومتقـــن لألفاظ التأثيـــر والإقناع، يمضي وقتـــا طويلا في الحديث والتمهيد لدرســـ جديد، ثم يتولى شرح هـــذا الدرس وفق مفهومـــه وتطلعاته المستقبلية فيستأنس لحديثه التلاميذ إلى جانـــب شعورهم بالمتعـــة لاكتساب معارف جديـــدة والتخلص من الأميتيـــن التعليمية والمعرفية.

عزلة كولن ولسن

يُعد كولن ولسن من الأسماء المؤثرة على تغيير نمط التفكير البشري سواء في القارة الأوروبية، أو في سائر أنحاء العالم.

لقـــد أسس هذا الرجـــل العبقري لبنية تحليلية بالغـــة الحساسية بالنسبة للنزعات الإنسانية، ولعـــل أكثر ما اشتغل عليه ولسن هو مسألـــة اللاانتماء التـــي تتسبب بعض الظروف في تعزيزها لدى الأفراد، وكذلك لدى الشعوب.

استطاعـــت أفكار ولسون أن تتفاعل في عمق الأوســـاط الثقافية، وكذلـــك أوساط الشبـــاب مـــن مختلف الأعمـــار، حتى غدا البعضـــ يعلّق صـــورة ولسن علـــى صدره، وكذلك يفتخـــر بأنه يحمل كتابـــاً من كتب ولســـن، حيث بـــات يتزعم منهجـــاً ونمطاً خاصاً في طريقة الحياة.

عندما قرر ولسن عزلته الطويلة، اعتقد البعضـــ بأنه مـــات بصمـــت دون أن يسمع به أحـــد، حيث اختفت أخبـــاره من وسائل الإعلام بسبب العزلة الصارمة التي فرضها على نفسه.

بيـــد أن بدايـــة شهر ديسمبـــر ٢٠١٣م، أعـــادت حضور هذا الفيلســـوف الذي ولد سنة ١٩٣١م إلى بعض وسائل الإعلام التي بدأت تتحـــدث عن وفات هـــذا الفيلسوف الذي يعد علامة مؤثرة في الفكر الفلسفي، وقـــد تلازم موته مع مـــوت نيلسون مانديلا في الشهر ذاته حيث يعد الشخصان من أهم الشخصيـــات التي لبثت حيـــة، واستطاعت

أن تحتـل تلك المرتبة المتقدمة من المجد والشهرة والتأثير الجماهيري.

لقد أحدث كولن زلزالاً بأفكاره الجديدة حول فكـرة وجدلية اللاانتمـاء، واستطاع أن يسيطر على أفـكار وشخصيات أجيال برمتهـا ، ولم يكن أقل شأناً، ولا سطوة، ولا قوة من جان بول سارتر.

اشتهـر ولسـن بالكثير من كتبـه التي أحدثـت جـدلاً فـي أوروبا وسائـر أنحاء العالم، وامتدت شهرة ولسن إلى بلادنا حيث استقبلـه المثقفون العـرب، وكذلك الكرد بالكثير من الترحيب، وبات ولسن مسيطراً بشكل خاصـ على طلبـة الجامعات حيث بات كتابـه «اللامنتمي» الذي قام بترجمته المترجم العراقي زكي حسن، وروجت له دار الآداب اللبنانية من الكتـب الأساسية التي غدا طلبة المدارس يتداولونه، ويتبارون في إثـارة الجدل حول مضمونـه، وبذلك غدا كولـن ولسن بأنه صاحب أكثر الكتب مبيعاً، وأكثرها إثارة للجدل.

الأمر الآخر أن ولسن تناول أهم الأسماء الأدبية وما تركت مـن نتاجات وفق مفهوم اللاانتمـاء الـذي عمل في مجالـه، فبات يتنـاول هـذه الإبداعات منطلقـاً من هذه الأرضية مما أكسبه شعبية أكثر.

عندمـا تحـدث ولسـن عـن إبداعات المركيز دي ساد مكتشـف النزعة السادية بيّن أن معظـم المبدعين الذين قرؤوا ساد يعانون من ثنائيـة ساد الساذجة عن الخير والشر ولكن بشكل أخـف، فالطقوس التي تؤديها المرأة العانس في «نور في آب» لفوكنر تسيـر على قاعـدة ساد، وكذلـك الشذوذ الـذي نراه في «المـلاذ» ووهم الاغتصاب وعـود الذرة، ويحـاول جيمسـ جويس أن يحل مشاكله مـع الكاثوليكية بنشوة الضعة في «مدينة الليل»، ويميـل غرين أيضا إلى ربـط الجنس بالخطيئة، ويحاول جاهداً أن يقنع القارئ بأن الشيطان موجود لأن العالم مكان مسحور قاس.

يحاول الجميع إنـكار الموقف العملي الذي يتوصل إليه تولستـوي ودستويفسكي والقائل بـأن الشر هو فقـط غياب الخير وغيـاب الحب، وحسبما يـورد كولن ولسن مرة أخرى فـإن ليوناردو يعبر عن الموقف العملي فـي مذكراته قائـلا: «إن الشر هو ألم جسدي» أي إن الألم الجسدي هو الشر الوحيد الذي يمكن أن يعرفه البشر.

حيـن فقد كولـن ولسن جميـع رفاقه، فضـل أن يبقى منعزلاً يعيشـ وقائع حياة اللاانتماء الذي أسس له إلى درجة أنه بات يعيش في قطيعـة تامة عن العالم ويرفض أي شـيء من شأنه أن يشيـر إلى حضوره، حتى الأحداث الكبرى التي وقعت رفض أي

حديث بشأنها وكان ذلك خلف سبب اعتقاد الكثيرين بأنه مات، والحقيقة أنه كان يعيش في تلك العزلة التامة، وهو شكل من أشكال الموت الذي فرضه ولسن على نفسه خلال كل تلك السنوات الطويلة.

وتشاء المصادفة أن يموت كولن ولسن، صاحب أكثر الأفــكار الفلسفية تأثيراً على العالــم، في الشهر الذي مـــات فيه نيلسون مانديــلا -ديسمبــر ٢٠١٣- صاحب أكثر الأفــكار الداعية إلى حرية الإنسان، بيد أن الثاني لبث متفاعلاً مــع الواقع حتى اليوم الأخيــر من حياته ، في حيــن أن الكثيرين أيضاً لم يسمعوا بموت كولن ولسن.

لقــد لبث كولن ولســن مخلصاً لأفكاره ولذلك لم يخطط أن تنكس الأعلام، أو يقام حداد، أو يشارك العالم في وداعه إلى مثواه الأخير كما حــدث الأمر بالنسبة لمانديلا، لأن ذلــك كله في واقع الأمــر لم يكن يعني لولســن شيئاً ، ولم يكن ليضيف إلى تاريخه شيئاً . لقد عاش ولسن كما كان يريد، وكذلك مات بالطريقة التي اختارها لنفسه.

تحول موت ولسن إلــى فرصة للأجيال الجديدة كــي تطلع على أفكاره، خاصة وأن الواقــع العربي بات يفرز الكثير مما تحدث عنه ولســن، هكــذا عندما يجلــس المرء لامنتمياً، ثم يفقــد أي معنى وقيمة لحياته وكذلك لحيــاة الآخرين، بل لظاهرة الحياة برمتها، وذلك هــو اللامنتمي السلبي الذي تنــاول ولســن شخصيتــه فــي الكثير من الأعمال الأدبيــة لكبار المبدعين، هذا إلى جانب شخصية اللامنتمــي الإيجابية التي عاشها ولسن نفسه في مرحلة عزلته.

لوحة الذئاب في لاميّة الشنفرى

❁
ظهير خضر الشعراني



إذا كان المنطلق الأول الذي يشترط قيام أدب رومانسي، هو رفض الواقع القائم، والبحث عن مجتمع ذهبي يقع خارج المجتمع الواقعي، ويتمثل في الطبيعة، سواء أكانت عياناً محسوساً ، أم كلية مجرّدة ، أشبه بالمقام الصوفي . وبعبارة أخرى . إذا كانت الرومانسية في رأس ما هي «إحلال الطبيعة كبديل عن المجتمع» أو كخروج عنه وعن مؤسساته القائمة، فإنّ لامية العرب، تحقق هذا العنصر من عناصر الرومانسية أمثل تحقيق، بل لعلّ هذا العنصر نفسه هو جلّ مضمون هذه القصيدة الخالدة (اللامية).

❁ أديب وناقد.

والطبيعة فيها لاتُحال إلى الخيال التجريدي، كما أحالها الرومانسيون الأوروبيون، لاسيما الألمان منهم، بل هي جملة مشاهدات قائمة يتمثلها الشعور تمثلاً تجسيدياً للحواس فيه الدور الأكبر. وهذه في الحقيقة، هي السمة الطاغية على الشعر الجاهلي، وعلى موقفه من الطبيعة برمته.بيد أن هذا المذهب لايعني أن الشنفرى شاعر رومانسي بالمعنى المعاصر للكلمة، إذ هو لايشترك مع هذه المدرسة إلا في هذه الخصلة الأساسية وحدها، بل هو يفارقها حتى في هذه الخصلة نفسها. ففي حين ينسحب الرومانسي إلى الطبيعة هارباً من مواجهة القهر الذي يمارسه المجتمع والحياة على الفرد نجد الشنفرى ينسحب للسبب نفسه، ولكن ليشهر سلاحه في وجه المجتمع عبر الإغارة والغزو. ولذا فهو أقرب إلى المتمردين والخارجين على القانون منه إلى سواهم. وإذا كان الرومانسي متمرداً هو الآخر، فإن تمرده سلبي يمارس الحوار التاريخي. ولهذا فإن كل رومانسية جاهلة هي رومانسية على السطح فقط، إذ هي في الحقيقة تخفي تحتها واقعية مأساوية.

الشنفرى ولامية العرب:

يقول الدكتور يوسف الخليف عن الشنفرى: «إذا كان عروة بن الورد يمثل الجانب الإنساني في حركة صعاليك العرب، فإن الشنفرى ولاشك يمثل الجانب الشيطاني فيها، واسم الشنفرى، ونسبه، ونشأته الأولى، غامضة كل الغموض، فكل مايُعرف عن الجانبين الأولين أنه الشنفرى، وأنه كان من الإواس بن الحجر بن الأزد، وأنّ أباه كان في موضع من أهله، ولكنه كان في قلة ، وأن أمه كانت سبية»

تحليل اللامية:

١.أقيموا بني أمي صدورَ مطيّكـمْ
فإني إلى قوم سواكمْ لأميَلُ
٢.فقد حُمّتِ الحاجاتُ والليلُ مقمرٌ
وشُدّتْ لطيّاتٍ مطايا وأرحُلُ(١)
٣.وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى
وفيها لمن خاف القِلى متعـزّلُ
٤.لعمرك مافي الأرض ضيقٌ على امرىءٍ
سرى راغباً أوراهباً وهو يعقلُ

تنطلق القصيدة، كما هو واضح، من بتر العلاقة القائمة بين الفرد وإطاره الاجتماعي، والانسلاخ عن هذا الإطار، أي هي تتخذ من التفارق والانبتات عن الجماعة (فإني إلى قوم سواكم لأميل)، أو الانتماء إلى «نحن» بلغة علم النفس، تتخذ

من هذا الموقف بذرة تتنامى منها. فاللامية تشعركَ، ومنذ البيت الأول، أن الشاعر يمثلُ حالة اللاانصياع والاستنكاف عن مجاراة المشروع الاجتماعي، والتحوّل أو التسرّب إلى خارج المنظومة الجماعية (القبيلة). وإذ يرى في «الأرض منأى» فإنه لايقف من المجتمع موقف اللاقبول فحسب، بل هو ينهج نهجاً هروبياً ينسحب وفقاً له إلى الطبيعة خشية «الأذى»، إنه يبدي، وبجلاء، جنوح الرومانسيين نحو البحث عن عالم أمثل، ولكنه كشأنهم تماماً. لايجد مكاناً يبحث فيه عن هذا العالم إلا الطبيعة.

٥.ولي دونكم أهلونَ سِيْدٌ عمَلّسٌ

وأرقطُ زهلولٌ وعَرفاءُ جَيألُ (٢)

٦.همُ الرّهطُ لامستودعُ السرّ ذائعٌ

لديهم ولا الجاني بما جرّ يُخذلُ

٧. وكلُ أبِي باسلٌ، غير أنني

إذا عُرضت أولى الطرائدِ أبسلُ

هاهنا تواجهنا (النحن) البديلة، أو الانتماء المتخيَّل والموهوم. فالشاعر مدفوعاً بقوة الدافع إلى الانتماء ، هذا الدافع الأصيل أو الملاصق للموجود البشري، هو الذي يجعل الإنسان حيواناً اجتماعياً، ولولاه لانعدمت الحضارة التي لايمكن أن تقوم إلا على تآلف البشر في منظومات جماعية. ولكن هذا الإبدال الشبيه بحلم يقظة لايعدو كونه إرواء لحاجة ناقصة أو غير متوافرة في المجال الإنساني، بمعنى أنها تحمل نقيضها في داخلها. لنلاحظ هنا لفظة «ولي». وكذلك تصدّرها للبيت، نظراً لأهمية ذلك التصدّر: إنني امتلك جماعة، فهو بذلك يحاول أن يرتق الشرخ الذي أحدثه الافتراق عن الجماعة في شخصيته. فالذئب والنمر والضبع تتصف بثلاث صفات هي ما يفتقر إليها مجال الشاعر:

١. لاتذيع السر

٢. لاتخذل الجاني

٣. وتمتاز بالبسالة والإباء معاً

ولما كان رفض الجماعة للفرد، أو إقناعه بأنه غير صالح للعيش ضمن الثلة، أو المنظومة الاجتماعية أياً كان شأنها، هو قتل له، فإن الشاعر سعياً وراء تعويض، يطرح هذه الحيوانات كمجتمع بديل، أو كإشباع لدافع محظور إشباعه في الواقع المعاش إنسانياً.

وعلى أية حال، إنَّ علاقته بالحيوانات الثلاثة هي محاولة للعيش وفقاً لقوانين الإمكان، لالقوانين الضرورة. إنها إحلال للجائز محل الحقيقي.

٨.وإني كفاني فقدَ من ليسَ جازياً

بحسنى ولا في قربهِ متعللُ

٩. ثلاثةُ أصحابٍ: فؤادٌ مشيّــعٌ
وأبيضُ إصليتٌ وصفراءُ عيطلُ [٣]
١٠.هتوفٌ من الملس المتون يزينها
رصائعِ قد نيطت إليها ومَحمــلُ
١١.إذا زلّ عنها السهمُ حنّت كأنها
مُــرزّأةٌ عجلى تــرنّ وتُعــولُ

وهنــا يواجهنــا انتمــاء بديــل جديد أيضاً. ففي حين كان «الرهط» في اللحظة السابقة ثلاثة وحوش، فإن «الأصحاب» في اللحظة الراهنة ثلاثة أشياء: قلب حديدي، وسيف صقيــل، وقوس مكتملة. إنه الانتماء إلى الذات (القلب الحديدي)، وإلى السلاح الــذي هو امتــدادات الشخصية وقدراتها. وإذ أطنب في وصف القوس وفعاليتها إنما كان ينهــج نحو تأكيد قوتــه، ونحو اكتفائه بذاته عبر توكيد تلك القوة. وهذا التصدي، أو لنقــل السلوك المتصدي، أو الراغب في المصادمــة، هو الذي دفــع بالشنفرى إلى الإمعان في إضفاء القوة على القوس. ولكن لماذا القوس؟ يبــدو أن المجتمع الجاهلي لم يكن قد تجاوز مرحلة الصيد بعد، الأمر الــذي من شأنه أن يجعــل القوس أهم أداة يمتلكها الإنسان. هــذه مسألة عامة. ولكن القوس تخص الشاعر بمفرده هنا. إن هذا المنبــوذ لايملك أن يواجه أعداداً كبيرة من الناس (وأعــداؤه كثر) في قتال قريب، فهو مرغم، إذن، على الركون إلى المصاولة وفقاً لمبدأ «اضرب واهرب» الأمر الذي يتحقق بالقوس لابالسيف.

١٢.أديمُ مطالَ الجوعِ حتى أميتَــهُ
وأضربُ عنه الذكرَ صفحاً فاذهــلُ
١٣.وأستفُّ تربَ الأرض كيلا يُرى له
عليّ من الطول امرؤٌ متطــوّلُ
١٤.ولولا اجتنابُ الذأم لم يلفَ مشربٌ
يُعاش به إلا لديّ ومأكـــلُ [٤]
١٥.ولكنّ نفساً مُرّة لا تقيم بــي على
الــذأم إلا ريثما أتحـــوّلُ
١٦.وأطوي على الخمص الحوايا كما انطوتْ
خيوطةُ ماريٍّ تغارُ وتفتــلُ [٥]

يمكــن تلخيــص هذه الأبيــات بلفظة واحدة: المكابرة. إنه يواظب على استئناف اللاانتمــاء، هــذا الاستئناف الــذي يمثله خير تمثيل البيتــان الثالث عشر والخامس عشر. إنّ هــذه الأبيات الأخيرة تتحول إلى استرحــام مبطن، فهو في الحقيقة يمد يده إلى الجماعة ليصافحها. إن مايبديه الفرد من تعاسة فإنه يحمل، في كثير من الأحيان، غايــة استعطاف الآخريــن، ويخفي وراءه، بالتالي، الحاجة إلى الحنان.

وما يمكن الإشارة إليه بشكل خاص هو البيت الثاني عشر لأنه يحتوي على تجربة يمكننا أن ندعوها بالتكثيف المركز. وقد مارس مثل هذه التجربة أحد الصحابة حين بتر الجراحون قدمه وهو صافح عن ذلك، ومركّز لقواه النفسية حول ترتيل القرآن، فأجريت العملية دون أن يحسّ بها. ومما يجدر ذكره أن علم النفس قد انشغل بمثل هذه التجربة في العصور الحديثة، وهذا مايحاول الشنفرى إجراؤه في بيته الآنف الذكر. إنه يصرف انتباهه عن الجوع صرفاً مكثفاً ومركزاً بحيث يملك أن يسلوه تماماً، أوان يذهل عنه.

١٧.وأغدوعلى القوت الزهيدِ كما غدا

أزلُّ تهاداه التنائفُ أطحلُ [٦]

١٨.غدا طاوياً يعارضُ الريحَ هافياً

يخوتُ بأذناب الشعابِ وَيعسلُ [٧]

١٩.فلما لواه القوتُ من حيثُ أمّهُ

دعا فأجابته نظائرُ نُحّلُ

٢٠.شكا وشكتْ ثم ارعوى بعدُ وارعوتْ

وللصبر إن لم ينفعِ الشكوُ أجملُ

٢١. وفاءَ وفاءتْ بادراتٍ، وُكلها

على نكظٍ مما يكاتمُ مجملُ [٨]

علينا أولاً أن نوحدَ بين الشاعر والذئب، أي أن نرى وجود تطابق هوية بينهما، فالذئب هو الشاعر نفسه، ذاب فيه واندمج وإياه في كيفية واحدة، أو هو النائب والممثّل لمشاعره وبنيانه الداخلي، وبذلك استطاع اللاشعور أن يصوغ صوراً فنية من محتوياته. ولكننا لن ننسى كذلك تركيبة الرمز. ففي هذه اللوحة نجد الشاعر يسحب السحق من المجتمع على الطبيعة. لقد هرب الشنفرى من المجتمع القاهر إلى الطبيعة، فماذا وجد؟ وجد سحقاً أشد ضراوة. فالوحوش تتعرض لقمع الطبيعة تماماً كما تعرض هو لقمع المجتمع، إنها الفجيعة في كل مكان. وإزاء هذه الفجيعة الكلية الحضور، لم يكن في وسع الشاعر أن يضجّ. إنها حالة القهر الجاثمة على الموجودات أنّى يولي الشاعر وجهه.

ففي مضمار طبقة القهر من الرمز الذي تحمله الذئاب، نجد الشاعر ينطلق من نواة أساسية فحواها إقامة تماثل بينه وبين الذئاب. وثمة طبقة ثانية في رمزية الذئاب هي: الجوع، إذ لنا أن نربط بين جوعه الخاص والجوع الذي تعاني منه الذئاب. وهنا نلمس تلاحم النفسي والفني، ونكتشف العلاقة القائمة بين كل رمز، وكل تقنية وكل

شكل من جهة، وبين الأرضية النفسية التي أنبتته، ترى لماذا اختلف ذئب الشنفرى عن ذئب الفرزدق وذئب البحتري؟ لأنّ كلاً من هذه الذئاب يعكس تجربة داخلية معينة. فما من ريب في أن ذئاب الشنفرى هي، في رأس ماهي أفكاره عن الجوع، أحاسيسه بالجوع، معاناته للجوع تقنية المسرحية في التعبير عن الجوع. ولا يمكن أن يبتكر هذه الشخوض الحيوانية إلا من مارس الجوع فسحب إحساسه به إلى تصوره بوصفه قانوناً للكائنات الحية، ولعل الجوع هو أحد أبرز الدوافع إلى إنتاج القصيدة برمتها، إذ لا يمكن لصورة الذئب الذي «لواه القوت» أن تكون إلا صورة الشاعر نفسه، وقد أخفق في الحصول على الطعام.

وعلى أية حال، فإن الذئب الذي «يخوت بأذناب الشعاب ويعسل» هو رغبة أو دافع يخوت ويعسل في داخل الشاعر. ولا يسعنا أن نقبل هذا التأويل إلا إذا آمنا بأن الصورة الفنية هي خروج لمكنونات الشعور ومحتوياته. وفي البيت (١٩) نجد الإحباط شاخصاً في عبارة «لواه القوت» بينما نجد في الشطر الثاني توافداً انتمائياً يفرض نفسه على الشاعر:

«دعا فأجابته نظائر نحّل». فالذئب يطرح هنا منتمياً، أي هو يعكس دافع الانتماء لدى الشاعر نفسه على نظائره» هو.

وفي البيتين (٢١.٢٠) من لوحة الذئاب تتجلى رغبة الشاعر في النكوص عن متابعة السلوك غير المتكيف، وذلك عبر لفظتين يقتسمهما البيتان: «ارعوى»و«فاء».و إذا ماعلمنا أن أولاهما تعني: تخلى أو ترك، والثانية تعني رجع أو عاد فإن شعورنا برغبة الشاعر في العودة عن سلوكه الراهن يتعزز ويثبت. وهذا مما يشير إلى أن الشاعر مروّض ومقموع حتى مخ العظام، وبإيجاز، إن ارعواء الذئب هو ارعواء الشاعر نفسه، وذلك لأن الذئاب هي فلذات من أنسجة روح الشنفرى.

لعلّ المبدأ الفني العام الذي بُنيت اللامية وفقاً له (وربما الذي بُني الشعر الجاهلي كله تقريباً على أساسه) هو تحويل الانفعالات والمشاعر إلى حركة درامية منقسمة إلى فصول ومشاهد تبدو غير متناسقة في الظاهر، ولكنها مترابطة ترابطاً داخلياً ، غير أنه ترابط تحتاني لايرى بالعين المجردة. ومن أهم موحدات

القصيدة الجاهلية أن شخصياتها وأحداثها كافة معاً تتمحور حول مركز واحد هو الشاعر نفسه.

وعلى الرغم من أن شخصيات اللامية وحوش، فإنك لاتحترمها وتتفاعل معها فحسب، بل لابد لك من الشعور بأنها شديدة الواقعية، لأنها انعكاسات وجدانية لحالة قائمة فعلاً في المجتمع والطبيعة معاً. ولعل مصدر واقعية هؤلاء الأبطال المسرحيين هو كونهم المرآة العاكسة لعواطف الشاعر الصادقة، والتجسيم الموضوعي لانفعالاته إزاء الطاقة القمعية للحياة. إنَّ مجموعة الحيوانات (الذئب والنمر والضبع) التي تجسّد المطلب الانتمائي للشاعر، «الثلة» والتي هي أول بدائله الاجتماعية. وتمثل هذه الثلة المجتمع الأنموذجي الذي يبتغيه الشاعر لأنها لاتذيع السر ولا تخذل الجاني، ولأنها تتمتع بالبسالة. هذه السمات الأساسية لروح الجماعة أو مزاجها كما يريدها الشنفرى. وهو يقيم علاقته معها على أساس من الغيرية والإيثار، على الرغم من أنه يحاول أن يضع نفسه فوقها، وهذه الفوقية هي ضرب من إشباع نزعة ترويض الواقع التي يعاني منها هو نفسه.

هذه المجموعة هي إذن نماذج حياتية وشخصية لتجسيم القهر، أي هي السمة المسرحية في اللامية، أو لنقل خصيصتها الحدثية، ولاريب في أن كل شعر عظيم يتمتع إلى هذا الحد أو ذاك بخصيصة مسرحية، فضلاً عن خصيصته الغنائية، وهذان أمران تتمتع بهما اللامية إلى حد بعيد. فالمسرحية لم تمكّنَ الشاعر من طرح عواطفه عبر الآخر فحسب ، بل ضمنت لها . وهذه هي واحدة من أهم المميزات التي حققت خلود القصيدة الحركية غير المنقطعة التي من شأنها أن تحقق تجدد العناصر دوماً أثناء تناول الموضوع، مما يبعد الملل عن جو اللامية، ويحقق لها بالتالي عنصر التشويق. وهذا ينطوي ضمناً على أن اللامية تواظب على تنويع فعاليتها فتنتقل باستمرار من لون إلى لون آخر، من برهة إلى أخرى، ولكن مع الحفاظ على وحدة الموضوع.

يعتمد الخيال التصويري في اللامية على التشابيه، من جهة، وعلى الطاقة الإيحائية للفظة، من جهة ثانية، أكثر مما يعتمد على الاستعارات، التي هي لب الشعر وسر جماليته، ومع أن مفردات الصور ،

في الغالب منطقية الترتيب، فإن كل لفظة تحمل انبثاقاً من انبثاقات المعنى، وذلك بسبب من دقتها، ومن تناسقها وجرسها، وكذلك بسبب من بهائها وحيويتها. ويشعر المرء أن المبدأ الأساسي لنفسانية اللفظة في اللامية ولطاقتها التصويرية، هو هذا: اللفظة الأقسى للحالة الأقسى، فالحقيقة أن ماهية اللامية تقوم على صدق المشاعر وعمق الانفعالات، من ناحية، وعلى حسن تدبير اللغة تدبيراً اقتصادياً، وعلى توءمة الإيقاع مع المواقف من ناحية أخرى، أكثر مما تقوم على بهاء التصوير ورونق الخيال.

بقيت مسألة عامة تتعلق بقدرة الألفاظ على النقل، بل وعلى تصوير ما هو داخلي، أي الألفاظ الدالة على الجوع والحاجة إلى الطعام، إلى حد نملك معه أن نقول بأن غريزة الطعام مسؤولة إلى مدى بعيد عن إنشاء اللامية. إن هذه الكثرة من الألفاظ الطعامية الدلالة تعكس ماكان يعانيه الشاعر من قهر أمام هذا الدافع، وإن كنا لايعوزنا الدليل المباشر على تبيّن حالة الجوع ، ولاسيما في لوحة الذئاب، تلك الحيوانات المهزومة شر هزيمة أمام الجوع، إنَّ الشنفرى الجائع يحسب أن الموجودات كافة جائعة، والحقيقة أن تردد ألفاظ الجوع بين الفينة والأخرى إنما يشير إلى حالة الشاعر استناداً إلى المبدأ النفسي المعروف والذاهب إلى أن الإنسان يداوم على التحدّث عما ينقصه أو مايحتاج إليه. وكلما ألحت الحاجة إلى إشباع دافع ما، كثر التحدّث عن هذا الدافع وما يتصل به، والعكس صحيح، بمعنى أنه كلما كثر التحدّث عن دافع ما، ألحّت الحاجة إلى إشباعه.

من الواضح أن الشنفرى يعيش الحياة كمأساة، وفي تعامله مع الوحوش نوع من الأورفية. ولايختلف الشنفرى عن أورفيوس إلا في أن شاعرنا ينوح (ويتجلى هذا النواح صراحة حين وصف الذئاب بأنها «نوح») أما اليوناني فيغني. شاعرنا يندب الطبيعة وقحلها وجورها وما تتعرض له كائناتها من سحق وقهر، أما الإغريقي فيلحّن للجمادات كيما تستيقظ فتمارس لذة العيش، وشتان بين هذا وذاك. إن من يبتغي أن يذيق لذة العيش للجماد إنما هو يمارس لذة العيش، وإلا لما خطر بباله أن يحيي الموات. أما الشنفرى، فلا يرى إلا القحل، فلا يملك أن يُطرب الأشياء، ولن يكون في مقدوره إلا أن يتفجّع من أجلها. ولعل سرّ خلود اللامية كامن في هذا التفجّع الذي يجد مايبرره.

الهوامش:

١. حُمّت: حضرتْ، المطيّات: الغايات
٢. سيِّد: ذئب، عمَلَّس: سريع، أرقط: نمر، زهلول: أملس، عَرفاء: طويلة العرف، جيأل: ضبع.
٣. فؤاد: قلب، أبيض: سيف، إصليت: صقيل، عيطل: طويلة العنق.
٤. الذأم: الضيم.
٥. الخُمص: الجوع، الحوايا: مفرد حوية وهي مما يحويه البطن، الماري: الفاتل، تغار: تفتل.
٦. أزلّ: ذئب، التنائف: القفار، أطحل: بلون الطحال.
٧. يخوت: ينفض، يعسل: يمرّ بلين.
٨. نكظ: جوع.

المراجع

١. كتاب (الأغاني)، أبو الفرج الأصفهاني، دار الكتب المصرية.
٢. كتاب (الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي)، د يوسف خليف، دار المعارف بمصر.
٣. كتاب (مقالات في الشعر الجاهلي)، د يوسف اليوسف، دار الحقائق بالجزائر، ١٩٨٣م.

رسائل إلى دون كيشوت من يوسف الخال

مفيد نبزو ❀



يبـدو الشاعر يوسف الخال في نهاية مرحلة من مراحل مسيرته الأدبية في هذه الرسائل، فهو من روّاد الحداثة الشعرية، حيث نشأ في مناخ الرمزية اللبنانية في الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين، ونشر كتابه «الحرية» عام ١٩٤٤م، وكذلك «هيروديا» عام ١٩٥٤م، وأقام في نيويورك بين -١٩٤٨و١٩٥٥م- حيث شغل منصباً في دائرة الإعلام في الأمانة العامة للأمم المتحدة، ورئيس تحرير جريدة -الهدى- خلفا لسلوم مكرزل، ولما عاد إلى لبنان عام ١٩٥٥

❀ أديب وباحث.

العمل الفني: الفنانة رناء كريدي.

م اشتغل بتدريس الأدب العربي في الجامعة الأميركية، وأنشأ مجلة -شعر- التي حملت لواء الحركة الشعرية الحديثة منذ ١٩٥٧م إلى حين توقفها عن الصدور عام ١٩٧٠م، ومما عرف عنه كتاباته الثقافية في صحيفة النهار، إضافة إلى عمله منذ عام ١٩٧١م مع لجنة من العلماء اللاهوتيين على وضع ترجمة عربية حديثة للكتاب المقدس، صدر منها أخيراً -العهد الجديد- عن اتحاد جمعيات الكتاب المقدس.

ولا شك أن المتمعن في هذه الرسائل لابد أن يكتشف البعد الجمالي المستوحى من مخزون معرفي عميق ومتنوع، وفكر منغمس في السحيق من التاريخ الغابر، فهو يتكئ على الأساطير والآلهة القديمة، ولكن من منظور عصري ليعبر عن أفكاره، وذلك ما بدا جلياً في غابة لبنان إذ قال:

أحببتك حباً لا يضاهى، فرددنا عنا شر الآلهة في السماء، وقتلنا الغول في غابة لبنان، والآن كيف تموت؟ أتموت وحدك من دوني لتشمت عشتار ويسخر مني البشر؟.

ويبقى النفس الأسطوري، والتعبير الملحمي من خلال التأثر الذي كأنه ينسج فيه على منوال -ملحمة جلجامش- في أسلوبها وطريقة صياغتها، فهو قتل الغول في غابة لبنان، وجلجامش وأنكيدو قتلا ثور السماء وخمبابا حامي غابة الأرز:

أيُّها الشعراء ابتعدوا عني..
لا ترثوا أحداً غلبه الموت.. فماذا ينفع الرثاء؟.
الرثاء للصعاليك ونحن جبابرة..
الرثاء للبشر ونحن آلهة.

وإذا كان اعتماده على فلسفة الاستنتاج أحياناً، فلأنه يبحث عن الحقيقة -كأنه يبحث عن نبتة الخلود- التي راح يبحث عنها أنكيدو في القفار والوديان والبراري، ولكن هنا برؤيا جديدة يؤكد فيها على القداسة والجمال لأن لكلاهما سر الكبرياء عند اتحادهما بالكون، وانفصالهما عنه لحظة الموت المتواضع بالمعرفة:

للملك صولجانه، وللراعي عصاه، ولنا نحن الجبابرة قوس قزح عبر الفضاء الغائم..

ثم يمجد الموت لمعرفته به، فمن يعرف الموت يدرك كنه الحياة في اللحظة الأخيرة، فيموت سعيداً:

أموت سعيداً لأنني عرفت الموت.. عرفته في اللحظة الأخيرة..

تألهت أيها الموت لأنني عرفتك، وكل شيء يزول إلا وجهك الحبيب، فضمني إليك واغفر كبريائي.

هو ذا مفتاح الشاعر يوسف الخال إلى رسائله الموجهة إلى دون كيشوت، والتي يفتح من خلالها آفاقاً واسعة توحده مع

الوطن الساكن فيه بالمتناقضات التي تؤدي إلى نشوة العشق وذروة الانتماء:

ما أجمل اللحظة التي أنت فيها أيها الوطن!.

ماأجملك في اللحظة هذه وما أبهاك!.

ومن نوافذ الظلمة المدلهمة تشرق شمس المحبة، وينتصر صوت الخير على جحافل الشر، فإذا به يتعالى بقدسية الوطن وإشراقاته التي لا تغرب مع المغيب:

تفتح أبوابك ونوافذك للصوص وقطاع الطرق.. تقتل وتنقتل.. تخلق وتنخلق.. تهدم وتنهدم.. تطاول يمينك النجوم، وأنت في بطن الهاوية.

نعم ما أجملك أيها الوطن!.

وإذا أردت أن تدرك محبة الوطن فما عليك إلا أن تعلم علم اليقين أنه من التضاد ينبثق التوافق ومن النشاز يتم الانسجام كما قيل: والضد يظهر حسنه الضد:

بل لا أجمل منك في الأوطان لأن جمالك حياة في الموت، وصلابة في اللين، وقداسة في الرجس، وقوة في الضعف، واستعلاء في الضعة، وكفر حتى منتهى الإيمان.

وأنت كيف تكون في الكون الواسع؟:

أنت صغير على كبر، وقريب على بعد، وقليل على وفر، وأنت الممكن المستحيل، والقديم الجديد، وجهك جبلك، وجسدك البحر، لا حد لحدودك غير أنت.

وتحلق الرسالة الثانية في فضاءات التكوين -كن فيكون- وتتخذ السخرية دليلا على الحكمة الجادة من خلال الفرح بعد الحزن، والرياح الأربعة التي تعصف من الجهات الأربعة لتكون المتاهة، ولذا ما عليك إلا أن تحذر إذا شئت الوقوف بثبات:

أرخ يديك ومط شفتيك علامة الفهم الراجح، ولا تقل لا لئلا يحسبها الفقهاء نعم، ولا تقل نعم لئلا يحسبها الجهلاء لا.

وخلاصة القول في العبر والمواعظ، والانحياز للطيبين الودعاء:

كن فيكون، هذا هو التكوين..

لكننا مع الدهر على انقضاء، فويل لودعاء القلوب لأن على آثار أقدامهم التائهة يهتدي المبصرون.

ولا تخلو الرسالة الثالثة من بعض هذه المفارقات التي تضعنا على ضفاف الفهم والاستيعاب، حين نرى علامات الأزمنة وهي تخالف العرف السائد:

من علامات الأزمنة أنك تجلس وأنت واقف، وتصمت وأنت تتكلم، وتنسى أنك موجود فتعلق بخيط مشدود لا تعرف أوله لأنك تجهل آخره.

ولا يكتفي بهذا التوضيح بل يتابع معادلته التي يعتمد فيها على التأمل حين يقول:

ومن المفارقات، وهو من علامات هذا الزمان أن الذي يقول لا يعرف، وأن الذي

يعرف لا يقول، فيكون أن الذي يفعل لايقول، وأن الــذي يقول لا يفعل، والكون يدور على محوره لا تزعزعه العواصف والزوابع.

وللأمانــة يجــب أن نعــرف أن هــذه المقتطفات لا تغني عن التفاعل مع نصوص الرسائــل كاملــة لأن الاختــزال والاجتزاء يفقدهــا جوهر فلسفتها وعمــق أسرارها، لأن هــذه الومضات لها فائدتها الأدبية من خــلال الانتقال من فكرة إلــى أخرى، ومن خلال السياق والارتباط اللغوي والدلالي:

هذه هـي المسألــة و-تكون أو لا تكون- هي المسألة، فكن مطمئن البال، قرير العين إلى أن ترتاح وتريح.

ولمــا كان لكل نفــس أن تعرف، اعرف نفسك، فهاهي دعوته إلى الوضوح والعطاء كي لا تكــون عقيمــا كشجــرة عقيمة في صحراء العدم، فمن أنت؟:

أنت علامة استفهام تحولت في الذاكرة إلى سؤال: هل أنــت موجود أم وجودك هو الموجــود؟. لــكل غصن ثمــر فإلى متى لا يخرج ثمرك؟.

وإذا كان الانتصــار للوطن هو الهاجس الأوحــد، والمجــد للوطن الــذي لا ينكسر أبــداً رغم ما يتعرض له من هجمات شرسة تتحطم على صخرته، فلأنه الباقي بمنعته، وبطبيعته الحية والجامدة:

علــى رؤوســ الأصابع يجــري فرسك المستعــار، وبعنقه تسيل الأباطح، فحديثك عذب، وأسرارك مرهونة بأوقاتها..

لكنني أراك أيها الفارس طائراً،
وأراك أيها الطائر شجرة،
وأراك أيتها الشجرة وطناً،
وأراك أيها الوطن صخرة،
وعلى الصخرة قرن مكسور.

ولا تــزال المدينــة مدينتنــا، والفارس فارسنا، والوطن الساكن في أعمق الأعماق والمرتفع بسمو إلى أعلى الأعالي وطننا:

مدينة أصداف مدينتنا.. مدينة أحداق فارغة وسياج مهدور، والجدران ولا أساس، فالأساســ مــن هنــا غيره مــن هناك في «حساب اليكون واللايكون».

وكذلــك نجــد الفارس الــذي له غير مالنــا، فــلا تسأل لــمَ؟ لأنــه يتطلع إلى مشارف الأقحوان المصبوغ بلون التضحية، والمرسوم بريشة الفداء:

لك الهيبــة، ولنا زهــرة الزيزفون، لك الصولجــان، ولنــا حفنــة من الثلــج، لك الخيام المضروبة فــي الفيافي، ولنا كهفنا المسحور.

فخذنــا بعينيــك أيها الفارســ تتطلع، وانظر مشارف الأقحوان.

وللبساطــة وفلسفــة المألــوف حضور

بالتساؤل الذي يزرع حروفه كلمات عساها تورق وتثمر في الرسالة السابعة، والحيرة من الرتابة الكونية، فمتى تهب عليها رياح التغيير ليتم تبادل الأدوار، وتنتهي قصة البداية والنهاية:

إلى متى تشرق الشمس من الشرق، وتغرب الشمس من الغرب، إلى متى تشرق أو تغرب الشمس في وادي ظل الموت؟. إلى متى لا يصعد البحر على السفوح الملطخة بالدم.

إنها مشيئة من يريد الخلاص بالتطهر، ومن يريد بالإيمان الحقيقي النزيه أن يولد الوطن ولادة جديدة:

أبي رجل صالح أيها الفارس، كان يعشق أعشاب البرية، وينام على ظهره في العراء.

كان واحداً من العابرين، يلتحف السماء، ويغمض عينيه على الجنة.

ولم يكتف بذلك بل يذهب إلى أبعد من خلال الحالة التي تفسر بسذاجة مفهومي الحزن والفرح:

كان أبي يبكي لأن النجمة تاهت في ظلمة ليل بهيم،

كان يضحك أيها الفارس..

كان يضحك لأن الشمس تدور وهي ثابتة هناك إلى الأبد.

ولدلالة المكان وجود في الرسالة الثامنة، ومن هذه الأمكنة الراسخة في الذاكرة عشقا أبعد من جغرافية المكان المادي: ضفاف العاصي- أرز لبنان- نبع صنين- القدس- غرناطة- جبيل- بعلبك- صور- صيدون- دمشق- تدمر- إنطاكيا- إضافة إلى وادي عرار وطهمزان وحمشريت وحبرنون ووادي حنانيل، وما هو مستوحى من العهد القديم، فيخاطب الفارس مخاطبة الابن المغامر معلناً العصيان ضد كل قوى القبح والزيف والبهتان، ومعززاً الجمال الروحي والمحبة السرمدية بأسلوب ملحمي رائع:

من طهمزان سآتيك بالمخمل والطيلسان والديباج، ومن حمشريت بالياقوت والزمرد والذهب والإبريز، وآتيك بالعقيق من وادي عرار، وبالوشي والنقش من دقموش، وبالنور والنار من جمجمة المدائن، وبالغزلان وزغاليل الحمام من غيمة سقطت في حبرون، وآتيك بالمن والترياق من بلاد الما بين بين، وبالحبر والورق والقصب من وادي حنانيل، وآتيك من دردون بالمسك والطيب والحناء، ومن قيرفان بالنسيج المطرز والخشب المصنوع، وآتيك بالغلمان والجواري من عربجان، فلا تحزن.. لك المسرح العجيب ونظارة يحسدون العميان.

وكما يحارب الفارس دون كيشوت طواحين الهواء هكذا تتجلى هواجس

الخيال ومحاربة الوهم من خلال الفارس الجديد المتطلع إلى سماء الحمام، والقابض على سيفه الخشبي في معركته الحاسمة عسى يعم الإخاء ويعمر السلام في الرسالة التاسعة:

قيل لي طيِّر حماماً زاجلا في سماء المدينة، فالحمام الزاجل يتآخى في كل مكان، فطار السرب في سماء المدينة، طار وحوَّم وحلَّق، فلا هو عاد، ولا أنا قعدت على السطوح أنتظر رجوعه.

طار الحمام.. غطَّ الحمام..

هكذا كانت أخبار أيامنا الأخيرة.

وبنظرة مغايرة يرى المصير المحتوم الذي هو نتيجة سيف خشبي وفرس عرجاء، فيوجه رسالته هذه إلى دون كيشوت قائلاً:

للغواني خلعنا ثيابنا، وغطسنا في معركة المصير..

بسيف خشبي وفرس عرجاء غطسنا.

ويوظف العبارات والأسماء من خلال مدلولاتها ورموزها، وهي مستمدة من المعتقدات الدينية والتاريخ السحيق، فنجد على سبيل المثال قوله: ما في مكان في الأرض بريء من دم يعقوب، وكذلك حمام نوح والطوفان، وعشتار، والمتنبي والسموءل والمعري وأم اسماعيل التي يخاطبها يا أمي:

يا أم اسماعيل يا أمي

طريدة مهجورة أنت لطفلك ولك الله.

ثم يخاطب المرأة طالباً منها أن تقول:

أغلق عليَّ الباب

لا أشتهي الزيتون

ولا حمام نوح

بل سفراً ميموناً في أبد الطوفان.

ولا شك أن الرغبة المباركة لهذا الطوفان تعني احتراق الإثم، واختناق الخطيئة، والانتصار للفضيلة والبراءة والعفاف:

تحزَّموا بحزام من جلد وكلوا عسلاً برياً أيها الداعون إلى التوبة، فأنا أشتاق إلى عين البحر وأحلم بالعمران.

ثم يعلن في الرسالة العاشرة والأخيرة أنه صديق دون كيشوت، فهو مثله، وإن اختلف الزمان والمكان كما يقول:

خذني معك أيها الفارس.. فرسي يعربية كفرسك، وسيفي حلم هادر.. وأنا مثلك أعشق القتال، فإذا أعوزني عدو حاربت ظلي، وظلي عنيد أيها الفارس، كطواحين هوائك، وأنا مثلك تغريني الهزيمة، فالهزيمة كالنصر كلاهما ينضحان بالدم القاني.

ويظل على الوتيرة ذاتها، بالأسلوب نفسه ليختصر كل غاياته وآماله رافضاً واقعاً غريباً يعاكس تطلعاته ورؤاه الخصيبة، وتأملاته فيما

وراء المجهول عسى يفترُّ ثغر الأمل، ويصدق الوعد، وتزقزق عصافير الرجاء:

للسرور نحن، وللأحلام الصغيرة نحن.. ننوح في الأعراس، ونرقص في المآتم، ويجمعنا الشتات ويشتتنا الجمع.

وينادي فارس الحلم الذي عاشه متعة رغم انكساره فيه وانقلابه عليه:

على رؤوس الصنوبر نشرنا ثيابنا، وبقينا عراة كالقلم الرصاص.. فجرد سيفك أيها الفارس واتبعني.

بقي الآن السؤال: هل يصح ما قاله بالأمس لليوم وللغد حين قال؟: في هذا الوقت العصيب لا مجال إلا للهذيان، فالحكمة تقلصت إلى مدار الكف، والتأمل ذاب في مجاري النسيان، والعلم أصبح خبراً، والخبر لا معنى له، والمعنى في قلب المتكلم، والمتكلم هو الصامت الأكبر؟!.

هكذا تفتح رسائل يوسف الخال إلى دون كيشوت طاقات الوعي بالإبداع المبتكر المغاير والمرتكز على الفكر الخلاق، والمنعتق من ربقة الضيق في فضاءات المعرفة الخاصة، والثقافة الرائدة بجنون الاكتشاف للمفاهيم الغريبة الجديدة.

الهوامش

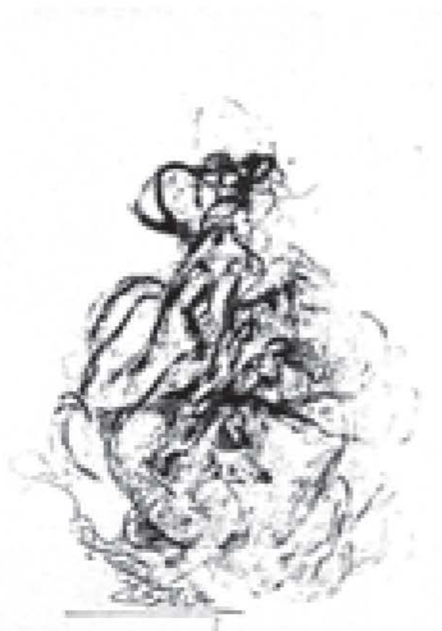
١- رسائل إلى دون كيشوت من يوسف الخال، دار النهار للنشر بيروت ١٩٧٩ م، رسوم مها بيرقدار.

٢- مؤلفات يوسف الخال:

١ – الحرية (مجموعة شعر) دار الكتاب، بيروت١٩٤٤م.
٢ – هيروديا (مسرحية شعرية) دار الهدى، نيويورك ١٩٥٤م.
٣ – البئر المهجورة (مجموعة شعر) دار مجلة شعر، بيروت ١٩٥٨م.
٤ – قصائد في الأربعين (مجموعة شعر) دار مجلة شعر، بيروت ١٩٦٠م.
٥ – الأرض الخراب لإليوت (ترجمة) دار مجلة شعر، بيروت ١٩٥٨م.
٦ – ديوان الشعر الأميركي (ترجمة) دار مجلة شعر، بيروت ١٩٥٨م.
٧ – روبرت فروست (مختارات شعرية) دار مجلة شعر، بيروت ١٩٥٨م.
٨ – النبي لجبران خليل جبران (ترجمة) دار النهار للنشر، بيروت ١٩٦٨م.
٩ – الأعمال الشعرية الكاملة، التعاونية اللبنانية للتأليف والنشر، طبعة أولى ١٩٧٣م.
١٠ –الأعمال الشعرية الكاملة، دار العودة، بيروت طبعة ثانية ١٩٧٨م.
١١ –الحداثة في الشعر (نقد)، دار الطليعة، بيروت ١٩٧٨م.

ما بين الفكر الجمعي والإبداعي

✽
د.ريمه الخاني



تدهشنا العبارات ويلفت نظرنا السبك اللغوي، حتى نكاد لانفرق ما بين الإبداع الحقيقي المتجدد، والإبداع المتكئ بقوة على ما قبله من متشابهات، ويكاد القارئ الحذق والفطن والناقد الدقيق يفرقان ما بين طريقتين من التفكير، تفكير متجدد مبدع مبتكر يحجز مساحة إبداعية تفوق ما اقتبس وجمع وأحضر، وتفكير يجمع من هنا وهناك من دون أن يشكل هوية خاصة به تميزه عن غيره.،

✽ كاتبة وباحثة.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

ولــو رجعنا لبداية انبثــاق الأفكار فماذا عسانا نقول؟:

سنقول بداية:

إنَّ «القلق» صنو الباعث الإبداعي الخاص بالأعماق، كاستثارة فردية عن خاصة كيانه، ووجدانه وصراعاته وانقلاباته.

لكن «القلق» صنو الباعث النظري أيضاً، باستلهامه الوعي الجمعي، وبواعث الصراع على أشكاله.[1]

ولكن هل هذه حاله عامة؟، وهل يختلف الوعــي الجمعــي عن التفكيــر الجمعي أم يسبقــه؟، ما يهم هنا عدم التسليم بالمقولة الإعلامية التاليــة: العربي الساذج والغربي الحصيــف،[2] وفي كل الأحوال لا يمنع هذا من النقد الذاتي، بحيث لا يمكننا هنا نكران أن لكل طريقة تفكير مجالها الذي يحتويها وبحاجــة لعطائها الكريم، وهنــا يبرز دور التوجيه نحــو ما يبرع فيه الإنسان كطريقة فكــر وكاختصاص وتوجه فكــري عام، وبه نعرف الطريقة التــي يستطيع عن طريقها العطاء والعمل.

نتهم نحن العرب في عصرنا هذا بالفكر الجمعي الاستهلاكي، وهل لنا خيار في دفع التهمة عنــا؟.. هنا علينــا التأمل لمعالجة ومعرفة العلة وإيجاد الحل.

ولن ننكر أبداً أنَّ لدينا مفكرين هجرونا لأنهــم لم يجدوا من يفيــد منهم، أو يحترم عقلهــم العميــق، ولا ساحة تتقبــل العطاء النظيــف ليقدروها حق قدرها، إلا ما رحم ربي، فهل هو كثرة عددهم، أم توقهم لساحة غير موجودة؟.

فكم تكون نسبة تلك العقول أمام الفكر التقليدي السائد في مجتمعنا؟..، وهل زاد العالــم الرقمي مــن نسبتــه أم مازال كما هو؟....

يقول الدكتور قدور رحماني:

(لا توجــد ثقافة تغلغلــت جذورها في ذهنية المجتمــع العربي كثقافة الاستهلاك التي لا تقتصر على الجانب الثقافي وحده، بل إنها توسعت لتطال جميع إيقاعات الحياة في المجتمع العربي، وسيتحول مجتمعنا إن طال به العهد في هذا الطريق، إلى ما يشبه الأطــلال الدارسة التــي لا مبرر لوجودها، ولــو استمر الوضع هكــذا تموت كل موهبة رغبة، وتموت كل موهبة قادرة على الابتكار والإبداع والإضافة، وتزداد الشقة بيننا وبين الحياة الحق).[3]

ما الفرق المعجمي بين المفهومين؟

١ – معجمياً:

فَكَــرَ في لسان العرب: فكر الفكر والفكر: إعمال الخاطر فــي الشيء، قال سيبويه: (ولا يجمع الفكر ولا العلم ولا النظر، التفكر: التأمل، والاسم الفكر والفكرة، والمصدر الفكر).[4]

جمــع في لســان العرب: جمــع الشيء على تفرقه يجمعــه جمعاً وجمعة، وأجمعه فاجتمع واجمع وهي مضارعة وكذلك تجمع واستجمع والمجمــوع: الذي جمع من ههنا وههنا وإن لم يجعل كالشيء الواحد).[٥]

نطق في لسان العرب: من نطق الناطق ينطــق نطقــاً: تكلــم، والمنطــق: الكلام، والمنطــق: البليغ، أنطقه الله واستنطقه أي كلمه وناطقه، وكتاب ناطق: بيّن على المثل كأنه ينطق).[٦]

بدع في لسان العرب: بدع الشيء يبدعه بَدْعــاً: أنشأه وبدأه، وبدع الركية: استنبطها وأحدثها، وركِيٌّ بديع: حديثة الحَفْر.

والبديــع والبدْع: الشيء الذي يكون أولاً وفي التزيل: «**قل ما كنــت بدعاً من الرسل**» من سورة الأحقاف، الآية(٩) أي ما كنت أوَّل من أرسل، فقد أرسل رسل كثير قبلي.[٧]

أمَّا الجذر (هلك) فيفرد له لسان العرب ثلاث صفحات هامات؛ نختار منها الأهم:

هلــك: الهلك الهلاك، وهلك يهلك هلكاً وهلَكاً وهلاكاً: مات، ويجوز أن يكون ماضي يهلك وهلك كعطبَ، استهلك الرجل في كذا: إذا جهد نفســه واهتلك معــه.. ومستهلِك الورِد: من سلكه).[٨]

٢ - معرفياً:

لــو عرفنــا التفكيــر الجمعــي مبدئياً وباجتهاد متواضع نقول:

تفكير تقليدي يعنى بالتجميع والاحتفاظ بالمعلومات والمعارف بلا تنسيق مسبق ولا تخطيط واضح لغاية خاصة؛ إما إكمالاً لما توصل إليه مــن سبق، أو متابعة لما سينجم عنه البحث المرصود.

للأسف لم نجد عبر الشابكة الكثير من المراجع التــي تعنى به بجدية، أو حتى في المراجع الورقية، لكننــا وجدنا تعريفاً قد يهمنا هنا إلى حد ما؛ يقول الأستاذ «محمد السموري»:

(الذاكــرة الجمعيــة هي أهــم ما يقوم عليــه مفهــوم التاريــخ الشفهــي، ومفهوم الذاكــرة الجمعية كما يــراه عالم الاجتماع الفرنســي: «موريس البواكســ» Mauric Halbwachs هو نظريــة تعتبر أن عملية التذكــر فردية، بحيــث لا يمكــن أن تنشأ ضمن إطار اجتماعي معين، ويربط الذاكرة الجمعيــة والذكريــات الشخصيــة للفــرد بالمجتمع الذي ينتمي إليه).[٩]

حقيقــة كان هذا تعريفاً يمس المهتمين بالتــراث حصراً، وهو شطر هام مما نبحث عنه، لكنه ليس كله.

تقول خريجــة التربية الأستــاذة ميسم الحكيــم:[١٠] (هــو مصطلــح قــد لا يكون مشهــورا بهذا الاسم حصرا، لكن يمكننا أن ندعوه «الفكر غير المبدع» الذي يعتمد على حفظ المعلومات واسترجاعها بطريقة ما).

ويشرحه الدكتور «عبد الكريم بكار» بقوله (بتصرف)[11]

(ما الطبيعة العامة للعقل الجمعي)؟

١- قصور وانخفاض مستوى التعليم يجعلان من صاحبهما قاصراً عن فهم تركيبة العقل الجمعي نفسه وينحصر هذا غالباً في نسبة تزيد عن ٣٠٪ من الأميين الذين يباهون بحوارهم الجدلي العقيم.

٢-العقل الجمعي يعاني من سطحية فكرية وضحالة، وانخفاض مستوى الفهم.

٣-يشبه إلى حد كبير الأم الرؤوم التي لا تملك سوى ولد واحد تتعلق به، وتعتبر كل من يقترب منه منافساً لها).

ويعزو الكاتب تفوق الغرب علينا إلى قصور تفكيرنا حالياً، وانحصاره ضمن هذا المفهوم المذكور، فكما يتبدى لنا أن لديهم وحدة حال وفكراً يجمع ولا يفرق، إلا أن الحقيقة أنهم ما كانوا ليجتمعوا لولا فكرهم المصلحي، وعلى أية حال هم منتجون وهذا ما يهمنا في هذا المقام، وليس لفكرنا العقائدي مثيل مما يجب أن ننهض به ونرتفع، ولا سيما إذا كان شاملاً وجامعاً لنا بقوة، وهذه تهمة توجه لنا الآن، مع أن التفوق لا يعد ذكاء فقط فجلهم ناجحون ومتفوقون؛ لكنها الدربة والمران والمثابرة والظروف المناسبة للعمل والهدف المرتبط.

ويعتبر الدكتور أن الفكر الجمعي نوع من الابتلاءات الربانية، واختبار يجب أن نعرف سبيل الخلاص منه بحكمة.

ويضيف أن صاحب الفكر الجمعي لايفكر خارج الصندوق، لأنه لا يملك رؤية شاملة ويميل للعولمة بأفكاره ضمن نطاقه الخاص، على الرغم مما يملكه من طاقة روحانية هائلة، فاليابانيون جدوا واجتهدوا حسب زعمه لأنهم جوعى ولا مصدر معاشي لهم غير العمل،[12] لماذا لم يبدع غيرهم ممن لا يملكون من ثروات البلاد ما يكفيهم؟، هل هي طريقة تفكير ومنطق؟

اليهود تفوقوا بفكرهم وعبر معونات خارجية ومن خلال صلاتهم التي حصلوا عليها بفطنتهم ومكرهم ودهائهم، وأهم انطلاقة لهم كانت بداية من بلاد الإسلام... لتسامحنا ودفعنا لنهضة الشعوب عامة.

الصدق يحتم هنا ألا نلتف على المعطيات التي لا تعجبنا، كي نمشي قدما، لذا فنرى أن الفكر الجمعي، لا يفرق بين القيم الأصيلة والمبادئ العقلية الهامة، ويسلم بها دون نقاش.[13]

هذا مقتطف هام ومختصر خطير عن هذا الفكر المتأخر.

إذن، فنحن بحاجة لمنطق يعيد الحسابات من جديد:

ما هو تعريف المنطق إذن؟...

المنطق:

المنطق في اللغة العربية من النطق يعني الكلام الدال على التعقـل والتفكير فكلمة منطق تجمـع بين الـكلام والتفكير في آن واحد وفي اللغات اللاتينية فإن هذه الكلمة مشتقة من الكلمة اليونانية «Locos» التي تعني التعقل والكلام.

وقد عرف «أرسطو» المنطق بأنه آلة العلم وصورته وجعل المنطق مدخلاً وآلة لجميع العلوم على اختـلاف أنواعها. و«الفارابي» عرف المنطق بأنه صناعة القوانين التي من شأنها أن تقوّم العقـل وتسدد الإنسان نحو الحق والصواب.

وعرفـه «توما الأكويني» بأنَّه الفن الذي يكفـل لعمليـات العقل الاستدلاليـة قيادة منظومة خالية من الخطأ. أمَّا في العصور الحديثة فكان المنطق علم قوانين التفكير. فالمنطـق إذاً فـي موضوعه علـم يتناول العمليـات العقلية التـي تستهدف المعرفة للوصـول إلـى الحقيقة، وهو مهـارة وفن التمييـز بين الخطأ والصـواب في الأفكار والأحـكام والقضايا فالعقـل عندما يتكلم يكون المنطق.[١٤]

لدى مقارنتنا بالفكـر المنطقي والذي يكـون عـادة ممتزجـاً بالإبـداع وقد قال العروضـي «فؤاد بركات» عن الموهبة بأنها موجـودة لكن صقلهـا هو الـذي يظهرها وينميها. فبماذا يتميز؟

- المنطق يساعد على تجنب الخطأ في التفكير.
- الاستدلال هو أهم موضوعات المنطق وهو الانتقال من المعلوم إلى المجهول.
- أهمية دراسة المنطق وفائدته:

١- يساعـد علـى فهم مبـادئ وأسس الاستدلال المنطقي ومناهجه.

٢- يساعـد علـى التمييز بيـن الأدلة السليمة وغير السليمة.

٣- يحـرر الفرد مـن تأثيـر العاطفة والدعاية والإشاعات.

٤- يساعد الإنسان على اختيار ألفاظه بدقة.

٥- ينمي الاتجاه النقدي لدى دارسيه.

٦- ينمي الروح العلمية لدى الفرد.[١٥]

حتى الفكر الجمعـي لو كان تابعاً لفكر مـا ومنحى فكـري عقدي مـا فإنه يحتاج لضوابط، وإلا لتفلت وشرد عن جذره الأول؛ يقول الدكتور عبد الكريـم بكار في كتابه: (في إشراقة آية):

(وبمـا أن الحياة الجمعيـة لا يمكن أن تستقيم وتنتظم من غير ضوابط عرفية تؤمن نوعـاً من التعاون، وتحول دون بغي الخلطاء بعضهم على بعض كان الجواب دائماً:

إنَّ ما تقوم عليه حياتهم الاجتماعية هو ما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم من الأعراف والعادات والتقاليد، وما حياتهم إلا استمرار لحياة سلفهم الذين يفاخرون بهم، والخلف لا يكتفي عادة بالتلقي الأصم عن السلف؛ لكنه ينشئ من الفلسفات والمقولات والخرافات ما يمنح ما ورثه من تقاليد القداسة والاحترام مما يجعلها محوراً للمنظومات العقدية والفكرية والرمزية والتاريخية).[١٦]

ويقول في مكان آخر من الكتاب:

(ليس كل ما يرثه المرء عن آبائه وأجداده رديئاً -لأنه لا يوجد جيل مختص بالرذائل -لكن الرديء هو أن نفقد القدرة على الحكم على تلك الموروثات ونحلها في محل القبول والاقتداء).[١٧]

لكن الباحثين في دهاليز العالم الرقمي مثلاً، قدموه لنا بطريقة جديدة جداً وهي أن العالم الرقمي يعتمد أصلاً على الذكاء الجمعي الذي يقدم لنا كل جديد ومستحدث اعتماداً على ما سبقه من معلومات متاحة؛ يقول في هذا الصدد الباحث محمد أسليم (بتصرف):

(اعتمدت المصادر الرقمية على الذكاء الجمعي؛ وهذا ما قاله الفيلسوف «بيير ليفي» إن العالم الافتراضي تجسيد لما يدعى الذكاء الجمعي، وهو أن نبدأ من حيث انتهى الآخرون، وهو ما كان يدعوه الفارابي وابن سينا وأمثاله: بالعقل الفعال)،[١٨] وهذا ما نبحث عنه بدقة.

هل هذا يعني أن هناك قسماً لا بأس به من عالم الفكر الجمعي يعنى بالاجتهاد على أنواعه ويقدم الجديد، غالباً أو حالياً، اعتماداً على ما سبق طلباً للتجديد والتحديث؟

ما يحدد طريقة التعلم هو الهدف المرتبط به؛ يقول الشيخ سلمان العودة في كتابه (مع العلم):

(الإسلام لم يأمرنا أن نطلب العلم لذات العلم، بل علمنا أن نطلب العلم للعمل، ولذلك كان السلف يقولون: «العلم يهتف بالعمل، فإن أجابه وإلا ارتحل»).[١٩]

ويقول في مكان آخر من الكتاب:

(يجب على الشاب أن يسير على منهج واضح مستقيم منضبط، وإلا تغلبه شهوة العلم إلى الاندفاع في جمع عشوائي للمعلومات؛ فإنَّ هذا ينتج ثقافة تراكمية ولا ينتج عالماً مؤصلاً).[٢٠]

ونستشف من بعض محاضرات الدكتور طارق سويدان عن المتفوقين علمياً ودراسياً كذلك ما معناه: إنهم ينقسمون إلى قسمين: منهم من يملك فكراً تقليدياً متفوقاً بمنهجية لا يحيد عنها، وهؤلاء قد يكملون طريقهم تقليدياً كما بدؤوه، لكن هناك فريق قد لايكون متفوقاً وربما كان ذكاؤه غير دراسي،

لكنه مبدع بطريقة ما، وهؤلاء ينطبق عليهم أمثلة المخترعين والمبتكرين الذين لم يكن تحصيلهم الدراسي ملموساً.

يبدأ طريــق الإبداع من اكتشاف الأسرة لمهارات الذكاء في طفلها وتوجيهه الاتجاه الصحيح،[٢١] فكم من خسارات نخسرها من توجيهنا الخاطئ، لــذا فالبحث الدائم عن هدف الطفل من دراسته ومن محبته لمهارة أو هوايــة معينة أمر في غاية الخطورة؛ قد يحدد مصيره الحياتي كله.

هل يمكن للفكر الجمعي التحول لفكر خلاق مبدع؟..

لا يمكننا الجزم والحسم، فهو أمر فطري أولاً، ثــم كسبي ثانياً، لكــن يمكننا استعارة نظرية مــن الطب النفسي غير تجريبية قد نستأنس بها فقط هنا:

يقول: «خالص جلبي»:

(وإذا كنا من أجل «أجهزة» معينة نضطر لتحويل السيالة الكهربية بشكل معاكس من ١١٠ فولــت إلى ٢٢٠ فولتــاً، كذلك يمكن نقل سيالــة «اللاوعي» إلــى الوعي»؛ وهو ما يفعله المحللون النفسيــون أحياناً، فإذا ظهرت تلك «العفونــات» المختبئة من دون «أكسجين عقلي» إلى الضوء والهواء الطلق تعافى الإنسان وكأنه نشط من عقال، وهذا إن دل علــى شيء فهو يفيــد بمدى قدرتنا على تشكيل الإنســان وتحويل الأخلاق إلى ساحة العلم.

هذه هي بعض مفاتيــح تغيير الإنسان، وعندمــا نستطيع تغيير الإنســان يمكن أن نمسك بمقود التاريخ).[٢٢]

تبقــى فتــرة التنشئة وجــودة المتابعة والحــوار والحيــاة التربويــة الفعالة، التي تربط القول بالفعل مفتاحاً للتوجيه السليم، إن كان المربــي يدرك مدى خطورة مهمته، ونضيــف من خــلال استعراضــ المناهج التعليمية العالمية أنه يجب علينا أن نكتشف المواهب والتوجــه الإبداعي إن وجد؛ وهو موجود غالباً مبكراً قبل أن يموت ويذبل.

ويحزننا أن نقول إن العالم الرقمي بقدر مــا زاد نسبة المبدعين بقــدر ما زاد نسبة الفكــر الجمعي؛ وذلك لقلة ساحات العطاء وتبــادل الأفــكار في الواقــع، وحتى الذين يقدرون المقــدرة الحقيقية إلا ما ندر، كما كشف ما لدينا من طاقات وعلينا استثمارها جيداً.

ويبقى السؤال الملح من أين يأتي الفكر الإبداعي؟

حقيقة لم أجد مقالاً واحداً يبحث عبر تلك القناة بموضوعية وتفصيل عميق الغور، وكأنَّ تقييد الحريات هو فقط المسؤول عن كبتها.[٢٣]

وأقول: هـــذه المقولة صحيحة إلى حد مـــا؛ فهناك الإبداع العلمي والإبداع الأدبي، الأوَّل يحتاج إلى مختبرات ودعم مؤسساتي كبيـــر؛ وهذا مـــا نفتقده في طـــول الوطن العربي وعرضه، أمَّا الثاني فهو مقيد بحرية التعبير أوَّلاً، ونهاية بتقدير الجهود المبذولة بصمـــت وفي الظل، وعلـــى الرغم من هذا هناك من وجد فرجة؛ إما بماله فهيأ لنفسه عالمـــاً خاصاً به خارج وطنـــه أو داخله من خلال قنـــوات رائدة لا تكفـــي لتستثمر كل مـــا يجود به الوطـــن، أو عبـــر المحسوبية المريضة.

لكن السؤال يبقى ملحاً: إلى متى؟

الهوامش

١- سليم بركات: من كتاب التعجيل في قروض النثر.

٢- المصدر السابق.

٣- انظر مجلة الرافد العدد(١٦٦) مقال الكتابة الأدبية بين اللذة ومتعة القراءة.

٤- لسان العرب: فكر.

٥- لسان العرب: جمع.

٦- لسان العرب: نطق.

٧- لسان العرب: بدع.

٨- لسان العرب: هلك.

٩- انظـــر لكتاب المؤلـــف السمّوري التاريخ الشفهي والذاكرة الجمعية (صـــ٢١-٢٢) يمكن التبحر في عالم الأسطـــورة والتراث عبر هـــذا المفهوم من خلال الصفحتين (٢٤و٤١) مـــن الكتاب نفسه حيث يبين كون الأسطورة والعادات والتقاليد والتراث من ضمن الذاكرة الجمعية.

١٠- خريجة تربية ورياض أطفال مدربة كوادر تربوية، من سورية.

١١- تكوين المفكر: (ص٦٩).

١٢- من المعروف أن اليابان لا تملك ثروات باطنية لذا فقد لجأت للفكر والإبداع العلمي.

١٣- انظر من الصفحة المبينة من كتاب تكوين الفكر (حتى ص٧٦)-بتصرف

١٤- مقتبس من الرابط: topic-com/t٣٦٦.yoov.http://drdsha٢٠٠٩

١٥- من منهاج المنطق لدارسي الثانوية في مصر/الرابط: topic-http://wessam.allgoo.us/t٨٨٣٨

١٦- (ص٩٩) منه.

١٧- (ص١٠٠) من الكتاب ذاته.

١٨- كتاب العربي العدد(٢)، (ص١٣٨).

١٩- انظر (ص٩٢) من الكتاب المذكور.

٢٠- (ص١٢٢) من الكتاب المذكور.

٢١- راجع بحثنا «الموهبة الكاذبة» والتي تضع مسبراً لمعرفة الموهبة الحقيقية من غيرها.

٢٢- لقراءة النص كاملاً راجع الرابط

٨٠٥٠=colid&٣٤٦=http://www.albiladpress.com/demox/column__inner.php?wid

٢٣- لمزيد من الاطلاع راجع الرابطين اللذين يتحدثان عن مقال الدكتور أحمد البغدادي

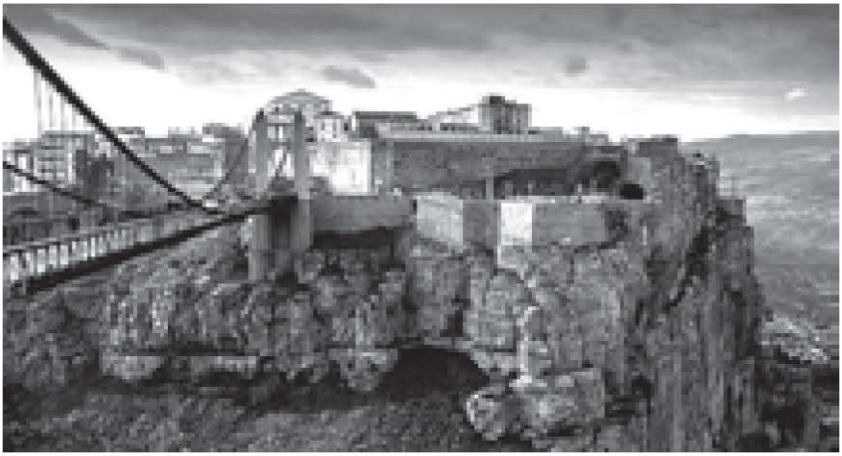
٤٥٦٩=com/news.php?action=view&id.menber١-http://dialog٥

٤٧٠٠٩=http://www.alittihad.ae/wajhatdetails.php?id

قسنطينة.. عاصمة الثقافة العربية ٢٠١٥

مدينة الجسور المعلّقة، والمساجد التاريخية، والقامات الفكرية المبدعة

محمد مروان مراد ❀



تستعد مدينة «قسنطينة» الجزائرية لاحتضان فعاليات «عاصمة الثقافة العربية ٢٠١٥»، يُطلق على «قسنطينة» اسم «مدينة الجسور» و«عاصمة الشرق» الجزائري، وتعتبر من كبريات مدن الجزائر تعداداً، تتميز المدينة القديمة بكونها مبنية على صخرة من الكلس القاسي، مما أعطاها منظراً فريداً يستحيل أن يوجد مثله عبر

❀ كاتب وباحث.

العالم في أي مدينـــة، للعبور من ضفة إلى أخـــرى شُيّـــدت عبر العصور عـــدة جسور، فأصبحت قسنطينة تضم أكثر من ٨ جسور بعضها تحطم لانعدام الترميم، وبعضها ما زال يصـــارع الزمن، لذا سُميـــت قسنطينة مدينة الجسور المعلّقـــة. يمر وادي الرمال على مدينة قسنطينة القديمة وتعلوه الجسور على ارتفاعات تفوق ٢٠٠ متر.

قسنطينة: تاريخ و حضارة وتراث:

بـــدأ تاريخ المنطقة مع قـــدوم الأمازيغ وانتظامهم في قبائل، أطلق الإغريق عليهم اسم الليبييـــن، النوميديين، وينسب تأسيس قسنطينة إلى التجار الفينيقيين، كان اسمها القديم هو (قرتا) ويعني بالفينيقية (القرية أو المدينـــة) وكان القرطاجيـــون يسمونها (ساريم باتيم).

اشتهـــرت «سيرتـــا» - الاســـم القديـــم لقسنطينـــة - لأول مـــرة عندمـــا اتخذها ماسينيسا ملك نوميديـــة عاصمة للمملكة، عرفت المدينة بعدها حصـــار «يوغراطة» الـــذي رفض تقسيم مملكـــة أبيه إلى ثلاثة أقســـام، بفضل دعم الرومـــان وبعد حصار دام خمسة أشهر اقتحم تحصينات المدينة واستولـــى عليهـــا، وعادت «سيرتـــا» لتحيا مجداً جديـــداً مع «يوغراطة» ملك نوميدية الجديد.

دخلـــت المدينـــة بعدها تحـــت سلطة الرومان، وأثناء العهد البيزنطي تمردت سنة ٣١١م، على السلطـــة المركزية فاجتاحتها القوات الرومانية من جديد وأمر الإمبراطور ماكسينوس بتخريبها.

أعـــاد الإمبراطـــور قسطنطيـــن بناءها عام ٣١٣م، واتخـــذت اسمه وصارت تسمى القسطنطينة أو قسنطينة، عُرفت ابتداءً من سنة ٤٢٩م، غزوات الونـــدال، ثم استعادها البيزنطيون.

مع دخول المسلمين إلى المغرب عرفت المدينة نوعـــاً من الاستقلال فـــكان أهلها يتولون شؤونهم بنفسهم وحتى القرن التاسع، عرفت المنطقة قدوم القبائل الهلالية، في القرن العاشر وطغت بعدهـــا اللغة العربية على أهالي المنطقة.

ثـــم دخلت المدينة في عهـــدة الزيريين ثـــم الحماديين أصحـــاب القلعـــة وبجاية، واستوطن المدينة الأندلسيون كما استقرت بها جالية يهودية، تعامل معها أهل المدينة بالتسامح المعهود.

وجديـــر بالذكـــر أن قـــدوم اليهود بعد سقـــوط الأندلس التي كانـــوا يعيشون فيها بسلام في ظل الحكم الإسلامي، ثم طردهم المسيحيون المتعصبون للكنيسة الكاثوليكية في روما بعد سقوط آخر حكام الأندلس.

ومنذ القرن الثالث عشر انتقلت المدينة إلى حوزة الحفصيين أصحاب تونس، وبقيت في أيديهم حتى دخول الأتراك العثمانيون.

قبل استقرارهم نهائياً في المنطقة حاول الأتراك احتلال المدينة مرات عدة، وكانوا دوماً يصطدمون بمقاومة الحفصيين، قاد الداي محمد صالح رايس عام ١٥٦٨م حملة على المدينة، واستطاع أن يستولي عليها من غير قتال. ودانت له البلاد بعد أن دحر عبد المؤمن زعيم الحفصيين ومعه قبيلة أولاد صاولة.

تمّ اختيار قسنطينة لتكون عاصمة بايليك الشرق، وعمل «صالح باي» (١٧٧١ - ١٧٩٢م) على تهيئة المدينة وإعطائها طابعها المميز. ومن أهم أعماله بناء جامع ومدرسة «القطانية»، ومدرسة «سيدي لخضر» التي عُني فيها بتدريس اللغة العربية، كما قام بإنشاء حي خاص لليهود بعد أن كانوا موزّعين في أنحاء المدينة.

ومع احتلال الفرنسيين الجزائر رفض أهالي المدينة الاعتراف بسلطة الفرنسيين، وقاد «أحمد باي» الحملة، واستطاع أن يرد الفرنسيين مرتين خلال سنتين في معارك للاستيلاء على القنطرة، التي كانت تمثل بوابة الشرق، تمكنت الحملة الفرنسية عام ١٨٣٧م بقيادة دومورييير من التسلل إلى المدينة عبر معابر سرية توصل إلى وسط المدينة) جراء خيانة من بعض اليهود في المدينة، وعن طريق المدفعية أيضاً استطاع العدو إحداث ثغرة في جدار المدينة، ثم جرى الاقتحام، واصطدم الجنود الفرنسيون بالمقاومة الشرسة للأهالي، واضطروا لمواصلة القتال في الشوارع والبيوت، انتهت المعركة أخيراً بمقتل العديد من السكان، واستقرار المحتلّين في المدينة بعد سنوات عدة من المحاولات الفاشلة، وتمكن «الباي أحمد» وخليفته «بن عيسى» المغادرة إلى الجنوب.

المعالم الطبيعية والآثار في وادي قسنطينة:

توجد بولاية قسنطينة معالم وآثار تاريخية عدة أهمها:

- **مقابر عصر ما قبل التاريخ**: كانت مقابر أهالي مدينة قسنطينة على قدر كبير من الفخامة، تقع بقمة جبل، سيد مسيد، في المكان المسمى «نصب الأموات».
- اكتُشفت قبور أخرى تقع تحت «كهف الدببة» وأخرى ناحية «بكيرة»، كما توجد مقابر أخرى بمنطقة «الخروب» بالمواقع المسماة «خلوة سيدي بو حجر» قشقاش، وكاف تاسنغة ببنوارة وتعود كلها إلى مرحلة ما قبل التاريخ.

- **المقبرة الميغاليتية لبونوارة:** على بعد ٣٢ كلم عن قسنطينة، وعلى الطريق الوطني رقم ٢٠ المؤدي باتجاه «فالمة»، تقع المقبرة الميغاليتية لبونوارة على المنحدرات الجنوبية الغربية لجبل «مزالة» على بعد ٢ كلم شمال قرية بوتوارة. وتتكون هذه الدولمانات «dolments» من طبقات كلسية متماسكة تعود إلى عصر ما قبل التاريخ، ويبدو أن عدداً كبيراً منها قد تعرض للتلف والاندثار.

يُشار إلى أن النموذج العام لهذه المعالم التاريخية يكون على شكل منضدة متكوّنة من أربع كتل صخرية عمودية وطاولة، تشكّل بدورها غرفة مثلثة الشكل، وعادة ما يكون الدولمان محاطاً بدائرة من حجارة واحدة، وفي بعض الأحيان من دائرتين أو ثلاث أو أربع، وقد كان سكان المنطقة القدامى يستعملونها لدفن موتاهم بهذه الطريقة المحصنة التي يبدو أنها قد استمرت إلى القرن الثالث ق.م.

- **كهف الدببة:** يبلغ طوله ٦٠م ويوجد بالصخرة الشمالية لقسنطينة.

- **كهف الأروي:** يقع قرب كهف الدببة ويبلغ طوله ٦م، ويعتبر كلا الكهفين محطتين لصناعات أثرية تعود إلى فترة ما قبل التاريخ.

- **ماسينيسا وضريح بالخروب:** على بعد ١٦كلم جنوب شرق قسنطينة يقع ضريح ماسينيسا وهو عبارة عن برج مربع، تمّ بناؤه على شكل مدرجات فيه ثلاثة صفوف من الحجارة وهي منحوتة بطريقة مستوحاة من الأسلوب الإغريقي - البونيقي وقد نسب هذا الضريح لماسينيسا الذي ولد سنة ٢٣٨ ق.م، وتوفي سنة ١٤٨ ق.م، حمى هذه المنطقة لمدة ٦٠ سنة، ويعود له الفضل في تأسيس الدولة النوميدية، كما أسهم في ترقية العمران وتطوير الزراعة بالمنطقة وأسس جيشاً قوياً.

- **ضريح لوليوس:** يقع ضريح لوليوس في جبل شواية بالمكان المسمى «الهري» على بعد حوالي ٢٥ كلم شمال غرب قسنطينة، غير بعيد عن «تيدس» له شكل أسطواني، بُني من حجارة منحوتة وشيّد من طرف «ك لوليوس إبريكيس» حاكم روما آنذاك تخليداً لعائلته.

- **تيديس:** تقع على بعد ٣٠ كلم إلى الشمال الغربي من قسنطينة وتختفي في جبل مهجور، كانت لها قديماً أسماء عدة مثل: «قسنطينة العتيقة»، «رأس الدار» كما سُميت أيضاً «مدينة الأقداس» نظراً لكثرة الكهوف التي كان الأهالي يتعبدون بها، ويبدو أن اسمها الحالي «تيديس»

هو اسم محلي نوميدي، أما الرومان فأعطوها اسم castelli respublica tidditanorum.

ومعنى «كاستيلي» هو المكان المحصن، ومعنى «روسبيبليكا» أي التمتع بتنظيمات بلدية، وقد كان دور هذه المدينة هو القيام بوظيفة القلعة المتقدمة لحماية مدينة سيرتا من الهجمات الأجنبية.

ولا تزال الآثار شاهدة على الحضارات التي تعاقبت على «تيديس» بدءاً بعصور التاريخ، فالحضارة البونيقية، الحضارة الرومانية، الحضارة البيزنطية إلى الحضارة الإسلامية.

ويتجلّى عصر ما قبل التاريخ في مجموعة من القبور تسمى «دولمن» ومعناها «المناضد الصخرية»، وهي مقبرة قديمة تقع على منحدر الجانب الشمالي، وتجمع عدداً من المباني الأثرية الدائرية المتأثرة بطريقة الدفن الجماعي والتي تسمى «بازناس» وتدل النصب والشواهد الموجودة على العصر البونيقي، فيما يتجلّى الطابع الروماني في المناهج المتعلقة بنظام تخطيط المدن.

- **باب سيرتا:** وهو مَعلم أثري موجود بمركز سوق بومزو، ويرجَّح أنه كان معبداً، ويعود تاريخ اكتشافه إلى شهر حزيران من عام ١٩٣٥م، وحسب بعض الدراسات فإن هذا المعبد قد بُني حوالى سنة ٣٦٣م.

- الأقواس الرومانية: موجودة بالطريق المؤدي لشعاب الرصاص، وكان الماء المتدفق بهذه الأقواس يمر من منبع «بومرزوف» ومن الفسقية (جبل غريون) إلى الخزانات والصهاريج الموجودة في «كدية عاتي» بالمدينة، وهذا المعلم هو من شواهد الحضارة الرومانية.

- **حمامات القيصر:** ما زالت آثارها قائمة إلى اليوم، وتوجد في المنحدر بوادي الرمال، وتقع في الجبهة المقابلة لمحطة القطار، غير أن الفيضانات قد أتلفتها عام ١٩٥٧، وقد كانت هذه الحمامات الرومانية تستقطب العائلات والأسر، للاستحمام بمياهها الدافئة والاستمتاع بالمناظر المحيطة بها، خاصة في فصل الربيع.

- **إقامة صالح باي:** منتجع للراحة، يقع على بعد ٨ كلم شمال غرب قسنطينة، وقد كان من قبل منزلاً ريفياً خاصاً، قام «صالح باي» ببنائه لأسرته في القرن ١٨، لينتصب بناية أنيقة وسط الحدائق الغنّاء التي كانت تزين المنحدر حتى وادي الرمال، وتتوفر الإقامة على قبة قديمة هي محجّ تقصده النساء لممارسة بعض الطقوس التقريبية التي تُعرف باسم «النشرة».

- **قصر أحمد الباي:** يُعد قصر الباي إحدى التحف المعمارية الهامة بقسنطينة وتعود فكرة إنشائه إلى «أحمد باي» الذي تأثر أثناء زيارته للبقاع المقدسة بفن العمارة الإسلامية، وأراد أن يترجم افتتانه بهذا المعمار ببناء قصر، وبالفعل انطلقت الأشغال سنة ١٨٢٧ لتنتهي سنة ١٨٣٥. يمتد هذا القصر على مساحة ٥٦٠٠ متر مربع، يمتاز باتسّاعه ودقة تنظيمه، وتوزيع أجنحته التي تدل على عبقرية في المعمار والذوق معاً.

تعرض القصر طوال تاريخه إلى محاولات تغيير وتعديل عدة، خاصة أثناء المرحلة الاستعمارية حيث حاولت الإدارة الفرنسية إضفاء الطابع الأوروبي على القصر، بطمس معالم الزخرفة الإسلامية والقيشاني (سيراميك)، أما الريازة المعمارية للقصر، فقد حورت كثيراً عن أصلها الإسلامي بعد الاحتلال الفرنسي للمدينة، وأصبحت عبارة عن خليط من الريازات المعمارية، ومع ذلك فإن الهوية الأصلية للقصر ظلت هي السائدة والمهيمنة على كل أجزائه وفضاءاته الرائعة، وإن الزائر له يستمتع بنقوشه وزخرفته وتلوينات مواده التي تحيل إلى مرجعية معمارية ضاربة في الأصالة والقدم. وتضفي المدينة القديمة بدروبها الضيقة وخصوصية بناياتها طابعاً مميزاً، وتشتهر ببيوتها المسقوفة وهندستها المعمارية الإسلامية التي مكّنتها من الصمود مدة أطول، ملمحة إلى حضارة وطابع معماري يرفض الزوال.

وتُعتبر المدينة القديمة إرثاً معنوياً وجمالياً يشكل ذاكرة المدينة بكل مكوناتها الثقافية والاجتماعية والحضارية، وقد عُرفت قسنطينة كغيرها من المدن والعواصم الإسلامية الأسواق المتخصصة، فكل سوق خُصّ بتجارة أو حرفة معينة، وما زالت أسواق المدينة تحتفظ بهذه التسميات مثل: الجزارين، الحدادين، سوق الغزل، وغيرها. هذا إلى جانب المساحات التي تحيط بها المنازل والتي تسمى الرحبة، وتختص بحرفة معينة مثل رحبة الصوف ورحبة الجمال، أما الأسواق الخاصة بكل حي من أحياء المدينة، فإنها كانت تسمى السويقة.

أشهر المعالم العمرانية

طغت على قسنطينة صبغتها الثقافية والدينية منذ القدم، وتكرس هذا المظهر بعد استقرار الإسلام بها، فعرفت بناء المساجد الرحبة الباهرة، ومن أهمها:

- **الجامع الكبير:** بُني في عهد الدولة الزيرية سنة ٥٠٣هـ- ١١٣٦م، وقد أُقيم على أنقاض المعبد الروماني الكائن بنهج «العربي بن مهيدي» حالياً تغيرت هندسته الخارجية جراء الترميم، ويتميز بالكتابات العربية المنقوشة على جدرانه.

- **جامع سوق الغزل:** أمر ببنائه «الباي حسن» وكان ذلك عام ١١٤٣هـ - ١٧٣٠م، حولته القيادة العسكرية الفرنسية إلى كاتدرائية وظل كذلك إلى أن عاد إلى أصله بعد الاستقلال.

- **جامع سيدي الأخضر:** أمر ببنائه الباي «حسن بن حسين» الملقب أبو حنك في عام (١١٥٧هـ - ١٧٤٣م) كما يدل عليه النقش الكتابي المثبت على لوح من الرخام فوق باب المدخل، وتوجد بجانب المسجد مقبرة تضم قبور عدة من بينها قبر الباي حسن.

- **جامع سيدي الكتاني:** يوجد بساحة «سوق العصر» حالياً، أمر «صالح باي بن مصطفى» ببنائه عام (١١٩٠هـ - ١٧٧٦م) وإلى جانبه توجد مقبرة عائلة صالح باي.

- **مسجد البيضاوي:** يوجد بحي باب القنطرة، بُني في فترة ما بعد الاستقلال، تعاقب عليه كبار علماء مدينة قسنطينة منهم الشيخ الطولقي والشيخ يوسف بوغابة الداعية المعروف، ويوجد بجوار المسجد معهد الإمام البيضاوي للعلوم الشرعية.

- **مسجد الأمير عبد القادر:** يعتبر من أكبر المساجد في شمال إفريقيا، يتميز بعلو مئذنتيه اللتين يبلغ ارتفاع كل واحدة ١٠٧م وارتفاع قبته ٦٤م، يبهرك منظره بهندسته المعمارية الرائعة، ويعدّ إحدى التحف التي أبدعتها يد الإنسان في العصر الحاضر، ويتّسع المسجد لنحو ١٥ ألف مصل، ونشير إلى أن المهندس المصري «مصطفى موسى» الذي يعدّ من كبار المهندسين العرب هو الذي قام بتصاميم المساجد والجامعة.

كما تزخر المدينة بعدد آخر من المساجد من بينها : جامع سيدي فعان - جامع سيدي محمد بن ميمون - جامع سيدي بوعنابة، جامع السيدة حفصة - جامع سيدي راشد - جامع سيدي نمديل - جامع سيدي عبد المؤمن - جامع سيدي بومعزة - جامع سيدي قموش - جامع الأربعين شريفاً.

أبواب قسنطينة:

كانت المدينة محصنة بسور تتخلله سبعة أبواب، وبعضهم يقول ستة، تُغلق جميعها في المساء وهي:

- **باب الحنانشة:** الذي يسمح بالخروج من شمال المدينة عبر وادي الرمال، ويؤدي

إلى الينابيع التي تصب في أحواض مسبح سيدي مسيد.

- **باب الرواح**: يؤدي إلى الناحية الشمالية من وادي الرمال ويوصل هذا الباب إلى منابع سيدي ميمون التي تصب في المغسل.

- **باب القنطرة**: يصل المدينة بالضفة الجنوبية لوادي الرمال.

- **باب الجابية**: ينفتح على الطريق الممتد إلى سيدي راشد ويقع على ارتفاع ٥١٠م.

- **باب الحديد**: يقع شمال ساحة أول نوفمبر، هدم سنة ١٩٢٥.

- **باب الواد أو «باب ميلة»**: يسمح بالوصول إلى روابي كدية عاتي، وقد كان موجوداً بمكان قصر العدالة حالياً.

قامت هذه الأبواب بمهمة التحصين للمدينة ضد الغرباء، وبدأت تختفي بالتدريج إلى أن أزال الاحتلال الفرنسي آثارها كلية.

جسور المدينة:

نظراً لتضاريس المدينة الوعرة وأخدود وادي الرمال العميق الذي يشقها، أقيمت عليها سبعة جسور لتسهيل حركة التنقل، واشتهرت بعد ذلك قسنطينة باسم مدينة الجسور المعلقة، وهي:

- **جسر باب القنطرة**: وهو أقدم الجسور، بناه الرومان ثم رممه الأتراك عام ١٧٩٢، هدمه الفرنسيون ليبنوا على أنقاضه الجسر القائم حالياً وذلك سنة ١٨٦٣.

- **جسر سيدي راشد**: قام بتصميمه المهندس الفرنسي «أوبين ايرو»، وتحمله ٢٧ قوساً، يبلغ قطر أكبرها ٧٠م، ويقدر علوه بـ ١٠٦م، طوله ٤٤٧م، وعرضه ١٢م، بدأت حركة المرور في سنة ١٩١٢، وهو أعلى وأضخم جسر حجري في العالم.

- **جسر سيدي مسيد**: بناه وقام بتصميمه المهندس الفرنسي «فرديناند أرنودان» عام ١٩١٢ ويُسمى أيضاً بالجسر المعلق، يقدّر ارتفاعه بـ ١٧٥م، وطوله ١٦٨م، وهو أعلى جسور المدينة، والأعلى في أفريقيا.

- **جسر ملاح سليمان**: هو ممر حديدي خصص للمشاة وقد بُني بين سنة ١٩١٧ و١٩٢٥م، ويبلغ طوله ١٥م، وعرضه مترين ونصف، يربط بين شارع محطة السكك الحديدية ووسط المدينة.

- **جسر مخازن الغنم**: هو امتداد لشارع رحماني عاشور، ونظراً لضيقه فهو أحادي الاتجاه.

- **جسر الشيطان**: جسر صغير يربط بين ضفتي وادي الرمال ويقع في أسفل الأخدود.

- **جسر الشلالات:** يوجد على الطريق المؤدي إلى المسبح، وتعلو الجسر مياه وادي الرمال التي تمر تحته مكونة شلالات عدة، وبُني عام ١٩٢٨.

- **مشروع جسر الرمال العملاق:** نسبة إلى وادي الرمال وسيكون عند إنجازه بطول ١١٥٠م، وبعرض ٢٥م، يشتمل على طريقين ذهاباً وطريقين إياباً إضافة إلى سكتي «ترامواي» في وسط الجسر وعلى ارتفاع أكثر من ١٠٠م، وسيمتد من مرتفعات «حي المنصورة» وصولاً إلى حي «جنان الزيتون».

البساتين والحدائق:

يطلق الشعراء على قسنطينة اسم مدينة «الهوى والهواء» وذلك نظراً للطافة جوها، ورقة طباع أهلها، وانتشار البساتين والأشجار في كل أرجائها، وبذلك تتوفر المدينة على حدائق عمومية عدة تعمل على تلطيف الجو داخلها، ولعل أهم هذه الحدائق والتي ما زالت تحافظ على رونقها وجمالها، حديقة «بن ناصر» أو كما يُطلق عليها «جنان الأغنياء» وتتوسط شارع باب الواد، وبحي سيدي مبروك توجد حديقتان إحداهما تقع في المنطقة العليا والأخرى تقع في المنطقة السفلى، كما توجد حديقة بحي المنظر الجميل تحمل اسم «فرفي عبد الحميد» وتجدر الإشارة إلى أن قصر «أحمد باي» يتوفر على حديقة رائعة الجمال، تذكر بعض الروايات أن الباي نفسه كان يشرف عليها، ومن بين حدائق قسنطينة التي كتب عنها بعض المؤرخين والرحالة حديقة قسوم محمد (التي تدعى سكورا قامبيطة) الكائنة خلف شارع بلوزداد، التي ما فتئت تستقطب الكثير من الناس لجمالها وكثافة أشجارها، ويوجد بها تمثال للنحات «لوست LHoest»، وتحت جسر باب القنطرة توجد حديقة رائعة الجمال، ونظراً لموقعها في المنحدر، فهي تفتن الأنظار من بعيد.

الرحبات والأسواق:

تُعتبر الرحبة المكان الواسع المستعمل لأغراض تجارية، حيث تُباع فيها مختلف السلع والبضائع كالملابس، والأقمشة وغيرها. عُرفت قسنطينة قديماً رحبات عدة منها ما يزال قائماً حتى اليوم ومنها ما تحول إلى مباني وطرقات كـ «رحبة الزرع» التي كانت تتوسط المدينة وتُقام فيها نشاطات عدة تجارية كبيع الحبوب، التمور والزيوت، ومن الرحبات المعروفة في قسنطينة قديماً نذكر «رحبة الشبرليين»، «سوق الخرازين»، «سوق العطارين»، «سوق

الصاغة»، و«سوق الصباغين» وغيرها... وحالياً لا تزال بعض الرحبات موجودة مثل: «رحبة الصوف» التي تحولت اليوم إلى سوق لبيع الخضار والفواكه والأواني وبعض الأغراض المنزلية، أما «رحبة الجمال» التي يذكر المؤرخون أنها كانت مبركاً للقوافل التي تأتي من مختلف الأنحاء محملة بالبضائع، فقد أصبحت اليوم سوقاً لبيع الملابس، ومكاناً مفضلاً للمطاعم الشعبية بوجباتها الشهية، وهناك «سوق العصر» الذي كان قبلاً يُسمى «سوق الجمعة» ويشتهر بتنوّع خضره وفواكهه وباللحوم والأقمشة، وعادة ما تكون أسعار هذا السوق معتدلة مقارنة مع بقية الأسواق، ومن أهم أسواق المدينة أيضاً في الوقت الحالي نذكر: «سوق بومزو» يُعد من أهم الأسواق ويعود تاريخ بنائه إلى عهد الاحتلال الفرنسي، يقع بمحاذاة ساحة أول نوفمبر ويعرف يومياً حركة نشيطة، «سوق بن بطو» ويُعتبر من أقدم الأسواق، ونظراً لموقعه المتميز بشارع بلوزداد وجودة السلع والبضائع التي يعرضها فهو يستقطب الكثيرات من ربات البيوت.

الحمامات:

لا تزال حمامات مدينة قسنطينة التي يعود تاريخ بنائها إلى العهد العثماني محافظة على شكلها وهندستها ووظيفتها، ويبلغ عددها حوالى ٢٠ حماماً، ما زال سكان المدينة يقصدونها ويفضلونها على الحمامات العصرية، ولعل أول حمام بناه الأتراك كان حمام «ثلاثة» الكائن بحي الشط، ويطلق عليه أيضاً اسم «حمام الهوا» كونه بُني فوق المنحدر أما سبب تسميته بحمام «ثلاثا» فلأنه كان الوحيد الذي حدد سعره بثلاثة «صوردي» بينما حدد في الحمامات الأخرى بخمسة.

أعلام الفكر في قسنطينة:

عُرفت قسنطينة بأنها مدينة العلم والعلماء فقد كانت ولا زالت موئل كوكبة من العلماء والأدباء والفلاسفة من بينهم:

- **يوسف بوغابة**: من كبار دعاة وعلماء مدينة قسنطينة إمام وخطيب ومدير معهد الإمام البيضاوي للعلوم الشرعية، تقلّد العديد من المناصب منها: رئيس المجلس العلمي للشؤون الدينية، ورئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين- شعبة قسنطينة.
- **أحمد باي**: آخر بايات قسنطينة، قاوم الاستعمار الفرنسي وهزمه في معارك عدة.
- **صالح باي**: أحد بايات قسنطينة وبايلك الشرق.

- **سيدي نمديل:** جزائري تركي، علاّمة إسلامي ورجل وطني.
- **عبد الحميد بن باديس:** من أكبر فقهاء الجزائر كان له دور كبير في الحفاظ على الهوية الجزائرية الإسلامية.
- **مالك بن نبي:** مفكر كبير.
- **مالك حداد:** كاتب معاصر.
- **أحمد رضا حوحو:** كاتب وأديب معاصر.
- **حسيبة بولمرقة:** بطلة عالمية وأولمبية في ألعاب القوى ١٥٠٠م.
- **رابح بيطاط:** أحد رؤساء الجمهورية الجزائرية (١٩٧٨ - ١٩٧٩).
- **زيغود يوسف:** أحد قيادات ثورة التحرير الجزائرية.
- **أحلام مستغانمي:** كاتبة وأديبة معاصرة.
- **كاتب ياسين:** كاتب وأديب معاصر.
- **عبد الحميد أبركان:** رئيس المنظمة العالمية للصحة (١٩٩٦ - ١٩٩٨).
- **عبد الحميد مهري:** سياسي جزائري.
- **عبد الحق طوابي:** شاعر وأصغر نائب بالمجلس الشعبي الولائي.
- **زهور ونيسي:** كاتبة ووزيرة سابقة.
- **محمد الطاهر الفرقاني:** فنان.
- **عبد الله حمادي:** كاتب وشاعر.

دور المماليك في إدارة الدولة الفاطمية: الأستاذ جوذر أنموذجاً

❁
سيف الدين القصير

اتسمت الدولة الفاطمية التي أسسها عبد الله المهدي في شمال أفريقية عام ٩٠٩/٢٩٧ بسمة عامة نطلق عليها اليوم تسمية «التعددية»، وهي إتاحة الفرصة لسائر أطياف المجتمعات بالمشاركة في إدارة الدولة وعدم التعصب لفئة أو مذهب أو عرق على حساب الآخرين. وفي هذا المجال قدم حامد حاجي[1] دراسة ممتعة في كتاب قلاع العقل من تحرير عمر علي- دو- أونثاغا ومنشورات المطبوعات الإسلامية المحدودة (لندن، ٢٠١١)، تضمنت سيرة شخصية لمملوك «صقلبي» خصي لعب دوراً هاماً في الإدارة الفاطمية خلال عهود أول أربعة أئمة- خلفاء فاطميين حكموا من أفريقية (تونس اليوم)، قبل انتقال عاصمة الخلافة الفاطمية إلى القاهرة في مصر زمن الخليفة المعز (ت.٣٦٥/٩٧٥).

وهذه الشخصية هي الأستاذ جوذر، الخصي الصقلبي الأصل وأحد العبيد الذين كانوا في ملكية أسرة الأغالبة التي أطاح بها الفاطميون وورثوها بكل ما كانت تملك. وكانت أصول الخصيان الصقالبة، الذين حققوا بروزاً لهم في أفريقية خلال فترة حكم الأغالبة، تعود في معظمها إلى مناطق

❁ كاتب وباحث سوري.

البلقان. وكان فصلهم عن بلدانهم الأصلية، وحرمانهم من وجود أي أقارب لهم في مساكنهم الجديدة، قد جعل منهم مرتبطين بشكل كلي بأسيادهم ومخلصين لهم.

أما حياة الأستاذ جوذر العملية في خدمة الفاطميين لمدة تجاوزت الستين عاماً، وولاؤه النموذجي لأسياده ورعاته، فقد حظيت بتوثيق وافٍ في كتاب سيرة صنّفه كاتب جوذر الخاص، أبو علي منصور العزيزي الجوذري(٢)، الذي عمل معه بحرص وإخلاص طوال العقد الأخير من حياته. كان جوذر لا يزال صبياً عندما دخل عبد الله المهدي رقّادة. وكان من بين عبيد النظام القديم الذين تم تجميعهم أمام الحاكم الجديد. وقام المهدي بتوزيع هؤلاء العبيد على مهامهم في إدارة دولته الجديدة. واختار جوذراً ليكون في خدمة ولي عهده، القائم بأمر الله. لقد أُعجب المهدي بزهد جوذر وإخلاصه وتقواه فأولاه حظوة خاصة منذ البداية. وبرهن جوذر عن التزامه وحسن خدمته من خلال عمله كرئيس لخدم قصر القائم. وتولى شؤون القصر بكاملها عندما كان القائم في حملة عسكرية خارج العاصمة. ولقيت إدارة جوذر المتقنة وأعماله إعجاباً خاصاً من القائم، فكرّمه وزاد من إنعاماته عليه وصار يصطحبه في بعض حملاته العسكرية(٣).

وبعد وفاة المهدي، أوكل الخليفة الفاطمي الجديد، القائم، إدارة بيت المال إلى جوذر إلى جانب أمور مخازن القصر الخاصة بالألبسة والأقمشة. ثم جعله وسيطاً بينه وبين أتباعه، وبينه وبين جميع عبيده. وبلغت درجة ثقة سيده به حدّاً بحيث أنه عندما كان القائم يُحضّر لدفن المهدي استدعى جوذراً جانباً وأسرّ له بتسمية ولده إسماعيل ولياً لعهده. وأخذ القائم من جوذر وعداً بمبايعة ولي عهده المسمّى والمحافظة على مكانته سرّاً حتى يقوم هو نفسه بإعلان تعيينه على الملأ. وطبقاً لهذا الوعد فقد أبقى جوذر الأمر سرّاً لمدة سبع سنوات(٤). وقد سبق لولي العهد إسماعيل، الخليفة المنصور فيما بعد، أن أبدى تعاطفاً واهتماماً كبيرين بجوذر، فكثيراً ما كان يتوقف عند منزل جوذر ليقوم بزيارته. وتحتفظ السيرة برسالة هامة بعث بها المنصور، عندما كان ولياً للعهد، إلى جوذر حول موضوع ضبط المرء لنفسه عند الغضب استشهد فيها بنصائح لجالينوس اليوناني.(٥)

مارس جوذر سلطات واسعة اشتملت على حقه بمعاقبة المخالفين ممن هم يخضعون لأمرته. وحدث في أحد الأيام أن عاقب بعض شباب الصقالبة الخصيان وسجنهم بسبب مخالفة ارتكبوها واستحقوا

التأديب عليها. فبعث هؤلاء الشبان برسالة إلى ولي العهد المنصور يناشدونه التدخل للإفراج عنهم. ولم يدرِ جوذر بهذا الأمر حتى تلقى رسالة من المنصور أعلمه فيها أنه قد تجاوز حدّه قليلاً وعليه أن يكون رحيماً تجاه أولئك الذين عاقبهم.[٦]

وبعد وفاة القائم وتولي المنصور لسدة الخلافة سنة ٣٣٤/٩٤٥، ارتقت مكانة جوذر الذي احتل مرتبة أكثر سموّاً وأعظم رفعة. وعندما انطلق المنصور لملاحقة أبي يزيد الخارجي المتمرد على الفاطميين منذ ٣٣٢/٩٤٣، عمد إلى تقليد جوذر سلطة الإشراف على القصر وعلى كامل البلاد، وائتمنه على صناديق بيت المال وحمّله مسؤولية الحفاظ على سلامتها. فأصبح جوذر بهذا الشكل ثالث أهم شخصية في الدولة الفاطمية، بعد الخليفة وولي العهد. ولما انتصر المنصور أخيراً على أبي يزيد الخارجي وقضى على ثورته، أقدم الخليفة على تكريم جوذر بإعلان عتقه وتسميته «مولى أمير المؤمنين» ثم وجهه في اتباع صيغة محددة في بروتوكول المراسلات من شأنها أن تجعله في أعلى مرتبة بعد ولي العهد. كما أمر الخليفة الفاطمي بنقش اسم جوذر على شرائط الطراز التي تُزين الأقمشة والسجاد المصنوع في المهدية. وعندما جلس المنصور إلى الطعام بعد عودته إلى القصر منتصراً أمر جوذراً أن يجلس معه إلى مائدته، فكانت تلك أول مرة حظي فيها بشرف الجلوس مع الإمام-الخليفة إلى طاولة واحدة.[٧]

وتعدى الدور الذي لعبه جوذر في الإدارة الفاطمية الجوانب الإدارية والمالية ليشمل النواحي الثقافية أيضاً. فكان المنصور قد اعتاد جمع أجود الكنوز وأفخرها من شتى الأنواع، وكان يعتبر كتب أسلافه أغلى وأغنى كنوزه. وفي أحد الأيام بعث بمجموعة من هذه الكتب إلى جوذر للاحتفاظ بها ونسخها، ومنها كتاب الإيضاح للقاضي النعمان والخطب التي ألقاها هو نفسه وتلك التي لسلفه، القائم. وفي مناسبة أخرى جرت في العام ٣٤١/٩٥٣، بعث الإمبراطور البيزنطي قسطنطين السابع بورفيروجينيتوس براهبٍ سفيراً له يحمل هدايا ثمينة إلى بلاط المنصور في المنصورية. وكان الهدف من هذه السفارة إقامة علاقات ودية وسلمية مع الملك الفاطمي عقب هدنة بين الطرفين توصلا إليها بعد تعرّض القوات البيزنطية لهزيمة مذلة في صقلية على أيدي الفاطميين. وقد أُعجب السفير بعظمة الملك الفاطمي والبهاء الذي يُحيط به، وهو ما لم يشاهد مثيلاً له في بلاده. وبالنتيجة، وردّاً على ذلك، أراد المنصور إرسال هدايا أكثر جمالاً وسخاءً من تلك

التي تلقاها. ولذلك كتب إلى جوذر يأمره أن يُحضر من مخازن كنوزه مواداً ثمينة وصفها له تليق بإرسالها إلى الملوك.(٨)

وقام المعز، بعد توليه للخلافة عقب وفاة المنصور سنة ٩٥٣/٣٤١، باستدعاء جوذر إلى المنصورية وأسكنه قربه في مجمع قصره. وأصبح جوذر مسؤولاً في المنصورية عن إبلاغ الخليفة المعز بأي رسائل أو التماسات موجهة إليه. وكان يتلقى من الخليفة ردوداً تتضمن القرارات الواجب تنفيذها، والنصائح الواجب إسداؤها إلى أصحاب الطلبات، والطريقة التي يكتب بها إليهم. وتكشف رسائل المعز وتوجيهاته إلى جوذر، المحفوظة في سيرة حياته، مدى اهتمام الحاكم الفاطمي وحرصه على معالجة كافة القضايا الموجهة إليه وكيف أن جوذراً كان مشتركاً عن قرب في التعامل مع المسائل كافة: تلك التي شملت قضايا الدفاع عن المملكة وصولاً إلى الإدارة المالية وشؤون صقلية (حيث كانت الأسرة الكلبية تحكم بصورة شبه مستقلة تحت السيادة الفاطمية)، وبناء الأسطول الفاطمي وتسليحه، والتحضيرات للمغادرة النهائية إلى مصر، وهي تحضيرات دامت من حوالي ٩٦٠/٣٤٩ وحتى فتح الفسطاط على يدي قائد الجيوش جوهر الصقلي سنة ٩٦٩/٣٥٨. وحرص جوذر على إبقاء المعز على معرفة بشؤون رعاياه والعاملين في مجال الإدارة الحكومية وفي تنظيم الدعوة. فقام على سبيل المثال بإطلاع الخليفة على الحالة المالية المريعة لأحد الدعاة البارزين، جعفر بن منصور اليمن، فسارع المعز إلى نجدة الداعي المذكور وأنقذه من مأزقه.(٩)

كانت لجوذر معرفة جيدة بالأسرة الكلبية من بني أبي الحسن الكلبي؛ فقد قدم هؤلاء خدمات عسكرية جليلة لأسيادهم الفاطميين وحكموا صقلية باسمهم. وكانت هذه الأسرة قد تبنّت القضية الفاطمية منذ وقت مبكر ونالت حظوة لدى هؤلاء من أيام عهد المهدي. وقد لعب أبو الغنائم الحسن بن علي دوراً قيادياً فيما بعد في الحملات العسكرية التي شنها كل من القائم والمنصور ضد الخارجي أبي يزيد. ثم أُرسل فيما بعد إلى صقلية أميراً عليها لاستعادة النظام وتثبيت السلطة الفاطمية في الجزيرة في أعقاب تمرد هناك، فأصبح الأول من بين سلسلة من الأمراء المتعاقبين على حكم الجزيرة من المتحدرين من الأسرة الكلبية. وتكشف وثيقة محفوظة في السيرة عن تفاصيل تتعلق بهذا التمرد الذي أخضعه الحسن بن علي تُعتبر مكملة لرواية ابن الأثير حول هذه الأحداث.(١٠)

لم تمنع الوظائف الإدارية والمناصب العامة التي شغلها جوذر ونشاطاته البارزة فيها من ممارسته لأنشطة اقتصادية شكلت الدخل الرئيسي الذي اعتمد عليه في حياته الخاصة. فقد كانت له بعض الملكيات العقارية، ومنها عقار وهبه إياه الخليفة المهدي في جزيرة شريك، وهي شبه جزيرة خصبة تقع إلى الشرق من تونس. كما كانت له استثمارات تجارية في جزيرة صقلية تمثلت بممارسته بصفة شخصية لتجارة الأخشاب مع الجزيرة وامتلاكه لسفن كانت تحمل له بضائعه المستوردة إلى شمال أفريقية. وقد لقي جوذر دعماً من الحاكم الفاطمي عندما كانت سفنه تتعرض لحوادث غرق أو فقدان، كما كان يتبرع أحياناً بحمولة سفينته من الأخشاب ويهبها للخليفة لاستخدامها في بناء السفن.(١١)

كانت الثقة التي أولاه إياها الحكام الفاطميون الأوائل وحرص جوذر الشديد كي يكون عند حسن ظن أسياده قد أتاحت له الفرصة كي يكون على علم تام بجميع المسائل في الأسرة الفاطمية. ومن ذلك، على سبيل المثال، بعض النزاعات التي بقيت المصادر التاريخية العامة صامتة حولها. ونعلم من سيرته أن أبناء المهدي والقائم، الذين أقاموا في المهدية في قصري المهدي والقائم على التوالي، رفضوا الإقرار بكفاءة المنصور وتميّزه وأنكروا حقه في الإمامة، إضافة إلى إطلاقهم لاتهامات كاذبة ضد جوذر لأن الأخير كان قد ضيّق عليهم ومنعهم من السير في الأسواق بحرية مع عامة الناس بسبب سلوكهم المشين.(١٢) وتذكر السيرة أن أصل جميع النزاعات في الأسرة الفاطمية يعود إلى قاسم، ابن القائم، الذي يلومه المنصور بشكل خاص لإثارته نزاعاً بين المهدي والقائم. غير أن السيرة لا تفصّل في ما فعله قاسم، لكن ابن عذاري يروي أنه بينما كان القائم يقود عمليات عسكرية ضد قبائل البربر المتمردة على الفاطميين في المغرب، بعث إليه ولده قاسم برسالة تقول أن ثمة شائعات تسري حول تسمية المهدي لولده أبي علي أحمد ولياً للعهد، وأن الأخير أمَّ الصلاة في عيدي الفطر والأضحى. فاضطرب القائم لهذه الأنباء وعاد إلى المهدية على الفور دون أن يشتبك مع العدو.(١٣) وقد واصل أبناء قاسم الذين سكنوا المهدية إظهار العداوة للمنصور والمعز حيث بلغ الخطر الذي شكلوه حداً دفع الخليفة المعز إلى تفويض جوذر بمراقبة المراسلات الصادرة عن سكان القصرين الواقعين في المهدية واعتراضها.

وكما كان القائم قد جعل جوذراً شاهداً على سرّ تسمية المنصور ولياً لعهده، كذلك

فعل المعز في وقت ما بعد فتح مصر، حيث أطلع جوذراً على سرّ تسمية ولده الثاني عبد الله ولياً لعهده في وقت كان من المتوقع فيه عموماً أن يحتل تميم، الابن الأكبر للمعز، هذه المكانة. وقد حافظ جوذر على هذا التعيين سراً لمدة سبعة أشهر. وكان عبد الله قد سُمّي ولياً للعهد، وليس تميماً، بسبب علاقات مشبوهة قامت بين الأخير وأبناء عمه، أبناء قاسم، الذين سبق لهم أن دبروا المكائد ضد الإمام.(١٤) وقد وطّد جوذر علاقته بولي العهد عبد الله وأظهر له كل مودة واحترام. وعندما قام ولي العهد بزيارة جوذر أثناء فترة مرضه، كتب جوذر إلى المعز معبّراً عن مقدار التشريف الذي ناله من زيارة ولي العهد له. وأتبع ذلك بإرسال سجادة ثمينة متوسلاً الإمام السماح لولي العهد بقبولها.

وبينما كانت الاستعدادات تجري لانتقال مقر الخلافة الفاطمية إلى مصر، سرت شائعات تقول إن جوذراً سيبقى في أفريقية حاكماً عليها باسم الفاطميين. وعندما سمع جوذر بذلك كتب إلى الخليفة المعز يسأله ألا يتركه وراءه، لأن سعادته تكمن في وجوده إلى جانب الإمام- الخليفة. وأجابه المعز طالباً إليه ألاّ يقلق من شائعات لا أساس لها، وأنه لم يفكر بإبقائه في أفريقية لأنه كان يخطط لتدبير آخر يضمن من خلاله ولاء حليفيه الطموحين في المغرب، يوسف بلقين بن زيري، زعيم بربر صنهاجة، ومنافسه المرّ جعفر بن علي بن حمدون، الذي وقف إلى جانب أعدائهم من بربر زناتة.(١٥) ثم وقع اختيار المعز على يوسف بن زيري ليكون حاكماً على أفريقية، الأمر الذي أدى إلى قيام منافس ابن زيري، جعفر بن علي، أمير منطقة مسيلة، بتحويل ولائه إلى أمويي الأندلس، أعداء الفاطميين. وكان جعفر وشقيقه يحيى قد ترعرعا في البلاط الفاطمي، وأن والدهما علي كان قد لعب دوراً هاماً في تأسيس مدينة المسيلة سنة ٣١٠/٩٢٧ عندما عهد إليه الخليفة القائم ببنائها.(١٦)

وشارك جوذر نفسه بفعالية في التحضيرات للانتقال من أفريقية إلى مصر. وجاء أفراد من الأسرة الكلبية الحاكمة في صقلية إلى أفريقية لمرافقة المعز وحاشيته في تلك الرحلة. وكانت الأنباء قد وصلت إلى جوذر حول نزاعات ظهرت بين بعض أفراد الأسرة الكلبية، لكنه امتنع عن الظهور بمظهر الداعم لطرف في النزاع ضد طرف آخر كي لايتعرض للملامة فيما بعد، وأحاط الخليفة المعز علماً بقراره هذا.(١٧) وكان المعز في تلك الآونة منشغلاً بإرسال القوات وتأمين

النفقات التي ترتّبت على هذه الإجراءات. غير أن جوذر كان قد تدبر الشأن المالي لذلك من خلال أموال جمعها من صفقات تجارية ناجحة باع خلالها بضائع من مستودعات الدولة ومن ضرائب غير مدفوعة أضاف إليها بعضاً من ثروته الخاصة قدّمه هبة منه للمعز.[١٨]

من جانب آخر، كان جوذر قد تعامل سابقاً مع القائد جوهر بخصوص حصة في أرضٍ كان جوهر قد طالب بمنحها له، وحصة في ملكية رغب في شرائها. وتبادل الاثنان المراسلات بعد نجاح جوهر في فتح مصر وإعتاق المعز له وحصوله على حريته. وعندما التمس جوذر رأي المعز بكيفية مخاطبة جوهر بعد عتقه أنشأ الإمام عهد أخوّة بين الرقيقين السابقين، مستذكراً عهد الأخوة الذي أنشأه النبي بين أصحابه عقب هجرته من مكة إلى المدينة، وأشار على جوذر بالبروتوكول الواجب اتباعه في مراسلاته مع جوهر كي يعكس روح عهد الأخوّة هذا.[١٩]

وعندما غادر المعز شمال أفريقية قاصداً مصر انطلق جوذر معه في الوقت نفسه وكان يعاني آنئذٍ من ضعف شديد. كان جوذر على علم بحالته الصحية، فكتب إلى الإمام- الخليفة يسأله بعض قطع من ثيابه يمكن أن تكون كفناً له ويتبرك بها عندما يموت. وجاء ردّ المعز بالدعاء له بحياة مديدة كي يشهد المزيد من الازدهار والرزق الوفير، وبعث إليه بقطع من ثيابه وثياب أجداده.[٢٠] وعندما وصل جوذر وفريقه إلى موقع أجدابية في برقة، رغب في رؤية المعز. وبما أنه كان ضعيفاً جداً فقد حُمِلَ إلى خيمة المعز على حمالة. وقد سلّم الإمام عليه وهو على الحمالة واحتضنه وطمأنه. وكان ذلك آخر لقاء لهما. واشتد المرض على جوذر وهو يقترب من برقة، وفي صباح اليوم التالي بدأت سكرات الموت وتوفي في وقت صلاة الظهر. وفي تلك الليلة، حُمل جثمانه من بلدة برقة إلى موقع مخيم المعز في مكان يدعى مياسر، وأمر الخليفة بغسل الجثمان، وقام بهذا الطقس كلٌّ من القاضي النعمان ومحمد بن عثمان ومنصور العزيزي الجوذري، كاتب السيرة. وفي اليوم التالي أمَّ الخليفة المعز صلاة الجنازة على جوذر الذي دُفِن بعد ذلك في مسجد محلي في برقة.[٢١]

ولا يزال اسم جوذر محفوظاً في أحد أحياء القاهرة المعروف بالجودرية (أي الجوذرية)، والذي أسسته مجموعة من الأفراد الذين حملوا النسبة، الجوذري، ومنهم مصنّف هذه السيرة.[٢٢]

الهوامش

١. انظـر دراسة حامد حاجي بعنوان «مملوك صقلبي بارز مـن الفترة الفاطمية الأولى: الأستاذ جوذر»، في كتـاب قلاع العقل، تحرير د. عمر علي-دو-أونثاغا (لندن، ٢٠١١)؛ الترجمة العربية سيف الدين القصير (بيروت، ٢٠١٤)، ص. ٢٧١- ٢٨٦.

٢. أبـو علي منصور العزيـزي الجوذري، سيرة الأستاذ جوذر، تح. محمد كامـل حسين ومحمد عبد الهادي شعيـرة (القاهرة، ١٩٥٤)؛ التـر. الفرنسية، ماريوس كَنـارد، Vie de l'Ustadh Jaudhar (الجزائر، ١٩٥٧)؛ والتر. الإنكليزية، حامد حاجي: Glimpses from Early Fatimid Archives: The Biography of Ustadh Jawdhar (لندن، قيد النشر).

٣. أول مرة يقود فيها القائم حملة إلى المغرب بعد تولي المهدي للسلطة في رقادة كانت عندما بعثه المهدي على رأس القوات لمحاربة الكتاميين الذين ثاروا عقب مقتل الداعي أبي عبد الله الشيعي سنة ٢٩٨/٩١١. انظـر القاضي أبو حنيفة النعمان بـن محمد، افتتاح الدعوة، تح. وداد القاضي (بيروت،١٩٧٠)، ص٢٧٣؛ والتر. الإنكليزية لحاميد حاجي (لندن،٢٠٠٦)، ص٢٢٧؛ تقي الدين المقريزي، كتاب المقفى الكبير، تح. محمد اليعلوي (بيروت،١٩٩١)، مج٤، ص٥٦١.

٤. الجوذري، السيرة، ص. ٤٠.

٥. المصدر السابق، ص٤١-٢. ولم يرد فيها أي ذكر لكتاب من تأليف جالينوس، غير أن الإشارة الواردة هنا هي إلى رسالة وردت في كتاب جالينوس المعروف بالعربية باسم في تعرف الإنسان عيوب نفسه. والنص اللاتيني للكتاب حققه ويلكو دو بوير، Corpus Medicorum Graecorum(ليبزيغ وبرلين،١٩٣٧)، مـج٥، ص١٣-٥؛ والتر. الإنكليزية لبول هاركينـز، On the Passions and Errors of the Soul (كولومبس، ١٩٦٣)، ص٣٩-٤١.

٦. المصدر السابق، ص. ٤١- ٤٢.

٧. الجوذري، سيرة، ص٥١-٢.

٨. المصدرالسابق، ص٦٠-١؛ ألكسندر فاسيلييـف، Byzance et les Arabes(بروكسل، ١٩٣٥-١٩٦٨)، مج٢، قسم١، ص٣٦٩-٧٠، وقسم٢، ص١٥٩-٦٠.

٩. المصدر السابق، ص١٢٦-٧.

١٠. المصدر السابق، ص١٣١.

١١. المصدر السابق، ص١٢١.

١٢. المصـدر السابق، صـ٦١-٤. والكتاب موضـوع التساؤل هو تثبيـت الإمامة كما يبـدو. انظر بوناوالا، Biobibliography of Isma'ili Literature(ماليبـو، ١٩٧٧)، صـ٤٤-٥. وتحتفـظ مكتبـة معهد الدراسـات الإسماعيلية في لندن بنسخة مخطوطة من الكتاب برقم ١١٢٠ (مجموعة زاهد علي). وحول هذه المجموعة انظر ديلا كورتيس

Arabic Isma'ili Manuscripts: The Zahid 'Ali Collection in the Library of the Institute of the Ismaili Studies. (لندن، ٢٠٠٣)، ص١٨٠. ولمزيد من التفاصيل انظر، مادلونغ، «رسالة في إمامة الخليفة الفاطمي المنصور بالله»، في كتاب روبنسون، مح.، Texts Documents and Artefacts: Islamic Studies... (ليدن، ٢٠٠٣)، ص٦٩-٧٧.

١٣. ابن عذاري، البيان، مج١، ص١٩٣. وإنه لأمر هام ملاحظة أن حفيد المعز الحاكم بأمر الله (ح. ٣٨٦-٤١١/٩٩٦-١٠٢١) كان قد سمّى حفيداً لأبي علي أحمد يدعى عبد الرحيم بن إلياس ولياً لعهده. المقريزي، اتعاظ، مج٢، ص١٠٠-١.

١٤. طبقاً للمقريزي (المقفّى، مج٢، ص٥٨٨) كان المعز أول ما سمّى تميماً ولياً لعهده. ثم، وبعد فتح جوهر لمصر، كتب المعز إلى جوذر يُسرُّ إليه قراره بنقض تسمية تميم لمصلحة عبد الله. والدافع لذلك هو عدم إنجاب تميم ذريةً له وسيرة حياته الماجنة. لكن عبد الله توفي في حياة والده في القاهرة، فعيّن المعز شقيقه الأصغر نزار في ولاية العهد. المقريزي، اتعاظ، مج١، ص٢١٧، ٢٣٥؛ ابن حمّاد، أخبار، ص٤٧ (الترـ. ص٧١)؛ ابن ميسر، أخبار مصر، تح. أيمن فؤاد سيد بعنوان المنتقى من أخبار مصر (القاهرة، ١٩٨١)، ص١٦٥-٦؛ ابن ظافر، أخبار الدول المنقطعة، تح. أندريه فيريه (القاهرة، ١٩٧٢)، ص٢٦، ٣١؛ إدريس عماد الدين، عيون الأخبار وفنون الآثار في فضائل الأئمة الأطهار، مج٥، تح. محمد يعلوي بعنوان تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب: القسم الخاص من كتاب عيون الأخبار (بيروت، ١٩٨٥)، ص٧٠٢.

١٥. الجوذري، السيرة، ص. ١٠٩.

١٦. المصدر السابق، ص١٢٩-٣١.

١٧. المصدر السابق، ص١١٤-٥.

١٨. المصدر السابق، ص٩٢-٣.

١٩. المصدر السابق، ص١٣٥.

٢٠. المصدر السابق، ص١٣٨-٩.

٢١. المصدر السابق، ص١٤٣-٦.

٢٢. ابن عبد الظاهر، الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة، تح. أيمن فؤاد سيد (القاهرة، ١٩٩٦)، ص٥٤.

القرن الصيني

❁
جوزيف ستيغليتز
●
ترجمة: وفيق شعبو



تمكنت الصين - بهدوء ودون ضجيج - من تجاوز الولايات المتحدة كأكبر اقتصاد في العالم. وهذا ينبغي أن يشكل صرخة تنبيه لم يعتد عليها الأميركيون. الرد الأمثل على ذلك هو استثمار القوة الناعمة لأميركا وإعادة ترتيب البيت الداخلي.

عندما يكتب تاريخ عام ٢٠١٤م سنرى بأن حقيقة كبيرة قد دونت ولم تحظ بالاهتمام الكافي وهي:

❁ جوزيف ستيغليتز: حائز على جائزة نوبل في الآداب ٢٠٠١م، وأستاذ في جامعة كولومبيا الأميركية. أحدث مؤلفاته كتاب بعنوان (ثمن اللامساواة). وهو عضو في مجلس القرن الواحد والعشرين في معهد بيرغرون.

● مترجم سوري.

إن العــام ٢٠١٤ كان آخــر عــام تستطيع فيه الولايات المتحــدة الادعاء بأنها القوة الاقتصاديــة الأكبــر في العالــم. وتدخل الصين عام ٢٠١٥م في المركز الأول، حيث ستبقى على الأرجح لفترة طويلة جداً، إن لم يكــن إلى الأبد. وهي بهذا تعود إلى الموقع الذي شغلته خلال معظم التاريخ البشري.

من الصعوبة بمكان مقارنة الناتج المحلي الإجمالي لأنظمــة اقتصادية مختلفة. لكن اللجان الفنية المختصة خلصت بتقديرات عن «تكافــؤ القوى الشرائيــة»، تمكنّنا من المقارنــة بين مستويــات الدخل في بلدان متعــددة. صحيح أن هــذه الأرقام لا يمكن الركــون إلى دقتها، لكنها توفر أساساً جيداً لتقييم الحجم النسبي لاقتصادات مختلفة. فــي أوائــل عــام ٢٠١٤م خــرج – برنامج التقييم العالمي التابع للبنك الدولي – وهو الهيئــة التي تجري هكــذا مقارنات دولية، بأرقام جديــدة. (الصعوبة تكمن في أنه لم يكن هناك ســوى ثلاثة تقارير عن فترة ٢٠ عاماً). كان التقييم الأخير، الذي صدر في الربيــع الماضي،أكثر خطورة وإثارة للجدل من تلك التي صدرت في السنوات السابقة. لقــد كان أكثر جدلاً لأنــه كان أكثر أهمية: حيث أظهرت الأرقــام الجديدة بأن الصين ستصبح أكبر اقتصــاد في العالم في وقت أسرع بكثير ممــا كان يتوقعه أي شخص – لقــد كانت علــى الطريق الصحيــح للقيام بذلك قبل نهاية عام ٢٠١٤م.

إن مصدر الاختــلاف سيفاجئ العديد مــن الأميركييــن، ويوضــح الكثيــر عــن الفروقات بين الصيــن والولايات المتحدة ومخاطــر إسقاط بعضــ مواقفنا الخاصة على الصينييــن. فالأميركيون يطلبون دوماً أن يكونــوا رقم -١- بينمــا الصينيون غير متلهفين لذلك. وفقاً لبعض التقارير، هدد المشاركون الصينيون بمقاطعة المناقشات التقنية، لسبب واحد هو أنَّهم غير متحمسين لاحتلال المركز الأوَّل كون ذلك يترتب عليه تكاليــف مادية. أي دفع المزيد من الأموال لدعم الهيئات الدولية مثل الأمم المتحدة. وقد يترتب عليهم مزيد من الضغوط للقيام بــدور القيادة المستنيرة بشــأن العديد من المواضيع مثل تغير المناخ. وهذا قد يحرض الصينييــن العاديين للتســاؤل حول كيفية صرف المزيد من ثروات البلاد. وكان هناك مصدر قلق آخر وهو: إن الصينيين يتفهمون جيداً انشغال أميركا النفسي وتعلقها بالرقم -١- ولهــذا فهم قلقــون للغايــة بشأن ما ستكــون عليه ردة فعلنــا عندما نخسر هذا الموقع.

تجــاوزت الصيــن الولايــات المتحدة منذ فتــرة طويلة في العديد من المجالات، على سبيــل المثال في مجالــي الصادرات والمدخــرات الشخصية.بالنسبــة للادخار والاستثمــار في الصين فقــد قاربا ٥٠ في المئة مــن الناتج المحلي الإجمالي، وينتاب الصينيين قلق من وجود مدخرات أكثر، بينما يقلق الأميركيون مــن انخفاض المدخرات لديهم. وفي مجــالات أخرى، مثل التصنيع تفوقت الصين على الولايات المتحدة فقط في غضون السنــوات القليلة الماضية، أمَّا فيما يتعلق بعدد براءات الاختراع الممنوحة فالصينيون يتخلفون عن الأميركيين حالياً، لكن الفجوة بيننا أخذت تضيق.

المجــالات التي لا تــزال فيها الولايات المتحــدة قادرة علــى المنافسة مع الصين ليست دائماً تلك التي نرغب بتسليط الضوء عليها.فكلا البلدين لديهما مستويات مماثلة من عدم المســاواة بيــن المواطنين، وهي لدينــا أعلى معدل بين دول العالم المتقدم. تتفوق الصين على أميركا في عدد الأشخاص الذيــن ينفذ بحقهم حكــم الإعدام كل عام ولكن الولايات المتحدة تسبقها بفارق كبير بنسبــة السجناء إلى عدد السكان (أكثر من ٧٠٠سجين لــكل ١٠٠،٠٠٠ نسمة). الصين تفوقــت على الولايــات المتحــدة في عام ٢٠٠٧م باعتبارهــا أكبر ملــوث للبيئة في العالم، من خلال الحجم الإجمالي للتلوث، ولكن إذا اعتمدنا حصــة الفرد من التلوث كأساس نبقى نحن فــي المقدمة. ولا تزال الولايات المتحدة أكبر قوة عسكرية، وننفق على قواتنا المسلحة أكثر مما تنفقه الدول العشــر الكبرى مجتمعة (هــذا لا يعني أننا دائمــا نستخدم قوتنــا العسكرية بحكمة). ولكن أساس قــوة الولايات المتحدة يرتكز غالباً على القــوة الناعمة من خلال التأثير الاقتصادي أكثر منــه على القوة العسكرية الصارمــة، وهذه نقطة جوهريــة يجب أن نضعها بالحسبان.

مــن الواضــح أن التحــولات العميقــة(Tectonic shifts) فــي القوة الاقتصاديــة العالمية قــد حدثت من قبل، ونحــن نعرف بعضــ الأحــداث المرافقة لذلك. فقبل مئتي سنة، في أعقاب الحروب النابليونيــة، بــرزت بريطانيــا العظمــى باعتبارها القوة المهيمنة في العالم، وامتدت إمبراطوريتهــا علــى ربع مساحــة العالم. وأصبحت عملتها- الجنيه الإسترليني -تمثل احتياطــي العملات العالميــة مثل الذهب تماما. كانت بريطانيا أحياناً تعمل بالتنسيق مع حلفائها، وأحيانــاً تفرض عليهم قواعد التجارة الخاصة بها. فمثلاً فرضت التمييز

ضد استيراد المنسوجات الهندية وأجبرت الهند على شراء القماش البريطاني. كما فرضت هي وحلفاؤها على الصين أن تبقي أسواقها مفتوحة للأفيون، وعندما أدركت الصين التأثير المدمر للمخدرات وحاولت إغلاق حدودها بوجهها، شن الحلفاء الحرب عليها مرتين للحفاظ على التدفق الحر لهذا المنتج.

وقد استمرت الهيمنة البريطانية مئة عام وأكثر حتى بعد تفوق الولايات المتحدة على بريطانيا اقتصادياً، في سبعينيات القرن التاسع عشر. هناك دائماً تثاقل بالانتقال (كما سيكون الأمر مع الولايات المتحدة والصين). وكان الحدث الانتقالي الحرب العالمية الأولى، عندما حققت بريطانيا الانتصار على ألمانيا بالاعتماد على مساعدة الولايات المتحدة. بعد الحرب، كانت أميركا مترددة في قبول مسؤولياتها الجديدة المحتملة كما كانت بريطانيا مضطرة للتخلي طوعاً عن دورها. وقد فعل وودرو ويلسونWoodrow Wilson ما في وسعه لبناء عالم ما بعد الحرب مما كان من شأنه أن يقلل من فرص نشوب صراع عالمي آخر، ولكن الانعزالية والانغلاق منعا الولايات المتحدة من الانضمام إلى عصبة الأمم. وفي المجال الاقتصادي، أصرت أميركا على الاستمرار بتطبيق قانون التعريفات Smoot-Hawley الخاصة بها ووضع حد للحقبة التي شهدت طفرة في التجارة العالمية.

صحيح أن بريطانيا قد حافظت وقتها على إمبراطوريتها، ولكن الجنيه الإسترليني أخلى الطريق تدريجيا للدولار: في النهاية ، تهيمن الواقعية الاقتصادية. العديد من الشركات الأميركية أصبحت شركات عالمية، وباتت الثقافة الأميركية هي الثقافة الصاعدة.

كانت الحرب العالمية الثانية الحدث المميز التالي.فبريطانيا التي دمرها الصراع، ستفقد فعلياً جميع مستعمراتها. هذه المرة تولت الولايات المتحدة زمام القيادة. كان دورها محورياً في إنشاء الأمم المتحدة وفي تشكيل وصياغة اتفاقات بريتون وودزBretton Woods، التي سيقوم عليها النظام السياسي والاقتصادي الجديد. ومع ذلك، لم تكن الأمور منتظمة، وبدلاً من خلق عملة احتياطية عالمية، الأمر الذي كان سيسهم كثيراً في الاستقرار الاقتصادي العالمي - كما ذكر بحق جون ماينارد كينز - فإن الولايات المتحدة وضعت مصلحتها الخاصة الآنية في المرتبة الأولى معتقدة بحماقة أنها ستكسب من خلال

جعل الدولار عملة الاحتياط العالمي. أصبح وضع الدولار نعمة ونقمة في الوقت نفسه: من ناحية يمكّن الولايات المتحدة من الاقتراض بأسعار فائدة منخفضة كون الآخرين يطلبون الدولار لوضعه في احتياطاتهم، ولكن من ناحية أخرى ارتفعت قيمة الدولار جراء ذلك، ما أدى إلى تفاقم العجز التجاري وإضعاف الاقتصاد.

سيطر على السياسة الدولية لمدة ٤٥ عاماً بعد الحرب العالمية الثانية قوتان عظيمتان هما الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي، وهاتان القوتان تمثلان رؤيتين مختلفتين جداً سواء في كيفية تنظيم وإدارة الاقتصاد والمجتمع، أو مدى ضمان حقوق الإنسان السياسية والاقتصادية. في نهاية المطاف،كان الفشل مصير النظام السوفييتي، وذلك بالدرجة الأولى بسبب الفساد الداخلي،وعدم وجود رادع من خلال الآلية الديمقراطية. صحيح أن القوة العسكرية السوفييتية كانت هائلة، لكن قوتهم الناعمة كانت تثير السخرية. بعدها سيطرت على العالم قوة عظمى واحدة، وقد استمرت في الاستثمار بكثافة في قوتها العسكرية. كانت الولايات المتحدة دولة عظمى ليس فقط عسكرياً بل اقتصادياً أيضاً، ثم ارتكبت خطأين فادحين:

الأول: الاستنتاج بأن انتصارها يعني انتصاراً لكل القيم التي تمثلها. ولكن في كثير من دول العالم الثالث، ظلت المخاوف التي طالما نادى بها اليسار حول الفقر والحقوق الاقتصادية بحدودها القصوى.

الثاني: استخدام هذه الفترة القصيرة من هيمنتها الأحادية، بين سقوط جدار برلين وسقوط مصرف ليمان براذرز Lehman Brothers، لتحقيق مصالحها الاقتصادية الضيقة، بشكل أكثر دقة المصالح الاقتصادية متعددة الجنسيات بما في ذلك مصارفها الكبرى، بدلاً من إنشاء نظام عالمي جديد ومستقر.فنظام التجارة الذي دفعت به الولايات المتحدة عام ١٩٩٤م من خلال إنشاء منظمة التجارة العالمية (WTO)، لم يكن متوازناً بحيث أنه بعد خمس سنوات، اندلعت أعمال شغب في سياتل عندما كان اتفاق آخر للتجارة قيد التوقيع. إن حديثها عن التجارة الحرة والعادلة، وإصرارها في الوقت نفسه على تقديم الإعانات لمزارعيها الأغنياء، قد أظهرا الولايات المتحدة بأنها منافقة وتسعى لخدمة مصالحها الذاتية فحسب.

لم تدرك واشنطن تماما عواقب الكثير من أفعالها قصيرة النظر - أرادت توسيع وتعزيز هيمنتها ولكن في الواقع قلصت

وحجمت موقعها على المدى البعيد. خلال الأزمـة الاقتصادية في دول شرق آسيا، في تسعينيات القـرن الماضي، عملت وزارة الخزانة الأميركية بجدية وحزم لتقويض ماسُمي مبادرة ميازاوا (Miyazawa Initiative)- حيث عرض اليابان بسخاء تقديم ١٠٠ مليار دولار لمساعدة الاقتصادات التي كانت تغرق في الركود. دفعت الولايات المتحدة هذه البلدان إلى اعتماد سياسة التقشف والفائدة المرتفعة، من دون تقديم دعم لإنقاذ البنوك المتعثرة - على عكس ما دعا إليه هؤلاء المسؤولون في الخزانة نفسهم لتطبيقه في الولايات المتحدة بعد انهيار عام ٢٠٠٨م. الآن، وبعد مضي عقد ونصف العقد على أزمة بلدان شرق آسيا، فإن مجرد ذكر دور الولايات المتحدة في العواصم الآسيوية هذه يثير موجة من الغضب، وتوجه إليها الاتهامات بالنفاق.

الآن الصين هي القوة الاقتصادية رقم -١- في العالم. لماذا ينبغي علينا أن نقلق؟ في الواقع ينبغي ألا نقلق. الاقتصاد العالمي ليس لعبة محصلتها صفر(zero-sum game)، حيث يكون نمو الصين بالضرورة على حساب مصالحنا. عملياً، نموها سيكون متمماً لنمونا. فإذا كانت تنمو بشكل أسرع، ستشتري المزيد من بضائعنا، وهكذا سوف يزدهر اقتصادنا طرداً. هناك دائماً بالتأكيد، بعض المبالغة في هذه الادعاءات. لكن هذا الواقع يفرض علينا الكثير لنفعله في سياستنا الاقتصادية الداخلية كما هو الحال مع صعود أية بلدان أخرى.

ومن ناحية أخرى، فإن بزوغ الصين إلى القمة ليس بالأمر البسيط، ونحن بحاجة إلى أن نكون على بينة من الآثار المترتبة عليه:

أولاً، كما لاحظنا، أن القوة الحقيقية لأميركا تكمن في القوة الناعمة - النموذج الذي تقدمه للآخرين وتأثير أفكارها، بما في ذلك الأفكار حول نمط الحياة الاقتصادية والسياسية. بينما صعود الصين إلى المركز رقم -١-سيعطي أهمية جديدة للنموذج أو النمط السياسي والاقتصادي لهذا البلد وإلى الصيغ الخاصة من القوة الناعمة التي يمتلكها مقارنة مع النموذج الأمريكي- الذي لم يتعرف عليه قسم كبير من الصينيين. ومن ناحية أخرى فإن الأسرة الأميركية النموذجية أصبحت أسوأ حالا مما كانت عليه قبل ربع قرن، وبعد ارتفاع معدل التضخم ازدادت نسبة الأميركيين تحت خط الفقر بينما في الصين وعلى الرغم من تميزها بمستويات عالية من عدم

المساواة، إلا أن اقتصادها يحفظ مصالح معظم مواطنيها، وقد نقلت نحو ٥٠٠ مليون صيني من تحت خط الفقر خلال الفترة نفسها التي دخلت فيها الطبقة الوسطى في أميركا مرحلة من الركود. فالنموذج الاقتصادي الذي لا يراعي مصالح أغلبية المواطنين لا يمكن تقديمه كنموذج يحتذي به الآخرون. أي إن على أميركا أن تنظر لصعود الصين بمثابة دعوة للاستيقاظ وإعادة ترتيب بيتنا الداخلي.

ثانياً، إذا كان لنا أن نتأمل صعود الصين ومن ثم اتخاذ الإجراءات القائمة على أساس أن الاقتصاد العالمي هو لعبة محصلتها صفر، أي إننا بحاجة إلى تعزيز حصتنا وإنقاص حصة الصين - فإننا بهذا نعرض قوتنا الناعمة للتآكل أكثر فأكثر، وهكذا تكون بالضبط دعوة الاستيقاظ الخطأ.

إذا كنا نرى أن مكاسب الصين تأتي على حسابنا، فإننا سوف نسعى جاهدين لـ«الاحتواء» واتخاذ خطوات تهدف إلى الحد من نفوذ الصين. وهذه الإجراءات ستثبت في نهاية المطاف أنها غير مجدية، بل وستقوض الثقة في الولايات المتحدة وموقعها القيادي، وقد وقعت السياسة الخارجية الأميركية مراراً وتكراراً في هذا الفخ.

لنمعن النظر في ما يسمى الشراكة عبر المحيط الهادئ، اتفاق التجارة الحرة المقترحة بين الولايات المتحدة واليابان، والعديد من البلدان الآسيوية الأخرى التي تستبعد الصين كلياً. ينظر الكثيرون لهذه الاتفاقية على أنها وسيلة لإحكام الروابط بين الولايات المتحدة وبعض البلدان الآسيوية، على حساب الصين. فهناك سلسلة واسعة وديناميكية لحركة المواد الأولية والسلع في آسيا، فالبضائع تتحرك في جميع أنحاء المنطقة خلال مراحل مختلفة من الإنتاج لكن اتفاقية الشراكة عبر المحيط الهادئ تبدو وكأنها محاولة مكشوفة لإخراج الصين من سلسلة التوريدات هذه.

مثال آخر: الولايات المتحدة تنظر بارتياب إلى جهود الصين الأولية لتحمل المسؤولية العالمية في بعض المجالات. تريد الصين مثلاً أن تأخذ دور أكبر في المؤسسات الدولية القائمة، ولكن الكونغرس يقول، إن النادي القديم لا يحبذ أعضاء نشيطين جدد، وعليهم البقاء في المقعد الخلفي، دون أن يكون لهم حق التصويت بما يتناسب مع دورهم في الاقتصاد العالمي. وعندما تتفق مجموعة الدول الكبرى العشرونG-٢٠ على أنه قد حان الوقت لتسمية قيادة المنظمات الاقتصادية الدولية

على أساس الكفاءة وليس الجنسية، تصر الولايات المتحدة على أن النظام القديم جيد بما فيه الكفاية وأن البنك الدولي- على سبيل المثال- ينبغي أن يستمر برئاسة شخص أمريكي.

مثال آخر أيضاً: عندما اقترحت الصين، مع فرنسا وغيرها من البلدان - مدعومة من قبل لجنة خبراء دولية (كنت أرأسها) معينة من قبل الأمين العام للأمم المتحدة - أن ننهي العمل الذي بدأه كينزKeynes في بريتون وودز، من خلال إنشاء عملة احتياط دولية،أعاقت الولايات المتحدة هذا الجهد.

والمثال الأخير: سعي الولايات المتحدة لإعاقة جهود الصين لتوجيه المزيد من المساعدات للبلدان النامية من خلال المؤسسات متعددة الأطراف التي أنشئت حديثاً والتي سيكون للصين الدور الكبير، وربما المهيمن فيها. هناك حاجة ماسة إلى تريليونات الدولارات من الاستثمارات في مجال البنية التحتية - وتأمين هذه المبالغ للاستثمار هو أبعد من قدرة البنك الدولي والمؤسسات متعددة الأطراف القائمة. ما هو مطلوب ليس فقط نظام حكم أكثر شمولا في البنك الدولي ولكن أيضا المزيد من رأس المال. وقد اعترض الكونغرس الأميركي على كلا المطلبين. في الوقت نفسه، تحاول الصين إنشاء صندوق البنية التحتية الآسيوية، والعمل مع عدد كبير من البلدان الأخرى في المنطقة، لكن الولايات المتحدة لا تريد لتلك البلدان أن تنضم إلى هذا المشروع.

تواجه الولايات المتحدة العديد من التحديات الحقيقية في مجال السياسة الخارجية التي تستدعي العمل الجاد لحلها: الإسلام المتشدد، الصراع في فلسطين الذي أصبح الآن في العقد السابع، روسيا التي تصر على تأكيد قوتها على الأقل على جوارها،والتهديدات المستمرة الناشئة عن الانتشار النووي. وسوف نحتاج إلى تعاون الصين لمعالجة الكثير من هذه المشاكل، إن لم يكن كلها.

علينا استغلال هذه اللحظة، عندما تصبح الصين أكبر اقتصاد في العالم، لحرف سياستنا الخارجية بعيداً عن الاحتواء. إن المصالح الاقتصادية للصين والولايات المتحدة متشابكة بشكل معقد. وكلانا على حد سواء لديه مصلحة في

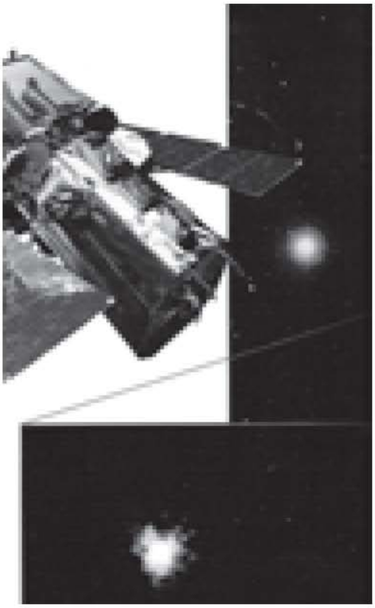
رؤية النظام السياسي والاقتصادي العالمي مستقراً ويعمل بصورة جيدة. ولكن الصين بالاستناد لذاكرتها التاريخية ومفهومها الخاص للكرامة الوطنية،لن تكون قادرة على قبول النظام العالمي القائم ببساطة كما هو، وفق القواعد التي وضعها الغرب لضمان مصالحه المشتركة، والتي تعكس وجهات النظر الغربية فحسب. سيكون علينا التعاون شئنا أم أبينا، وعلينا أن نريد. في غضون ذلك،الشيء الأهم الذي يمكن لأميركا أن تفعله للحفاظ على مستوى قوتها الناعمة هو التصدي لأوجه القصور الاقتصادية والسياسية والممارسات الفاسدة وعرض الأمور بشفافية، والتوجه نحو الأغنياء والأقوياء.

هناك نظام سياسي واقتصادي عالمي جديد آخذ في الظهور، نتيجة للحقائق الاقتصادية الجديدة.لا يمكننا تغيير هذه الحقائق الاقتصادية. ولكن إذا كان ردّنا عليها بطريقة خاطئة، فإننا نخاطر بردّ فعل عنيف من شأنه أن يؤدّي إما إلى اختلال في النظام العالمي القائم، أو إلى نظام عالمي جديد لن يكون بلا شك النظام الذي كنا نريد.

العملاق الأزرق الفائق
النجم الذي وجب أن لا يكون

❁

ترجمة: محمد الدنيا



لغز في الفضاء: نجوم تنفجر مطلقةً هبّات مذهلة من الفوتونات لم تكتشف من قبل قط، وتتحدى السيناريوهات كلها. واليوم، يقوم علماء الفيزياء الفلكية، ليس من دون استغراب، برسم صورة جديدة لنمط نجوم يفترض أنها كانت قد انطفأت... منذ الانفجار الأعظم.

بدأ تاريخ الحدث في عيد الميلاد ٢٠١٠م . نزلت رسالة من السماء مصدرها القمر الصناعي Swift الذي يتفحص القبة السماوية منذ ست سنوات

❁ كاتب ومترجم.

بحثاً عن أقــوى أشعة تصدر عــن أشياء الفضــاء الكوني: ارتجافــات sursauts أشعــة غامــا. وكان Swift قــد كشــف منذ وقــت قصير عن واحــدة من هبات الفوتونات هــذه (جسيمات ضوء)، خارقة الطاقة فــي كوكبة «أندروميــدا» وأعطى إحداثياته للمقاريب على الأرض كي تسدد مراياها صوب الهدف وتتحراه بالتفصيل. لا وجود لوقــت يضيع. توصف ارتجافات غامــا بأنَّها «قصيرة» عندمــا تستمر أقل من ثانية: ناجمــة عن تصادم بين نجمين نيوترونيين. ويقال عن أخرى إنَّها «طويلة» عندما تستمر عــدة عشرات من الثواني: تنطــوي على مؤشــر حول انفجــار نجم عملاق يقــذف عندئذ مادتــه على شكل فوّارتي ماء ساخن متقابلين.

كشف Swift فــي ذلك اليوم ارتجافاً طويلاً، بــل طويلاً جدّاً. مرت الثواني، ثم الدقائــق، ولم تضعف الإشــارة. واضطر القمــر الصناعي، الذي يدور حول كوكبنا فــي تسعين دقيقة، لتوقــف مفاجئ عند مــروره في الجانــب الآخر مــن الأرض. في نهايــة الأمر، استمــرت الإشارة أكثر من ساعتيــن. وأعطى علماء الفلك الاسم الرمــزي ١٠١٢٢٥A لارتجاف غاما هذا، الــذي لم يسجل مثــل طوله من قبل قط. وظهــرت فئة جديــدة: ارتجافــات غاما «فائقة الطــول»، التي لا يمكــن تعريفها عندئــذ، وفقاً لرأي الباحثيــن، على أنها مجرد ارتجافات طويلة وخاصة قليلاً.

يحدث ارتجاف غامــا الطويل عندما يصل نجم عملاق إلى نهاية حياته. لا تعود التفاعلات النووية التــي تحدث في قلبه كافية القوة ليكون النجم قادراً على تحمل ثقل طبقاته الخارجيــة. ينهار على نفسه عندئذ على شكل ثقب أسود، حبة صغيرة كثيفة للغايــة. ولا يعود هناك أرض تحت الطبقــات الخارجية فتسقط هي الأخرى في الثقب الأسود الوليد، الذي يبتلع قسماً منها ويقذف الآخر في الفضاء على شكل نافورتيــن قويتين متقابلتيــن، إبرتين من المــادة الحارقة تنطلقان في فضاء الكون بسرعة تقــارب سرعة الضــوء. وأحياناً، تجعــل المصادفة هــذه النافــورة تتجه مباشــرة صــوب الأرض: نلاحــظ حينها واحداً من أكثر انفجارات الكون هولاً.

جسم سماوي مخيف؟

هـذا إلا إذا كان الزمن الذي يستغرقه ارتجـافُ غامـا الطويل متوافقـاً تقريباً والزمن الـلازم للطبقـات الخارجية كي تنهار علـى القلب: بضع دقائـق بالنسبة لنجم عملاق. في هـذه الحال، قد يكون النجـم الـذي نتج عنـه ارتجـاف غاما A١٠١٢٢٥ ذا حجـم خيالـي! وهـذا مستحيل حسب رأي الباحثين، لأن أضخم النجوم المعروفة، العملاقة الفائقة، تفقد غلافها سريعاً جـدّاً فلا يعود جاهزاً كي يطور ارتجاف غامـا. إذن، مع أي ظاهرة فيزيائية تتوافق الارتجافات فائقة الطول؟ ما الذي حدث بالفعل ذاك اليوم في كوكبة «أندروميدا»؟.

غاص علمـاء الفلك فـي الحسابات، وقـدم فريقـان مـن العلمـاء نموذجين مختلفيـن: إما أن جسماً صغيـراً، مذنباً أو كويكبـاً سيـاراً قد يكـون تحطم على نجـم نيوترونـي في مكان مـا من مجرة «الدرب اللبنيـة»، فتشظى وتناثرت مادته حول النجـم، الذي قذفه فـي نافورتين، على غـرار ارتجاف غاما، ولكن أدنى قوة بكثير وأقصر إلى حـد كبير؛ أو أن نجماً نيوترونيـاً انصهر في نجـم عملاق لفظ مادته بعد ذلك وفقـاً للميكانيكية نفسها ولكن مـا بعد «الدرب اللبنية» هذه المرة، علـى مسافة ٣،٥ مليار سنة ضوئية... أي ربـع الكـون القابل للرصـد! كان الحسم مستحيلاً بين هذيـن السيناريوهين لعدم معرفـة مسافـة الارتجـاف A١٠١٢٢٥ بشكل دقيق»، يوضح عالم الفلك «أندريو لوفـان» Andrew Levant من جامعة Warwick البريطانية.

إهمال فرضيات

وضع عالم الفلك نصب عينيه استجلاء الأمـر، فصـوّب مقـراب Gemini في «هاواي» نحو المشهـد المأساوي ولحظ وجود مجرة صغيرة زرقاء شاحبة. بالنسبة له، لم يعد يوجد أي شك: الإشارة آتية من هذه المجرة. ومن طيفها الضوئي استنتج مسافتها: ٧ مليارات سنة ضوئية، أكثر من نصـف حجم الكون المرئـي. «الارتجاف أبعد مما كنا نعتقد، وكي يرى بهذا الوضوح من الأرض كان يجب أن يثيـره شيء ما عملاق فعلاً»، يستخلص العالم. وانهارت

الفرضيتان. لا علاقة للنجوم النيوترونية الصغيرة والمذنبات والكويكبات السيارة بمثل هذه القصة، القصة التي سيفتح فصلها الثاني بعد سنة لاحقة.

في ٩ كانون الأول ٢٠١١م، تمَّ الكشف عن ارتجاف آخر فائق الطول، 111209A الذي حطم الأرقام القياسية كلها: استمر سبع ساعات! وعاد الفريق الدولي برئاسة «بروس جندر» Bruce Gendre، من المركز الوطني للأبحاث العلمية في باريس، إلى المرجعيات الأساسية، فحسب رأي باحثي الفريق: «لا حاجة للتذرع بظاهرة أخرى، فالارتجافات فائقة الطول هي انفجارات نجوم ضخمة الكتلة. وببساطة، يكفي أن تكون كافية المادة حتى تُبقي على نوافيرها طوال ساعات عدة».

نجم كافي المادة؟ هذا أقل ما يمكن قوله. في هذه الحال يجب أن نتخيله وحشاً نجمياً ربما أكبر حجماً من الشمس بمئات ملايين، إلا أن مثل هذه الأجسام الهائلة، المتضخمة إلى هذا الحد في نهاية حياتها مستبعدةُ الوجود إلى حد كبير في الواقع. إنها حارقة إلى درجة أن «رياحها الشمسية» القوية، الأشعة الشديدة المنبعثة من تفاعلات القلب النووية، تنفخ غلافَها بعيداً في الفضاء. «يفقد بعضها حتى ٧٥٪ من كتلته خلال حياتها.

إذن، حين انفجارها، لا تعود هذه المادة كلها متاحة لتغذية ارتجاف غاما»، يقول «ميشيل بوير» Michel Boer، أحد أعضاء الفريق.

إلا إذا... إلا إذا كان التركيب الكيميائي لطبقات النجم الخارجية يجعلها نفوذة للغاية للتشعيعات. بذلك، ستبقى ملازمة للنجم حتى التفكك النهائي المحتوم وسقوطها في الثقب الأسود حين الارتجاف. وشيئاً فشيئاً، رسم الباحثون الصورة الروبوتية للنجم المسؤول عن هذه الكارثة الكونية الطبيعية: إنه النجم العملاق الأزرق الفائق، الذي لو تواجد في مركز مجموعتنا الشمسية لابتلع الكواكب التلورية الأربعة (عطارد والزهرة والأرض والمريخ) ولباشر بالتهام المشتري. يتسخن بحرارة تبلغ ٥٠٠٠٠ درجة، ومحتواه من الهيدروجين والهليوم أكبر بكثير مما لدى الشمس، لكن محتواه من الأوكسجين أقل بثلاث مرات. إنَّ تركيبه الكيميائي هو ما

يفسر احتفاظه بطبقاته الخارجية. «يمتص الهيدروجين فوتونات أقل بكثير مما يمتص من العناصر الأثقل كالأكسجين.

إذن فهو أقل تأثراً بكثير بضغط التشعيعات، مثلما تقتلع العاصفة الشبك بسهولة أقل من اقتلاع الصفيحة»، يشرح «ميشيل بوير».

حسناً جدّاً... سوى أن مثل هذه النجوم لم يعد من المفترض أنها موجودة منذ زمن بعيد! كانت قد اختفت منذ بداية الكون، منذ ١٣ مليار سنة. كانت أولاها، تلك التي اشتعلت في الظلمة البدئية، تحوي فقط الهيدروجين والهليوم وبعض آثار الليثيوم، ذلك لسبب وجيه هو أن هذه كانت العناصر الوحيدة المتاحة. لم تكن العناصر الأخرى موجودة بعد. تخلَّق الكربون، والأوكسجين، والسيليسيوم، والحديد فيما بعد، في تلك المراجل، أي في قلوب النجوم العملاقة. وهكذا، من جيل إلى جيل، ومن انصهار مجري إلى آخر، ازداد الكون غنى بعناصر جديدة.

ذلك مع بعض الاستثناءات تقريباً: بقي بعض المجرات، وبشكل عجيب، كالمجرة Zwicky ١٨، في كوكبة «الدب الأكبر»، في منأى عن هذا الهيجان كله، واحتفظت بعناصر أثقل من الهيدروجين والهليوم. ومن هذا النمط من المجرات ربما كانت تأتي الارتجافات فائقة الطول. وهنا ربما كانت تنطفئ أضخم النجوم التي أوجدها الكون في حشرجات احتضار هائلة يمكن إدراكها على بعد مليارات السنوات الضوئية.

مشهد نادر

هل يمكن أن نسمع ذلك من نجوم أخرى؟ احتمال ضعيف. «ذلك أنه لم يحقق أي نموذج لانهيار نجوم من الجيل الأوَّل إجماعاً بين الباحثين. لا أحد يعرف إن كانت كلها تنفجر في ارتجاف غاما»، يقول «ميشيل بوير». وباستثناء الجسامة الهائلة الواقعة استثناءً على بعد ٧ مليارات سنة ضوئية «فقط»، فإنها موجودة في غالبيتها على نحو أبعد بكثير من إمكان كشفها بالوسائل الراهنة. غالباً ما تنطفئ المخلوقات النجمية هائلة الضخامة بصمت.

إشارتان لكارثة طبيعية غير متوقعة

في العام ٢٠١٠م، ثم ٢٠١١م، التقطت الأقمار الصناعية هبّتي غاما فائقتي الطول وهبّات فوتونات ذات طاقة كبيرة جداً استمرت ساعات عدة. وحتى الآن، كان ينظر إلى ارتجافات غاما التي تدوم أكثر من ثوان عدة (توصف بأنّها «طويلة») على أنها تشير إما إلى أحداث كونية «عادية» (انفجار نجم عملاق) وإما إلى أحداث أكثر غرابة (اصطدام كويكب سيار أو مذنب بنجم نيوتروني أو موجة صدمية لمستعر فائق عملاق في مجرة أخرى..)، لكن لها تفسير وفق سيناريو معين. وتشير الارتجافات الأكثر طولاً أيضاً والأقوى طاقة، هي كذلك، إلى أحداث بالغة الشدة، كدمار نجم بفعل ثقب أسود فائق الكتلة في مجرة أخرى. لقد أفضى ارتجافا غاما فائقا الطول، اللذان اكتشفا منذ عام ٢٠١٠م، إلى إحداث بصمة جديدة: بصمة انهيار نجوم فائقة العملقة لم تكن متصورة من قبل أبداً.

❁ ❁ ❁

عن:

Science & Vie، septembre 2013

مع:
الأديب محمود علي السعيد

إعداد: محمد خالد الخضر ❀



الأديب محمود علي سعيد شاعر وقاص وناقد كتب الشعر والقصة القصيرة جداً والنقد التشكيلي فتجلت النزعة الوطنية والإنسانية في مجمل كتاباته وتميزت بالوعي والنزوع إلى السمو الإنساني كما ظلت كتاباته على الرغم من تعدد أجناسها الأدبية في مستواها الفني الرفيع وحول رؤيته في الكتابة كان الحوار التالي:

أنت تكتب الشعر بأنواعه، بالشطرين والتفعيلة والنثر، ما هو تعريف الشعر برأيك؟

❀ أديب وصحفي سوري.

العمل الفني: الفنان تمي الصالح .

• الشعر بداية، هو موقف ويجب أن يكون هذا الموقف إيجابياً فلا يجوز للشعر أن يجد السلبيات لأنه يعبر عن شعور وإحساس ساميين، فالشعر الحقيقي هو الذي يبحث في الحياة ليصحح مسارات الإنسان ويزرع أمامه التفاؤل على الرغم من المصاعب والمتاهات حتى يصبح الشعر نبض الحياة الحقيقي وجوهر الصيرورة بشقيها المجازي المعنوي والمادي الحياتي الملموس بالحياة.

- ما هي أهم المواضيع التي طرحها شعرك؟

• إنَّ فلسطين هي جوهر القضايا العربية المصيرية، وهي قلب كنعان ومحط أنظار الديانات السماوية، وهذا المصطلح الكنعاني هو الذي يجسد هويتنا وشخصيتنا العربية الفلسطينية وخاصة بوجود القدس أولى القبلتين وثالث الحرمين لذلك من الضروري أن يكون موقفي كفلسطيني في هذا العصر الآبق موقفاً شجاعاً، فإما أن أموت شهيداً أو أحيا شهيداً ولهذه المعاني كانت أكثر المواضيع التي تمحور عليها شعري وأدبي.

كما أتابع قضية العدالة والشعوب فأنا ضد كل معطيات الإرهاب وأشكاله وأنواعه ضمن أي ظرف كان. كما أنني منحاز بكل قواي العقلية والثقافية والجسدية إلى لقمة طفل جائع، وإلى نبض أب يتأوه، وإلى صرخة أم ثكلى، فأنا أميل بكل ما أملك إلى الحق والعدالة والأخلاق والمواقف النبيلة، ومن هذه الأشياء تكتمل منظوماتي الأدبية والثقافية فعلى أي شاعر وأديب وكاتب أن يكون مع الحق أينما وجد وفي أي ركن تجلى.

- بعد أن كتبت الأنواع الشعرية الثلاثة أين تجد نفسك؟

• إنَّ قصيدة النثر والتفعيلة والشطرين أضلاع لمثلث واحد فالشاعر يكتب بالجنس الذي يتكيف معه وكثيراً ما تتجسد التجربة الشعورية، وتتجلى في قصيدة نثر وأحياناً في قصيدة تفعيلة..

وفي هذه المرحلة بالذات وبعد وصول الشعر إلى ما وصل إليه في تداعيات الحياة أرى أن الشعر يتجسد في قصيدة الشطرين أكثر، لأن قصيدة البحر وموسيقاها العربية بكل تشعباتها أو التصويت الحروفي للغة العربية يعطي عشرات النغمات فبمقدور الشاعر أن يخلق من نبض الصوت الحرفي العربي أجمل سيمفونية إذا توافرت لديه قدرة وطاقة الكاتب المبدع، وأصابع الفنان

المرهف.

وإذا أردنـا أن نبحـث عن التقصير والعطل فهمـا ليسا في إيقاع القصيدة العمودية التي كتبها كثيرون من الشعراء فكانـت نظامـاً شعرياً أكثـر منه خلقاً وإبداعاً، فالعطل في المرسل وليس في الرسالـة أو المتلقي لذلك على الشاعر أن يجـرب كل الأنواع وأن يتخذ المسار الذي يتلاءم معه.

وإنَّ القدرة على كتابة الشعر الحقيقي ووجـود الموهبة يجـب أن يتوافر فيها ثلاث نقاط هي الموهبة، وثراء التجربة، وسقاية الثقافـة. فالموهبة تحتاج إلى سقاية بشكل مستمـر لتتوافر الكينونة الكتابية المبدعة، وتكون النتيجة سليمة، والكيان معافـى. وحتى تصل القصيدة الشعرية إلى درجة الإقناع والحضور.

- أنـت أوَّل مـن كتـب القصـة القصيـرة جداً هل هـذه حقيقة أدبية وتاريخية؟

• للأمانـة التاريخيـة والحقيقـة الصادقـة إننـي أول من كتـب القصة القصيـرة جـداً وذلـك فـي منتصف الستينيات، وقد استعملت لذلك الكتابة والمصطلـح، وتمكنـت أن أحقق نمطاً أدبيـاً جديـداً أثبت وجـوده وحضوره علـى الساحة الأدبيـة والثقافية وعلى المستويـات كافة وإنَّ في حوزتي جملة مـن الآراء التـي تقر بهـذه الحقيقة، ولقد وصلت إلـى أكثر من مئة وخمسة وسبعيـن رأياً لأدباء وكتـاب على غاية الأهميـة، ومن هـؤلاء: الدكتـور نعيم اليافي، والدكتور سمر روحي الفيصل، ويوسف اليوسف ومحمد جمالل باروت وخالد أبو خالد، ورئيس رابطة القصة القصيرة جداً الدكتور جميل حمداوي. وإن هذه الأسمـاء وسواها أسماء هامة فـي مجـال القصـة والأدب والشعـر والنقد.

- هـل أثبتـت القصـة القصيـرة جـداً وجودهـا علـى الساحـة الأدبية والثقافية؟

• إنَّ القصـة القصيرة جداً هي أس الكتابة السردية وجوهر محطات الروي فطبيعة العصـر المتسارعة بمتواليات هندسيـة، تتطلب وجبـة كتابية سريعة مكثفة، يتجسد فيها الاقتصاد والتكثيف ومن أهم شروطها..

انتخـاب المفـردة اللغوية الموظفة توظيفاً جماليـاً، وإنزالهـا في مكانها اللائق والاختصـار والتكثيف، والبلورة المجسـدة لمجمل المعنـى المطلوب،

والقفلــة الحــادة عبر المفارقــة التي تستوعــب الأضداد أو تحتــوي تصادم الأضداد، بغيــة إعطاء ومضة أو شحنة نفسية تشبــه ومضة الكهرباء إلى نفس المتلقي.

فالقصــة القصيــرة جــداً توفــر المختصر الشعــري، أو قصدية تجنيح الصــور الحكائيــة التــي تقــوم على أعمدتها القصــة القصيرة جداً إضافة إلــى شروط إبداعية أخــرى، قد تؤدي إلى أشكال مختلفة، ومتباينة في السرد القصصي.

- هل ترى أن الشروط التي تحدثت عنها فـي القصـة القصيـرة جـداً هي متوافـرة الآن وموجـودة فـي عالمنـا القصصي؟

• إنَّ أصعــب الكتابات السردية هي كتابة القصــة القصيرة جداً لأنها على الرغم مما يعيشــه الإنسان من حالات حياتيــة مختلفة، لابد لها من أن تجسد وجبة قصيرة وسريعة، كمن يجسد كثيراً من القيم الغذائية في حبة صغيرة.

وهــذا يتطلــب براعة فــي الكتابة وسعة فــي الثقافــة، وحساسية ذوقية مرهفــة، وقــدرة على بنــاء المفردات الرشيقة والأنيقة. وهــذا النوع الأدبي لا يلغــي القصــة القصيــرة الأخرى، إضافــة إلى أن القصــة القصيرة جداً موجودة على الساحــة العربية، وهناك عشــرات المجموعــات التي راجت في السوق العربية، وكتبها عدد من الأدباء، والكتَّاب مثــل نجيب محفــوظ، وعبد السلام العجيلي، وحنا مينة، وعادل أبو شنب. وكان لها حضورها المختلف عن القصة ذات الشكل الآخر.

- هـل أدت القصـة القصيـرة جـداً القيمـة الفنية والإنسانيـة التي أدتها أشكال القص الأخرى؟

• القصة القصيرة جداً هي ومضة، حالة، أو نبضة عرق، أو قبلة وردة، لكنها لاتستطيع أن تخلق مناخاً درامياً كاملاً، فهي مقتصرة على الومضة، والتجسيد البــؤري لكاميرا الذائقــة الكتابية على مفصــل حياتــي معين، يختلــف تماماً عمَّا يدور في أساليــب القص الأخرى التــي تحتــاج إلــى أســس وشخوص، وحدث ومقدمــة وخاتمة وأساليب فنية مختلفة.

- ما هو مستقبل القصة القصيرة جداً كما يراه محمود علي سعيد؟

• إنَّ التكنولوجيا الحديثة والسرعة المذهلة والسباق الحياتي بكل أنواعه يتطلب هذا النوع من الكتابة، وتأكيد وجود هذا الجنس الأدبي السردي، وكما نعرف جميعاً لقد أقيم للقصة القصيرة جداً كثير من المهرجانات، والاحتفاليات والتظاهرات في جميع عواصم الدول العربية، وقد أنشئت لهذا الجنس رابطة اسمها رابطة القصة القصيرة جداً على مستوى الوطن العربي، ومقرها في المغرب.

القصة القصيرة جداً أدب حقق وجوداً، وكلما استطاع أن يشمل رؤى، وأفكاراً وثقافات سيكون وجوده أكثر أهمية على الساحة العربية، والعالمية. كما أن تجارب هذا الجنس الأدبي بدأت تتطور وتتسع ويخوض غمارها أكثر كتّاب القصة.

- أنت كتبت في نقد الفن التشكيلي، وعلى نطاق واسع، كيف كان ذلك، وكيف تراه في نفسك كشاعر وكاتب قصة؟

• لقد مارست النقد التشكيلي بكثير من الحيوية والنشاط، وذلك على كل أشكال الفن الواقعي والتجريدي وسواهما مما يتشعب عن ذلك، وأحببت هذا الجانب في الكتابة كما أحببت القصة والشعر. كتبت العديد من المقالات في الفن التشكيلي، والتي يربو عددها على مئة وعشرين مقالاً نشرت في الدوريات المحلية، والعربية، ومن الفنانين الذين تناولتهم: جواد سليم وفائق الحسن من العراق، وفريد بلكاهية من المغرب وغيرهم.. وإنني سأبقى متابعاً أيضاً في كتابة النقد التشكيلي لأنه نمط كتابي محبب إلي ويستأهل الاهتمام به.

- أين تجد نفسك بين هذه الأجناس التي تكتب فيها وتتوغل في معطياتها؟

• أجد نفسي في كل هذه الأجناس، وفي موشورها الإبداعي. فأحياناً تتدفع القصيدة، وتأخذني للكتابة بشكل عفوي، وأحياناً لابد من كتابة القصة كما أرى، وأحياناً سعة الاطلاع والاحتكاك بالمثقف، والكاتب والمبدع يجعلانني أكتب في الفن التشكيلي.

لمحة عن حياة الشاعر والأديب والقاص الفلسطيني محمود علي سعيد

• عضو اتحاد الكتّاب العرب.

• رئيس لجنة حلب للاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين.

• رئيس تحرير مجلة المقاومة في حلب.

• محرر في العديد من الصحف العربية مثل مجلة الناقد الثقافية.

• من مؤلفاته في الشعر:

- شمس جديدة في ترشيحة.
- سلاماً أيها الزرقة المسلحة بالبحر.
- بالرصاص يوقع العشاق وصاياهم.

ودواوين أخرى.

• في القصة القصيرة جداً:

- الرصاص والمدفئة.
- المنقل وبطاقة رقم خمسة وغيرها.

• وفي الدراسات:

دراسات في واقع الثقافة العربية.

«من حديث الشِّعر»

عرض وتقديم: سمر الزركي ✽

أكبر من الخلق، سرُّ الخلق الذي لايدرك. معجزته في ذاته معجزة الحياة، إذ الإنسان من صلصال، ثم هو لا أكبر ولا منتهى، فالبدع الذي كان بدعاً في الكائنات يبقى، والعالم بعض صنائعه، بعض مطارفه، وبعض عبقريته التي تحار في أمرها الدنيا.



هكذا حبة الرمل هذه تشمخ على الصحراء، وقطرة الماء تزهو على المحيط، والكلمة صوت كانداياح الرياح، تخفت أمامها الأبواق النحاسية، وتنشق حجب الهياكل، وترتجّ القبب الزرق، المعلقة بأجراس غير مرئية.

✽ كاتبة من سورية.

الأعظم هــذا، أعظم منه إبداعه، سرّه، ولــك أن تدهش أن تبــارك، أن تطرب، ثم لاتبلــغ أن تأتي بمثله، لا بالملك، ولا بالمال أو الجبروت.

الإنسان والفن، وكلّ مجد دونهما صغير، إنَّما همــا كالعين والبصــر، أغلاهما رؤية تعكس الألوان جنــة فراشات، قدرة قادر لا رقية ساحر.

وحيــن نقول الشِّعر، نقــول الفن. نقول الإنســان الذي تــدوِّي في موكبــه الرياح، وتتقدّمــه خيول الزمــن، فالآتي هو الكلمة التي تصــل الأرض بالسمــاء وتترجم عنها لها.

إنَّ ما تقــدّم يختصر في جوهره ماهية علاقــة الإنســان بالكلمة والفــن. جاء في كتاب «من حديــث الشِّعر» للأديبة الدكتورة نجاح العطَّار نائب رئيس الجمهورية العربية السوريــة، تعــدّ الأستــاذة الدكتــورة نجاح العطَّار من أبرز النساء العربيات، فهي قامة أدبيــة وثقافية وإنسانيــة.. تنتمي إلى بيت علم دمشقي عريــق، كان والدها من رجال القضاء والثقافة.

كتبــت الدكتورة نجــاح العطَّار مقالات لا تحصى فــي الأدب السياسي، وأصدرت عدداً من الكتب في الأدب والنقد والسياسة والدراسات المختلفة.

ويعــدّ كتاب «من حديث الشِّعر» الصادر -حديثاً- عــن وزارة الثقافة- الهيئة العامّة السورية للكتاب- دمشــق ٢٠١٥م، المؤلف من أربعمئة وتسع وسبعين صفحة من القطع الكبير أحد الكتب الهامة في نقد الشِّعر.

يضــم الكتاب دراســات ومقالات كتبت بين عامــي (١٩٦٨ و٢٠٠٥م)؛ رصدت فيها الدكتــورة العطَّار التجارب الأدبية المتميزة لعدد من الشعراء الذين تألموا مع شعوبهم، وتخطوا مــا ألَمَّ بهم مــن صعوبات ومحنٍ حباً بأوطانهــم. وإيماناً بانتصار الحق على الباطل..

بداية، قدّمت الدكتــورة العطَّار للكتاب تقديمــاً على غايــة الأهميــة، إذ تحدثت فيه عن الشِّعــر ودوره، مركزة على موضوع الغموض والوضوح في الشِّعر، وهل هو قيمة فنية أم رسالة اجتماعية؟

ويتضح لنا ذلك من خلال التقديم ذاته إذ تقول: «كثير من الحبر والورق أهرق حتى الآن فــي موضــوع الشِّعــر، وبالتحديد في جزء خاص من هذا الموضوع، هو الغموض والوضوح حتى ليخيل إلى القارئ، أننا نعود إلــى تلك المعركة القديمــة التي ثارت في الوطن العربي، حول مفهوم الأدب التقدّمي وغيــر التقدّميّ، وحول الالتزام واللاالتزام، فكانت حصيلتها كلها جملة من التعريفات، لم تغنِ الموضوع كما أغنته الأقلام المبدعة التي كتبــت الأدب التقدّميّ، فقدّمت بذلك مثــالاً له، وكتبــت الأدب الملتــزم فقدّمت

مثالاً له، وكان هـذان المثالان، في النتائج التالية، خير شاهد على مدى مافي تقدمية الأدب والتزامه، من واقعية وصدق وأصالة، ومافي نقيضه من زيف، لأنَّه يتصدى لمهمّة خاسرة، وما في مقولة الالتزام أو عدمه من سفسطة، لأنَّ كلَّ أدب في نهاية الأمر ملتزم على نحوٍ ما».(ص٥)

وذكـرت الدكتـورة العطَّـار أنَّ أنصار الغموض في الشِّعر ذهبوا إلى أنَّهم يريدون جماليتـه وحداثته، فالوضـوح «يبسط هذا الشِّعر، فينفي منه ذلك الإحساس المتوهج الذي يولـده فـي النفس، ويقلصـ إمداء الإيحاءات التي يبعثها ويحلق بها في أجواء الخيال، هذا الزاد الضروريّ للشِّعر، ضرورة الخبـز للبشر، كما ذهبـوا إلى أنَّ الغموض هـو وليد العصـر، فهذا العصـر المركب المعقد المتجزئ الـذي ينعكس في الذات بـكلِّ مواصفاته الغريبـة، لا يمكن التعبير عنـه إلّا بلغة غريبة مثلـه، وبرموز مبهمة، علـى القارئ أن يتخلى عـن كسله، ويشحذ ذهنه كي يتوصل إلـى فهمها والارتقاء إلى مستواها الشِّعريّ.

بمعنى آخر، إنَّ الشِّعر الحديث يحتاج إلى قارئ حديث أو متذوق حديث، في وسعه أن يرقـى بإحساسه إلى تلك الذروة التي يحلق فيها هذا الشِّعر، ليكون بإمكانه أن يستوعبه ويحياه، وإنَّ هذا الشِّعر دون هذا الغموض، يكون تقليدياً يفقد الحداثة التي هي بعض ثورته، إن لم نقل كلّها».(ص٦)

إلّا أنّ الدكتورة العطَّار ترى أنّ الحداثة تكون فـي فهم العصر والقدرة على التعبير عنه. مشيـرة إلى أن ماكس بول فوشيه كان مصيبـاً في قولـه: «إنَّ الحداثـة تعني أن يكون الفنان ابن زمانـه، يتجاوب باستمرار مـع مشكلاتـه، فيعيشها، ويرسِّـخ جذوره فيها، بحيث يصبح هو هي، وهي هو، وهذه المعانـاة الكاملة، هي التـي تمكنه من أن ينشـئ تاريخه، وواقعه، تأليفـاً فنياً، تكون له قيمـة الفن، في التأثيـر المطلوب آنياً، والإضافة الباقية مقبلاً».(ص٩)

ومن ثـمَّ تسأل الدكتـورة العطَّار جملة من الأسئلة المهمـة: «ولو سلّمنا مع الذين يفيضـون في الحديث عـن توافق غموض الشِّعـر، مع غموضـ الحضـارة، فعن أية حضـارة يريـد هـؤلاء أن يعبّـروا؟ ومن يخدمـون بغموضهم هـذا، إذا كان الشعب لا يفهمه؟ ثـم كيف تكون الثورة بالشعر إذا لم يفهم الشاعر نفسه حقيقة الثورة، ودوره المساعـف لا الحاسـم فيهـا؟». وتضيف الدكتـورة العطَّـار: «يقال فـي أيامنا هذه إنَّ الثـورة الثقافية يجـب أن تسبق الثورة الاجتماعية، وهذا عكس للأمور، فدون ثورة اجتماعية، ووطنية تحرريـة أيضاً في مثل ظروفنا، ليس في الوسع القيام بثورة ثقافية،

ذلك أنَّ ملكية وسائل هذه الثورة، هي في يد المجتمع الذي مازلنا غير قادرين على السيطرة عليه، وغير قادرين على استخدام وسائله، لصالح ثورتنا الفكرية.

وعلى هذا يكون دور الثقافة، الإسهام في تنمية الفكر الثوريّ، وفي مساعدته على أن يمتلك نظرية ثورية، دونها ليس ثمة ثورة على الإطلاق. وكي يقوم الأدب والشعر خاصة، بمثل هذا الدور في التوعية والتحريض، لابدَّ أن يكون مفهوماً من الذين يتوجه إليهم في الأصل. ومن هذا المنطلق، فإنّ الخلاص في الشِّعر لا يتم إلّا إذا كان الشِّعر أداة خلاص، وإلّا إذا كان، حسب تعبير بول إلوار، قادراً على منح الرؤية للناس.

لقد قال نيرودا: أنا شاعر لأنني أستوحي الوطن والشعب.. لأنني أعبِّر عن الحقيقة الوطنية، والمطامح الشعبية، وجميع ما يعتمل في هذه المطامح، وغيرها، من نضال وإخفاق، ومن أمل ويأس وثورة.

وكان الذين يتوجه إليهم نيرودا يفهمونه ويحبونه، كما نفهمه نحن ونحبه، ولم يكن شعره يتسم بالغموض أو يغص بالرموز المغلقة، وإلّا لما كان شاعر شعبه، ولما أقبل عليه شعبه بالذات، وأحبه.

ذلك أن الغاية من الشِّعر في كلّ الظروف، هي توصيل ما يقوله الشاعر إلى الناس فماذا يقول الشعر.. وكيف يقول؟»..(ص١١-١٢)

هنا تستشهد الدكتورة العطَّار بما كتبه ناظم حكمت من سجنه في «بورصه»، عام ١٩٤٥، إلى صديقه كمال طاهر يقول:

«فيما- يخص كلّ عمل فنيٍّ- وسواء تعلق الأمر بالأدب أو فن العمارة أو الموسيقا، فإن السؤال الذي أطرحه على نفسي في آخر المطاف هو: ماذا يقول هذا العمل؟ وكيف يعبر؟ وهذان السؤالان لا ينفصلان عندي.

ماذا يقول هذا العمل؟ إنَّ هذا السؤال هو العنصر الحاسم، والعنصر الحاسم الآخر هو كيف يقوله؟ وأنا أقدر قيمة العمل حسب الجواب عن هذا السؤال. ولا شك أنه من الطبيعيّ والضروريّ طرح هذا السؤال بشكل مجسَّدٍ على ألّا ننسى السؤال الآخر: أين؟ في أي عصر؟ وعندما أطرح على نفسي هذا السؤال بالنسبة إلى شعرائنا الشباب فإنَّ الجواب الذي يقدّمه معظمهم، في كثير من قصائدهم، ليس مُرْضياً في رأيي. إنَّهم، في الفترة الأخيرة خاصة، يتعلقون فقط بالشكل.. صحيح أن ما يقولونه ليس سيئاً، أي إنَّهم يقولونه بمرح ورفيف وذكاء، وبشكل مُرْضٍ، ممتع، أمّا بالنسبة للسؤال الأساسيّ: ماذا يقول العمل؟ فلا جواب. إنَّهم يصرحون: «نريد

أن نكتب عن الذات.. عن السُّكْر والموت» أو يقولون: «ماذا تريدون؟ لن نكون أبداً تكراراً لغيرنــا»، وهــذراً من هذا النــوع، وعندما نأخذ بالاعتبار مستواهم الاجتماعيّ، يمكن فهــم الأسباب التي تقودهــم إلى مثل هذه الضحالــة. غير أنّ تفسير الشيء هل يكفي لتبريره؟.. أنا أعرف تماماً أن الأشياء التي تستحــق أن تقال، ينبغي ألّا تكون بالضرورة أشياء خارقــة عظيمة، ولكــن قصيدة ما، والقصيدة بنية واحــدة، تعبّر عن مثل هذه الفكرة: «انتهى أمري» أو «لقد ضعت» بشكل سطحــيٍّ، وإن كان لبقــاً، لا تقول في رأيي أشياء تستحق أن تقال».

ويضيــف ناظــم حكمت فــي الرسالة نفسها أيضاً: «قرأت مؤخــراً مقالاً لأستاذ فرنســيٍّ يهاجــم إيليا اهرنبــورغ. يبدو أنَّ اهرنبــورغ، فــي معرض مديحــه للشعراء الجــدد الذيــن تغنــوا بالنضال، مــن أجل استقــلال فرنسا الوطني، قد قال: إنّ هتفة من هتفاتهــم تساوي قصيــدة بكاملها من قصائد (مالارميه) وعلى هــذا فإنّه اعتبر الشّعر أداة مــن أدوات الدعاية، لذلك فإنّ الأستاذ الفرنسي غضب غضباً شديداً. لقد فكرت بالأمــر، وإنه لشيء غريب أن شعراء من مثل بودلير ومالارميه أو فيرلين، عندما يقولــون لنــا إنّ الموت أجمل مــن الحياة، أو يستسلمــون للأقــدار، أو يتحدثــون عن الحنين إلى الماضي، أو الشوق إلى حبيبتهم الخائفة، أو ميزات السكْر، وعندما يجترون أمثال هذه الأشيــاء بلباقة، فإنّ ذلك كلّه لا يشــكل دعاية، أمّا إذا أكد شاعر عكس هذه الأشياء، وبموهبة مماثلة لموهبتهم، فإنه ليس سوى داعية!!».(ص١٢-١٣)

وفي نهايــة التقديم تتســاءل الدكتورة العطّــار، «هل أقــول إنَّ الأمر عندنا يجري تقريبــاً على هــذه الصــورة؟ كلُّ من يكتب شعراً غامضاً، مستغلقاً، عصياً على الفهم، لا يقــول شيئاً أو يجترّ أشيــاء قديمة، فإنه شاعــر حديــث، وكلُّ من لا يلجــأ إلى هذا الغموض، وهذه التعليمــات، وهذا الترميز المبهــم المعاد، فإنه شاعــر تقليديٌّ، حتى لوكان يملك موهبة مماثلة لموهبتهم ذاتها.

إنَّ المسألة قد قتلت بحثاً وحواراً، وليس المهم أن نقول الشعر، بل المهم: كيف نقوله وعمّ يعبر؟ وهــل يصل إلى الناس، أم يكتب للخاصــة، أو لخاصــة الخاصــة، كما هي الحال؟ وتلك هي المسألة كلُّها».(ص١٤)

ومن ثم تأتي الدراسات التي كانت أقرب ما تكون من طوق اللؤلؤ الأصيل الذي يحار الواصف من أين يبدأ..

اثنا عشر شاعراً، تطاول أسماؤهم عنان السماء.. وهم (حسب ماجاء في الكتاب):

• **خير الدين الزركلي..**

شاعر الوطن والغربة والحنين الذي «أضاعته بلاده، وأضاعها هو، خسرته شاعراً، وخسرها شعراً، وتخلدت من حياته فترة التطلع والنضال.. كلّ شيء له ثمن، وربما كان أثمن ما يجنيه الشاعر، في انكسار الأنانية وعظم التضحية، أغاني تتخلد، وتكون الطموح والزهو والتأبي..».(ص١٧)

وفي حنينه إلى الوطن يقول:

العين بعد فراقها الوطنا
لا ساكناً ألفت ولا سكنا
ريّانة بالدمع أقلقها
ألّا تحسّ كرىً ولا وسنا
ليت الذين أحبُّهم علموا
وهم هنالك ما لقيتُ هنا
ما كنت أحسبني مفارقهم
حتى تفارق روحيَ البدنا

❁ ❁ ❁

• **وصفي القرنفلي.. الرفيف، والبركان!**

«لقد توهج القرص.. طلع من أفق الشروق وتصاعد، ثم جنح إلى الغروب.

أيُّها القرص المنحدر عن قوس السماء الأزرق، ماذا يغريك في أفق الغروب؟».(ص٥٧)

ومن أشعاره قوله:

كلا فما شعبي بمستسلم
كلا ولا شعبي بمستعبَدِ
أقوى من الموت تجاليدُنا
إن يسجد الفولاذ لم نسجد

❁ ❁ ❁

• **بدويّ الجبل (محمَّد سليمان الأحمد)... هوامش على ديوان البدوي**

«بينه وبين السماء، كانت الكلمة حواراً، ولم يهب بروقها، لأنه لا يجوز لمن يحاورها، أن يخشى المصير الذي لا مهرب منه، فالعوسجة الملتهبة بنار الحق، تتأبى على المطر، تحرقه، تعديه بنارها، فيغدو، بدوره، مطراً نارياً، لأنه هكذا، في الإرادة التي تعلو على الضرورة، يصبح الفعل الإرادي، العلوي، أكبر من كلِّ محاولات الإنسان إذا لم يكن مع مسيرة الزمن والتاريخ، وكي يكونهما، فإنه ابن النار، والضرورة، والعصر، يدعى، وعندئذ بيديه المدمّاتين، يقطف زهرة الخلود متطلعاً أبداً إلى كينونة من خلال الشعر».(ص٩١)

يقول الشاعر بدوي الجبل في تمجيده الشعر عامة:

أيطمعُ الشِّعر بالإحسان يغمره
والشِّعر يغمرُ دنيا الله إحسانا
لو شاء عطّرَ هذا الليلَ غالية
ونضّر الرملَ أشواقاً وريحانا
لوشاء نمنم هذا النجمَ قافية
ونغّم الفجر أحلاماً وأوزانا

لو شاء أنزل بدر التمِّ فاحتفلت
به الندامى سراجاً في زوايانا
ولو سقى الشمسَ من أحزانه نديتْ
على هجير الضحى حباً وتحنانا

وعندما سئل عن الغزاة أجاب:

سألوني عن الغزاة فجاويت
رمال تُسفى ونحن ثبيرُ
سألوني عن الغزاة فجاويت
ليالٍ تمضي ونحن الدهور

❁ ❁ ❁

• محمد مهدي الجواهري.. وقفة مع الشاعر

«كان الجواهري لا مؤرخاً فقط، بل تاريخاً أيضاً، بكلّ المعنى الجليل للتاريخ، وفي وسعنا أن نستخرج من سفره الشعري الضخم وقائع صحيحة، مجلوة كالمعدن النادر، بصدق المشاهدة والمعاناة، لأنها وقائع شعب معمد بالدم، وأمة خاضت كفاحاً عنيداً طويلاً، ومازالت على درب الكفاح الطويل تسير» (ص١٣٧)

وهو كما يقول:

أنا «العراقُ» لساني قلبُه.. ودمي
فراته وكياني منه أشطارُ

❁ ❁ ❁

أتعلم أنّ جراح الشهيد
تظل عن الثأر تستفهم
فقل للمقيم على ذُلِّه
هجيناً يسخَّر أو يُلجم
تقحم، لُعنتَ، أزيز الرصاص
وجرِّبْ من الحظ مايقسم
وخضها كما خاضها الأسبقون
وثنِّ بما افتتح الأقدم
فإما إلى حيث تبدو الحياة
لعينيك مكرمة تغنم
وإما إلى جدثٍ لم يكن
ليفضله بيتُك المظلم

❁ ❁ ❁

• إلياس أبو شبكة.. الشاعر المتمرِّد

«الكبرياء والحب والألم، وشعر كلماته حرائق، والأفاعي فحيح في السطور، والليل والفجر وحلم يترامى على أطراف الأفق، وصلوات بعد ذلك، وناقوس قرية يدق في دير للراهبات». (ص١٧٥)

وعن نفسه يقول:

أعشقُ الصِّدقَ لا أقولُ سِوى الحَقِّ (م)
وَلَو جارَ في الحَياةِ عَلَيّا
في فُؤادي القَوِيِّ روحُ إِلَهٍ
وَلَو أَنّي وُلِدتُ مِن أَبَوَيّا
فَالسَماءُ الَّتي أَنارَت شَبابي
وَضَعَت مُهجَتي عَلى شَفَتَيّا

❁ ❁ ❁

• مصطفى جمال الدين: القلعة الشعرية الراحلة في الغسق!

«كان قلعة شعرية، وكل قول فيها، أو عليها، أو من حولها، يبدو شاحباً في اللون، أمام زهو القلعة في تلاوين الشفق والغسق، ويبدو صغيراً، أمام عظمة القلعة، في الكبر والكبرياء معاً».(ص١٩٧-١٩٨)

لم يمت شاعر المعاني، ولكن
هوّمت في ضلوعه الألحانُ
لم يمت شاعر المعاني، وفي كلّ مهبٍّ من روحه ديوان

❁ ❁ ❁

• أمين نخلة.. صِنّين والأرز ونخلة وجبران!

«لبنان! يا لبنان، أنت هو، في حمرة الشفق والغسق، والشعر والشاعر معاً، فمن نبتك كان الأرز، ومن صخرك كان صنين، ومن حَرّفك كان جبران، ومن لبنانك كان لبنان، وهذا حسبه كي يتيه على الدنيا، وهذا كفاؤه والنعمى، عبقرية شمخت، ونبوغاً تتابع نبوغاً، وقد كنت أنت، لذلك، وكان الأرز وصنّين وجبران، دوياً في تداول السمع، وكلماً في صمت البرية، ومن أجل هذا كنتم جميعاً في الخلود جَلْوته، وصَبْوته، واشتياقه، وسحره أيضاً».(ص٢١٦)

ومن قصيدة «الوردة الحمراء» هذه الأبيات:

هذا بريد الهوى وافى بلا ورق
يروي ويسرد عن أيامنا العتُقِ
كأنَّ وردتك الحمراء قد قطفتْ
من موسم الصدر أو من جنة العنق
يا حسنها، وهي تروي عن منازلها
وطيب ما كان بين الدور، والطرق

❁ ❁ ❁

• عمر أبو ريشة.. النسر الذي هوى!

«لقد امتلك عمر قدرة خارقة، على استخدام الكلمات العاصفة، بهالاتها، وإيحاءاتها، وظلالها، وجمع النقيض إلى النقيض فيها، بكبرياء الصرامة، ليخلق منها كوناً شعرياً، يعطي للخيال أن يجوب آفاقاً، ويستعيد تواريخ وأحداثاً وذكريات، ووقائع ويوميات، بشغف فريد، يخاطب الفكر كما يخاطب الروح، ويذهب بساحات الشعور إلى المدى الذي يريد، وتأتي معانيه الكبيرة متشحة ببرد من لهب العنفوان، لتكون انبجاساً فنياً، يرسم لوحة فائقة، منورة بجمالية اللون، وإيماءات الحياة أرقها وأقواها، وأغناها ألواناً، وأصدقها إيقاعاً، حين يرتبط الإيقاع بالمعنى... فيه إحساس وجودي بالكون، وارتباط أو التحام أو توحّد، على الأصح به..».(ص٢٣٥)

يقـــول الشاعر عمر في النضال وموقفه من الحق:

وقوفاً يرانا الموت نخفي جراحنا

وليس يرانا ركّعاً بانتظاره

❁ ❁ ❁

ليس عاراً إنْ في النضال عثرنا

إنّما العار في اجتناب النضال

❁ ❁ ❁

وماهان لي في موقف العزِّ موقف

ولا لان لي في جانب الحق جانب..

❁ ❁ ❁

• محمد كامل صالح.. زهرة إلى مدخل الروض

«النســـر الـــذي ملعبه عرضـــ السماء، الطليعـــة التي تصبغ راياتها بدمائها وتشعل قصيدهـــا بوهج حياتها، وتكـــون، من بعد، شرارة النار التي تتحدى الظلمات. وهو، في كل ذلك، وعلى واقعيتـــه الواضحة، مخترع يبتكـــر صوره الشعرية مـــن خلال معطيات فنية، شارك فـــي صياغتها الآخرون، الذين يتحدث عنهم، أو يتحدث إليهم».(ص٢٥٣)

وإلى أمه يقول:

يا أم منذ فتحت القلب

لي سكناً، أقام طفلك

فيه.. غاب أم حضرا

فكيف يدخل ما بيني

وبين أنا.. موت

ويسدل.. فيما بيننا الستر؟

❁ ❁ ❁

• ناظم حكمت.. المرأة في شعر ناظم حكمت

«كان يستشعـــر أنه بيـــن الناس، ويدعو طيوفهـــم إلـــى زنزانتـــه، ويتحـــدث إليهم ومعهم. وكان طيف المرأة، زوجته، وحبيبته ورفيقة دربه كمـــا كان يدعوها، في مقدمة الزائريـــن، يسامره ويناجيه ويعـــاوده بغير انقطاع».(ص٢٦٥)

و«إنَّ المـــرأة عنـــد ناظـــم حكمت لم تكن متوازية مع خـــط القضية كما يقول الذين درسوه، كانـــت أساس القضية، لها ومعها كل الكلمـــات، وعلى طريق الكفاح الصعب، في الواقـــع والخيال، كان يقول نحن الاثنين نعلم يا حبيبتي، فقد علمونا كيف نجـــوع ونبرد، ونقضـــي من التعب، وكيـــف نعيش منفصليـــن ومتصلين معاً. إننـــا لم نبلـــغ حد القتل. لـــم يتهيّأ لنا أن نموت، ولكننا نعلم، كلانا يا حبيبتي يعلم، ونستطيع أن نعلّـــم الآخرين، النضال في سبيل قومنا، ومحبة كل يوم أقوى، ومحبة كلّ يوم أفضل».(ص٢٦٥-٢٧٦)

يقــول ناظم لحبيبته وهــو وراء قضبان الزنزانة:

الباب مغلق هناك،
فيتحتم اقتحامه،
إذ تتحتم رؤيتك يا حبيبتي
لتكن الحياة مثلك جميلة،
ولتكن الحياة صديقة وحبيبة مثلك.

❁ ❁ ❁

• خوسيه مارتي.. الحالم بإنقاذ العالم.. «العدالة إلى جانب العرب»

«مارتــي واحــد مــن الذين حلمــوا أو يحلمون بإنقــاذ العالم. بــدأ بنفسه، سفح دمه علــى أعتاب أفكاره». حسب رأي فيدل كاسترو (ص٢٨٣)

«بــدأ خوسيه مارتي يكتــب عن العرب، وأمورهم وشؤونهم، وما يتعرضون له، بكثير من التعاطف والإعجاب منــذ أن كان شاباً في الثانيــة والعشرين من عمــره، أي عام ١٨٧٥م.

ارتبط، فكراً وشعوراً، بالفئات الأضعف، بمن يحتاجون إلى دعمه، وخصّهم بشعر من شعره، والكثيرون يحفظون له هذه الأبيات:

مع فقراء الأرض
أريد أن أتقاسم قدري
فالجدول في الجبل
يبهجني أكثر من البحر».(ص٢٩٧)

«ويستمــر فــي الإصغاء إلــى الجدول الوديع، وهو يهمس في الصمت العميق:

أحب الأرض المزهرة
إسبانية كانت أم إسلامية
ففيها شقّت تويجها
زهرة نحيلة..».(ص٣٠٠)

❁ ❁ ❁

• بابلـو نيرودا.. مجد قـارّة على درب الأمل والكفاح..

«أكبر شاعر في القــرن العشرين، وفي كلّ اللغــات». حســب رأي غابرييل غارسيا مركيز.

«نيرودا كان كبيراً في نفسه واهتماماته، كما كان كبيراً في شعــره وعبقريته وفرادة إنسانيته، في حمله راية الكفاح على امتداد كوكبنــا، وفــي انسراح فكــره وشعوره على قضايا العالم، اللاهــب منها بشكل خاص، وعلــى المصيــر الإنسانــي، وفــي أميركا اللاتينية، وفي أرجاء الأرض، سعياً منذوراً لتحقيــق العدالة، ورفــع الظلــم، وتوسيع مساحة الحرية، وإسقاط العنصرية، وقوننة المساواة، ومشاركــة الآخرين شقاء العمر، وعذابــات البؤس، وآلام الجــوع والحرمان والاضطهاد».(ص٣٠٦)

و«المثقفــون فــي نظــره مسؤولــون، وكلماتهم ينبغي أن تؤدي رسالتها، في الدفاع عن كرامة الناس، رجالاً ونساءً، والعمل من أجل توفير الحياة اللائقة لهم.

الشاعر ليس «إلهاً صغيراً» -يقول- ولم يتم اختياره من قبل قدر صوفيٍّ. إنَّ واجبه، كما كان يردد، أن يكون صوت كلّ الذين لاصوت لهم، ولم يداخل موقفه غموض تحت وطأة ظرف من الظروف».(ص٣١٣)

وجاء بعد هذه الدراسات مقالات في التكريم والتأبين لشعراء جمعهم حب الوطن، والهم الإنساني. لهم موقعهم المؤثر في عالم الشعر والفكر. وقد أتى ذكر أغلبيتهم في قسم الدراسات وهم: الشاعر شفيق معلوف، والشاعر سليمان العيسى، والشاعر عبد الله يوركي حلّاق، والشاعر بابلو نيرودا، والشاعر عبد الله غانم، والشاعر أحمد فؤاد نجم، والشاعر محمد مهدي الجواهري، والشاعر معين بسيسو، والشاعر خير الدين الزركلي، والشاعر أبو سلمى، والشاعر عمر أبو ريشة، والشاعر مصطفى جمال الدين، والشاعر بلند الحيدري والشاعر عبد الوهاب البياتي.

الكتاب عبّر تجواله في رحاب الشعر (ناقداً)، يضع النقاط على الحروف من زاوية حادة، كما قد يراها بعض المهتمين بالشِّعر، وماتعة للبعض الآخر، تسر سرائر النفوس.

عبّرت الدكتورة نجاح العطار، بنظرتها الموضوعية العميقة الناقدة للقضايا الثقافية والإنسانية، في تقديمها للكتاب «من حديث الشِّعر»، عن موقفها من الأدب والشِّعر، ومدى دورهما وأهميّتهما في الحياة والمجتمع.

ورأت أنَّ الأقلام المبدعة هي التي تغني أيّ أدب، لأنَّ كل أدب في نهاية الأمر ملتزم على نحو ما.

وأعطت الأديبة الدكتورة نجاح العطار بأسلوبها الأدبي رفيع المستوى، والمؤنق الجميل، الكتاب طابعاً خاصاً ومميزاً، يسمو إلى فضاءات الشعر وربما يتخطاه...

وأخيراً، إنَّ الشعّر الجميل.. هو جميل في أي عصر كان، ولاسيما إنْ عبّر عن الذات الإنسانية وهمومها وتطلعاتها بصدق وموضوعية..

وجميل ما رأته الدكتورة نجاح العطار، أنَّ المسألة كلّها تكمن في «كيف يقال الشِّعر؟ وعمّ يعبّر؟ وهل يصل إلى الناس، أم يكتب للخاصة، أو لخاصة الخاصة؟».

نافــذة على

إصــدارات جــديدة

إعداد: حسني هلال ❁

شذى الروح الشعري



صدر مؤخراً للشاعر الدكتور محمد سعيد العتيق ديوان شعر بعنوان (شذى الروح شعري - وجدٌ وعشّاق شآم)..

تضمّن الديوان خمساً وثلاثين قصيدة من الشعر، تنوعت أوزانها لتشمل معظم بحور الشعر ولم يحتو الديوان فن الشعر فحسب بل زُين بلوحات برسم الخط العربي للفنان بديع جحجاحٍ وقد تشكلت كلُّ لوحة من حروف عنوان القصيدة التي تليها. وقد آثر الدكتور محمد أن تكون اللوحات برسم الخط العربي من دون سواه من فنون الرسم للدلالة على أهمية تعلقنا

❁ أديب وصحفي سوري.

بلغتنـــا العربية الجميلة ووجوب تقديرها في زمن يعصف بكلٍّ ما هو جميلٌ وأصيل. وقد بدا الديوان كمحرابٍ تُعانقُ فيه غزارة الألوانِ التنوع في سِحر البيان.

تنوعــت مواضيع الديوان بين القصائد الوطنية التــي تغنَّى فيها الشاعر عتيق بوطنه سورية، وبين قصائد الغزل التي اتسمت بالعذوبة والسلاسة ممزوجة بجزالة الألفــاظ، ولا يستطيع أحد التمييز بين تلك القصائد التي كتبها عتيق حين كان في بـــلاد الغربة وبين تلك التي كتبها وهو هنا، فهو أبداً ودوماً في اشتياق لهذا الوطن، بعيداً عنه كان أم قريباً منه.. جاء في قصيدة (عَينَايَ في وَطني نَجْمَانِ تَسْكُنُّهُ)

هَـــارُونُ كَــانَ رَشِـيـداً حَـازِمـاً بَـطَلاً
هَـلْ فِي زَمَــانِي رَشِيدٌ عَـادِلٌ حَكَمُ
ضُرُوبُ حِقْـدٍ أشَاعُوهَا عَلى وَطني
وَخَـطَّطـوا، ظَنُّهُمْ لا بُـدَّ نَنْقسِم
وَرَاعَـنَــا غَـدْرُ أَهْـلِـيـنَـا وَحِـقْـدُهُـمُ
خِيَـانَةٌ مِـنْ جِـدَارِ البيتِ وَيلهُمُ
صَمْتٌ عَلى صَهَوَاتِ الخَيلِ يَلجُمُهَا
والسَّيفُ في غِمْدِه-يَا حَيفُ-يَلْتَحِمُ

ومما ميز الديوان عن غــيره وجود قرص مُدمج (CD) يحوي قصائد الديوان مسجلةً بصـــوت الشاعر محمد سعيد العتيق ترافقهـــا موسيقى تنسجم مع الحالة والمشهدية التي تبوح بها كل قصيدة، من إعداد وتنفيذ المُلحن الأستاذ بديع عيسى، وإخراج راما حيمور.. وجمع الديوان بذلك بين فن الرسم والموسيقى والشعر ليشكل حالة فنية منسجمة قلَّ مثيلها.

❁ ❁ ❁

«سوناتا»

مجموعة شعر: سوناتا (عذوبة تبعثر الكستناء)

للشاعر: أوس أحمد أوس

إصدار: الهيئة العامة السورية للكتاب - دمشق

تصميم الغلاف: رؤى أحمد حسن

لوحة الغلاف: أحمد يزبك

صـــدرت المجموعة حديثاً في دمشق، تقع في/٢١٥/ صفحة قطع وسط، وتتألف من /٣٦/ «قصفة» شعر من عناوينها: سوناتا ضحكتنا العالية، الحياة تلك الهشاشة العذبة،



قرابــة قرنفلة مــن الآن، كشغــب جميل، كن ثوبي حبيبي، رماد الأسئلة، رائحة الياسمين، كائن الأجوبة، طفلتــي، براءة، فراشة، ظبية. كعادته..

من شرفته الممطرة بالضــوء والياسمين، محصنــاً ومحروساً بثــلاث أشجار على ضفة القلب يظللن عمره:

أمٌ حنون..

زوجة ماطرة..

وابنه مثل عطر جسور..

يــراود الشاعر أوس أحمــد أسعد اللغة، في ترحالها الأبدي، بين الحسي والتجريدي، والتيــه في توهانه، بين الصمت والإيحاء والتكثيف، يتطلع، وبغير قليل من نُبل القصد، وشــرف المسؤوليــة، وأمانة النقــل، إلى أن يوصل لنا، صدى لحــن. أو عذوبة «سوناتا» يعزفها القدر على أوتار روحه.. سوناتا اسمها رغداء أو «رغدون».

❀ ❀ ❀

حكايات شعبية



حكايات شارل برّو

جمع وتأليف: شارل برّو

ترجمة الدكتور: محمود المقداد

رسوم: أنور الرحبي

الهيئة العامة السورية للكتاب

-دمشق- ٢٠١٤م.

بشفافية /٢٥٦/ صفحة متوسطة القطع، وبـ/١١/ حكايــة شعبية من الأدب الفرنسي، وبترجمة الدكتور محمود المقداد، تتقدم الهيئة العامة السورية للكتاب مــن قرائها الأعزاء، بالحكايات التالية:

غريس ليز، الأماني التافهة، جلد الحمار،

اللحية الزرقاء، الجميلة في الغابة النائمة، السيد القط، القبعة الصغيرة الحمراء، الإبهام الصغير، الخيّات، سندريللا، ريكية ذو الشرّابة..

من مقدمة المترجم:

لكل شعب من الشعوب في العالم أساطيره وخرافاته وحكاياته الشعبية، التي يستمتع بها صغاره وكباره، ويستخلصون منها الدروس والعبر، التي تفيدهم في سلوكهم وحياتهم عموماً.

وقد يكون لكل مجموعة من الشعوب المتجاورة، أو المختلط بعضها ببعض، أساطير وخرافات وحكايات متقاربة..

❁ ❁ ❁

ظاهرة العنف

الكتاب: ظاهرة العنف في الخطاب الروائي العربي

الكاتب: عزت عمر

الصدور: عن دار الصدى الإماراتية



العنف كظاهرة تاريخية رافقت الإنسان منذ بداياته الأولى، هي موضوعة الكتاب الرئيسية، التي حاول الكاتب السوري «عزت عمر» مقاربتها في إصداره هذا.

أما وقد توسع في بحثه مستجلياً العنف في الخطاب الروائي العربي، فلكي يتمركز على موضوعه بأكبر قدر من الدقة والإحاطة، مبتعداً عن التعميم والاستطراد، اللذين كثيراً ما يصلان بالكاتب إلى البلبلة وبالمكتوب إلى الترهل، وقد عاضد الكاتب في مسك خيوط بحثه ودقة ترتيب أفكاره وتعابيره، أنه أديب وناقد أدبي، له كتب عدّة، عالج فيها، قضايا واهتمامات أدبية مختلفة.

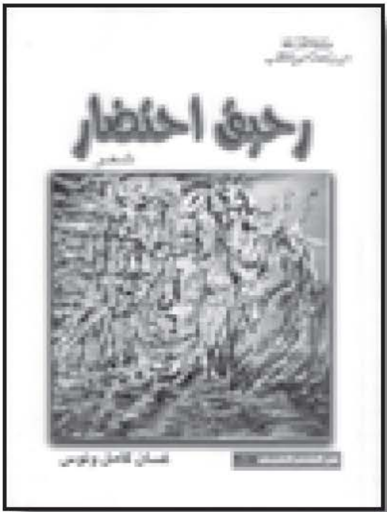
قسم المؤلف كتابه الذي يعدُّ /٢١٩/ صفحة من القطع الوسط، إلى سبعة فصول تحت العناوين التالية:

١- تجليات العنف المؤسس.

٢- العنف المؤسس والاغتراب السياسي.
٣- جدلية الذات والآخر.
٤- العنف الرمزي الاجتماعي.
٥- أنماط العنف في المدينة العربية.
٦- تنويعات على العنف في الرواية الإماراتية.
٧- العنف والمقاومة في فلسطين المحتلة.

❁ ❁ ❁

جديد «ونّوس» الشعري



عن الهيئة العامة السورية للكتاب، صدر مؤخراً مجموعة شعرية جديدة، للكاتب المتنوع «غسان كامل ونوس» بعنوان «رحيق الاحتضار» يتألف الكتاب من /١٨٣/ صفحة من القطع الوسط، مطرزة بـ/٣٥/ عنواناً، منها:

عند باب الرحيق، ظل السحاب، بخور السماء، رحيق احتضار، اصطبار، مسكين، منارة، وسواس، رهان، تلويح، احتلام، احتمال، جمال، توبة، بوق، وتر، موقدة، غروب..

ككتاباته دائماً، في تأثره بمجريات الأحداث، واكتوائه بحروق الضحايا والمظلومين، وبلغته ذات اللهجة الرمزية التضمينية الناقدة، يتقدم «ونوس» بمجموعته الراهنة، التي صمم غلافها «أحمد يزبك» ووضع لوحتها (علي حمدان).. يتقدم الشاعر بـ«احتضاره» منّا، متدثراً عراء انكسارنا، تاركاً لنا من زهر حياته «رحيق» من مقطوعة «غروب»:

تـوالـتْ طـقـوسُ الحـدادْ
ولـوّحَ في آخـرِ الحشـرجاتِ
النـجـيـع
كأن الشعاعَ الأخيرَ يلوذُ بعريي
كأني بقرصِ الغيابِ أعوذ
ومـا مِـن مِـدادْ